الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
مركز كربلاء للدراسات والبحوث

٢

التنمية البشرية في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

طلال فائق الكمالي



التنمية البشرية في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

طلال فائق الكمالي



صدر عن المركز

1. الحركة الادبية المعاصرة في كربلاء المقدسة.
2. دليل كربلاء السياحي المصور.
3. دليل كربلاء الآثاري.
4. مدينة كربلاء (الدليل التعريفي).
5. الاقتصاد الاسلامي والفقر.
6. التنمية البشرية في القرآن الكريم.
7. اهل البيت في نهج البلاغة.
8. الدرة البهية في فضل كربلاء وتربتها الزكية.



رسالة المركز

إيماناً منا بأهمية التراث الحضاري لمدينة كربلاء المقدسة لما ينطوي عليه من قيمة علمية ومعنوية، يسر إدارة مركز كربلاء للدراسات والبحوث التابع للعتبة الحسينية المقدسة -دعوة جميع الباحثين والمحققين- ممن لديهم نتاجات علمية تغني مساعينا الرامية لحفظ تراث مدينة كربلاء ودعم كل مامن شأنه تطوير واقعها المعاصر لغرض طباعتها ونشرها ضمن سلسلة اصدارات المركز آملين ان تجد رسالة مركزنا هذه صدىً واسعا في نفوس اهل العلم والتحقيق.

إدارة المركز

التنمية البشرية في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

التنمية البشرية في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

تأليف

طلال فائق الكمالي



الكتاب : التنمية البشرية في القرآن الكريم

تأليف : طلال فائق الكمالي

الطبعة : الطبعة الأولى

سنة الطبع : ١٤٣٥هـ - ١٤٣٥ م

جمهورية العراق \ محافظة كربلاء \ مركز كربلاء للدراسات والبحوث في العتبة الحسينية المقدسة

رقم الهاتف

+٩٦٤ ٧٦٠٢٢٥٣١١٠ ❖ +٩٦٤ ٧٧١٩٤٩١٢١٠

www.c-karbala.com

info@c-karbala.com

karbala.center1@gmail.com

karbala.center1@yahoo.com



صدق الله العلي العظيم

{سورة الكهف آية ١٠}

المحتويات



الإهداء

إليك دون غيرك .... يا آبن فاطمة البتول .

لا لشيء .... إلا لأنك قرآن تنير العقول .

ولأنك .... إمام تواصل بعد الرسول.

إليك يا من اُستمطرت من نحره

آيـــات السماء

وقيم وإبـــاء

وهمم وعطاء

حينها .... نعم حينها كان ختام النزول .

إليك يا أمة الشموخ.. من عبدٍ عاشقٍ خجول .

يسعى بكل جوارحه .... يريد إليك الوصول .

محبك يا سيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

يعنى مركز كربلاء للدراسات والبحوث التابع للعتبة الحسينية المقدسة بنشاطات عدة منها نشر المؤلفات الحائزة على درجة السبق في مضمارها أو في مجال العلوم المبحوث فيها، فهو معني برعاية واحتضان الانفرادات الفكرية التي تُنضّج الموروث المعرفي لدى القارئ الإسلامي والعربي محاولاً النهوض بالمستوى العلمي لدى المتلقي .

وما هذا المُؤَلَفّ الذي عنوانه (التنمية البشرية في القرآن الكريم – دراسة موضوعية) إلا واحدةً من تلك المؤلفات المنفردة التي اتسمت بالموضوعية والاصالة من حيث الشكل والمضمون، فهو في منهجه كان غاية في الدقة والاكتمال القائم على اسس علمية اكاديمية رصينة من حيث الاقتباس والاشارة من مصادر ومراجع علمية معتمدة، ناهيك عن اعتماده على مناهج في التحليل والاستقراء والاستقصاء القائم على الموضوعية البحتة، هذا من حيث الشكل أما من حيث المضمون فنستطيع أن نقول إن هذا المُؤَلَفّ كان متميزاً في تأصيله لموضوع التنمية البشرية في القرآن الكريم باعتباره أحد أهم ركائز المنظومة الفكرية القرآنية، إذ أسس لنظرية علمية جديدة قائمة على استنطاق النص القرآني بعيداً عن التأثيرات الجانبية، كما حاول الكتاب أن يعالج مشاكل حضارية تناولها القرآن الكريم منها المشكلات الانسانية والاجتماعية .

فقد استطاع هذا المُؤَلَفّ ان يقدم رؤية عصرية لما قدمه القرآن الكريم من قواعد كلية لنظرية التنمية البشرية ومفهومها وخصائصها ومؤشراتها وميادينها ومبادئها

واهدافها معالجاً في ذلك لمشاكل حاولت الفلسفات الأرضية إيجاد حدود لها ولم تفلح .

وقد نوقش هذا المُؤَلَفُ باعتباره رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الفقه - جامعة الكوفة بتاريخ ٢٦/ ٦/ ٢٠١٣م ، وبعد مناقشة طويلة حازت على درجة الامتياز مع الطبع على نفقة الجامعة، وقد عللت اللجنة إعطاءها مثل هذه الدرجة لهذه الرسالة لأنها عُدت من احدى الرسائل المنفردة المتميزة التي أخرجتها الكلية على طيلة عقود من الزمن لما امتازت به من ابتكار وأصالة موضوعية، وقد كرمت العتبة الحسينية المقدسة الكاتب بدرع التميز لهذا الانجاز العلمي كما حاز الكتاب ايضاً على درع الابداع من المركز العربي للتنمية البشرية.

ولأجل كل هذا وذاك سعى مركزنا لطبع الكتاب واخراجه اخراجاً فنياً انيقاً وتقديمه للقارئ الكريم طالبين فيه رضا الله تعالى .

مركز كربلاء للدراسات والبحوث



مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله والصلاة والسلام على سيد المرسلين وحبيب قلوب المؤمنين أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله الذي وفقني لكتابة الكلمات الأولى لهذا الكتاب تحت قبة ضريح سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام في يوم عرفة المبارك.

أما بعد :

فإن الإنسان ليقف حائراً مدهوشاً أمام روعة الأعجاز القرآني والسحر البياني الذي أخذ الألباب وعجزت عن مجاراته العقول، فشمرت عن سواعد الجد والاجتهاد في تدبره والتفكر في سوره وآياته لاستخراج مكنون علومه ومعارفه فمذ صدح به الروح الأمين وانزله على صدر حبيب رب العالمين رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم تلاقفه المسلمون بالدراسة والحفظ والتلاوة وهم مطمئنون لمعرفة دقائق أسراره لوجود الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرانيهم يفسر لهم ما أُبهم عليهم ويوضح لهم مشكلاته وغوامضه بعد أن جعل الله سبحانه وتعالى من أولى وظائفه بعد التبليغ والإنذار هي وظيفة التوضيح والبيان كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ النحل ٤٤ ، فقام بمهمة البيان والتوضيح على أكمل وجه وأوكل من بعده هذه المهمة لمجموعة من الصحابة الكرام وعلى رأسهم إمام المتقين وأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان الرائد والمؤصل لما جاء في التفسير وعلوم القرآن بعد حبيب الله رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

واستمرت الجهود كذلك قوية بعد الرعيل الأول من الصحابة في تناول القرآن الكريم بالدرس والتفكر واستخراج الأحكام حتىٰ زمن التدوين يعضد ذلك كله الجهد التفسيري العظيم الذي قام به أئمة أهل البيت عليهم السلام ليشكل ذلك كله جهداً معرفياً متوازي الخطين، كل ذلك لخدمة كتاب الله واستجلاء دلالته ومكامن اعجازه.

فالقرآن الكريم كتاب هداية قد احتوت مضامينه الكبرىٰ علىٰ ثلاثة أركان: هي الشريعة والعقيدة والسلوك وما من رسالة جاءت من السماء إلا هي مستندة علىٰ هذه الأركان اللاتي تضمن عند تحقيقها بشكلها الأكمل الذي أراده الله سبحانه وتعالىٰ أن إعمار الأرض وتشيد الحضارات ، والجميع يعلم أنّ انبثاق الحضارات وانبعاثها وتحديد ملامح نضوجها لا يكون إلا بالتنمية البشرية لقصد الارتفاع بالإنسان من موطن الشهوات ومنزلق الحروب والاعتداءات، لذا يجب ان ننظر الىٰ التنمية البشرية علىٰ أنها غاية سامية يجب الارتقاء بها فلذلك نرىٰ المذاهب الوضعية قد حددت فيما بعد مفاهيم متعددة لهذه التنمية.

وبسبب كل ما تقدم أراد الباحث أن يستنير بالقرآن الكريم من خلال ما يفهم من ظاهره وبمساعدة المفسرين قدماء منهم ومحدثين في استجلاء فهم خاص للتنمية البشرية في المنظومة المعرفية القرآنية موازنة بما عرف في المذاهب الوضعية، لا لأن القرآن الكريم قد سبق تلك المذاهب والنُّظم بأشواط بعيدة في تحديد ملامح التنمية البشرية وفي تطبيق إجراءاتها علىٰ الحضارة الإسلامية بقدر إرادتنا لتأصيل منهج للقرآن متكامل في تحديد مفاهيم التنمية البشرية بوصف تطبيقاتها في النظم الإسلامية المتعددة التي أكدت في كل ميادينها المتنوعة الإنسان فرداً كان

ام مجموعة افراد، لأنها ترى أن صلاح المجتمع وبناء الحضارة لا يكون إلا بصلاح الفرد ولذلك أطلق على أهم تلك النظم وهو النظام التشريعي الذي أساسه الفرد بـ (الفقه الفردي) فكانت هذا الكتاب بعنوان: (التنمية البشرية في القرآن الكريم - دراسة موضوعية).

واستهدف الباحث من دراسته هذه الكشف عن بيان عظمة القرآن الكريم في تنمية الإنسان ومكانته وسعة خياراته وطموحاته ومنهجية تحقيقها، وكذا بيان السبل الكفيلة بانتشاله من غياهب الظلمة والجهل للارتقاء به نحو المكانة المثلى التي يستحقها في عالم متطور ملؤه العلم والمعرفة على وفق مناهج الشريعة الإسلامية الغراء وتحت مظلة الرؤية القرآنية له بإيجاد كل الحلول والإمكانات التي تتناسب مع رفعة العقل السليم بحيث لا تتقاطع مع الشريعة المقدسة.

وأظن أن الباحثين لم يسبقوني لمثل هذه الدراسة - في حدود ما اطلعت عليه- وخصوصاً في مجال البحوث الأكاديمية إلا بالعنوان العام اقصد في النظرية الإسلامية حول التنمية البشرية ولكن يبقى لهم فضل السبق بما أناروا لي الطريق في كتابة هذا الكتاب فجزاهم الله خير الجزاء.

وقد اعتمدت في بحثي هذا على مناهج علمية وبحثية متعددة، غير أن المنهج الموضوعي والتحليلي قد طغى على كثير من مباحث هذ الكتاب، معرجاً في حنايا هذين المنهجين على المنهج المقارن، كلما استدعت الضرورة إلى ذلك، والسبب في اختياري لهذه المناهج العلمية لم يكن من مبتكرات البحث بقدر اضطراري إلى الولوج بهذه المناهج لأنّ موضوع التنمية البشرية من العلوم المستحدثة والكثيرة التشعُبات، بحيث يدخل علم التنمية البشرية في كثير من العلوم، اقتصادية كانت

أم اجتماعية بل يصل الأمر إلى كثير من النظريات السياسية والإدارية لأنها قائمة عليه ومعتمدة على أسسه، كل ذلك جعلني مضطراً إلى اتخاذ هذه المناهج عماداً وأساساً لهذه الدراسة، وخصوصاً إذا ما علمنا أننا نؤسس فيها نظريةً قرآنية ومفهوماً إسلامياً سيرى القارئ أثره في كل مفاصل هذا الكتاب .

وقد اقتضت طبيعة الكتاب أن يقسم على : مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة اردفتها بقائمة المصادر والمراجع.

أما المقدمة – هذه – فقد تناولنا فيها سبب اختيار هذا الموضوع وبيّنا المنهج الذي اختططته فيها.

ثم عقدنا الفصل الأول "التنمية البشرية وأسسها الوضعية" لكي نوضح أبعادها والآماد التي وصلنا إليها وقصدنا بذلك تقسيم الفصل على ثلاثة محاور، الأول في مفهوم التنمية البشرية وعلاقته بالمفاهيم الأخرى تندرج تحته ثلاثة نقاط وهي: مفهوم التنمية البشرية لغةً واصطلاحاً، وكذلك مفهومها موازنة بمفهوم التنمية بشكلها العام، والتنمية البشرية وعلاقتها بما يجاورها من مفاهيم، أمثال الموارد البشرية، وحقوق الإنسان، والحاجات الأساسية، وسعيت في كل ذلك أن أكون محللاً ومقارناً ومنتقياً لما أراه صحيحاً بالدليل.

وعطفنا بعد ذلك في المحور الثاني للحديث عن "أصالة التنمية البشرية ومراحل تطورها" فكان على شكل نقاط ثلاث، أولها: أسس التنمية البشرية وعمقها التأريخي، والثاني: تطور مفهومها ومراحل نضوجها المفهومي، والثالث: في الكلام على الرؤية العصرية للتنمية البشرية ونقصد (التنمية البشرية المستدامة).

وعرضنا بعد ذلك كله المحور الثالث فتحدثنا فيه عن منظومة التنمية البشرية،

فكان على شكل نقاط ثلاث وهي الأول: موضوع التنمية البشرية، والثاني: كان تحديداً لأهدافها الكبرى، اردفناه بثالث لأهم مؤشرات التنمية البشرية وأبرزها.

واتسعت صفحات الفصل الثاني للمنهج القرآني في التنمية البشرية فكانت محورين اثنين الأول: في الخصائص القرآنية لمفهوم التنمية البشرية وموضوعه، وكان على شكل نقاط ثلاث أيضاً الأول: هو مفهوم التنمية البشرية على وفق المنظور القرآني، والثاني: تحدث في موضوع التنمية البشرية في القرآن الكريم، اتبعناها بثالث في خصائص التنمية البشرية في ضوء الفهم البشري للقرآن الكريم.

أما المحور الثاني: فقد كان في غايات ومقاييس ومعوقات التنمية البشرية في القرآن الكريم وقد بني هذا المحور على نقاط ثلاث، أولها: في غايات التنمية البشرية على وفق الرؤية القرآنية، والثاني: في مقاييس التنمية البشرية في القرآن الكريم، والثالث في تخلف التنمية البشرية ومعوقاتها – رؤية قرآنية، فكان هذا الفصل واضحاً في إيراد الأمثلة والتطبيقات التي تناولت تلك الموارد جميعاً وبهذا يكون هذا الفصل من هذه الزاوية أخصبها وأكثرها موارد وتطبيقات.

إن التنمية البشرية في القرآن الكريم هي القمة في الهرم المعرفي للمفاهيم القرآنية الذي بدأ بقاعدته العريضة وقد نشأت التنمية البشرية حسب الرؤية القرآنية من يوم تكليف الإنسان كفرد ومجتمع على الأرض، ومن ثم إرسال الأنبياء والرسل له وبناء الحضارات المذكورة في القرآن الكريم وغير المذكورة فيه، فبينا ذلك من خلال ميادين التنمية البشرية في القرآن الكريم بكافة اتجاهاتها الفكرية، والأخلاقية، والاقتصادية، والاجتماعية متخذين من مبدأ الاستخلاف والاستمكان ،ومبدأ عمارة الأرض وكذلك مبدأ التغيير والإصلاح فكان الفصل الثالث والأخير تبياناً

وتجليةً لها.

وما كان لهذا الكتاب أن يبلغ نهاية مطافه من دون خاتمة أوجزت فيه أهم النتائج والتوصيات وهو ما فعلته واردفته بقائمة مصادر البحث ومراجعه.

أما مصادري في هذا البحث فكانت تعويلاً على كتب التفسير المعتمدة عند المسلمين وكذلك المجاميع الحديثية المعتمدة واستعنا أيضاً بأغلب مؤلفات المحدثين والمعاصرين ممن كتب في موضوع (التنمية والتنمية البشرية) وقد أشرت إلى ما صح وثوقاً عندي من مباحثها وما خالفته منها لأسباب مذكورة في مكانها من البحث.

إن هذا الكتاب حاول تقصي مفاهيم التنمية البشرية ومبادئها في القرآن الكريم وتحدد بعض تطبيقاتها ولعلها أول محاولة تذهب إلى البحث في تأصيل التنمية البشرية بوصفه علماً حديثاً ومعاصراً أُسس له في القرآن الكريم.

وبعد .... فإنني لا ادعي لجهدي هذا ما ليس فيه ولا أنزهه من أن يكون عرضة للنقد واختلاف الرأي غير أن عذري في ذلك كله أنني بذلت فيه جهداً صادقاً، راجياً أن يكون عملي هذا خالصاً لوجه الله تعالى وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

المؤلف



تمهيد

تمهيد

مناهج التنمية البشرية وآلياتها بين المذاهب الوضعية والقرآن الكريم.

من المسلم به أن تكون المباحث القرآنية مباحث تنبثق منها جملة من العلوم والمعارف، تأسيساً على أن القرآن الكريم هو الدستور السماوي المعصوم من الزلل والسهو، الذي ضم بين دفتيه مداليل ومعاني لمنظومة معرفية علمية متكاملة وشاملة استوعبت كل الاتجاهات بمختلف مواضيعها.

وفي الوقت نفسه نجد أن القرآن الكريم قد بيّن سمات العقل البشري وإمكاناته وقدراته على استنباط منابع المعرفة وصولاً الى هدم المجهول المتوافر عن طريق التدبر والتأمل، فقد أشار بالتصريح تارة والتلميح تارة اخرى إلى بعض الحقائق العلمية والكونية التي عجز الإنسان على أن يدركها بعقله بادئ ذي بدء، ليس لأن القرآن هو كتاب علمي يحمل بين طياته الكثير من الحقائق العلمية الصرفة أو الكونية فحسب، بل لأنه استوعب الإنسان واهتماماته وما يحيط به من مفردات تعني الإنسان والكون والحياة، فكان بضميمتها بعض تلك الحقائق العلمية.

وكان من بين تلك العلوم والاهتمامات التي تبناها القرآن الكريم هو علم التنمية البشرية الذي نحن بصدد الحديث تفصيلاً عنه، حيث كان اهتمامه به مبنياً على أساس أهميته وجوهر موضوعه، ومنهجه الذي يعد أحد السبل والآليات الموصلة إلى مبتغى القرآن الكريم الذي صبت معطيات هذا العلم ونتائجه بمصبه نفسه، فاستبطنت من الآيات القرآنية كثيراً من معاني التنمية البشرية ومفرداته.

فالقرآن هو كتاب إرشاد وهداية، وفكر وعقيدة، وان متبنياته في الغالب الأعم

بيان الأحكام الشرعية التي تقود الإنسان إلى مراتب الطاعة، وما تبنيه للقضايا والعنوانات الكلية إلا مصداقاً لأحكام الشريعة السماوية، وبضميمة تلك المعطيات والكليات، كانت بعض من الخطوات المنهجية في بناء الإنسان والمجتمع، وأخرى في بيان مفردات ترعى مجالات ومتعلقات الحياة المختلفة، لتصب جميع تلك الروافد في ذات المصب ،لذا كان القرآن الكريم المصدر الإسلامي الأول والأصل للتشريع، في الوقت الذي تبنت السنة الشريفة البحث في جزيئيات تلك الكليات أو بيان تفاصيل المفردات فكانت مبيّنة لمجمله، ومخصصة لعامه، ومقيّدة لمطلقه، حتى باتت السنة الرديف الثاني لمصدر التشريع الإسلامي.

أما ما ذكره القرآن الكريم لبعض المفاهيم وموضوعاتها أو بذكر مناهجها وآلياتها، أو لكشفه عن علل بعض الظواهر والحالات أو في تبيان هوية بعض العناوين والمفردات أو باستعراض أدوات وتطبيقات، من بين كل ذلك وجد علم التنمية البشرية لنفسه حيزاً وسط تلك المفاهيم القرآنية، بل وجدنا له مساحةً واسعةً في آياته، فوجدناها قد أولت اهتماماً لأسسه ولمعطياته، ورسمت بعضاً من صور معالمه، وحددت بعضاً آخر من عناصره ومنهجه، بينما أكدت آيات أخر على أهدافه وغاياته، وذكرت غيرها الكثير من مصاديق نتائجه، حتى بات كوليد بكر أولى القرآن الكريم احتضانه فترعرع بتوارد نزول الوحي لتتكامل أسسه وقواعده وتنضج أفكاره ورؤاه، هكذا تنامى وبانت آياته بين آيات الله، قبل أن ينضج ويتكامل بين قولٍ وفعلٍ وتقريرٍ لخليفة الله تطبيقاً.

فعلى الرغم من حداثة ولادة هذا العلم الذي اخذ قالبه الاصطلاحي عام

١٩٩٠[١]، فإن أن ولادته الحقيقية في ضوء الشريعة المقدسة تزامنت مع أول آية نزل بها الوحي على المصطفى ﷺ، وترعرع تواصلاً بتواصل الوحي، وفي السنة الشريفة، حتى باتت أسسه ومناهجه وغاياته واضحة يتلمسه المسلم وغيره، لا لشيء إلا لأن موضوع التنمية البشرية هو الإنسان، وهو ذات موضوع القرآن الكريم وغاية رسالة السماء تشخيصاً وتحديداً.

ومن اجل ذلك كان علم التنمية البشرية له المرتبة الرفيعة وسط جملة العلوم، فبات علماً ركز لواءه بين علوم الفكر والمعرفة فزاحمها، ناهيك عن كونه قد اثبت نفسه رائداً لبعض العلوم، والعمود الفقري لبعضها الآخر، ومحوراً يتمحور حوله ريادة كل علم موضوعه الإنسان، فلا مبالغةً ولا تجاوزاً إن ادعينا ذلك لما شمل هذا العلم من جدية وتفاعل لتلبية اهتمامات وطموحات ورؤى الإنسان، هذا إذا ما قلنا إن الإنسان هو أفضل ما موجود في هذا الوجود بأسره بحسب النظرية الإسلامية والرؤية القرآنية وهو مادة كل العلوم وأصل نشؤها ومنشأها.

نعم على أساس اهتمام علم التنمية البشرية بالإنسان والسعي الى تحقيق خياراته ومتطلباته المشروعة، استحق أن يكون قطب الرحى ونواة بعض العلوم، وعلى أساس التباين في تحديد مفهومه، وتباين بعض المطالب، وفي سعة المساحة التي يقف عليها، والمؤشرات الدالة عليه أصبح موضوعاً في غاية الأهمية وعلى هذا الأساس كان هذا البحث، الذي لجأ إلى القرآن الكريم لبيان رؤية السماء فيه.

فلا غرابة حين يجعل القرآن الكريم من الإنسان موضوعاً لرسالته، والذي إذا

---

(١) ظ: د. أسامة عبد المجيد العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ١١.

غاب أسدل الستار لتنتهي القصة وتنتهي الحياة، ولا غرابة أيضاً أن يكون للقرآن الكريم منهج فريد في بناء الإنسان وقيمومته، وكذلك حين تنطبق جميع معايير علم التنمية البشرية لتوافق شريعة رسالة الإسلام، إلا أن الغريب أن تغفل جميع النظريات غير الإسلامية تلك الحقائق التي تعامل معها القرآن الكريم بوصفها مسلماتاً غير قابلة للتأويل، والأغرب من هذا كله أنها لم تدرك تلك الحقائق على الرغم من نضوج العقل البشري وتطوره المتسارع إلا بعد محاولات كان ضحيتها الإنسان نفسه، الذي أضاع من عمره الحضاري قروناً من الزمن من دون أن يضع يده على الصائب من الأفكار إلى حين أن استقر أخيراً عند هذا العلم، حيث باتت الأفكار الوضعية تتخبط مجتهدةً من غير علم ودراية بمصير الملايين من البشر على مر العصور والأزمان، فكان الإنسان هو هو ضحية تجارب تلك النظريات التي كلما حاولت أن تقف على قدميها نجدها سرعان ما تهاوت مرة أخرى لتخلد إلى الأرض.

فعلى الرغم من معاناة الإنسان وجراحاته المثخنة بالآلام والأوجاع جراء تلك الأفكار المعوجة والمنحرفة، فإنه وجد نفسه أخيراً أمام علم تطابقت جميع رؤاه رؤى الإسلام، علم ولد أخيراً بعد مخاض عسير ليرى النور، ويدرك أن لا خيار غير الإسلام، ولا هدى إلا هدى القرآن، ولا صراط إلا سنة خير الأنام وآله الكرام.

وتأسيساً على ما تقدم يستلزم أن نستشرف هدى القرآن الكريم برؤية عصرية كونه صالحاً لكل عصر، وما علينا إلا أن نستنطق القرآن لعلمنا أن فيه علم ما كان وعلم ما يأتي، لان فيه دواء دائنا، وفيه نظم ما بيننا، وفيه ما يمكن أن نستشف منه

مواقف السماء تجاه تجربة الأرض[1].

ولأهمية التنمية البشرية وموضوعها كان هذا البحث حباً وتعبداً وطاعةً لله تعالى وخدمةً لرسالة الإسلام وعرفاناً بمنزلة الإنسان ومكانته، بغية الوصول به إلى أفضل درجات الكمال والتطور، من المنظور القرآني والرؤية الكونية له، بإيجاد كل السبل والإمكانات التي تتناسب وتتناغم مع العقل السليم، ولا تتقاطع مع الشريعة المقدسة، بل تستظل بظله وتسقى من ذات فوارة التشريع وصولاً إلى تحقيق متطلبات الإنسان المشروعة لتأمين حاجاته وتلبية متطلباته وسعة خياراته وطموحاته المشروعة.

ولإنجاح هذا المشروع يقتضي وجود منظومة معرفية مرتكزة على فوارة علم السماء تلازمها خطة ومنهج علمي وخارطة تصل بالبحث والباحث إلى المبتغى المنشود.

وبما أن الباحث لجأ إلى الملاذ الحقيقي للإنسان ألا وهو القرآن الكريم، فإن مقصده استنطاقه وانتزاع مدلولاته للكشف عن أسس ومناهج وغايات وخصائص التنمية البشرية وبقية مفرداته، فكان منهج البحث موضوعياً، لتنحى من سبقتها من الدراسات في تبني أحد العنوانات القرآنية بغية دراسته دراسة مستفيضة ومركزة، لأن وظيفة هذا اللون من الدراسة هو اختيار موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية بغاية تحديد موقف نظري

(١) ظ: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ٩١.

للقرآن الكريم وللرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع[1]، فهو المنهج (الذي يشخص ما في الخارج ليركن نحو البحث إلى ما في الداخل)[2]، كما يعطي هذا المنهج للباحث فسحة التخصص والتعمق والتفقه في الموضوع الواحد، بانتزاع واستنطاق كافة المداليل والأفكار من شذرات الآيات المتناثرة بين دفتي القرآن الكريم وجمعها، مما يُعدّ ذلك عاملاً حقيقياً ودافعاً للإبداع في كشف جزئيات وتفاصيل الموضوع، ولهذا عُد هذا اللون من التفسير (تفسيراً مناسباً لمواكبة تطورات العلم، وزحمة التخصص العلمي ومسايرة متطلبات الحياة، وهو التفسير الدقيق الذي يشبع الموضوع الواحد بحثاً، واستقصاءً، وتفسيراً)[3] وصولاً إلى نظرة تكاد تكون متكاملة على وفق قابلية عقل الإنسان على الربط والاستنتاج وصولاً لحل المشكل الخارجي بالمنطوق النظري داخل النص القرآني .

فالمباحث القرآنية ذات المنهج الموضوعي توظف دراسة استقرائية للنظرية القرآنية لكل مفردة من مفردات الحياة، لأنها تنظر للبحث من ذات الواقع الخارجي للتجربة البشرية التي تحتم على الباحث أو المفسر الموضوعي أن يبدأ (من الواقع ويعود إلى القرآن الكريم، بينما التفسير التجزيئي يبدأ من القرآن وينتهي إلى

---

(١) ظ: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ١١.

(٢) (بحث) المصباح، توظيف المنهج الموضوعي في تفسير القرآن الكريم لقراءة إشكاليات الواقع – إشكالية (قيمة المرأة) في المجتمع إنموذجاً، سيروان عبد الزهرة الجنابي، العدد الثالث،٤٨١.

(٣) حكمت عبيد الخفاجي، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وموضوعاته، ٦٣.

القرآن)[١]، وفي الحالة الأولى نجد فرصة الإنماء والإبداع ومرونة الطرح الإيجابي، وهذا ما أكده أستاذنا محمد حسين الصغير إذ يرى: إن يقوم جملة من المتخصصين على دراسة شذرات ونجوم من القرآن الكريم كل حسب تخصصه، فيجمع مادة موضوع من مواضيع القرآن ويستقصيها إحصاءً لتكون هيكلاً مترابطاً يشكل وحدةً موضوعيةً متكاملةً واحدةً[٢]، لذا عُدَّ هذا اللون من البحث عبارة عن محاولة علمية لتبني موضوعاً معرفياً في قالب متكامل من حيث التحقيق والتدقيق والاستقصاء لاستكشاف ما خفي وإظهاره بصورة محكمة، معززة بالتحقيق والعمق الدقيق، لذا قيل في هذا المنهج البحثي (هو الفحص والتقصي المنظم لمادة أي موضوع من أجل إضافة المعلومات الناتجة إلى المعرفة الإنسانية أو المعرفة الشخصية)[٣]، لذا نجد المنهج الموضوعي الفكري هو الذي (يتناول الأفكار والمعارف وقضايا العقيدة والحياة الاجتماعية والاقتصادية)[٤].

من هنا كان الباحث قد حاول جاداً أن تكون دراسته موضوعية، فحدد التنمية البشرية بوصفه موضوعاً مهماً بحكم واقعه الخارجي متجهاً به إلى القرآن الكريم،

---

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية،، ٢٢.

(٢) ظ: محمد حسين الصغير، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم، دراسة مقارنة، ١٢١.

(٣) المكتبة الشاملة، محمد عجاج بن محمد تميم بن صالح بن عبد الله الخطيب، لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، موقع الكتروني، shamela.ws/index.php/book/11365.

(٤) محمد كاظم البكاء، نظرية النص في تفسير القرآن الكريم، ٦.

بحثاً عن أسسه ومناهجه ومصاديقه على وفق الرؤية القرآنية، وهذا لا يعني أن الباحث حاول زج إحدى نظريات التجربة البشرية لغرض تطبيقها على القرآن الكريم إذ لم يكن من وكده هذا مطلقاً (ففرق بين أن يقول الباحث عن معنى آية من الآيات: ماذا يقول القرآن؟ أو يقول: ماذا يجب أن يحمل عليه الآية)[١]، إذ حاول الباحث (أن ينسى كل أمر نظري عن البحث وأن يتكئ على ما ليس بنظري)[٢]، محدداً موضوعاً للتنمية البشرية ليس إلا، باحثاً بين شذرات القرآن الكريم عن آيات تحدد معالم تلك النظرية، كما حاول أن يكون بحثه بطول مدلول آيات القرآن لا بعرضها، بل بما يوافق رأي الكتاب الكريم والسنة الشريفة، فلم يسع لأن يُحمِّل النص اكثر مما يتحمل بل سعى لأن ينهل من النص بقدر ما يحتمل من دلالة ومضمون.

فعلى الرغم من سعة المنهج الموضوعي لهذه الدراسة فإنها لم تتغافل عن المنهج التحليلي الاستكشافي الذي حاول الباحث فيه أن يحلل النص القرآني[٣]، بعد تجزئة

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١، ٩.

(٢)المصدر نفسه ١،٩.

(٣)(إن المنهج التحليلي هو الذي يغوص في أعماق النص كلمةً وسبباً ومناسبةً وقراءةً وإعراباً وبلاغةً ومعنىً واستخلاص فوائد فهذا الأسلوب يوصل الباحث إلى الهدف الذي يسعى من أجله وهو كشف اللثام عما غمض من النص وإزالة الالتباس وإظهار الأسلوب المعجز له ومناقشة الآراء وترجيح الصائب منها بالدليل). ملتقى أهل التفسير.
http://www.tafsir.net/vb/tafsir29663/#ixzz2B4DHB7eN ، موقع الكتروني

مفاصله الأولية للخروج بنتائج تطابق الواقع، بالاعتماد على التفاسير المعتبرة للبحث عن مفهوم التنمية البشرية فيها، لعلمنا أن (حركة الفكر في التفسير لا متناهية، وآفاق المعاني فيه متنامية، إذ إن فهم كلام الله تعالى لا غاية له ، كما لا نهاية للمتكلم به)[1]، و للسبب نفسه اضطر الباحث أن يقرأ تجارب الأمم لاكتشاف ما للتنمية البشرية من اثر عند الشعوب السالفة، حيث يُعدّ ذلك بحثاً تحليلياً أيضاً لقراءة حركة التنمية البشرية وتطورها في المجتمعات ونقدها نقداً استدلالياً تحليلياً.

وكذا تضمن البحث شيئاً من المنهج الوصفي، حيث تبنى وصف بعض نظريات دول ومؤسسات ودراسات وأيديولوجيات في التنمية البشرية، والتي تظهر ما تتبناه من خلفية فكرية لرؤية كونية، ويتجلى المنهج الوصفي جلاءً حين تتعمق الدراسة في مجال المؤشرات البيانية للنمو البشري باعتماد أهم وأدق المقاييس المعتمدة لذلك.

ونستطيع أن نقول إن الباحث انتهج المنهج المقارن أيضاً في بعض مطالب دراسته، حيث عدها الوسيلة لمعرفة خصائص نظرية التنمية البشرية القرآنية ومقاييسها موازنةً بالنظريات الأخرى.

وقد وجد الباحث نفسه مضطراً أن يطرق باب المنهج المنطقي الذي يعبر عن رصانة وعلمية أي مبحث في حالة امتثاله إلى القواعد التفكيرية، كونه (أي المنطق يتكفل ببيان الطرق العامة الصحيحة التي يتوصل بها الفكر إلى الحقائق

(١) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن،٢، ٥٥١.

المجهولة)[1]، وكذا وجد الباحث نفسه أسيراً لإرادة ووطأة القواعد العامة للتفكير التي قادته هي الأخرى لتحصيل المعرفة، والمنهج المنطقي الاستدلالي المبني على الاستقراء والاستنباط، حيث وجد نفسه منقاداً لآلياته وأدواته، لذا نستطيع أن ندعي أننا وضعنا أيدينا على بعض النتائج السليمة والصحيحة التي لم تطرق أبوابها من قبل.

وكذا نجد أن الدراسة قد وقفت عند أطراف ساحة الاستنباط حيث حاول الباحث أن ينتزع معنى التنمية البشرية ومفرداتها من مداليل آيات القرآن الكريم، محاولاً قطف بعضاً من ثمارها المتعددة وصولاً إلى مراد الله تعالى، لان احد الطرق للوصول إلى ذلك هو طريق الاستدلال المرهون بالتحقيق، إذ قسم أبن تيمية العلم على نوعين لأن العلم (إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق)[2] ، وهذا يعني أن هكذا مطالب عملية تفتقر إلى الاستدلال المحقق مستندة على ذات القرآن والسنة والمنهج العلمي الدقيق ومنهج النقد الرصين.

وأخيراً فإن القارئ الكريم سيجد أن الباحث قد ألزم نفسه بكل ما ذكره في هذا التمهيد مثبوتاً في طيات هذا الكتاب " الموسوم بالتنمية البشرية في القرآن الكريم – دراسة موضوعية « إن شاء الله تعالى.

---

(١) محمد رضا المظفر، المنطق، ٠١.

(٢) مركز الثقافة والمعارف القرآنية، علوم القرآن عند المفسرين، ٣، ٩٥٣.



الفصل الأول

التنمية البشرية وأسسها الوضعية



أولاً: مفهوم التنمية البشرية وعلاقته بالمفاهيم الأخرى.

١ -التنمية البشرية لغةً واصطلاحاً.

٢- مفهوم التنمية البشرية مقارنةً بمفهوم التنمية.

٣- التنمية البشرية وعلاقاتها بما يجاورها من مفاهيم.

- الموارد البشرية.
- حقوق الإنسان.
- الحاجات الأساسية.

(١) : التنمية البشرية لغةً واصطلاحاً.

التنمية لغةً :

إذا ما شئنا معرفة (التنمية) في المعجم العربي فإننا سنجدها تحت مادة (نما)، وهي بمعنى الرفع والصعود والزيادة .

إذ قال الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) : (نما الشَّيْء يَنْمُو نُموّاً، ونَمَى يَنْمي نماءً أيضاً. وأنماه الله: رَفَعَهُ، وزاد فيه،......ونما الخِضابُ يَنْمُو نُموّاً إذا زاد حمرةً وسواداً، ونميتُ فلاناً في الحَسَب، أي: رفعته، فانتمى في حَسَبه)[١] فالنماء الرفع والزيادة ، ولم يخرج إسحاق الشيباني عما قرره الفراهيدي في معنى هذه المفردة، إذ يقول (نَمَا في الشجرة أي صعد فيها : يَنْمو نُمُواً)[٢].

وقد وافق أبو عبيد(ت:٢٢٤هـ) ما ذهب اليه الشيباني والفراهيدي من قبل إذ يقول: (وكل شَيْء رفعته فقد نَّمَيته ... ولهذا قيل: نمي الخِضاب في اليد والشعر وَإِنَّمَا هو ارتفع وعلى)[٣].

ويقول ابن فارس (ت:٣٩٥هـ) (النون والميم والحرف المعتلّ أصل واحد

---

(١) الخليل بن احمد الفراهيدي: العين، ٨ ،٣٨٤– ٣٨٥.

(٢)إسحاق بن مرار الشيباني: الجيم،٣، ٢٦٠ .

(٣)أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي: غريب الحديث، ١، ٣٤٠.

يدل على ارتفاع وزيادة.

ونمَى المالُ ينمي : زاد، .... وتنمَّى الشَّيء ارتفعَ من مكان إلى مكان.....
ونّمَّيْتُ الحديد: أشعتُه، ونَمَيْتُه بالتخفيف، والقياس فيهما واحد.

والنَّاميَة: الخَلْق لأنَّهم يّنْمُون، أي يزيدون، ويقال: نمَّيتُ النار. إذا ألقيتَ عليها شَيوُعاً. ويقال : نَمَتِ الرّمِيّةُ، إذا ارتفعتْ وغابت ثم ماتت، وأنْماها صاحبُها)[1]، بهذا أن النماء هو الزيادة والارتفاع ولهذا المضمون ارتباط بمفهوم التنمية البشرية كما سيرد لاحقاً.

البشرية لغةً .

لفظة البشرية مأخوذة من نسبة لفظة (البشر)، يقول الفراهيدي (البشر: الإنسان الواحد رجلاً كان أو امرأةً، هو بشر وهي بشر، وهم بشر، لا يثنى ولا يجمع .... والبشرة أعلى جلد الوجه والجسد في الإنسان وهو البشر إذا جمعته)[2]، بهذا ندرك أن البشر هو الانسان وتعني اعلى الجلد ايظاً، إذ يقول الجوهري (ت: ٣٩٣هـ) (البشرة والبشر: ظاهر جلد الإنسان، وبشرة الأرض :- ما ظهر من نباتها وقد أبشرت الأرض وما أحسن بشرتها . والبشر: الخلق. ومباشرة المرأة :

---

(١)ابن فارس بن زكريا القزويني: مقاييس اللغة ، ٥، ٩٧٤ – ٠٨٤ .

(٢) الفراهيدي: العين،٨، ٤٨٣.

ملامستها)[1]، وأورد معاني أخرى: منها البشرى والبشارة، والتبشر وغيرها[2].

بهذا نلحظ أن الجوهري قد زاد على معنى البشر الذي ذكره الفراهيدي، إذ أضاف دلالة ملامسة المرأة وظهور النبات على الأرض.

وقال ابن فارس: («بشر» الباء والشين والراء أصل واحد ظهور الشيء مع حسن وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، ومنه باشر الرجل المرأة وذلك إفضاؤه ببشرته إلى بشرتها، وسمي البشر بشراً لظهورهم . والبشير الحسن الوجه . والبشارة الجمال.....)[3]، نفهم من كلام ابن فارس أن اصل المعنى هو الظهور وسميت البشرة أي اعلى الجلد بهذا الأسم لأنها ظاهر الجسد وسميت ملامسة النساء مباشرة لأن اعلى الجلد يلامس الآخر، وسميت النباتات الخارجة من الأرض بشرة لأنها ظاهر الأرض، فكان اصل المعنى هو الظهور وسمي الأنسان بشر لأن جلده ظاهر مباشر للعين

وقال ابن منظور (ت:٧١١هـ): (بشر: البشر الخَلْقُ يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع لا يثنى ولا يجمع، يقال:هي بشر وهو بشر وهما بشر وهم بشر.

أما ابن سيده فقال :البشرُ الإنسان الواحد والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك

---

(١) الجوهري: الصحاح، ٢، ١٩٥.

(٢) ظ: المصدر نفسه ، ٢، ١٩٥-٢٩٥ .

(٣) ابن فارس، مقاييس اللغة، ١، ٢٥٢.

سواء، وقد يثنىٰ، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[1] والجمع أبشار، والبشرة: أعلىٰ جلدة الرأس والوجه والجسد من الإنسان، وهي التي عليها الشعر، وقيل: هي التي تلي اللحم ...)[2].

وعند الجمع بين اللفظين بعد إلحاق ياء النسبة فيهما تكون عبارة (التنمية البشرية) وبعد استحضار معنىٰ لفظة (التنمية) بالزيادة والارتفاع والصعود ولفظة (البشر) بالإنسان مطلقاً يمكن أن تقول: التنمية البشرية لغةً هي تلك الزيادة المطردة للإنسان عن بقية المخلوقات علىٰ وفق النواميس الطبيعية والقوانين الكونية كماً كانت أم نوعاً مما يؤدي بالارتفاع به نحو السمو والارتقاء وبناء الحضارات وبهذا نقترب جدا من مفهوم التنمية البشرية في الاصطلاح وهذا ما سنعرضه لاحقاً.

التنمية البشرية اصطلاحاً:

إن مصطلح التنمية البشرية من المصطلحات الحديثة التي تزامنت مع العصر الحديث، ولاسيما في العقد الأخير من القرن العشرين، وهو مصطلح لم تنضج أفكاره ولم تحدد أسسه وقواعده، ولا عناصره وآلياته، ناهيك عن بقية الأدوات التي تجتمع معاً لتحدد النطاق العام لمفهوم هذا العلم من جهة، ومن جهة ثانية فإن علم التنمية البشرية حاله حال العلوم الاجتماعية الأخرىٰ التي تتباين تعريفاتها،

---

(١) المؤمنون: ٧٤

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٤، ٠٦.

لأن التعريف يُبنى على أساس فهم المُعرِّف للمفهوم، ولا غرابة في أن يكون مفهوم التنمية البشرية مما أُختلف في تحديد ماهيته، ومعايير ومؤشرات تحقيق النمو فيه، وغيرها من الاختلافات في وجهات النظر التي اعتادت العلوم الإنسانية عليها، بوصفه أن المفهوم ذو مساحة قابلة للزيادة أو النقيصة نتيجة تباين الرؤى الثقافية والفكرية والمعرفية لرواده.

إلا أن من أهم التعريفات التي اشتهرت بين الباحثين هو تعريف (الأستاذ محبوب الحق)[1] الذي يُعدّ الرائد الأول في بيان معالم التنمية البشرية، الذي اعد التقرير الإنمائي الأول للأمم المتحدة، حينها(حصلت قفزة نوعية مع صدور تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٠)[2].

وبحسب منظور(محبوب الحق) فالتنمية هي (عملية تهدف إلى زيادة القدرات المتاحة أمام الإنسان)[3]، فهي من وجهة نظره تهدف لتحقيق ما تبغيه، ألا هو توسيع خيارات الأفراد، وهذا المعيار أعطى للإنسان مرونة في الحركة، وسعت رقعة في اختياراته ، وانتخاب ما يراه مناسباً لسد حاجاته المتغيرة، ومنح حرية في

---

(١) محبوب الحق عالم اقتصاد شهير، باكستاني الجنسية، ولد في مدينة جاموأكشمير ٢٢. فبراير ٤٣٩١ ، يعد من أشهر خبراء الاقتصاد في العصر الحديث ،اهتم بنظريات تطور المجتمع الإنساني ، له بحوث ودراسات عديدة بهذا الشأن، اسهم مساهمة كبيرة في إنشاء مؤشر التنمية البشرية النابع من الأمم المتحدة.(الموسوعة الحرة ar.wikipedia.org/wik).

(٢)أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ٣١.

(٣) المصدر نفسه، ٣١.



الاختيار، لذا فقد عرف – محبوب الحق– التنمية البشرية على: (أنها عملية ترمي إلى توسيع نطاق خيارات الأفراد وحرياتهم)[1].

أما (امارتيا سين)[2] الذي يُعدّ من مؤسسي منهج التنمية البشرية فقد عرفها قائلاً: (إن التنمية هي عملية ترمي إلى توسيع الحريات الفعلية للأفراد)[3]، غي أن هذا لتعريف محل نظر لأن (سين) لم يحدد في أي نطاق هذه الحريات لذا اطلق ولم يقيد ، وعليه يُعدّ تعريفه غير مانع.

غير أنه من جملة أخرى يمكن القول بإنّ ما كتبه (امارتيا سين) يُعدّ اساساً واضحاً في تطوير مفهوم التنمية البشرية فلسفياً، حيث نظر إلى الحرية بوصفها محوراً لها، وإنها العلة والمنطلق لتحقيق وبقاء هيكل التنمية البشرية وديمومته، فكأنه قد عرّف التنمية البشرية بغايتها التي تسعى وراء تحقيقها .

لهذا اقتضى التركيز على هذا المحور الذي ينضم تحت لوائه الكثير من المفردات لشموليته، بدلاً من أن يُستهلك المشروع التنموي بوسائل وأدوات هامشية

---

(١)ضمير للتنمية البشرية .https://sites.google.com/site/dhamirtunis/concepts موقع الكتروني.

(٢) أمارتيا كومار سين من أشهر علماء الاقتصاد الحديث، هندي الجنسية، ولد في ٣ نوفمبر ١٩٣٣م ، درس الرياضيات والفيزياء قبل استقراره على الاقتصاد، فاز بجائزة نوبل في الاقتصاد عام 8991 لعمله عن المجاعة ونظرية تطوير الإنسان والرفاه الاقتصادي وأساس الفقر والليبرالية السياسية (الموسوعة الحرة . kiw /gro.aidepikiw.ra).

(٣) مسار التنمية البشرية، ٦، www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

وجزئية.

ومما يؤخذ بالحسبان أن (امارتيا سين) قد حدد هذا المعيار لتكامل التنمية البشرية، من ثم عدَّ أن التنمية بهذا المنظور تستدعي أن نجعل منها حدثاً مهماً ومفصلاً واضحاً في حياة الإنسان.

أما الدكتور عبد الهادي الجوهري، فقد عرفها بأنها (التحريك العلمي المخطط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية من خلال إيديولوجية معينة لتحقيق التغيير المستهدف من اجل الانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب الوصول إليها)[1]، لعل هذا التعريف أوفى من سابقه لأنه أوضح أن عملية التنمية البشرية لا تجري إلا على وفق جملة من الشرائط هي : التخطيط ، البرمجة العلمية ، الغاية التي تكمن من استحصال الأفضل دائماً والتي هي غاية التنمية البشرية، غير أن ما يؤاخذ عليه أن اغفل مسألة منح حرية الاختيار للإنسان فضلاً عن أن من كينونات ما يؤخذ عليه أيضاً أنه حدد مسار التنمية في الجانب الاجتماعي والاقتصادي فقط دون ذكر الجوانب الأخرى، على حين أن التنمية تشمل كل توجهات الإنسان عموماً من دون استثناء لأنها تمنح الفرد جملة أدوات او وسائل يستطيع أن يستثمرها في أي مجال من أجل بلوغ النجاح .

وبمقتضى تعريف الدكتور الجوهري نجد أن التنمية ستُظهر أثرها على الأفراد وتُحركهم بالاتجاه الصحيح إلى مستوى الطموح إذا ما اقترنت باستشراف المستقبل المعبأ على وفق أيديولوجيا تسعى للارتقاء بمستوى الميدان الاقتصادي والاجتماعي

---

(١)عبد الهادي الجوهري وأخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية، مدخل إسلامي، ١١١ .

حسب وجهة نظره.

(فالتنمية هي: النمو المدروس على أُسس علمية، والذي قيست أبعاده بمقاييس عملية، سواء كانت تنمية شاملة، أم تنمية في أحد الميادين الرئيسة ، مثل الميدان الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الميادين الفرعية كالتنمية الصناعية أو الزراعية)[1]، وبمقتضى ما قدمه الدكتور الجوهري، سيضيق نطاق مفهوم التنمية البشرية إلا ما يتعلق بالمقاييس العملية وسينحسر في مجالات معينة رئيسة كانت أم فرعية كما سبق الحديث عن هذا.

بينما نجد أن (محمد توفيق صادق) قد تجلت صورة التنمية عنده، فعرف التنمية تعريفاً قارب فيه مفهوم التنمية البشرية حتى كاد يلتصق به، إذ أشار إلى أنها (عملية مجتمعية تراكمية تتم في إطار نسيج من الروابط، بالغ التعقيد بسبب تفاعل متبادل بين العديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية، الإنسان هدفها النهائي ووسيلتها الرئيسية)[2].

فهذا الباحث قد عرف التنمية ولم يقصد التنمية البشرية في حينها، إلا أنه استطاع أن يرتقي بها إلى مستوى التنمية البشرية التي لم تلد بعد إلا في ذهنه وأذهان المهتمين بهذا الميدان الحيوي، لأن بحثه قد نُشر عام ١٩٨٦، أي أنه حاول عرض مفهوم التنمية البشرية في وقت مبكر، إلا أن تعريفه كان يفتقر للاختزال، وللصياغة الفنية.

---

(١)عبد الهادي الجوهري وأخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية، مدخل إسلامي، ١١١.

(٢)مجلة المعرفة، التنمية في دول مجلس التعاون ، العدد ٣٠١، ٧٥ .

أما الدكتور عبد الكريم بكار فإننا نجده يرى التنمية البشرية من زاوية أخرى، إذ يعرفها بأنها: (مجموعة الجهود المتنوعة والمنسقة التي تؤهل المجتمع المسلم للقيام بأمر الله تعالى)[1].

فمن خلال تأملنا لهذا التعريف نحرز أهم معيار للمفهوم وهي مجموعة الإجراءات والخطوات التي يجب أن تُقترن بضابطة مجالات الحياة المختلفة التي عبر عنها بـ(المتنوعة) وضابطة الإدارة والتخطيط التي عبر عنها بـ(المنسقة)، إلا أن الباحث يقف متحفظاً عند هذا التعريف في نقطتين وهما : إنه نظر من خلال منطوق تعريفه إلى أن التنمية البشرية مؤثرة في المجتمع، في الوقت الذي من الممكن أن تؤثر في الفرد الواحد وفي مجموعة أفراد بغض النظر عن كونهم يمثلون مجتمعاً أم لا، ثم أنه قيد تعريفه بالمجتمع المسلم علماً أن التنمية البشرية تحدث أثرها في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية.

نعم لا بأس أن نطرح فلسفة الوجود والغاية من خلق الإنسان وضرورة امتثاله لأمر الله تعالى، وعلاقة كل ذلك بالتنمية البشرية، إلا أن ذلك يُعدّ من ضمن شرح التعريف، كما أشار الأستاذ البكار إلى ذلك معلقاً على تعريفه (ونحن نرى أن مسوغ الجهود التنموية هو تحقيق الأهداف والغايات المرحلية والنهائية التي يتطلع إليها مجتمع من المجتمعات........كل ذلك يهدف إلى شيء واحد، هو تأهيل المسلم ورفع كفاءته وتهيئة المناخ البيئي والاجتماعي الذي يساعده على أداء حقوق العبودية لرب العالمين والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض على

---

(١)عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة،١٠.

الوجه الأكمل)[1]، وكأن د.عبد الكريم أراد بـ (أمر الله) مفهوم الاستخلاف باعتبار أن الإنسان خليفة الله، ولا يمكنه أن يصل الى هذه المستوى من الأنموذج الأسمى الذي تبتغيه السماء له مالم يوظّف مفهوم التنمية البشرية في حياته لكي يتطور سلوكياً ويتهذب اخلاقياً ويرتقي عقلياً فيكون الأنموذج الأستخلافي في الأرض، غير أن الأستخلاف يُعدّ من لوازم التنمية لا جزءاً من ماهيتها (المفهوم) لأن التنمية تطور ومن لوازم التطور البشري ومحصلته هو (الأستخلاف) أي بلوغ المستوى لأرفع من الأنموذج البشري، لذا كان على د.عبد الكريم ألا يقيد التعريف بقيد (أمر الله تعالى) ويعده جزءاً من مفهوم التنمية اصالة لأنه يُعدّ جزءاً بالمآل لا بالكينونة وبهذا لا يُعدّ أصلا من التعريف في ما نحسب.

في حين نجد أن الباحثة سماح طه احمد الغندور، حاولت استخلاص تعريف لِتعرضه على صفحات رسالتها، إذ قالت: (إن التنمية البشرية تدور حول تطوير القدرات البشرية بأمور يتمكن الإنسان من خلالها سد حاجاته المادية والمعنوية والاجتماعية والعقلية)[2].

فقد أكدت الباحثة أن التنمية البشرية تتمحور حول تطوير القدرات البشرية لسد بعض الحاجات، وهذه هي كينونة التنمية البشرية غير أنها لم تلتفت إلى أنها يجب أن ترتكز على أسس علمية وخلفية فكرية، وهذا يعني أن التنمية من وجهة

---

(١)عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة ،٩ –١٠.

(٢)سماح طه احمد الغندور، التنمية البشرية في السنة النبوية (دراسة موضوعية)، ٣.

نظرها ستؤكد المهارات سعياً الى بعض الحاجات ليس إلا، كما نجدها قد حددت بعض الميادين الحياتية دون غيرها.

بينما نجد أن السيدة أشواق الساعدي قد عرفت التنمية البشرية تعريفاً إجرائياً قائلةً: (أنها العملية التي تستهدف الإنسان وتعمل جاهدة على وضع كل ما يفيده ويخدمه في متناول يده خاصة، أن يحيا حياة طويلة ويكتسب المعرفة ويتمتع بمستوى معيشة كريمة، فضلاً عن تطوير جميع طاقاته وإمكانياته لهذا الغرض بأنه أساس الحركة التنموية في أي مجتمع)[1].

وعند تأملنا للتعريف أعلاه نحدد عدة ملاحظات منها: إن تعريفها غير مُختَزَل تماماً والشاهد على ذلك هو التفريق بين أن يكون الإنسان هو المستهدف في التنمية البشرية في الوقت الذي يكون هو الأساس أيضاً في الحركة التنموية، فيجب توحيد الصياغة هنا لتحقيق المطلب، ثم نجدها قد خصصت الحياة الطويلة وكسب المعرفة كمصداق للتنمية البشرية في حين نجد هناك مصاديق أخرى ومهمة كمستوى دخل الفرد الذي لم تتعرض إليه، والذي كان يكفي الإشارة إليه، كما اكتفت بما قالته (أن يتمتع بمتسوى معيشة كريمة)، فتعريفها كان يفتقر إلى الإعداد والإخراج ، وللتقديم والتأخير، فضلاً عن افتقاره إلى الاختزال.

فمع تباين تلك التعريفات فيما بينها، إلا أننا نستطيع أن نقول إن هناك معاني

---

(١)أشواق عبد الحسن الساعدي، الثقافة والتنمية البشرية، دراسة نظرية لبعض المتغيرات الثقافية، ٢٣.

يجب حضورها بوصفها قاسماً مشتركاً في التعريف، بحيث تعد هوية التنمية البشرية ومحدداتها، وأسس قواعدها كي تشكل البعد الحقيقي لمفهوم التنمية البشرية، إلا أن فقدان بعض هذه المفاصل من تعريف هذا أو ذاك شكل خللاً في مدلول المُعرَّف، أو أظهر نقصاً لم تكتمل صورته الذهنية لدى المتلقي، لذا علينا أن نحدد بعض هذه الثوابت من ثم نعرف التنمية البشرية، ومن الثوابت والأسس هي:

- الإنسان هو رأسمال التنمية البشرية وموضوعها، وهو الوسيلة والغاية في الوقت نفسه.
- إن مصداق التنمية البشرية لا يتحقق إلا من خلال تطبيقات عملية على ارض الواقع.
- إن مفهوم التنمية البشرية يجب أن تكون أسسه ومبانيه مرتكزة على أفكار رؤى كونية.
- للتنمية البشرية مساحة واسعة تسع جميع مجالات الحياة الفكرية والاقتصادية والسياسية والذاتية وغيرها من المجالات الأخرى.
- اعتبار أن محددات مفهوم التنمية البشرية هي عملية الارتقاء بالمهارات وتفجير الطاقات وتطوير القدرات وترجمتها إلى سلوك، لا عملية تعظيم المنفعة كما كان ينظر إلى التنمية.
- استمرارية دوران عجلة التطور وعدم الاكتفاء بوصولها إلى مراتب محددة.

وقبال ذلك ارتأى الباحث أن يكون تعريفه الإجرائي كما يأتي:

التنمية البشرية هي: عبارة عن عمليات إجرائية منظمة على وفق رؤية فكرية

منتخبة تهدف لتطوير القوىٰ الكامنة في الإنسان بصقلها وتوجيهها نحو تحقيق طموحاته بغية إشباع حاجاته المشروعة في شتىٰ مجالات الحياة.

(٢) : التنمية البشرية قياساً بمفهوم التنمية.

قبل الدخول في الحديث عن مفهوم التنمية البشرية موازنةً بينه وبين مفهوم التنمية عموماً فإنه من الأولى أن نسلط الضوء على معنى النمو ابتداء.

إن النمو يُعدّ الزيادة التلقائية أو الطبيعية من دون دخل من الخارج، أي (هي عملية الزيادة الثابتة أو المستمرة، التي تحدث في جانب معين من جوانب الحياة) [1]، وهذا يعني أن النمو يحدث من غير تدخل الإنسان أو العوامل الخارجية على زيادة الإنتاج.

بينما نجد أن التنمية لغة كما ذكرناها سابقاً هي (النماء)، أي الزيادة المطَرِدة كماً كانت أم نوعاً، أو الزيادة والكثرة كما ذهب إلى مدلولها بعض من الباحثين، ولهذا المعنى رابط بالمفهوم الاصطلاحي للتنمية عموماً، ذلك بأن التنمية (هي عملية الانتقال بالمجتمعات من حالة ومستوى أدنى إلى حالة ومستوى أفضل، ومن نمط تقليدي إلى نمط آخر متقدم كماً ونوعاً، وتعد حلاً لابد منه في مواجهة المتطلبات الوطنية في ميدان الإنتاج والخدمات)[2]، فالتنمية تخضع للإرادة البشرية وتفتقر إليه ولدفعات قوية تحركها قدرات إنسانية خيرة تخرج المجتمع من حالة الركود إلى حالة الحركة والتقدم.

---

(١) هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا. جامعة الرسالة.
(http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267) موقع الكتروني.

(٢) أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ١٨٧ .

وللتنمية غايات ودوافع قال فيها القرنشاوي: (هي إحداث مجموعة من التغيرات الجذرية في مجتمع معين، بهدف إكساب ذلك المجتمع القدرة على التطور الذاتي والمستمر، بمعدل يضمن التحسن المتزايد في نوعية الحياة لكل أفراده، بمعنى زيادة قدرة المجتمع على الاستجابة للحاجات الأساسية والمتجددة لأعضائه، بالصورة التي تكفل زيادة درجات إشباع تلك الحاجات عن طريق الترشيد المستمر لاستغلال الموارد المتاحة، وحسن توزيع ذلك الاستغلال)[1].

فنجده قد أكد دوافع وغايات التنمية كالتغير والتطور المستمر والتحسن المتزايد وزيادة القدرة واستغلال الموارد البشرية من دون أن يؤكد المجالات الأخرى كالأدوات والدراسات والميادين والسقف الزمني والواقعية فضلاً عن أن تعريفه للتنمية هذا يُشمُّ منه رائحة حصر مفهوم (التنمية)بالجانب الاقتصادي للإنسان بدليل قوله (الترشيد المستمر لاستغلال الموارد المتاحة).

نقول إن للتنمية أبعاداً مهمةَ وأثاراً واضحةَ في الميدان العملي من الممكن عده معياراً لحجم التنمية ومقاساً يُعتد به وهي الزيادة أو الإنتاج بأنواعها كافة من دون الاقتصار على جانب دون آخر، وأول ما يراعى فيها هو الإنسان والزمان والمكان، غير أن صاحب التعريف لم يذكر ركائز هذه المراعاة في تعريفه.

وبمقتضى الأبعاد التي عدت مقياسا للحركة التنموية سيكون قبال ذلك مساحة متغيرة، بحسب النسبة العملية إلى العلمية أو النظرية ، وهذا ما نلمسه

(١) حامد القرنشاوي، تساؤلات حول اقتصاديات التعليم وقضايا التنمية في الوطن العربي، ٢٥.

عند بعض الباحثين حين يؤكد على أثر التنمية من دون المعاني الأخرى، وما هذا المنطوق إلا مثال على ما ورد أعلاه: (إن التنمية هي عملية الانتقال بالمجتمعات من حالة ومستوى أدنى إلى حالة ومستوى أفضل، ومن نمط تقليدي إلى نمط أخر متقدم كماً ونوعاً، وتعد حلاً لا بد منه في مواجهة المتطلبات الوطنية في ميدان الإنتاج والخدمات)[1].

بينما عُرف مفهوم التنمية من وجهة نظر فلسفية، فقيد المفهوم بحجم تأثير النمو الثقافي على المجتمع والذي يُعدّ دافعاً لسد الحاجات الأساسية فهو: (ذلك الشكل المعقد من الإجراءات والعمليات المتتالية والمستمرة التي يقوم بها الإنسان للتحكم بقدر ما بمضمون واتجاه وسرعة التغيير الثقافي والحضاري في مجتمع من المجتمعات هدف إشباع حاجاته)[2].

ونستخلص من جملة ما أوردناه من تباين واضح في تحديد مفهوم التنمية، نال مفاصله جميعاً من حيث الأسس والفئة المستفيدة والغاية والأدوات والسبل والمؤشرات، فإن ذلك يدل على أن مفهوم التنمية يتباين على أساس التباين الفكري للباحث من جهة، وعلى أساس تطور ذات المفهوم على مر العصور منذ خلق الإنسان إلى ما شاء الله من جهة ثانية، وتباين رغبات الإنسان على وفق حاكمية

(١) هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا. جامعة الرسالة. (http://www.universiterissala. maktoobblog.com/264267) موقع الكتروني.

(٢) المصدر نفسه.

الظروف وتباين تحقيق طموحاته وسد حاجاته من جهة ثالثة.

إن تتبع الولادة الاصطلاحية للتنمية يثبت ما تبنيناه في تحديد العلة الحقيقية وراء هذا التباين، أو سبب احتساب التنمية على المجال الاقتصادي دون بقية المجالات، ولعل (أول من استعمل هذا المصطلح هو «يوجين استيلي» حين اقترح خطة تنمية العالم سنة ١٨٨٩م)[(١)].

وواقع الحال أن مفهوم التنمية ولد في حاضنة علم الاقتصاد حيث استعمل تعبيراً عن مجموعة إجراءات جوهرية لتطور ماكينة الاقتصاد، وان هذه الماكينة هي السبب لإحداث أي تغير، ولهذا عُرفت التنمية عند هذه المدرسة بأنها: (مجموعة الوسائل والجهود المختلفة التي من خلالها يتم الاستخدام الأمثل للثروة بشقيها المادي والبشري والتي بدورها تؤدي إلى إحداث تغيير في أنماط السلوك وأنواع العلاقات الاجتماعية)[(٢)].

وكذا هي الحال لمن ينسب ولادة التنمية لآدم سمث، فهو لا يخرج عن النطاق العام الذي حدد لمفهوم التنمية، إذ بقي رهن تصورات من عده قريناً للماكينة الاقتصادية، وان استعمال (هذا المفهوم منذ ظهوره بصورة أولية في عصر

---

(١) هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا. جامعة الرسالة. (http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267) موقع الكتروني.

(٢) رمزي زكي، المحنة الأسيوية: قصة صعود وهبوط دول المعجزات الأسيوية، ٢٨-٢٩.

الاقتصادي البريطاني ادم سميث في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وحتى الحرب العالمية الثانية، إلا على سبيل الاستثناء، فالمصطلحان اللذان استخدما للدلالة على حدوث التطور المشار إليه في المجتمع هما: التقدم المادي، التقدم الاقتصادي)[1].

هكذا بدأ تطور مفهوم التنمية بحسب الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من جهة، فضلاً عن أنه بات ذات دلالة متطورة بحسب ارتباطه بالحقول المعرفية من جهة أخرى، فعلى الرغم من إيجابية هذا المفهوم وبقائه على مزية التطور المطرد والزيادة السريعة المستمرة فإنه بقي أسير البعد الدنيوي والمادي المجرد، والنظر إليه على أساس الزيادة في الإنتاج، والتقدم الكمي فحسب ومدى تأثيراته على المنظومة الاجتماعية التي تستحق هي الأخرى تنميتها، لهذا فقد قسمت التنمية عند بعض من المفكرين ولاسيما الاقتصاديين والاجتماعيين إلى (تنمية اقتصادية وتنمية اجتماعية، وكان من المستحيل الفصل بين النوعين لأن كل منهما شرط لتحقيق الأخرى)[2] بحسب وجهة نظرهم.

وهكذا بقي مفهوم التنمية لا يتعدى مساحة الاقتصاد، وأن أراده بعض من الباحثين أن يتألق بهذا المفهوم فالأمر لا يتعدى كونه توفير فرصة لارتباطه بالنظم السياسية والإدارية والاجتماعية فيه علاوة على الرابط الأساس ألا هو الاقتصاد

(١) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلى علم التنمية، ٢٠.

(٢) مها سهيل المقدم، مقدمات التنمية الاجتماعية وتحدياتها، تطبيقات على الريف اللبناني، ٢٧.

الذي يُعدّ العمود الفقري له.

والأمر سيبقى على ما هو عليه برأي أصحاب هذا المذهب وإنْ فُرِّقَ بعض منهم بين النمو الاقتصادي والتنمية، على أساس أن النمو الاقتصادي هو عبارة عن الزيادة في متوسط الدخل الفردي، إلا أن التنمية بقيت على أنها ظاهرة يُعدّ النمو الاقتصادي احد أركانها، غير أن الفارق هو اقتران ــالتنمية ــ بالمتغيرات الأساسية والاجتماعية فضلاً عن النظام الاقتصادي، كل ذلك مبني على أساس أن لمفهوم التنمية خصائص يتميز بها من غيره من المفاهيم، علماً أن تلك الخصائص هي التي تميز المفهوم الاقتصادي من مفهوم التنمية البشرية الذي سعى الأخير أن تكون أهم خصائصه الشمولية التي تضرب جذورها في جميع مجالات الحياة المختلفة بخلاف مفهوم التنمية الذي تبنى الاقتصاد هدفاً أوحد عن بقية مجالات الحياة وإن أثّر أثره في المجالات الأخرى.

وبمقتضى ما تقدم سيكون لدينا خصائص عديدة تميز مفهوم التنمية وهي:

- اعتماد المعيار المادي المبني على المشاهدة والمحسوس معياراً وحيداً.
- اقترانه بفعاليات الفرد والمجتمع.
- إحراز آثار واضحة بفعل العامل الاقتصادي على الصعيد الاقتصادي والصعيد السياسي والاجتماعي بحسب منظور بعضهم.
- اعتبار أن التنمية مجموعة من العمليات والإجراءات فهي ليست بحالة.
- اعتماد الدراسات العلمية الدقيقة والمتأنية.
- وجود أهداف عليا ممكنة وواقعية.
- العمل على ضرورة وجود عقل استراتيجي يخطط لإدارة دقيقة وحازمة.

- اعتبار الزمن أحد مؤشرات تحقيق التطور والإنماء.
- اعتبار أن الغاية من التنمية هي الزيادة المطردة في الإنتاج وان الإنسان أحد العناصر المكملة لعملية الإنماء.

فبمقتضى ما تقدم وبعد ما أوردناه من بعض خصائص وضوابط مفهوم التنمية يمكننا أن نتوصل إلى جملة من هذه الضوابط التي استخلصناها من التعاريف السابقة هي : التغير الايجابي، استمرارية التغير، الإرادة والعزم، دراسة علمية، أهداف معقولة قابلة للتحقيق، مخطط استراتيجي، وجود حاجات أساسية أو غير أساسية، سقف زمني، آليات وأدوات وغيرها من الضوابط.

ولهذا سيكون غاية التنمية هو التغيير الايجابي لا السلبي على وفق خطوات علمية مدروسة ومتأنية تصل إلى هدفها المرسوم بأقصر طريق واقل كلفة وبزمن قياسي.

لذا فالتنمية من وجهة نظر الباحث :هي عملية تغير حسنة مدروسة وموجهة هدفها إشباع حاجات الإنسان وتؤثر ايجابياً في نمط العلاقات المختلفة بأقصر وقت ممكن، وبعبارة أخرى نقول إن التنمية هي: دراسة علمية دقيقة يترتب على أثرها مرتسم لخارطة طريق تتضمن تحقيق أهداف واقعية تسعى إلى زيادة مطردة تحت سقف زمني معقول.

فعلى أساس ما تقدم وقبل أن نلج موازنة التنمية البشرية بالتنمية يستدعي علينا أن نؤكد أن مصطلح التنمية قد أخذ حيز العموم، إلا أنه بقي محافظاً على مدلوله الاصطلاحي بالقرب من المعنى اللغوي واشتقاقات الكلمة بين الزيادة والانتشار، وقد بقي محافظاً على نطاقه العام على الرغم من تخصصه حين اقترن مع أحد العلوم

أو المعارف أو في حالة الإضافة[1] .

إن تطور مفهوم التنمية كان مقروناً بارتباط العلوم الأخرى به، وبتطور ذات المفهوم، يضاف الى ذلك بقاء المفهوم حبيسا في معناه اللغوي مع بعض من المرونة الاصطلاحية لذات المفهوم التي اكتسبها بين مدة وأخرى أو بين حضارة وأخرى حتى استصعب أن يخرج من نطاقه العام إلا إذا أقترن بعلم آخر، حيث بقي المصطلح يراوح في مكانه، بالرغم من تقلب الظروف الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحيط به وعلى الرغم من الولادات الجديدة التي تطورت نتيجة تلاقح مفهوم التنمية من قريب أو بعيد مع علوم أخرى، فاكتسبت تلك الولادات الجديدة شمولية ضمت تحت جناحيها ذات مفهوم التنمية، ومن تلك المفاهيم التي استحدثت هو مفهوم التنمية البشرية الذي اهتم باهتمامات شتى، ومنها اهتمامات مجالات التنمية ذاتها، حيث نجد هذا المفهوم قد قفز من حيز مساحة التنمية على مساحة التنمية إلى مساحة أوسع وأشمل، وذلك من خلال رؤية جديدة لمفهوم سعى للارتقاء بالإنسان بتنمية مهاراته، وتفجير قدراته، مستثمراً إياها في مجالات الحياة جميعاً، خدمة وتلبية لخياراته ومتطلباته، وتحقيقاً لطموحاته وسد حاجاته المشروعة.

---

(١) لقد (تطور مفهوم التنمية ليرتبط بالعديد من الحقول المعرفية، فأصبح هناك التنمية الثقافية التي تسعى لرفع مستوى الثقافة في المجتمع وترقية الإنسان، وكذلك التنمية الاجتماعية التي تهدف إلى تطوير التفاعلات المجتمعية بين أطراف المجتمع......بالإضافة إلى ذلك استحدث مفهوم التنمية البشرية الذي يهتم بدعم محددات الفرد وقياس مستوى معيشته وتحسين أوضاعه في المجتمع) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلى علم التنمية البشرية، ٢١.

وعلىٰ هذا الأساس صرح محبوب الحق ليبين التنمية البشرية بقوله: (هي أكثر من ارتفاع أو هبوط الدخل الوطني، إنما هي استحداث بيئة يمكن للأفراد من خلالها تطوير كامل إمكانياتهم وعيش حياة منتجة وفقاً لحاجاتهم ومصالحهم)[1] بهذا نلحظ أن المصطلح أصبح يغطي كثيراً من الاهتمامات ضمن العلوم الأخرىٰ من الناحية الفكرية، ولم يغفل هذا المفهوم الجانب النظري له، وما تواردت عليه من استفهامات واحتمالات مفاهيمية تهم العوامل المساهمة فيه وعناصر تكوينه، ومتعلقاته من أسس وقواعد، وأهداف وغايات، إلا إنه علىٰ الرغم من الإشكالات المفاهيمية التي تواردت عليه خاصة بين العموم والخصوص، لم يغب عن هذا المفهوم رؤيته للجانب التطبيقي ورؤيته الواقعية والعملية والجوانب المتعقلة بالمحددات أيضاً فضلاً علىٰ التباين الواضح في مؤشرات التنمية ومقاييسها عند الدول والشعوب، وهذا ما ستتعرض إليه لاحقاً في المباحث القادمة إن شاء الله.

فالتنمية البشرية هي عملية علمية مدروسة، مخطط لها، محددة الأهداف، تدار من الفرد أو المجتمع أو من كليهما، تسعىٰ الىٰ إحداث تطور وتقدم، وتنعطف بالمستويات كافة، لا تحدها حدود فهي تطرق جميع أبواب مجالات الحياة كافة التي تؤثر في الفرد والمجتمع، فكل تلك الأهداف تُسقىٰ من منبع رؤية كونية محددة تهدف لتحقيق التطور المعّول عليه، والتعامل مع كافة الوسائل الممكنة والمسموح بها من آليات بشرية ومادية ومعنوية، هدفها التغيير الشامل بطفرة

---

(١) مسار التنمية البشرية،٢١ www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nath-rat.pdf موقع لكتروني.

تنموية خدمة للإنسان والزمن الذي يعيشه والمكان الذي يستوطنه، وذلك ببعث الإيجابية والمستوى الأفضل والأجدر منتقلين به – الإنسان– من غير المرغوب إلى المرغوب، ومن الحسن إلى الأحسن.

وبمقتضى أهمية الإنسان ومحوريته في التنمية البشرية فان البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة قد حدد التنمية البشرية على أنها (توسيع خيارات البشر)[1].

فلابد من أن يكون الخطاب النظري والفكري لمفهوم التنمية البشرية على أساس ثقافة واقعية تتبنى الثوابت وقابلة للتغيرات الجزئية، لغرض التعاطي معه بجدية متفاعلة معه بالتطبيق والممارسة العملية، أي أن ينتقل بالنظرية وخطابها الفكري إلى واقع وسلوك إجرائي يروض وينمي مهارات الإنسان اللينة عبر البيئة الايجابية التي تحيط به منتقلاً بهذا التغير الايجابي إلى أفراد آخرين لتعميم تلك الظاهرة الفردية إلى ظاهرة اجتماعية، إذ المجتمع التنموي مجموعة من أفراد تنمويين.

ولهذا نستطيع القول إن مفهوم التنمية البشرية هو من جنس المفاهيم القليلة والنادرة التي تجمع بين البعد النظري و العمق العملي، وأن نظريته لها القدرة على الفعل والتفاعل لتجسيد الجانب التطبيقي وتفعيله على أرض الواقع.

إذن فبغض النظر عن الانتقال والتطور للبناء المفاهيمي للتنمية البشرية – الذي سنتحدث عنها في مباحث لاحقة – فإنه استطاع بعد عدة قفزات أن يكون أكثر شمولاً، حيث أصبح يمس جميع المجالات الحياتية للبشر، المادية منها والمعنوية، متعايشاً مع كل بيئة اجتماعية بظروفها الخاصة، وذلك للمرونة النظرية التي

---

(١) تقرير التنمية البشرية العربية للعام ٢٠٠٤م، ١.

أكدناها سلفاً، والتي تعطي الخيار للفرد أو لمجموعة أفراد أن يختاروا ما يناسبهم، على أساس أن الغاية هو تلبية حاجات الفرد، وسعة خياراته المبنية على الأسس النظرية للقناعات الفكرية.

وبمقتضى تحديد الأمم المتحدة لتعريف التنمية البشرية سندخل في مشكلة نظرية من جهة وعملية تطبيقية في الوقت نفسه، حين نرفع محددات التنمية البشرية ونطلقها بوصفها (توسيع خيارات البشر)، عندها سنجد على أساس ذلك تبايناً بين مجتمع وآخر في توسيع هذه الخيارات، من دون الالتفات إلى ضوابط وأسس، وهذا ما ستعم على أثره الفوضى، مما اضطر الباحث الى أن يؤكد في تعريفه الإجرائي قيد الخيارات والحاجات بالمشروعة ، حين قال: التنمية البشرية هي: عبارة عن عمليات إجرائية منظمة على وفق رؤية فكرية منتخبة تهدف لتطوير القوى الكامنة في الإنسان بصقلها وتوجيهها نحو تحقيق طموحاته بغية إشباع حاجاته المشروعة في شتى مجالات الحياة.

وعليه فأبعاد مفهوم التنمية البشرية سيكون ذا بعدين رئيسين:

البعد الأول: الاهتمام بالإنسان وبمستوى تطوره في كافة مراحل مجالاته بغية الارتقاء بقدراته وإمكاناته وطاقاته البدنية والروحية والعقلية والنفسية، والذاتية والاجتماعية، وبقية المجالات الأخرى، بوصفه هو الهدف وهو الأداة والوسيلة في الوقت نفسه ، لذا عُد مفهوم التنمية البشرية مفهوماً مركباً، كونه مجموعة من العمليات التي تسعى لتحقيق خيارات الإنسان المشروعة بوصفه موضوع وجوهر العملية التنموية.

البعد الثاني: إن مفهوم التنمية البشرية له من المرونة ما يؤهله أن يتصل مباشرة

باستثمار كافة الموارد التي توّلد منها نتاجاً ينمي القدرة البشرية ويطور الهيكل البنائي والتنظيمي والإداري لتلك الموارد، التي سيكون نتاجها متداخلاً ومتفاعلاً لينتهي بالمنفعة للإنسان.

وأخيراً نستطيع أن نستخلص أن العلاقة بين المفهومين علاقة وثيقة يمكن تصويرها بعلاقة التلازم التي لا تنفك إلا بإلغائهما معاً، وإن تباينا في محدداتهما وغاياتهما ومنهجهما، لافتقار التنمية البشرية إلى روافد اقتصادية وكذا في التنمية الاجتماعية أو الاقتصادية أو أي تنمية أخرى لابد لها من روافد بشرية، وما هذا إلا آلية واقعية لتكامل المفهومين معاً على حداً سواء.

(٣) : مفهوم التنمية البشرية وعلاقته بالمفاهيم الأخرى.

سبق أن تحدثنا عن التنمية البشرية تحت عنوان التنمية البشرية اصطلاحاً، وعن علاقتها بالتنمية بمفهومها العام، ولاستيعاب صور البحث جميعاً إلى رؤية متكاملة عن مفهوم التنمية البشرية صار لزاماً العودة مرة أخرىٰ الى مفاهيم جديدة لبيان علاقتها بموضوع البحث.

إن اهتمامنا بأي مفهوم يعني اهتمامنا بماهية الموضوع، ولهذا نجد أن جهد الباحثين يُكرس في مثل هكذا مواضيع لتكون منطلقاً لبيان متبنياتهم، وما تعريف التنمية البشرية وتحديد مفهومها بخارج عن هذا ، حيث يترتب علىٰ ذلك بعداً واضح المعالم لما ينتهجه ، فعلىٰ ضوء المفهوم والتعريف تتضح الأسس ويترتب بناء الصيرورة التنموية لهذا المجتمع أو ذاك، بل لحاضره ولبيان معالم مستقبله، وعلىٰ أساس ما تقدم سيتضح حجم حضارة هذا المجتمع أو ذاك.

لقد ذكرنا في ما تقدم انه قد يتبادر للمتلقي عند سماعه لكلمة التنمية إنها مرتبطة بالجانب الاقتصادي، أو بعبارة أدق أنها مرتبطة بعلم الاقتصاد، و ذكرنا إنه إلىٰ حد ما نستطيع أن نؤيد ذلك باعتبار أن العمق التأريخي لهذه الكلمة قد أخذ هذا الحيز فعلاً، فقد استعملت هذه الكلمة للتعبير أو للدلالة علىٰ إجراء مجموعة من الخطوات المدروسة والعلمية لغرض بث الروح فيها علىٰ شكل إجراءات عملية تهدف وتؤثر تأثيراً جذرياً في تحسين الإنتاج والنمو الاقتصادي، ومن ثم يكسب الفرد والمجتمع القوة علىٰ النهوض والارتقاء بنفسه لإتمام عملية التطور والتقدم.

والتنمية البشرية هي عملية ترمي إلىٰ توسيع خيارات الإنسان المشروعة

وتطوير قدراته وإسنادها من أجل استثمارها خدمة لمشروع يكون رأسماله الإنسان وهو الوسيلة والغاية، لأنه هو جوهر التنمية وموضوعها ومحورها وهو رأسمال الحضارات.

ولكي يكون هذا المشروع أشمل وأعم يجب أن يغطي مجالات الحياة كافة، ويكون أحد أركانها الجانب الاقتصادي لتغطية متطلبات الحياة وتكتمل لتسع الجانبين المادي والمعنوي خدمة وتلبية لمتطلبات واحتياجات الإنسان الأساسية حتى الكمالية على حد وجهة نظر بعض من المهتمين بالتنمية البشرية، فهي تعني الانعطاف بإمكانات الإنسان من أَسْر الجهل والمرض والفقر، وكل المصاديق ذات البعد التخلفي والارتقاء به إلى أعلى مراتب الرقي والكمال لبناء حضارة إنسانية مبنية على أساس العلم والعقل والمعرفة والإرادة والحرية وباقي المصاديق ذات البعد التقدمي والحضاري.

وبعد أن توصلنا إلى رؤية إجمالية لمفهوم التنمية البشرية، ارتأينا أن نعرض بعض المفاهيم التي ترادف هذا المفهوم أو قد تشاطر تكامل مفهومه، أو التي تُعد احد العناصر التكميلية المكونة لمفهوم التنمية البشرية، علماً أن اغلب هذه المفاهيم التي سنتناولها تُعد مقدمة تسامت لتّكون الأرضية الأولى لهيكلية التنمية البشرية.

ومن هذه المصطلحات أو المفاهيم هي:

- **الموارد البشرية.**
- **الحاجات الأساسية.**
- **حقوق الإنسان.**

قبل بيان علاقة مفهوم التنمية البشرية بهذه المفاهيم والمصطلحات فإنه قد

يثار تساؤل او اشكال يدور في أذهان المهتمين والمطلعين بخصوص علة التمييز بين التنمية البشرية والتنمية بمفهومها العام وبين علاقة المفهوم نفسه بالمفاهيم المذكورة آنفاً، نقول: نعم، قد يكون هذا الإشكال في محله، هذا إنْ لم نعرف الغاية من هذا التمييز بين مفهوم التنمية والمفاهيم المذكورة آنفاً ، قياساً بمفهوم التنمية البشرية، والواقع أن المفهوم الأول "التنمية" يُعدّ مفهوماً مستقلاً تماماً عن مفهوم التنمية البشرية، يختلف عنه في الأسس والموضوع والمنهج والأدوات والغايات والأهداف بل حتى النتائج، وهذا ما وضحناه في المطلب السابق، لذا كانت غايتنا في إفراده كمفهوم في مطلب مستقل عن بقية المفاهيم الأخرى التي سنتناولها في هذا البحث وذلك لبيان أهميته ومزاياه.

والواقع إن (الإنسان) بوصفه عنصراً في مفهوم التنمية هو وسيلة مهمة وعنصر أساس في الإنتاج، أي في النمو بغض النظر عن أي تنمية كانت، تنمية اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية.....الخ، وسيكون الإنسان في هذا الميدان بمثابة رأسمال مساوٍ لبقية رؤوس الأموال الأخرى، ولهذا ذهب بعض الكتّاب (إلى الاهتمام والتركيز على أهمية العنصر البشري في الإنتاج، وجعلوا الهدف من تنمية الموارد البشرية تحقيق التنمية الاقتصادية، كما جعلوا تنمية هذه الموارد بمثابة رأس المال البشري الذي يقابل رأس المال المادي)[1].

ولهذا كان يُنظر إلى الإنسان نظرة اقتصادية بحتة، وقيمته النقدية على قدر انتاجه، ومكانته على قدر تفاعله في دوران عجلة الماكينة الاقتصادية، فهو احد

(١) جمال محمد أحمد عبدة، دور النهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ٨٩.

عناصر رأس المال، ويُنظر إليه أيضاً على أنه أحد أنواع رؤوس الأموال المتباينة لتباين جهد كل إنسان عن الآخر في قدراته ومؤهلاته مقاساً بحسب إمكانياته على العطاء والإنتاج.

وتأسيساً على ما تقدم فالتنمية هي عملية تغير حسنة مدروسة وموجهة هدفها إشباع حاجات الإنسان وتؤثر ايجابياً في نمط العلاقات المختلفة بأقصر وقت ممكن، هذا هو مفهومها عموماً وإنْ كان ينظر إليها على أنها نتاج الحدث القادح لديمومة أو لحاجة الجوانب الأخرى، (فقد أرتبط مفهوم التنمية في كثير من المناسبات والدراسات بالتنمية الاقتصادية باعتبارها أوضح صوره للتنمية، إذ يُعّرفها الاقتصاديون بأنها عملية زيادة الدخل القومي الحقيقي واطراد هذه الزيادة خلال مدة زمنية طويلة بحيث تكون هذه الزيادة أكبر من زيادة عدد السكان)[1].

والحق أن التنمية قد يكون المحور والمعيار فيها الجانب الاقتصادي، وقد يكون ذاته أحد مصاديق التنمية البشرية المهمة والأساسية، إلا أننا لا نستطيع أن ندعي أنه الوحيد، وكذا هي الحال لبقية المجالات كالتنمية الاجتماعية أو غيرها من مجالات التنمية الأخرى، ويبقى لمفهوم التنمية مساحة تسع للمجالات الأخرى على الرغم من حتمية وأهمية الجانب الاقتصادي، وبالرغم من تأثيراته على الفرد والمجتمع والذي سيلبي احتياجات الإنسان ومتطلباته الكثيرة، فإن وجهة نظر الباحث تشير إلى أن تأثير النمو الاقتصادي، بل حتى تأثير التنمية بمفهومها العام لا يُلبي احتياجات ومتطلبات الإنسان مادام موضوع المفاهيم يختلف، والذي سيترتب على

(١) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلى علم التنمية، ٦٥.

تباين المفاهيم، تباين موضوعاتها والرؤية والمنهج والسبيل، والدليل على ما ذهب إليه الباحث هو: أن التنمية لا تتحقق في حال ارتفاع متوسط دخل الفرد، وكذا هو الحال للتنمية البشرية، لذا فسوف لا نستطيع تسميته بالعنوان نفسه لعدم انطباقه على المُعنون، لعدم منال وإحراز أهدافه العليا لأن ذلك سوف يؤول إلى أن يكون هناك نضوج في مجال دون مجالات الحياة الأخرى، مما سيفقد المفهوم خصائص مهمة تربك ماهيته بفقدان بعض عناصره أو خصائصه كالتكامل والشمول، ومن هنا نستطيع تحديد الفارق الحقيقي بين مفهوم التنمية التي مرادها تلبية طموحات معينة محدودة منحسرة وبين مفهوم التنمية البشرية التي تُعد التنمية أحدى مجالاته، خدمة لتنمية الإنسان وما يحيط به.

بينما نجد أن المفاهيم الأخرى التي سنتناولها في هذا المطلب قبال التنمية البشرية ليس لها تلك الاستقلالية الواضحة كما هي حال التنمية، إذ أن مفهوم (الموارد البشرية، حقوق الإنسان، الاحتياجات الأساسية) جاءت مقدمة للتنمية البشرية، وبعبارة أدق نستطيع أن ندعي أن ولادة التنمية البشرية لم تأت من فراغ بل جاءت نتيجة طبيعية لتلاقح الأفكار ونضوج تلك المفاهيم التي توارثها العقل البشري بعد الحرب العالمية الثانية وما قبلها، حيث بدأ الإنسان يبحث بجدية عن بديل لينقذ نفسه والعالم، فجاءت فكرة المفاهيم المذكورة آنفاً والتي عدت طريقاً مؤدياً وموصلاً إلى التنمية البشرية ونضجها الاصطلاحي.

وبعبارة أدق نقول: بما أن نهج التنمية البشرية يسعى لتغيير نمط الإنسان وحياته من حال إلى أحسن حال بتوسيع خياراته المشروعة التي تليق بمقامه، زيادة على انه النهج الذي يرتكز إلى الواقعية المستمدة من التجارب الحياتية، وانه مفهوم متحرك

مرن بعيد الأفق والرؤية، ومنفتحاً يؤمن بالتطور على نفسه وعلى الصعيدين النظري والعملي، شريطة البقاء على الثوابت الرئيسة والمعطيات الضرورية، وبما أن المنهج يهتم أيضا بالأولويات الأساسية والضرورية، فإن هذا سيتطلب مقدمة لهذا المنهج وان يكون هناك مبدأ الحاجات الأساسية وحقوق الإنسان وغيرها من المفردات التي كانت ولادتها متتالية قبل ولادة مفهوم التنمية البشرية الذي تكاملت صورته بها.

وهذا ما لمسناه جلياً (في العقد الأخير من القرن الماضي، حيث تنامى الوعي بقيمة الإنسان هدفاً ووسيلةً في منظومة التنمية الشاملة، وبناء على ذلك كثرت الدراسات والبحوث والمؤتمرات التي عقدت لتحديد مفهوم التنمية البشرية وتحليل مكوناتها وأبعادها، كإشباع الحاجات الأساسية، التنمية الاجتماعية، وتكوين رأس المال البشري، أو رفع مستوى المعيشة أو تحسين نوعية الحياة)[1].

---

(١) المكتبة الإسلامية على شبكة إسلام ويب، حسن بن إبراهيم الهنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، مفهوم التنمية، موقع إلكتروني، http://www.islamweb.net/newlibrary/index.php.

- **الموارد البشرية[1].**

قبل أن نتوسع في حقيقة وماهية هذا المفهوم لابد من أن نشير إلى موقع هذا المفهوم من خريطة عملية الإنماء، وفي الواقع أن محل الموارد البشرية يُعدّ عنصراً مهماً من عناصر التخطيط الذي لولاه لم يتحقق المبتغى والهدف، فهو أحد خمسة عناصر مهمة، وهي: (السياسات، والوسائل والأدوات"الموارد المادية والبشرية، الإجراءات، البرامج الزمنية، الموازنة التخطيطية "التقديرية)[2].

ومن خلال قراءتنا لموقع خارطة الإنماء نجد للمورد البشري مكانة رفيعة، إذ بدونه لا يفلح أي عمل ولا تطبق أي خطة، ومن هنا نجد هناك تداخلاَ واضحاَ من حيث هوية المفهوم والوظيفة والسبل بين مفهوم رأس المال البشري (الذي نشأ في الستينات وهو يتناول رأس المال البشري من حيث التعليم والمهارات والمعارف، من منظور مشابه لرأس المال المادي كالآلات وسواها، وهذا يتطلب منا التركيز على تعزيز قدرات الأفراد، وتحديداً بتزويدهم بالمهارات والتحصيل العلمي وقد

---

(١) هناك فرق بين رأس المال البشري وبين الموارد البشرية، فقد فرق بينهما الباحثون والمهتمون، عرف الأول : ويقصد به القدرات الإنتاجية للأفراد سواء الموروثة أو المكتسبة بينما عرف الثاني على أنه: تنمية الإنسان باعتباره المحرك الرئيس لعمليات الإنتاج كما انه في نفس الوقت المستهلك، ويتوقف استغلال الموارد الطبيعية على قدرة الإنسان على الابتكار وتطور الموارد، ومن هنا كان التدخل بين هذين النوعين من الموارد. ظ: حسام الدين الرب، معجم مصطلحات التنمية البشرية، ١١٥.

(٢) محمد عساف، أصول الإدارة، ١٥١ – ١٥٢.



أثر هذا المنهج على نشأت نهج التنمية البشرية)[1].

فعلى الرغم مما أُكِّد بأن نهج الموارد البشرية كان مؤثراً في نشأة مفهوم التنمية البشرية وولادته فإن الكثير من المفكرين كان قد عمل على (تضمين مفهوم التنمية البشرية في نهج الموارد البشرية، لكن منهج الموارد البشرية يبقى محدداً بالمقارنة مع منظور التنمية البشرية الواسع والشامل، وحُدد نهج التنمية البشرية كمورد من موارد الإنتاج، لما يعُزز الفكرة القائلة بأن الأفراد هم فقط وسيلة للتنمية، وإذا كان لابد من الاعتراف بقيمة الأفراد كوسيلة من وسائل الإنتاج، يبقى من غير العادل النظر إليهم من هذا المنظور الحصري)[2].

وبسبب محوريته في عملية الإنماء وبضرورة الاعتراف بقيمته كوسيلة مهمة من وسائل الإنتاج نجد أن اهتمام أصحاب الشأن بهذا المفهوم كان واضحاً فبالرغم من تباينهم في تحديد منطوق يحدهُ، فإنهم اتفقوا على انه مصدر النفع والإنتاج، فهو (كل إنسانٍ يكون مصدراً للنفع، أو مكاناً للنفع، أو طريقاً إليه، أو يمكن له أن يكون كذلك)[3].

ويظهر من هذا التعريف أن للموارد البشرية احتمالين: أحدهما فاعل فيعد مصدراً للنفع، والآخر كامن في طريقه للنفع والإنتاج.

---

(١) مسار التنمية البشرية،٣٤، www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

(٢) المصدر نفسه ، ٣٤.

(٣) جمال محمد أحمد عبدة، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ٤٥ .

فعلى أساس ما تقدم نُظر للمورد البشري على أنه رأسمال مهم وفعّال وجوهري، ونُظر إليه أيضاً على أنه المصدر الحقيقي للارتقاء بالمؤسسة أو المنظمة التي ترنوا أن تنتقل بنفسها من حال إلى حال أفضل، فهو (العنصر التنظيمي الوحيد القادر على استيعاب المفاهيم والأفكار الجديدة التي تساعد على استغلال الفرص ومواجهة التحديات التي تفرضها الظروف البيئية الجديدة)[٤].

فالاهتمام بالموارد البشرية سيختزل الجهد والوقت والمال وسيوفر الكثير من الطاقات والإمكانات خدمة للمشروع، كل ذلك مبنيٌّ على أساس الاهتمام بهذا المورد وتطويره وإدارته إلى مستوى الكفاءة والإخلاص للمؤسسة والمنظمة التي ينتمي إليها المورد البشري كما ذكرنا سلفاً، لأن (البشر يشكلون أهم الأصول التي يمكن أن تمتلكها أي منشأة........ وينبع ذلك من منطلق أهمية التعامل مع العنصر البشري برعاية وعناية فائقتين، وأن العنصر البشري مصدر غير ملموس يستحق أن يعطى الوقت والاهتمام الكافيين، بالإضافة إلى ذلك لا بد أن ينظر للعنصر البشري كأصول ذات قيمة عالية وليس كمصدر للتكلفة)[٥] فيتحول الهدف من منظاره الإنساني الى منظار آلي أو أداتي او اقتصادي فحسب.

فلم يُختلف في أهمية ومحورية العنصر البشري بتاتاً كونه العنصر القابل للتغيير والتطور والقادر على التأثير والتأثر وتطوير ما يحيط به، لا لشيء إلا لأن الإنسان له ملكات وإمكانيات تميز بها من بقية الموجودات (ليس لأنه لا ينضب فقط، بل لأنه

---

(٤) مؤيد سعيد السالم، إدارة الموارد البشرية مدخل استراتيجي تكاملي، ٢٦.

(٥) جوناثان سيملانسكي، ، إدارة الموارد البشرية، ٨.

يتغذىٰ من ذاته، فبقدر ما يستغل هذا المورد بقدر ما يتعلق ويتطور ويزداد غنىً، وهنا يكمن بعدهُ الوحيد مقارنة مع ثروات الطبيعة الأخرىٰ)[1].

فبمقتضىٰ ما تقدم نجد أنفسنا مرغمين علىٰ التسليم بجوهرية ومحورية مفهوم المورد البشري لأنه أحد أهم الموارد المهمة والعناصر الأساسية في عملية الإنتاج والتطور، وتماشياً مع رواد هذا المذهب الذين عدوا هذا المفهوم عاملاً وعنصراً في إنجاح المنظمة أو المؤسسة ورائداً متميزاً عن بقية الثروات الطبيعية، إلا أننا نقف هنا مضطرين لبيان البون الشاسع بينه وبين التنمية البشرية التي تعد المورد البشري غاية كما هو وسيلة، بل سعت لتوسيع كافة الخيارات أمامه، وما هذا إلا عين الفارق بين المعنيين، كون الأخير عُدّ مفهوماً مركباً نابعاً من جملة العوامل المتعددة والمتنوعة والمتفاعلة فيما بينها وبين البيئة التي تحيط بها بغية نيل طموحات وخيارات الإنسان (المورد البشري).

ولتداخل وتقارب المفهومين فما زال يعمهما الغموض (ولا زال الخلط قائماً بين التنمية البشرية وتنمية الموارد البشرية..... إلا أن للتنمية البشرية جانبين، الأول: هو تشكيل القدرات البشرية مثل تحسين مستوىٰ الصحة والمعرفة والمهارات، والثاني: هو انتفاع الناس بقدراتهم المكتسبة أما بالتمتع بوقت الفراغ أو في الأغراض الإنتاجية أو في الشؤون الثقافية والاجتماعية والسياسية)[2].

---

(١) جان مارك لوغال، إدارة الموارد البشرية، ٥ و ٦.

(٢) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، الدكتور: نبيل النواب، الجهود العربية في تبني مفاهيم وإعداد تقارير التنمية البشرية المستدامة (تجربة سلطنة عمان) ٣٥١.

فالمورد البشري في مفهوم التنمية البشرية يُعدّ هدفاً في حد ذاته على خلاف مفهوم المورد البشري الذي يُنظر إليه على أنه وسيلة وأداة، ومن هنا عُد المورد البشري المحور والمنظم والمطور في ذاته، والبيئة التي تحيط به في منظور التنمية البشرية، فهو يؤثر في مجالات الحياة كافة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، كما نجده يفتقر لخياراته فيها.

وخلاصة ما تقدم أن تنمية الموارد البشرية تعني إنها العملية التي تضمن استثمار المورد البشري وتنمية قدراته وإمكاناته لتطوير المنظومة التي يرتبط بها المورد لتحسين مستوى الأداء والإنتاج وإتاحة المنفعة المرجوة من خلال تنمية قدراته البدنية والمعرفية والنفسية والفنية والاجتماعية.

لذا نستطيع القول إن التنمية البشرية تتجلى بتعزيز وقبول ما ذكر أعلاه يزاد عليه الاهتمام بالنمو الإنساني خدمة لذات الإنسان ولتحقيق ما يسعى إليه من خيارات.

- **حقوق الإنسان .**

لمفهوم حقوق الإنسان علاقة واضحة بمفهوم التنمية البشرية، فإننا نعتقد أن المفهوم الأول كان مقدمة حتمية فرضها العقل البشري حينما سعى جاهداً إلى أن يدرك حقيقة التنمية البشرية، وأوجه التقارب بين العلوم المتباينة في ميدان المعرفة، فالمتأمل (في سيرورة التأريخ وما يرافقه من تطورات وتغيرات على جميع المستويات لابد أن يدرك ذلك التقارب والتلاقي بين ميدان التنمية البشرية وخطاب حقوق الإنسان فهناك تلاقٍ متدرج وإيجابي، إن السر في هذا التلاقي يكمن في جوهر

منظومة حقوق الإنسان وجوهر منظمة التنمية البشرية)[1].

وما يؤكد ذكر أعلاه في قوة الجذب بين المفهومين هو القول بـ(إن الحق مصلحة... والمصلحة هي المنفعة، ولا بعد الحق إلا إذا قرر الشرع والدين أو القانون والنظام والتشريع والعرف، ومن ثم يكون معنى الحق في موضوع حقوق الإنسان، مصلحة قررها الشرع لينتفع بها صاحبها ويتمتع بمزاياها فتكون واجباً والتزاماً)[2].

ومن هذه المصالح التي تُعّد حقوقاً للإنسان هي أن للحياة قيمة عُليا ينبغي أن تصان، وأن ينعم الإنسان بحق المساواة العادلة وفي الأبعاد كافة، سواء البعد الإنساني أم الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو القضائي، كما يُعدّ حق الحرية دعامة أساسية في هيكل حقوق الإنسان، وحق حرية الرأي والتعبير عن المشاركة السياسية ومصاديقها بإيجاد أفضل الوسائل الممكنة وصياغتها عبر قرارات تخدم الإنسان والمجتمع، ومراعاة وجود رؤية تضمن ضبط الحكام، والحد من ظهور حالة الاستبداد والظلم من قبلهم بإزاء الأمة، وكذا هي الحال في وضع المكانة الرفيعة للمرأة والأسرة التي تعد الركيزة الأساسية في بناء المجتمع وترسيخ قيمه، ومن الاهتمامات أيضاً هو ضرورة رعاية الأطفال ورعاية حقوقهم على مكانة العلم والتعلم الذي يُعدّ من حقوق الإنسان المهمة، وكذا هي حال العمل وتهيئة فرص

---

(١) تعقيب في ندوة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، النهضة العربية لحقوق الإنسان، الدار البيضاء، ٢٠٠٣.

(٢) محمد القطب، الإسلام وحقوق الإنسان، ٣٣.

العاملين، كما اتسم هذا المفهوم بتأكيد على حق التملك وحق الضمان الاجتماعي، وحق صيانة كرامة الإنسان، كما يُعدّ حق التقاضي من ابرز الحقوق[1] كذلك.

وبعد أن تكشفت لنا ملامح مفهوم حقوق الإنسان نجد هناك قواسم مشتركة بينه وبين التنمية البشرية، خصوصاً إذا نظرنا إلى هذا المفهوم بوصفه مقدمة لنضوج التنمية البشرية، فبغض النظر عن العمق التأريخي لمفهوم حقوق الإنسان والذي كان محل لبس وتوهم في تحديده واثر الرسالات السماوية – ومنها الرسالة الإسلامية – في بيان عمق هذا المفهوم في منظور الرسالة المحمدية، فإننا نستطيع أن نحدد موقعه من العقل البشري الوضعي، حيث نستشف ولادته كما ورد في كتب السياسة والقانون والدراسات الاجتماعية أن عهد الإنسان بالوثائق والشرائع التي بلورت حقوقه الإنسانية، قد بدأ بفكر الثورة الفرنسية الكبرى التي بدأت أحداثها

(١) ظ: غسان السعد، حقوق الإنسان عند الإمام علي رؤية علمية، ٤٧١ – ٤٧٦.

عام ١٧٨٩م[١] ، بينما نجد أن هذه المضامين والمعاني الإنسانية بدأت تشب وتتجلى في ضمير العالم لتستقر مضطرة عند عصبة الأمم المتحدة وميثاقها عام ١٩٢٠م، ثم في ميثاق الأمم المتحدة ١٩٤٥م، ثم أفردت دولياً بوثيقة خاصة هي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م[٢].

والمهم من كل ذلك إننا نجد قواسم مشتركة بينه وبين التنمية البشرية كما أشرنا من قبل، متلمسين أن أحدهما يكمل الآخر، وما يؤكد ما ذهبنا إليه (محورية البشر وأيضاً محورية الحرية ومبدأ الإنصاف حيث يمثل محور لكل المنظومتين، وإذا ما نظرنا في جوهر منظومة حقوق الإنسان لوجدنا مبدأ الحرية والتحرر الذي يسمح

---

(١) لقد تبنى أمانول جوزيف سييس وضع وثيقة حقوق الإنسان التي أقرتها الجمعية التأسيسية، والتي نصت هذه الوثيقة على حقوق الإنسان الطبيعية مثل حقه في الحرية، وحقه في الأمن وعلى سيادة الشعب كمصدر للسلطات في المجتمع وعلى سيادة القانون كمظهر لإرادة الأمة، وعلى المساواة بين جميع المواطنين وغيرها من الحقوق، إذ تعتبر هذه الوثيقة هي عين متبنيات نظرية جان جاك روسو في رؤيته لحقوق الإنسان،غير أن بعض الباحثين يرى أن ولادة هذا المبدأ لم يكن إلا على خلفية الثورة الفرنسية والتي لم تلد هي الأخرى إلا كنتيجة طبيعية عن غياب وتغيّب حقوق الإنسان بل لم يلد إلا بعد المجازر البشرية التي سببت ردود أفعال كثيرة توجت بالإعلان عن وثيقة حقوق الإنسان بعد أن أقرتها الجمعية الوطنية آنذاك، حيث (رأت أن ما ينزل بالمجتمع الإنساني من الكوارث والخطوب يرجع إلى سبب واحد هو جهل الحاكمين والمسؤولين بهذه الحقوق أو تجاهلها) المصدر: باقر شريف القرشي، الإسلام وحقوق الإنسان، ٢٥ ظ: محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات لا حقوق، ١٣ – ١٤.

(٢) ظ: محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات لا حقوق، ١٣ – ١٤.

بالمواساة بمفهومها القانوني والسياسي، وها نحن نجد الحرية هي جوهر التنمية البشرية، لأنه في تعريفها نرتكز على مبدأ الحرية)[١].

وعلى هذا الأساس سوف لا تتضح صورة التنمية البشرية بعيداً عن الحرية التي تعد العمود الفقري لمبدأ حقوق الإنسان، والمحور الأساس للتنمية البشرية، حتى باتت عموم معايير حقوق الإنسان مؤشراً حقيقياً وواضحاً لتنمية هذه الأمة عن تلك، مما شكل اختلافاً في الرؤى حول العلاقة بينهما طوال العقود الماضية، وخاصة في ظل الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية في بعض الأحيان، حيث اختلفت هذه الرؤى وفقاً لكل مرحلة، وتجسدت المرحلة الأولى بما يُصطلح به الجيل الأول لحقوق الإنسان وكانت حقوق مدنية وسياسية، ثم الجيل الثاني الذي يُطلق عليه الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، ثم الجيل الثالث وهو الحق في التنمية والبيئة [٢].

والمتتبع سيجد أن هذه الروابط المشتركة بين مفهوم التنمية البشرية وحقوق الإنسان حتمية، وإلا كيف سنرتقي بالإنسان وخياراته واحتياجاته التي تمثل التنمية البشرية وهدفها، إذا كان الإنسان مسلوب الحرية غير قادر على ترجمتها إلى واقع، ناهيك عن التعبير عن رأيه، ولهذا نجد أن العقل البشري قد اضطر إلى

---

(١) أمارتيا سين، التنمية حرية، سلسلة عالم المعرفة، ١٦.

(٢) ظ:هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا،
(http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267) موقع الكتروني.

إقرار حق الإنسان وحق الخيار وقوة الرابط بين المفهومين، وهذا ما أكدته أغلب المؤتمرات العالمية التي أُعدت من مفكرين مختصين في هذا المجال، فقد دعم المجتمع الدولي والأمم المتحدة لهذا الرابط، وذلك من خلال عدة مؤتمرات عالمية منذ سنة ١٩٨٦م، وكان أهمها: المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان في فيينا سنة ١٩٩٣م، ومؤتمر السكان والتنمية في القاهرة عام ١٩٩٤م، ثم مؤتمر التنمية الاجتماعية في كوب نهاكن سنة ١٩٩٥م....... وقد تبين من خلال دراسات الأمم المتحدة أن أكثر القضايا إلحاحاً هي عملية التنمية البشرية التي تؤثر في حقوق الإنسان هي: تخفيف حدة الفقر، القضاء على مشكلة البطالة، تعزيز التكامل الاجتماعي[1].

والحق أن قوة الرابط بين مبدأ حقوق الإنسان والتنمية البشرية، مؤسس على مدى التقارب والتوافق في كثير من الرؤى والأهداف والوسائل ومدى جدية تحقيقهما عند المفهومين، إذ أكدنا سابقاً أن مبدأ حقوق الإنسان مقدمة للتنمية البشرية، فالأول يدعم الرؤى ويشرع القوانين والحقوق ويعدها ضرورة من الجانب النظري كتنظيم المستحقات وترسيخ سلطة القانون والأفراد وحق المقاضاة، بينما نجد أن المفهوم الثاني "التنمية البشرية" يسهم بضرورة تمكين الإنسان من الاستفادة من هذه المعاني عملياً تحت مبدأ السعة في الخيارات أعلاه، فكأن الرابط بين المفهومين كالرابط بين المفهوم والمصداق أو بين النظرية وميدان

(١) ظ:هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا،
(http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267) موقع الكتروني.

تطبيقها، ذلك بان حقوق الإنسان مصداق من مصاديق التمهيد لتحقيق التنمية البشرية، ولا نبالغ في القول إذا صرّحنا بأن حقوق الإنسان من أهم موارد تحقق التنمية البشرية إذا لم يكن أصل منطلقها ومنطق تأصيلها في الفرد والمجتمع على حد سواء.

ومن خلال قراءتنا لتقرير التنمية البشرية الذي أصدره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة عام ٢٠٠٠م نجد أنه ربط بشكل مباشر بين حقوق الإنسان والتنمية البشرية. وبين التقرير أول مرة، أن ما يجمع بين حقوق الإنسان والتنمية البشرية هدف مشترك يتمثل في تأمين الحرية والرفاه والكرامة للجميع، وذلك بالعمل على التحرر من أشكال التمييز سواء كانت بسبب الجنس أم العرق أو الأثنية أو الدين، إلى جانب التحرر من الفاقه والمرض والخوف، وضمان حرية الفكر والكلام والمشاركة في صنع القرار والحق في مزاولة عمل كريم[(١)]، وهذا يعني أن التقرير أقر التزاوج بين المفهومين (حيث الرؤية واحدة والهدف واحد، وخلصّ هذا التقرير إلى أن التنمية البشرية لا تتحقق من غير ضمان حقوق الإنسان، وكذلك حقوق الإنسان لا تثبت في غياب التنمية البشرية)[(٢)].

بينما نجد أن (تقرير الأمين العام للأمم المتحدة في عام ٢٠٠٥م تحت عنوان"

---

(١) ظ: كريم أبو حلاوة، دور الثقافة في التنمية البشرية المستدامة، مرصد، www.almarsd.net/news.php?id=27 موقع ألتكروني.

(٢) مسار التنمية البشرية،٤٧، www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

في جو أفسح من الحرية نحو التنمية والأمن وحقوق الإنسان للجميع" على ترابط جميع هذه المجالات، وأشار التقرير إلى ما يأتي: العالم مدعو إلى الارتقاء بقضايا الأمن والتنمية وحقوق الإنسان مجتمعة، وإلا لن تتحقق أي منها، ولن تتمتع البشرية بالأمن في غياب التنمية، ولن تتمتع بالتنمية في غياب الأمن، ولن تتمتع بالتنمية والأمن في غياب احترام حقوق الإنسان)[1].

- **الحاجات الأساسية.**

يُعدّ مبدأ الحاجات الأساسية أحد المبادئ المهمة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم التنمية البشرية لوجود تقارب وتوافق في الرؤى والأهداف والأسس، إذ نجده قد اخذ حيزاً منه حاله حال بقية المفردات التي تحدثنا عنها، فمبدأ الاجات الأساسية قد تبلور في (أواسط السبعينات من خلال الاعتراف بأن النمو الاقتصادي لا يكفي وحده بالتخفيف عن الفقر، فالتنمية تستلزم نهجاً مباشراً لمعالجة حاجات الفقراء، فإلى هذا يُعنى نهج الحاجات الأساسية بدراسة السلع والخدمات التي يحتاج إليها الفقراء، مثل الغذاء، المأوى، الملبس، الرعاية الصحية، والمياه، ويدعو إلى تكوين احتياطي عام لتلبية هذه الحاجات الأساسية.

يركز نهج الحاجات الأساسية مثل التنمية البشرية على الفقراء ويدعو إلى اعتماد المزيد من الإجراءات العامة، بينما انبثقت التنمية البشرية من نهج الحاجات

---

(١) مسار التنمية البشرية،٤٨،
www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

الأساسية إلى أفق أوسع)[1].

فعلى الرغم من ذلك التقارب بين المفهومين والانسجام الواضح في النهج لكليهما، فإننا نجد هناك اختلافات عديدة ما تزال قائمة بينهما (فمنهج الحاجات الأساسية يركز أكثر على قطاعات محددة بدلاً من التركيز على مجموعة الخيارات البشرية، و يركز أكثر على توفير السلع والخدمات بدلاً من فوائد هذه السلع والخدمات بالنسبة إلى الأفراد، كما يُنظر إلى الأفراد كمستفيدين من التنمية، بدلاً من اعتبارهم عناصر فاعلة فيه)[2] فنلحظ أن الفارق يكمن في تحديد القطاع وتوفير السلع من حيث هي وعملية الإفادة منها فكأن منطلق مفهوم الحاجات الأساسية يعتمد على الجانب المادي والنفعي اكثر من تركيزه على الإنسان المستفيد بوصفه محور عملية الفائدة وأصل وجودها، فالمفهوم يعزل الإنسان عن التفاعل والانفعال والتطور ويقصيه إلى نطاق المستفيد المادي فالغاية سد حاجات الإنسان ، لا تطوير الإنسان والنظر لسد الحاجات باعتبارها جزءاً من عملية التطوير تلك بل أساس ان سد الحاجات تمكن المرء من بناء قدراته وتفتح له آفاق جديدة نحو الابداع والنجاح فضلاً عن أن الحاجات نفسها والسعي وراء تلبيتها وسدّها تعد دافعاً من دوافع التنمية البشرية.

فمفهوم الحاجات الأساسية وُلد على أساس وجود حاجة فعلية لمفردات

---

(١) مسار التنمية البشرية،٣٥ ، www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

(٢) المصدر نفسه، ٣٥ .

ضرورية يفتقر إليها الإنسان ويُعدّ نقصاً كما يُعدّ مطلباً ضرورياً يتناسب مع حاجاته ومتطلباته، وأن ولادة هذا المفهوم في مدة السبعينات من القرن الماضي ينم عن معنىً مفاده إن الإنسان باتت رؤيته تتكامل نتيجة للتجربة العملية التي انبثقت نتيجة عن حتمية واقعية مر بها الإنسان خلال تلك الحقبة الزمنية، أي بعد أن خرج من تجربة الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكأننا نريد أن نقول إن هذه الولادة – ولادة مفهوم الحاجات الأساسية– جاءت كرد فعل لإخفاقات نظريات وسياسات وضعية حمّلّتِ الإنسان في أغلب دول العالم ما لا يطيقه فبات فقيراً جاهلاً مشرداً عارياً مريضاً بلا مأوى ولا سكن.

نعم ولد هذا المفهوم من وجهة نظر الباحث كرد فعل عن ويلات ومعاناة الدول المُستَعمَرة التي فُرض عليها التخلف قصرا، أو لعدم جدية بعض الأمم والشعوب بترجمة مبادئها إلى واقع، أو لتبني بعضها الآخر سياسات ورؤى كونية منحرفة لا تتناسب مع فلسفة وجود الكون والإنسان وسد حاجاته – وهو أهم عامل من وجهة نظر الباحث – مما خلفت رؤى تنموية منحرفة أيضا مبنية على أساس أحادي، أو على أساس أحادية التنمية، وبتعبير آخر فإننا وجدنا نظرة قاصرة إلى الوجود والإنسان، إذ كان يُنظر إليهما بعين واحدة بعين الجانب المادي (الاقتصادي) البحت الذي أرّث لنا إرثاً فكرياً وأخلاقياً ضعيفاً هشاً، حتى بات الإنسان ضائعاً بين هذه المعادلة، فعاش فقيراً عن كل الاعتبارات ضحية النزعة الاقتصادية المادية، لأن أغلب الميادين التنموية كانت تؤكد الجانب المادي الذي يهتم بالتنمية الاقتصادية والتي مساحتها وهمها وهدفها زيادة الإنتاج وتطويره، ولو كان ذلك على حساب الجانب المعنوي أو ذات الإنسان، مما ممثلت هذه

الظاهرة صعوداً وتنامياً للقيم الفردية ونزولاً وتخلفاً وتراجعاً حتمياً للقوة المعنوية الاعتبارية، ولو تتبعنا فترة ولادة هذا المفهوم وتاريخه لوجدناها دليلاً يرفد الباحث بما ذهب إليه، فعند (السبعينيات قد شهد العالم ولادة منهج تنموي جديد يُعرف بمنهج الحاجات الأساسية، ولقد كانت منظمة العمل الدولية هي المبادرة إلى طرح هذا المنهج وتطويره)[1].

فمن الطبيعي جداً أن تكون ولادة مفهوم الحاجات الأساسية مبنية على أنقاض تلك الأزمة الفكرية أو الأزمة التنموية، ومما يحز في النفس أيضاً أن تلك الولادة لم تكتمل صورة وليدها في رحم الأزمات فولد غير متكاملٍ هو الآخر، حين حُدد للحاجات الأساسية الجانب المادي من دون الجوانب المعنوية إلا ما ندر، مما عدّ هذا المفهوم مقدمة حقيقية إلى حين نضوج الرؤية بتكامل نظرية التنمية البشرية، فأصبح مفهوم الحاجات الأساسية أكثر نضوجاً بل أصبح (نقطة هامة تتعلق بالتحول من مفهوم إشباع الحاجات الأساسية الذي يقتصر على التغذية والصحة إلى إدخال الجانب المعرفي)[2] فيه.

فخلاصة مذهب الحاجات الأساسية هو الاهتمام وتأكيد موضوع الفقر وما يتعلق به من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية، بغية الارتقاء بالإنسان وأحاطته

---

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، الدكتور: صلاح عبد الحسن، الإطار المفاهيمي المستخدم في عمليات قياس التنمية البشرية المستدامة وتحديد مستوياته ، ٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ٤١١.



ببحبوحة العيش الرغيد خارج دائرة الفقر، لذا عُدت الحاجات الأساسية أحدى السياسات الإستراتيجية لتنمية الشعوب وبلدانها منتقلة بها (من التنمية بمفهومها الممتزج بالتصنيع إلى التنمية البشرية مباشرة وذلك من خلال العمل على تحقيق العناصر الآتية:

- إتاحة فرص كسب الدخل للفقراء.
- توصيل الخدمات العامة للفقراء.
- توفير السلع والخدمات الأساسية من مأكل وملبس وصحة وتعليم.
- تمكين الفقراء من الحصول على الحد الأدنى من الفقرة السابقة لتمكينهم من الحياة والعمل.
- اشراك الفقراء في اتخاذ القرارات الخاصة بالكيفية التي يتم بها إشباع حاجاتهم الأساسية)[1].

وعلى وفق ما تقدم نقول إن مبدأ الحاجات الأساسية وبقية المفاهيم المذكورة آنفاً كانت بمثابة مقدمة فرضت نفسها حتى نضج مفهوم التنمية البشرية للعقل البشري، كما تُعد هذه المفاهيم جزءاً لا يتجزأ من تركيبة التنمية البشرية وصيرورتها التكويني.

ولا يفوتنا أن نشير أن هناك مصطلحات أخرى كثر الحديث عنها كانت بمثابة مقدمة لمفهوم التنمية البشرية، أو كانت تتداخل معه في بعض المطالب، أو تتحد

---

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، التنمية والتنمية البشرية المستدامة (النشوء والارتقاء المفاهيمي الإشكالي)، ١٠٢.

لتحقيق هدف ما، كما كان البعض منها تُعد نتيجة له لكونها أكثر حداثة منه، ومن تلك المفاهيم أو المصطلحات هي: مفهوم رأس المال البشري والأمن البشري وسبل العيش[1] .

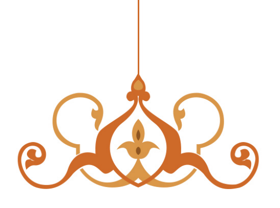
(١) يُعد هذا المفهوم من المفاهيم المهمة لقربه وتداخله مع مفهوم التنمية البشرية، لأن نهج سبل العيش يعمل على نهج التنمية البشرية، فهو يشدّد هذا النهج على أهمية دور الأفراد في التنمية من خلال التركيز على سبل عيش الفقراء، كما يدعو إلى المشاركة واعتماد نهج المستويات المتعددة كونه يعترف بالروابط الجزئية والكلية ذات الصلة بسبل العيش، كما يعد هذا المفهوم من المفاهيم المتطورة أو المرنة لاعترافه بالحاجات الناشئة والتغيرات في أوضاع الأفراد.

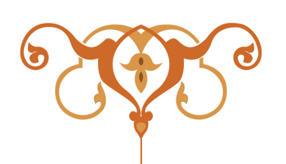
وعلى أساس ما تقدم فإن الموارد والموجودات المتاحة للأفراد ستدخل في صميم نهج سبل العيش، والتي نعني بها: الموارد الطبيعية، والتكنولوجيا، والمعارف، والصحة، وبلا شك سيتأثر الأفراد على أساس ما ذكرناه إزاء الاتجاهات السياسية، والصدمات الناتجة من الكوارث الطبيعية والتغيرات الموسمية في الأسعار وغير ذلك، وبالتالي سيحتم على الأفراد اعتماد إستراتيجيات معيشية في ظل تغيّر الظروف الاجتماعية، والمؤسسية، والسياسية، والبيئية.

كما يُعد نهج سبل العيش النهج الأقرب إلى نهج التنمية البشرية، حيث الإنسان في الحالتين هو الشاغل الأساسي، والهدف هو معالجة مختلف العناصر الأساسية ذات الصلة بالتجربة البشرية، ويركز على ضمان استدامة نهجه فضلا عن نموه، ويركّز أيضا على أبعاد ذات أولوية منها توليد الدخل والأنشطة الإنتاجية. ظ: مسار التنمية البشرية،٢٠.

www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.







التنمية البشرية وأسسها الوضعية

ثانياً: أصالة التنمية البشرية ومراحل تطورها.

١- أسس التنمية البشرية وعمقها التاريخي.

٢- تطور مفهوم التنمية البشرية ومراحل نضوجه الاصطلاحي.

٣- الرؤية العصرية للتنمية البشرية (التنمية البشرية المستدامة).



(أ) : أسس التنمية البشرية وعمقها التأريخي.

لقد تعارف عند الباحثين أن التأريخ عُني بتدوين أحداث الماضي والاهتمام بما نُقل من تلك الأحداث والمواقف والمواضيع التي مثلت محور صفحاته، لذا عُد التأريخ عند بعض المهتمين على (أنه نوع من أنواع البحث العلمي، الغاية منه الكشف عن حقيقة الأشياء التي تضمنتها جهود الإنسان في الماضي لتقويمها)[١].

دأب المهتمون والباحثون إلى معرفة أسس التنمية البشرية وعمقها التأريخي، والحق إن البحث عن عمق تأريخ التنمية البشرية، وأول من أهتم بها، موضوع قد لا نستطيع الإجابة عنه بدقة، حيث لم يكن في حينها محل اهتمام الباحثين به بوصفه علماً أو فناً مستقلاً بذاته، على الرغم من ممارستهم لهذا الاهتمام من دون إفراده عن بقية المباحث والعلوم.

ولكي نسير على خطى علمية متأنية ودقيقة، كان لزاماً علينا اعتماد قواعد في منهج البحث العلمي، لذا اقتضى أن نحدد المفهوم الذي يجب تناوله ثم نحاول البحث والتحقيق عن مصاديقه في عمر الماضي البشري، ومن هنا كان اهتمام الباحث وتأكيده المفهوم في المطالب السابقة، كونه - المفهوم - سيحدد معالم وحدود المطلب الذي نبحث عنه، حيث عَدّ الباحث دراسة تأريخ التنمية البشرية هو السبيل للوصول إلى مصداق لوجود هذا المفهوم في العمق التأريخي، كما عد استكشاف الخطوات العملية لتجارب الماضين والإفادة منها أمراً ضرورياً لبيان مصداق المفهوم عند الأمم السالفة، شريطة أن يكون هذا الاستكشاف عبر نافذة

---

(١) رابوبرت، مبادئ الفلسفة، ٩.

الموضوعية لمعرفة الحقائق، لاستخلاص ما سيترتب عليه من نتائج تُعين الباحث وطلاب العلم بالنظر في مباحثهم ومطالبهم.

وبعد تحديد المفهوم أخذ الباحث منحىً بعض الباحثين الذين ذهبوا إلىٰ أن التنمية البشرية كانت لها حركة ميدانية علىٰ مدىٰ التأريخ، (وإن كان الأولون لم يستخدموا هذا المفهوم ــ أي التنمية البشرية ــ إلا أن المعنىٰ الذي أوردته تلك البحوث يتفق والمعنىٰ الذي ندرسه مع الأخذ بنظر الاعتبار طبعاً التذبذب من حيث البعد والقرب من المعنىٰ الذي نطرقه الآن تبعاً لطبيعة تلك البحوث والباحثين)[1].

بيد أننا إذا أردنا تحديد الانطلاقة الأولىٰ لهذا المفهوم فإننا نرىٰ أن انطلاقته كانت مع الولادة الأولىٰ للإنسان، كون الإنسان مجبولاً علىٰ الارتقاء بنفسه وكذا مجبولاً علىٰ أن يطرق مجالات الحياة كافة باحثاً عن ذاته لتحقيق طموحاته الشخصية وتحسين مستواه علىٰ جميع الأصعدة.

فلو تتبعنا الأحداث التأريخية ببعدها الزماني والمكاني لوجدنا أن الإنسان قد تطور وانتفض وقاتل وثار وزرع وحصد، وكذا جسد بقية الصور الحياتية ليرتقي بنفسه محققاً التطور والإنماء بوصفه مصداقاً حقيقياً للتنمية البشرية.

فالباحث يؤكد أن التنمية البشرية لها مساحة واقعية علىٰ مدىٰ التأريخ، إذ كانت لها أسس وقواعد قد مارسها الإنسان الأول عملياً منذ وجوده، وظل هكذا ليومنا هذا، وإن اختلف تحديد مفهومه ومصداقه من أمة لأخرىٰ، بحسب الظرف

---

(١) اشواق عبد الحسن الساعدي، الثقافة والتنمية البشرية، ٤٣.

الزماني والمكاني والرؤى الفكرية التي يعتمدون عليها والآليات والأدوات التي يطبقونها لتباينها هي الأخرى على وفق الخلفية الثقافية لذلك المجتمع أو ذاك، فضلاً عن تباين ذات مفهوم التنمية البشرية بين المجتمعات، إذ عُدّ مفهوماً متطوراً عند بعض المجتمعات، حيث مرّ بمراحل مختلفة الى أن تبلور ليأخذ حيزه وملامح شكله الحالي.

فعلى الرغم من تباين بعض الجزئيات أوالآليات أو التطبيقات أو المؤشرات، فإننا وجدنا أن مفهوم التنمية البشرية لم يقفز على محدداته أو كلياته وأسسه الرئيسة، بل لم يخرج عن كثير من مضامين ومفردات المناهج التنموية إلا نادراً خلال الحقب التأريخية، حيث بقي متداولاً كمنهج من قبل الفرد والمجتمع والمؤسسة ليكون على شكل عمليات ترمي لتطوير القوى الكامنة لدى الإنسان على وفق رؤية كونية منتخبة من قبله أو من العقل الجمعي أو من مد غيبي، تعمل هذه الرؤية لتحقيق طموحاته وتأمين حاجاته المختلفة، و بالرغم من كل ذلك لم يصرح به اصطلاحاً أو ان ينظر إليه بوصفه علماً أو فناً.

مما تقدم نستطيع أن نتبنى مبدأ مفاده: أن الإنسان الأول كان ساعياً لتحقيق متطلبات حياته الإنمائية، ومجاهداً ومجتهداً لتحقيقها، للانتقال بنفسه من حال إلى حال أفضل، وكذا هي الحال بالنسبة للأجيال التي أعقبته فيما بعد، وهذا يعني أنه قد سعى عملياً إلى التنمية ذاته وما يحيط به من بيئة اجتماعية، كما نجده على هذه الحال في تعامله مع الطبيعة والمحيط الجغرافي الذي ينتمي إليه، هادفاً لتطويره وتطوير ذاته وتحسين مستواه المعاشي.

نعم قد نجد الإنسان في المجتمعات الأولوية مجبولاً بالاندفاع غريزياً

بالاتجاه نحو الأفضل، ومندفعاً على أساس الوعي والإدراك لذلك، فضلاً عن افتقاره للأدوات والآليات التي تقوده لزيادة الإنتاج ومنافعها تلبية لسد حاجاته الأساسية، وافتقاره للنضوج العقلي والخبرة والتجربة، كما نجده - الإنسان- قبال ذلك يسعى بكل ما أوتي من قوة أن يهيئ أو يبتكر سبل تسريع تلبية حاجاته ومتطلباته بمجموعة من العمليات والمحاولات باليات وأدوات متجددة لتحقيق مبتغاه، وما هذه الخطوات إلا هي عين التنمية البشرية.

فالتنمية البشرية وُلدت مع ولادة الإنسان وترعرعت بقدر نمو قابلياته ومؤهلاته وتألقت بقدر نضوجه العقلي والفكري، وشبت لتستقيم مع مجالات عدة.

هكذا بقيت حال مفهوم التنمية البشرية من منزلة ومرتبة لأخرى، ومن جيل لجيل آخر ومن مكان لمكان آخر على الرغم من اختلاف الدوافع والغايات والمناهج والسبل لحين أن بانت معالمه واتضحت مضامينه، لذا سنجده حتماً عند كل الديانات السماوية وجميع الأيديولوجيات الوضعية وعند الفلاسفة والمفكرين بل عند كل إنسان ما دامت الحياة تنبض بعروق الإنسانية، وكذا هو حاله في ديانة الإسلام وفي مصدرها التشريعي الأول القرآن الكريم، الذي كان سبباً لكتابة هذا البحث المتواضع والذي سنتحدث عنه في الفصل القادم إن شاء الله.

وبهذا فإن مضامين التنمية البشرية نجدها أين ما وجد الإنسان، أي أين ما وجد الإنسان وجدت التنمية، بغض النظر عن ميوله واتجاهاته الفكرية والفلسفية، سماوية كانت أم وضعية، لذا ذهب أغلب الباحثين المهتمين بشأن التنمية البشرية على أنها (ليست نهجاً مقاربةً جديداً، فقد ورد عدد من مبادئها الأساسية في

مؤلفات تعود إلى ثقافات مختلفة من شتى أنحاء العالم، ومنها مؤلفات أرسطو)[1].

وهذا يرى الباحث أن سبب استمرار التطور يعود إلى سببين مهمين رئيسين هما: رغبة الإنسان بالتطور والتغيير الإنمائي كونه مجبولاً على طلب الأفضل من جهة، وباعتباره يتعامل إيجابياً لدرء المصاعب البيئية التكوينية المحيطة به، والمتاعب التشريعية والمنظومة الإدارية أو القانونية التي تحكمه إذا كانت تسبب ضغطاً على الإنسان وتوازنه، فسنجده حينئذ ينتفض على واقعه مغيّراً من أصل هيكله البنائي ونظامه العام على المستوى النظري والعملي، ولهذا عبّر (كارل ماركس) على سبيل المثال قائلاً: إن الثورات الاجتماعية ضد الاستبداد أو الفساد هو العامل الرئيس للتطور والتنمية.

علما أن لكل نظرية لها رؤية خاصة لفلسفة التنمية، فهناك عدة نظريات تنظر باحثة عن سبب انطلاق التنمية وتطورها، ومنها النظرية الإستراتيجية للارتقاء والإستراتيجية الثورية، ونظرية إستراتيجية الانفتاح على الخارج وإستراتيجية الانكفاء على الداخل، ونظرية إستراتيجية النظرة الجزئية وإستراتيجية النظرة الشاملة[2].

فعلى الرغم من رؤى هذه النظريات وغيرها من النظريات الأخرى فإن الباحث

---

(١) مسار التنمية البشرية، ٩ .www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat pdf موقع ألكتروني.

(٢) ظ: فيروز راد وأمير رضائي، تطوير الثقافة، دراسة اجتماعية في مفهوم التنمية الثقافية عند علي شريعتي ،٤٥-٥٥.



حاول أن يغوص في عمق النظرية الإسلامية وبالذات بين آيات القرآن الكريم قال تعالى: (**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**)[1]، فالآية المباركة تحدد الحافز الأساس لتحريك الإنسان وتطوره ونموه وهو العامل الذاتي أو النفسي أو الداخلي، حيث يُعدّ المؤثر الحقيقي والواقعي في نمو ذلك المجتمع عن غيره عبر التأريخ، ولهذا نجد التباين الإنمائي واضحاً بين ذلك المجتمع أو ذاك، بوصف أن المجتمع مجموعة أفراد، وأن تغير الفرد أو مجموعة الأفراد يعني تغيير المجتمع، وما هذا إلا عين النظرية الإسلامية، التي تتبنى توثيق العلاقة بين الفرد والمجتمع وبين علاقة المجتمع والفرد، وتأثر أحدهما بالآخر وتأثيرهما، (من هنا فإن النقطة المهمة التي يجب الإشارة إليها هي أن العنصر الإنساني لا يُهمل في الرؤية التنظيمية، بل أن الفرد والتركيب الاجتماعي وطبيعة العلاقات المتبادلة بينهما، هي من الأسباب الأساسية للتنمية أو عدمها)[2] وهذا ما أكدناه وهو رغبة الفرد والمجتمع بكسر قيد الضغوط المحيطة بهما لغرض الارتقاء والتطور قدماً.

من هنا نستشف أن أي أمة تتطور وتنمو وتنهض على قدر رغبة أبنائها في ذلك وعلى قدر تفاعلهم الايجابي مع الظروف التي تحيط بهم، وعلى قدر تنشيط قابليتهم للارتقاء بأنفسهم منتفضين على ما فسد من ظروفهم، هذا فالباحث يرى أن كل شيء خلاف ما حُدد أعلاه من العاملين الرئيسين كان ثانوياً ومرجعه ذات العاملين، لذا فإن الإنسان الأول ليومنا هذا نجده يتعامل ايجابياً مع المحورين المذكورين، وأنه

---

(١) الرعد، الآية ١١.

(٢) فيروز راد وأمير رضائي، تطوير الثقافة، ٥٥.

يتعامل كرد فعل طبيعي أمام كل ما هو خارج الدائرتين، فهو ينتفض على نفسه في حال إحساسه باليأس والإحباط بغية الارتقاء، وكذا نجده يثور على الواقع الذي يحيط به إذا كان عزفه على وتر التخلف بدلاً من النمو والتطور، وهذا ما لمسناه كحقيقة ونحن نقرأ أوراق التأريخ، حيث نجدهُ ــ أي الإنسان ــ يتعامل كرد فعل مع أي ظاهرة خلاف ما حددناها سلفاً.

إن موقع التنمية بصورة عامة والتنمية البشرية بصورة خاصة كموقع المطرقة من السندان، فهي القدحة التي تكون كرد فعل كما أشرنا إليه سابقاً، فلو تتبعنا جميع الثورات والولادات التنموية نجدها فعلاً نتيجة صراع الظالم والمظلوم وصراع الحق والباطل فضلاً عن رغبة الإنسان بالارتقاء والتطور، فالثورات التي قامت في أوربا مثلاً أبان القرون الوسطى تُعد منعطفاً في حياة أوربا وشعوبها، فهي الولادة القيصرية التي ولدت كرد فعل على الفساد الفكري والتخلف التنموي الذي مارسته السلطتان الدينية والسياسية آنذاك، مما انتجت طبقة من المفكرين لمواجهة هذا الانحراف الفكري والسلوكي، فـ(منذ خمس وعشرين أو ستة وعشرين قرناً كانت في أوربا حضارة مزدهرة، إذ كان فيها مفكرون مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم، وكان فيها كتّاب وأدباء عظام وفلاسفة عظام لا تزال أسمائهم مشهورة في العالم، ثم جاءت المسيحية الكاثوليكية وحكمت أوربا باسم الدين، واختنقت أوربا ولم يعد هناك خير عن شيء)[1].

فاندلعت المعارك التي تُعدّ ردة فعل حقيقي للسلوك التخلفي للسلطة السياسية

(١) علي شريعتي، مسؤولية المثقف، ١٦:٥ : ٦٦.

وللكنيسة المسيحية الكاثوليكية ولسلطة التزاوج غير مشروع بينهما، أي اندلعت الثورة نتيجة للتخلف القيمي والمفاهيمي وكذا السلوكي والإجرائي، حتى باتت - الكنيسة - تمثل العنجهية الدينية بدلاً من المعاني السماوية، مما أضطر الشارع أن يسعى لاختيار (الديمقراطية لتحل محل الأرستقراطية الدينية ..... لأن دين الكنيسة هو أكبر مؤسس للنظام الإقطاعي وأكبر مدافع عن العهد الإقطاعي والشكل الإقطاعي)[1].

بالرغم من أن بعض الباحثين أو المحللين حاول جزافاً أن يتعامل مع القضية الأوربية أبان العصور الوسطى وأزمة أوربا والثورة الفرنسية بالخصوص تعاملاً غير موضوعي محاولاً تبرير ساحة الكنيسة آنذاك ورجال الدين، بل حاول البعض أن يُجير أحداث تلك الفترة إلى الكنيسة مدعياً بلا دليل أن جذور الثورة هي جذور مسيحية، وهذا ما ادعاه المطران (جورج خضر) على سبيل المثال، حيث ذهب كما ذهب بعضهم الآخر إلى هذا الرأي بان الثورة تعود جذورها إلى جذور مسيحية، كون الثوار قد رفعوا شعار (الحرية، المساواة، الإخوة)، وما هذه الشعارات إلا (مضامين ذات بعد مسيحي وإن لم يعترف الثوار بأنهم يوادون الله، فضلا أن الحضارة اليونانية والرومانية التي استندت إليها أوربا جزئياً ليس فيها أي أساس للحرية والمساواة والإخوة، وأن الثورة ولدت كرد فعل على ملوك فرنسا)[2].

(١) علي شريعتي، مسؤولية المثقف، ٧٠.

(٢) ظ: مؤتمر "كلمة سواء" العاشر، موقع الدين في عملية التنمية، المطران جورج خضر، ١٥٤ و١٥٥.

والواقع خلاف ذلك، فالباحث يرىٰ أن تلك المدة التي سميت (بفترة عصر التنوير) كما يطلق عليها، هي شاهد تاريخي حقيقي لما ذهب إليه الباحث بأن التنمية تلد بسبب عامليّن أساسيّن كما ذكر سلفاً، وأن هذه النهضة التنموية ولدت علىٰ أثر التقهقر الذاتي للإنسان من جهة، والبيئي وما يحيط به من ظروف ونشاطات متخلفة اقتصادية كانت أم اجتماعية أو سياسية أو غيرها من جهة أخرىٰ، مما آل بالإنسان والمجتمع أن يكسر قيد التخلف ويرتدي ثوب التطور، وما هذا إلا منعطف واضح بالإنسان ألأوربي بل علىٰ مستوىٰ العالم أيضاً.

ويرد الباحث علىٰ ادعاء المطران (جورج خضر) بما يأتي :

إن شعار الثوار الذي رفع (الحرية، المساواة، الإخوة) هي مضامين قيمية إنسانية تتواجد في ضمير الإنسان بغض النظر عن كونها ذات جذور مسيحية أم لا.

أما خلو الحضارات القديمة منها، فهو إدعاء يفتقر إلىٰ الدليل، وإلا في أي كفة نضع المضامين المعرفية والإنسانية والأخلاقية التي روج لها أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم علىٰ صعيد حضارة اليونان وروما، هذا فضلا عن الحضارات الأخرىٰ.

علىٰ المطران ابتداء وقبل أي إدعاء عليه أن يجيب عن سبب معاداة الثوار للكنيسة والأزمة بينهما آنذاك؟ خاصة أنه أشار بنفسه إلىٰ هذا المعنىٰ قائلاً: (هناك شعور مسيحي احتجب بسبب مخاصمة الثوار للكنيسة الكاثوليكية ولكن الثورة ضمت المعاني المسيحية إليها ولم تعترف بالمصدر المسيحي بسبب الدم المراق

والتمرد على الكنيسة كمؤسسة أو كقيادة اكليروسية)[1].

ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا إن هاجس الإنسان في تنمية ذاته والخروج من الأزمات في تلك المرحلة هي دافع آخر لما حدث فيها، فالسبات الفردي والاجتماعي على الأصعدة الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية لأوربا كان سبباً بيناً لتربع التخلف على صدرها، مما اضطر الإنسان بمقتضى ما حددناه أن تتوفر لديه عوامل التنمية، كأن يسعى إلى النهوض بنفسه من جهة والعودة إلى الحضارة اليونانية والرومانية بنسبة ما من جهة ثانية، وبالثورة على الواقع الفاسد التي كانت الملكية الحاكمة مصداقاً له من جهة ثالثة، وبالانقلاب على صور تخلف الكنيسة الكاثوليكية من جهة رابعة، الذي كان سبباً لرواج المذهب البروتستانتي الذي روّج إليه من قبل مثقفين متدينين أمثال (مارتن لوثر، وكالفن في أثناء مقارعتهم لسطوة الدين المتخلف في العصور الوسطى، سعوا لتبديل جوهره إلى عامل حركة وإيقاظ)[2]، بحيث شكل التوجه الجديد طريقاً إلى التنمية والتطور.

إن مدة (عصر التنوير) كما هو شائع عند كتاب السياسة والقانون و الاجتماع، هي مدة البرزخ ما بين الجهل والتنوير، والتخلف والتطوير لتاريخ التنمية البشرية الوضعية التي تدرجت لحين أن استقرت اصطلاحياً في عام ١٩٩٠م ، وان تلك

---

(١) مؤتمر «كلمة سواء» العاشر، موقع الدين في عملية التنمية، المطران جورج خضر، ١٥٥.

(٢) فيروز راد وأمير رضائي، تطوير الثقافة، دراسة اجتماعية في مفهوم التنمية الثقافية عند علي شريعتي، ٣٣٩.

الفترة تُعدّ الشرارة التي ألهبت العقل البشري نحو المضامين الإنسانية، لأن البعض ينظر إليها على أن (عهد الإنسان بالوثائق والشرائع التي بلورت حقوقه الإنسانية.... قد بدأ بفكر الثورة الفرنسية الكبرى التي بدأت أحداثها ١٧٨٩م فإبان هذه الثورة وضع أمانول جوزيف سييس ١٧٤٨- ١٨٣٦م وثيقة حقوق الإنسان، تلك التي أقرتها الجمعية التأسيسية وأصدرتها، كإعلان تاريخي، ووثيقة سياسية واجتماعية ثورية في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م.)[١].

فعلى الرغم مما أصلنا لخلفية تأريخ هذا المفهوم على المستوى الوضعي فإن الباحث يعتقد أن تأصيل هذا المفهوم قد وجد في أدبيات الإسلام في الكتاب والسنة المطهرة بشكل واضح وجلي ولا سيما على مستوى الفكري لا الفردي، وهذا لا ينافي ما ادعيناه في اقتران ولادة التنمية البشرية بالولادة الأولى للإنسان، لأن الباحث يحاول أن يفرق بين التنمية على المستوى العملي الفردي والتنمية على المستوى الفكري، فمفهوم التنمية البشرية في الإسلام، قد تقدم في إطروحته من حيث تأكيده أنها للإنسان وبالإنسان، لنفسه الفاعلة، ومعارفه المتجددة، وقدراته المتطورة ؛ بعدما كانت التنمية محفزة على الجد والمثابرة والكمال والإتقان وسائر حالات الإنماء، الشاملة والمتكاملة والمرتبطة بحركة المجتمع تأثراً وتأثيراً، من ثم فهو ليس بجديد عليه، ولو لم يرد كمصطلح فيه، ومازال على اشتقاقه اللغوي[٢].

(١) محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، ١٣.

(٢) ظ: مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع، مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ودورها الإنساني – التنمية البشرية أنموذجاً، محمد صادق الخرسان، ١٠.

وخلاصة القول فإننا نؤكد أن أي مطلب بما فيه معرفة البعد التأريخي وأصالة التنمية البشرية مرهون بفهمنا لمفهوم ذات التنمية البشرية، لذا كان الباحث حريصاً كل الحرص على تحديد هذا المفهوم وتحديد مدلوله ومعرفة مساحته طوال خطواته البحثية، إذ عده العامل الرئيس برفع الستار عن كثير من الحقائق التي سعى إليها ومنها هذا المطلب، وبالعودة إلى تعريف الباحث للمفهوم، الذي أكد على أن التنمية البشرية هي: عبارة عن عمليات إجرائية منظمة على وفق رؤية فكرية منتخبة تهدف لتطوير القوى الكامنة في الإنسان بصقلها وتوجيهها نحو تحقيق طموحاته بغية إشباع حاجاته المشروعة في شتى مجالات الحياة.

لذا يرى الباحث أن التنمية البشرية ولدت مع الولادة الأولى للإنسان ، وأن الإنسان مجبول على تطور نفسه لان الرغبة في التطور والتغيّر الايجابي أمر فطري أودعه الله تعالى فيه وهداه إليه ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ [1]، كما يُعدّ إصلاح ما فسد من النفس الإنسانية والظروف المحيطة به أمر متاح وممكن إن لم يكن واجبا، ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[2]، لذلك ليس من المسوغ أن يلقي الإنسان بتبعات تخلفه على ما يحيط به من ظروف لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى**

(١) الإنسان: ٣.

(٢) الشمس : ٧- ١٠.

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ الرعد﴾[1].

وقد تبنى الباحث رأياً مفاده إن ما من فلسفة سماوية كانت أم وضعية إلا ولها رؤيةً أو منهجاً تنموياً، على الإنسان أن يدرك أنه هو عنصر التغير والنمو لنفسه ومجالات حياته المختلفة التي تحيط به، كما يُعدّ عنصر التخلف في مراحل السبات والتسليم للظروف التي تحيط به.

كما حاول الباحث أن يفرق بين نضج التنمية البشرية الوضعية تأريخياً ، وبين ما أورده القرآن الكريم من رؤية علمية دقيقة للتنمية البشرية، الذي سنتحدث عنها في الفصل القادم بعونه تعالى.

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) : تطور مفهوم التنمية البشرية ومراحل نضوجه الاصطلاحي.

سبق أن أكدنا أن دراسة التأريخ تُعدّ رافداً نستلهم منها المعلومة لاستخلاص العبرة والإفادة منها، غير أننا لم نحدد تأريخاً خاصاً لمفهوم التنمية البشرية، إلا أننا في الوقت الذي سنحاول من خلال هذا المطلب أن تكون نظرتنا إلى تأريخه من النافذة التي نطل منها على مراحل نضوج مفهوم التنمية.

نسب بعض الباحثين مدة تطور التنمية إلى علماء ومفكرين إسلاميين خصوصاً في (القرن الرابع الهجري أو ما يقاربه من القرن العاشر الميلادي، حيث شهد تطوراً في مختلف جوانب الحياة برزت من خلاله الإبداعات العلمية والفكرية التي أسهمت في وضع اللبنات الأولى للتطور العلمي في العصور التالية، فخلال ذلك القرن برز العلماء والمفكرون المسلمون كرواد للحضارة الإنسانية، ومن خلال أسهامهم العلمي والفكري انطلقت حركة البحث العلمي والتقدم الحضاري، وجاءت الثورة الصناعية واكتشاف الآلة البخارية وغيرها كإحدى المراحل التي برزت في التأريخ بوصفها مؤشراً إلى ما وصل إليه الإنسان في تلك المرحلة)[1]، ومع إيماننا بما تقدم فإننا لا نستطيع أن نعد تلك المدة إلا حجراً أساساً للتطور العلمي، لعلمنا بإن تطور المفهوم سار عبر التطور الفكري لدى الإنسان على مر التأريخ، والتي ستمثل مدة القرون الوسطى، أحدى أهم الفترات التي مثلت حيزاً بين التخلف والتطور الوضعي لتلك الشعوب، والتي وُلدت على أثر طوفان من

(١) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلى علم التنمية ،٦٤.

الجهل والعنف والتخلف عم القارة بأسرها مما خلّف أنقاض ركام من قيم وبشر.

فقد مرت أوربا بمدة عسيرة وقاسية ترتب على أثرها ردة فعل نقيض الاتجاه، خلفت موجة شعبية عارمة حطمت جميع الأغلال التي قيّدت التفكير والإبداع عبر سلسلة من الثورات كُللت بما يسمى بـ(الثورة الصناعية)، والتي عُدت محطة لانطلاق أوربا وتنميتها، حينها استطاع الأوربيون أن يقفوا على أقدامهم متكأين على إجراءات عملية وسلوكية للفرد والمجتمع والمؤسسة، نبذ بعض صور التقليد، صد عن كل صور التخلف، مقارعة الاستبداد، إرادة وإصرار على الاستمرار تنموياً، إحياء عناصر التنمية، احترام الزمن، نظم اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية جديدة مبنية على أسس من تجربة الماضي تلائم ذوق الثورة، كل ذلك كانت عوامل مساعدة للارتقاء بأوربا وأبنائها.

ولهذا ذهب بعض الباحثين إلى أن عصر ما بعد القرون الوسطى هو عصر التنوير، ومنه اشتعلت الشرارة الأولى لبداية تفاعل فكري اتجه صوب كثير من المفاهيم الاصطلاحية ومنها مفهوم التنمية البشرية، حيث ظهر مفهومنا ابتداء كمفهوم غير متكامل وبتعابير شتى يبحث عن حاضنة ليجد فيها ذاته الذي بات يتطور من عقد لآخر، متذبذباً من حيث البعد والقرب من المعنى الذي ندرسه، لأنه مر بمراحل مختلفة الى أن تبلور ليأخذ ملامح شكله الحالي، حيث نجده في كل حقبة قد عُبر عنه بعدة تعابير للدلالة عليه على أمل استقراره، فقد عُبر عنه بالتنمية بالرغم من التباين الكبير على ذات التسمية ومدلولها، كما عبر عنها بـ(تنمية العنصر البشري أو تنمية رأس المال البشري أو تنمية الموارد البشرية

أو التنمية الاجتماعية)[1].

إن منشأ هذا التباين في تسمية المفهوم الواحد ناشئ من واقع التباين بين الرؤى الكونية زيادة على لظرف أوربا المرير الذي لم تستطع أن تتجاوزه بيسر لعمق صراعها مع التخلف، الذي لم تتحقق الغلبة فيه لها إلا بعد جهد جهيد قدمت فيه الكثير من الضحايا والكثير من القيم والمسلمات التي ما زال الأوربيون يدفعون ثمنه إلى يومنا هذا، فالواقع أن أوربا (لم تستطع أن تخرج من عباءة القرون الوسطى بكل تخلفها وأقفالها إلا بعد ما حطمت المؤسسات التي كانت تحجر على الفكر، وتضع قيوداً لا حدود لها على العقل الإنساني، بل وتمارس البطش الشديد والقمع بمختلف صوره .... لم تستطع أوربا أن تنفذ من أبواب التقدم إلا بعد أن حققت ثورتها الثقافية الكبرى من خلال تحطيم الاستبداد)[2].

إن رده فعل أوربا على نفسها وواقعها المؤلم هو الذي دفع بولادة عصر النهضة الفكري في مدة ما بعد العصور الوسطى، وكأن الحياة عادت إلى جسد أخذه السبات والخمول والكسل لسنين طوال، فعادت الحياة إليه لينتعش من جديد بفترة علمية ثقافية بمختلف ميادين الحياة، (فلم تكن حرية التفكير هي فقط مدخل أوربا للدخول في عالم الحداثة، ولكن رافقتها حرية التعبير....ويمكن القول أن أوربا

---

(١) جورج القُصيفي، التنمية البشرية مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون، التنمية البشرية في الوطن العربي، ٨١.

(٢) مؤتمر «كلمة سواء» العاشر، التنمية الإنسانية، إبعادها الدينية والاجتماعية والمعرفية، الوجوه الثلاثة للثقافة العربية، السيد يسين، ٧٥.

حلقت في فضاء التقدم مستخدمة جناحي حرية التفكير وحرية التعبير)[1].

ولا نريد الإسهاب في المنعطف الذي تعرضت له أوربا إبان النهضة الصناعية، والطفرة التي كانت باتجاه التنمية والتطور، إلا أن الواقع حتّم أن نذكر هذه الحقيقة، لذا فإن الباحث في هذا المطلب سيعود ليذكر ما كتبناه في المطلب السابق[2] بخصوص أن التنمية لا تستطيع أن تفرض وجودها إلا من خلال عاملين أساسيين هما: رغبة الإنسان بتطور ذاته لتركيبته التكوينية من جهة، ولتعامله الإيجابي كرد فعل على درء أي خطر أو ضغط يحيط به ويزيل توازنه من جهة ثانية، فانتفاضة أوربا جاءت نتيجة رد فعل على أزمتين في آن واحد، مما دعا الإنسان الأوربي أن ينتفض على ذاته وما يحيط به من تخلف للارتقاء بنفسه وللظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وعلى أساس ما تقدم لزم تسليط الضوء على زمن ما بعد النهضة الأوربية، التي ولدت على أثرها ردة فعل على الذات والمحيط، إلا أن من المؤسف أن هذا الانقلاب الذي كان إيجابياً في مجالات سبق أن ذكرناها فقد كان سلبياً في مجال آخر، حين تُرجم الانقلاب كرد فعل عنيف، حيث انزاحت فيه المعايير عن حدها المعقول لتحتل مرتبة غير مرتبتها وليختل التوازن من جديد ويربك وضع النظام الهيكلي البنائي مرة أخرى في مواطن جديدة، فعدم التوازن غير المسوغ عن محل

---

(١) مؤتمر «كلمة سواء» العاشر، التنمية الإنسانية، إبعادها الدينية والاجتماعية والمعرفية، الوجوه الثلاثة للثقافة العربية، السيد يسين، ، ٧٧.

(٢) راجع ص٩٥ من الكتاب.

الاعتدال للمفاهيم القيمية ومنها المفهوم الذي بين أيدينا، هو العامل الأساس في إرباك عمل المنظومة الفكرية لعصر ما بعد ثورة القرون الوسطى، كون ردة الفعل تقتضي أن تكون متوازنة إذا كان الدافع متوازناً وواقع المنتفض عليه غير متوازن، وهذا واقع الحضارة الغربية فعلاً،(حيث فسرت الحضارة بعامل التطور المادي فحسب من خلال حركة الإنسان المادية، وقطعها من مصدر الخير والحق والجمال في الوجود)[1].

إن الخلل في وضع النظام الهيكلي والبنائي للإنسان الأوربي كان بسبب العدول الذي جاء عنيفاً نحو المادية البحتة والذي أصبح عنصراً سلبياً بدلاً من أن يكون عنصراً إيجابياً من عناصر التنمية الشاملة، هكذا كان الوليد مشوهاً ناقص الأعضاء من أول يوم وُلد فيه، فكانت التنمية مقتصرة على البعد المادي للإنسان دون البعد المعنوي الذي يشكل أحد صور الإنسان الحقيقية، مما سبب نظرة أحادية قاصرة ترتبت عليها عواقب وخيمة تحملّها الإنسان الأوربي من تلك الفترة إلى يوم نضوج مفهوم التنمية وانزياحه مرة أخرى إلى حالة التوازن حين أستقر عند مفهوم التنمية البشرية، والعلة في هذا العدول الجديد يكمن في أن الإنسان حين يرى نفسه أداة للتنمية سيشعر بالضياع، وستختنق عنده روح الإبداع، وتنطفئ شعلة التطور لديه، وسيهدأ بركان الطاقة منه على عكس لو علم أو أدرك أنه

(١) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ١١٨.

هو الهدف والوسيلة، وهذا ما أشار إليه (ماكس فيبر)[1] حيث عتقد (إن إمحاء الشخصية المرادف للإنسلاب هو من النتائج السيئة للمجتمعات الصناعية، ويعتقد كارل مانهايم أيضاً أن عملية التحول الصناعي في المجتمع تؤدي إلى مسخ الإنسان وتحوله إلى موجود يشعر بالإنسلاب)[2].

فما من حضارة لأمة إلا وقد مثلت حضارتها عبر الحركة الفكرية والوعي الإدراكي والنمو الإبداعي الذي ينبثق نتيجة تفاعل أفرادها مع خزينها الثقافي المتراكم عبر الحقب الزمنية، لذا نجدها تتأثر سلباً أو إيجاباً بذلك المخزون الذي يُعدّ تطبيقه نسبياً من جيل إلى آخر ومن ظرف إلى آخر، مما يقتضي أن ندرك أننا لا نستطيع أن ندعي أن المثل العليا والحركة المستديمة للإبداع ومكانة النمو أخذت حيزاً ثابتاً عبر تاريخ الإنسان ومشروعه الحضاري، حيث نجده يمر بمراحل نكوص تارة ومراحل تفاعل تارة أخرى، كل ذلك جاء مبنياً على أساس الصراع

---

(١) ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠): ألماني الجنسية ، درس القانون والاقتصاد، في سنة ١٨٩٣ عين أستاذا للاقتصاد في جامعة "فرايبورج" كتب فيبر عددا من الدراسات والمقالات عمل في مجال السياسة يلاحظ إن آراءه السياسية كانت ليبرالية الطابع فحياته كانت قسمة عادلة بين السياسة والعلم، له عدة مؤلفات هي: نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، المدنية، منهجية العلوم الاجتماعية، الدين في الهند، الدين في اليابان،علم الاجتماع الديني، الاقتصاد والمجتمع.

ظ: موقع الالكتروني لجامعة بابل، كلية الاداب، قسم الاجتماع.

http://www.uobabylon.edu.iq/uobcoleges/lecture.aspx?fid=8&lcid=31534 .

(٢) فيروز راد وأمير رضائي، تطوير الثقافة،٤٤.

الحضاري والتأريخي للإنسان مع ذاته والظروف التي تحيط به ، والتي ستقود طرفي الصراع إما إلى المراتب العليا والمعايير والقيم الخلاقة أو العكس.

ولقد شخص الأستاذ منير شفيق أزمة الحضارة الأوربية الحديثة منذ ولادتها وحتى يومنا هذا في سوء فهمها وتفاعلها مع الحياة والإنسان، فكان الهدف الرئيس يرمي إلى تحقيق أقصى درجات الرفاه المادي أو أقصى مستويات الثروة والقوة المادية، مما سيترتب على ذلك نهج نتائج مقدماتها نفسها، أما إذا كانت النظرة الأساسية شاملة لمختلف الحاجات والأهداف الأساسية للإنسان، فإن السعي وراء القوة المادية سوف يهبط إلى مستوى أدنى من ذلك المستوى لكي يتوازن مع السعي لتحقيق الأهداف الأخرى [1]. ولهذا نجد أن بعض من المفكرين قد شخص ما أوردناه في نهضة أوربا وتوجهاتها الأحادية التي أدت إلى فهم غير صحيح للكون ومفرداته ومنها التنمية والتنمية البشرية، لذا قال أحدهم: (ينبغي لنا أن نعترف بأن افتقارنا الكامل الآن إلى أي نظرية في الكون هو المصدر الأخير لكل الكوارث وألوان الشقاء التي يعج بها العصر الحاضر، ولهذا يجب أن نعمل معاً من أجل إيجاد نظرية في الكون وفي الحياة، حتى نستطيع بذلك أن نصل إلى مستوى عقلي يجعلنا متمدنين حقاً)[2]، أما الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون فقد أكد قائلاً: (منذ قرن مضى كانت الثورة الصناعية ماضية في طريقها، والأمة أخذة في التوسع، وكنا نتحدث بثقة عن المستقبل الجلي، واليوم فإن معظم الأمريكيين متحررون من الحاجة، لكننا

(١) ظ: منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ٣٦.

(٢) ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ٨.

لا زلنا نبدد طاقاتنا الخلاقة في التكهن مجدداً بهويتنا وقيمنا)[1].

إن العدول عن القيم الخُلقية والروحية والتقوقع في خندق المادية ظاهرة عمت العالم عموماً ودول الغرب خصوصاً مما سببت اضمحلال الوازع الديني (وجفاف النبع الروحي وفقدان الفهم الصحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة، زادها ذلك كله في الوقت نفسه تحللاً وتفسخاً وانحطاطاً وتميعاً مما جعل مجتمعاتها تُنخر من داخلها)[2]، بل يُعدّ عدول المنظومة الفكرية الأوربية عن القيم أزمة تراكمية تحجرت مع مرور الزمن، على الرغم من تنعم الإنسان مادياً وتطوره تكنولوجياً، فإنه بقيّ منزوياً في هذا الجانب دون غيره، بحيث أصبح الإنسان يُعاني معاناةً نفسية وروحية سببت له أزمة الضياع والتيه والعبث.

إن التنمية إلا كباقي المفاهيم الأخرى التي عانت أحادية التفكير، فهي تنحو منحى الضوابط والمحددات المنبثقة من أساس الخلفية الفكرية لكل أيدلوجيا، إذ سنجدها تتباين من فلسفة إلى أخرى في الوقت التي تُعدّ في حقيقتها (عملية حضارية لكونها تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان وكرامته، وهي أيضا بناءٌ للإنسان وتحرير له، وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميتها وحسن تسخيرها)[3].

---

(١) ريتشارد بيكسون، نصر بلا حدود، ٢٨.

(٢) إبراهيم حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي ، ٢١١.

(٣) المصدر نفسه ، ١٣.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن من أسباب نضج مفهوم التنمية البشرية عند الحضارة الغربية الحديثة، والتي يُعدّ أحد أهم أسبابها تخلف منظومتها الفكرية عن المنظومة العقلية والمنطقية المتكاملة وانحسارها على المادة والتجربة والبرهان دون غيرها من المعايير الأخرى، مما سبب عدم تكامل الصورة وتأخر تكامل المفهوم لحين نضوجه التدريجي، في سبيل التمكين لهذه العقلانية المادية الصرفة، يذكر الأستاذ محسن عبد الحميد مجموعة من الأسباب التي آلت إلى هذا الارتباك، نذكر بعض منها لفائدتها:[1]

تأثر جميع الإيديولوجيات الوضعية الغربية بالاتجاه الفلسفي المادي الحديث.

- تُعدّ بعض النشاطات عاكسة لجذور الصراع الصليبي في العمق التأريخي.
- التعصب العرقي المتعال اتجاه الحضارات والشعوب الأخرى.
- بُعد تام عن النظام الأخلاقي.
- اعتماد المنفعة العاجلة.

هكذا نجد الدكتور عبد الحميد يحاول الوصول إلى نتيجة مفادها إن التنمية المادية الحديثة التي جاءتنا من الغرب ما هي إلا تنمية عرجاء لافتقارها إلى العقل والروح والحياة، بل هي فوضى لا تنضبط معها حركة الحضارة والتخطيط التنموي لا إلى الحاضر ولا على المستقبل.

بينما ونجد أن الأستاذ البكار ينظر لها من زاوية تكاد تقارب مما ذكر، فهو ينعت حضارة أوربا بالمادية والسياسية (فهي حاصل ما بُذل من جهد خلال القرون

---

(١) ظ: محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ١٢٦- ١٢٧.



الخمسة الماضية على صعيد تحقيق سيطرة الإنسان على الطبيعة وتحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة والمتعة..... وحين ثار الغرب على الكنيسة حلَّ الفلاسفة والمفكرون والمخترعون والسياسيون محل كهنة الكنيسة، وأخذت الحضارة الغربية تنحو شيئاً فشيئاً نحو الاعتماد على العقل والعلم في رسم الأهداف الكبرى وأطر البناء والحركة والمحطات النهائية لكثير من المعايير الحضارية بعيداً عن الدين والوحي والغيب)[1].

على أساس تلك الرؤية التراكمية التي اعتمدتها الحضارة الغربية الحديثة، أصبحت اللغة السائدة هي لغة المادة، فأصبحت هي الحاكم والفصل في تفاضل تطور هذه الأمة أو تلك على وفق معايير حضارة الغرب[2].

والباحث لم يقصد مما استعرضه من تحليل أن يسلط الضوء على اقتصار الحضارة الأوربية الحديثة على التنمية الاقتصادية والنزعة المادية وما ترتب عليها من إخفاقات على جميع الأصعدة، بل هو بصدد بيان علة الإخفاق في سوء اختيار المفهوم المحوري للتنمية والآثار المترتبة على ذلك، مما سبب: فقدان الإنسان السيطرة على ذاته في وسط زحمة من الصراعات بمختلف ألوانها، تفاقم الأزمة الداخلية والمحيطة للإنسان، إخفاقات في الميدان الروحي والأخلاقي والنفسي، فضلاً عن المجالات الأخرى التي تأثرت جميعها بنسبة ما، إذ زادت نسبة الجهل

---

(١) عبد الكريم بكار، من أجل انطلاقة حضارية شاملة – أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع، ٤٦.

(٢) ظ: جمال داوود سلمان، اقتصاد المعرفة، ٢٢٣.

بالإنسان والإنسانية وارتفعت معدلات الجريمة، وعمت الأمراض النفسية، وتفككت الروابط الأسرية، وضعفت العلاقات الاجتماعية، وانهارت القيم الأخلاقية، كل ذلك شكل ناقوساً للخطر ولأزمة جديدة ألتفت إليها الغرب ومفكروهم مما دعاهم أن يتشاطروا مع غيرهم بالانعطاف نحو مفاهيم تنقذ واقعهم المظلم، وكان أحد تلك الخيارات هو مفهوم التنمية البشرية، الذي سدَّ جزءاً من متطلبات حاجاتهم.

إن استهلاك الإنسان وقيمته في مثل هكذا منظومة يُعدّ أمراً طبيعياً، لأن المعيار والمحور في الحضارة الحديثة هو معيار المادة وليس الإنسان، وما أحداث الحركة الاستعمارية المادية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، وما الحروب والصراعات التي افتعلتها (الدول المتقدمة!) إلا للسيطرة على العالم وخيراته الطبيعية والبشرية، وما ذلك إلا مصداق لما تبنيناه، حتى باتت الحضارة الغربية الحديثة (بشقيها الرأسمالي والشيوعي قد تحولت إلى حضارة استهلكت الإنسان والقيم، ونشرت الحروب والدمار والشقاء في كل مكان وألهت أنانيتها وسحقت الشعوب التي استعبدتها وأبعدت الإنسانية عن خالقها ووضعت تنمية الجشع المادية، والدافع عن أنظمتها فوق كل اعتبار....... هذا الوضع الخطير أنتبه إليه عقلاء الغرب وعلماؤه واثبتوا من خلال أبحاثهم في واقع هذه الحضارة أنها بدأت تأكل نفسها من داخلها، وأنها على الرغم من قوتها الظاهرية، فأنها تعاني من أمراض نفسية وعصبية واجتماعية وسياسية واقتصادية خطيرة جداً)[1].

(١) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ٥٣.

إن تزمت الحضارة الأوربية الحديثة في غيها، وتحجر مفهوم التنمية لديها في زمن ما بعد الثورة الصناعية والعلمية أنتجت حركة مادية اقتصادية (انطلقت أساساً من إنكلترا لتشمل لاحقاً فرنسا والسويد وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، لقد فتحت هذه الثورة الأعين على حاجتين أساسيتين، الأولى: تمثلت بالحاجة إلى المواد الأولية الأساسية لحركة التصنيع التي نمت لاحقاً بوتيرة عالية، والثانية: تمثلت بالحاجة إلى الأسواق الاستهلاكية لتصريف المنتجات)[١].

إن اكتساح موجة المادية لزمن ما بعد ثورة القرون الوسطى ورواج مفهوم التنمية للمدة التي تلتها عندما أطلق (هذا المصطلح «يوجين استيلي» حين اقترح خطة تنمية العالم سنة ١٨٨٩م)[٢] والتركيز على الجانب المادي الاقتصادي وتهويل فاعليته في تغير سياسات العالم والشعوب وتقزيم الجوانب الفعالة الأخرى، يُعدّ ذلك تقنيناً لحركة الدول الصناعية لاستعمار بقية دول العالم كان أساسها المشروع الاقتصادي – المادي، وحصر كل المواقع في ذلك العامل (البنية الاقتصادية) حتى بات الأمر كأنه مسخ فكري وثقافي، مما مثلت تلك الحركة ردود أفعال عنيفة، ومسعى للتحرر من قيود الدول الاستعمارية ومفهوم التنمية ومحدداته الوضعية الضيقة، كان دافعها الاستحواذ على موارد العالم والهيمنة عليها، ولهذا ظهرت ردود

---

(١) إبراهيم حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ٢١٨.

(٢) هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا، موقع الكتروني لجامعة الرسالة.
http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267)).

منها سياسية وعسكرية وفكرية توَجتٌ مفاهيماً مما شكل نخبة من المثقفين ورواد الفكر وطلاب الحق بالنظر إلى كثير من المفردات ومنها مفردة التنمية بعين الواقع والموضوعية فبرزت عدة ولادات كانت مقدمة عجلت ولادة التنمية البشرية، كما تُعدّ زحمة الأحداث وتسارعها في النصف الثاني من القرن العشرين عاملاً أساسيا لنضوج مفهوم التنمية البشرية، فضلاً عن نضوج ذات العقل البشري وتقبله لسعة المفاهيم.

وتأسيساً على ما تقدم، أن تطوير مفهوم التنمية البشرية كان مرجعه التطور الفكري التنموي المبني على أساس النضوج العقلي المحدود للإنسان، وأن تطور هذا المفهوم خاصةً كان مرتبطاً بمسيرته النظرية التنموية الاقتصادية، (فالتنمية البشرية جزء من كل، والتي هي عملية التنمية الاقتصادية، وقد تطور مضمون مفهوم التنمية البشرية مع تطور البعد الإنساني في الفكر التنموي السائد في كل مرحلة)[1].

فكثرة اتجاهات التنمية وكثرة سبلها وتعدد مدارسها شكلت لنا منعطفاً للارتقاء بمفهوم التنمية وتطوره وقد عدت مؤثراتها العامل الأساسي لولادة أنماط التنمية في العصر الحديث، منها ما أكده الأستاذ الدكتور ناصر يوسف التي دخل بعضهم منها متحف التأريخ الإنمائي وهي: التنمية بفعل متوازن، بفعل غير

---

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي،الاطار المفاهيمي المستخدم في عمليات قياس التنمية البشرية المستدامة وتحديد مستوياتها،الدكتور صلاح عبد الحسن، ٧٦.

متوازن، فعل قطبي، بفعل تاريخي، بفعل بنيوي، بفعل حر، بفعل استقلالي، التنمية بفعل مستديم، فعل حضاري، وأخيراً التنمية بفعل إسلامي[1].

أما الدكتور عبد الجبار محمود العبيدي فقد ذهب إلى أن دراسة علم الاقتصاد ونظريته لم تكن وليدة الثورة الصناعية بل هي من القدم [2]، كما يرى أن هوس التنمية وتحقيقها في البلدان المستقلة حديثاً عم العالم وما هي إلا صورة عاكسة للمشاريع الاقتصادية وأحدى المؤامرات الاستعمارية ، وكذا هي إحدى التحولات اللاحقة لذات التنمية التي تسعى محاولة إيجاد إستراتيجية أكثر مواءمة مع النمو الرأسمالي والحركة الاقتصادية، وكأنه يريد أن يشير إلى أن نضوج مفهوم التنمية مبنيٌّ على أساس ذات الفكرة الاقتصادية حصراً، وما هذه الاستراتيجيات اللاحقة إلا خرافة لمجاراة السوق، هدفها الأول والأخير الهيمنة الاقتصادية التي تكون نافذتها تلك الاستراتيجيات الجديدة مثل (إستراتيجية نشر التصنيع التي كانت إستراتيجية التصنيع للتصدير بمثابة التعبير النظامي عنها، وأعقبتها بعد عقد

---

(١) ظ: ناصر يوسف، ديناميةالتجربة اليابانية في التنمية المركبة – دراسة مقارنة في الجزائر وماليزيا، ٥٣ – ٦١.

(٢) عُد (بناء النظريات باستخدام أدوات التحليل المنطقي باتجاه الاستقلال العلمي، إلا أن ذلك لا يعني انفصال الفكر الجديد عن الماضي الماركنتيلي، بقدر ما كان امتداداً له، فلقد بقي الموضوع الأول في دراسة الاقتصاد بتحوله إلى علم على يد آدم سمث، هو دراسة ثروة الأمم والبحث في أسبابها ومصادرها وهو ذاته عنوان كتاب آدم سمث عام ١٧٧٦م). المصدر: عبد الجبار محمود العبيدي، خرافة التنمية والتنمية البشرية المستدامة – دراسات في إشكالية الفكر الاقتصادي، ٥٧.

واحد إستراتيجية الحاجات الأساسية، وتلتها بنفس الفاصلة الزمنية إستراتيجية التنمية البشرية المستدامة)[1]، حيث يؤكد (أن منشأ هذه الفكرة تم التدريج له في المركز الرأسمالي بدأ من برنامج ترومان عام ١٩٤٩م، وخطة كولومبوا عام ١٩٥٠م الخاص بدول الكومنولث)[2].

فبغض النظر عن وجهة نظر الدكتور العبيدي التي قد نجد فيها شيئاً من الصحة لأن حاكمية الاقتصاد والسياسة مازالت تتحكم بمصير العالم، إلا أن هذا لا يُجافي حقيقة إحراز ما توصل إليه الإنسان من مفاهيم قيمية إنسانية وإن لم يعمل بها إلا بنسبة ما، فضلاً عن أن مفهوم التنمية البشرية ذات طابع شمولي ضم مجالات الحياة كافة، فهو غير قابل للاختزال أو الانحسار بحدود الاقتصاد ونطاقه بل يحتم عليه تحديد رؤية كونية تفلسف الحياة عموماً.

فعوداً على بدء ولكي نتابع تتدرج تطور مفهوم التنمية البشرية اصطلاحاً، علينا أن نتابع ولادة مفهوم التنمية وتطوره أو ما أُلحق به من مصطلحات ذات مداليل تلتصق به أو تجاوره (حيث لم يستعمل هذا المفهوم منذ ظهوره بصورة أولية في عصر الاقتصادي البريطاني ادم سميث في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وحتى الحرب العالمية الثانية، إلا على سبيل الاستثناء، فالمصطلحان اللذان استخدما للدلالة على حدوث التطور المشار إليه في المجتمع هما: التقدم المادي،

---

(١) عبد الجبار محمود العبيدي، خرافة التنمية والتنمية البشرية المستدامة ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ١٧.

التقدم الاقتصادي)[1]، في الوقت نجد تميز المدة - عصر النهضة نفسها - بوعي وإدراك إلى أهمية العنصر البشري إذ ظهر فيها مجموعة من المفكرين الذين اهتموا بهذا العنصر الأساس، إذ أُطلق على هذه المدة الدكتور خالد الهيتي بمرحلة ما قبل حركة الإدارة العلمية، ووصفها بأنها (تميزت تلك الفترة التي تمتد إلى القرن السابع عشر والثامن عشر بظهور الكثير من الكتابات التي نبهت إلى ضرورة الاهتمام بالعنصر البشري بشكل عام والعنصر البشري خلال فترة العمل بشكل خاص)[2].

وبرأي الباحث أن الإدراك المتأخر للحضارة الغربية الحديثة بخصوص أهمية التنمية الشاملة والعنصر البشري عد خللاً فكرياً يكمن في اعتماد تلك الحضارة على فلسفة الدليل التجريبي الحسي في الأعم الأغلب، مما نجد الإنسان يترقب أزمة ليتمخض منها نتائج مختبرية تشكل له فائدة تُعدّ منعطفاً في تفكيره وادائه ، ثمنها ذات الإنسان، ومن تلك الأزمات هي الحرب الكونية الأولى التي تمخض منها منعطف جديد لتعزيز أهمية الإنسان بوصفه مورداً مهماً مع البحث عن سُبل تطويره وإدارته وتدريبه، ففي هذه الفترة (أُعد أول برنامج تدريبي لمديري هذه الأقسام عام ١٩١٥م، وقامت ١٢ كلية لتقييم وإدارة الموارد البشرية عام ١٩١٩م، وفي عام ١٩٢٠م أُنشئت كثير من إدارات الموارد البشرية في الشركات الكبيرة

(١) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلى علم التنمية، ٢٠ .

(٢) خالد عبد الرحيم مطر الهيتي، إدارة الموارد البشرية - مدخل إستراتيجي، ٢٢.

والأجهزة الحكومية)[1].

إن ما ورد في أعلاه يُعدّ تأكيداً وإدراكاً حقيقياً لأهمية الإنسان بوصفه مورداً بشرياً وعُنصراً أساسياً في عملية الإنتاج، مما استدعى الاهتمام بشأن إدارة هذا المورد متزامناً بتطور مفهوم التنمية وما يحيط به من مقدمات متنامياً مع حركة التأريخ، إذ شهدت نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن الماضي تطورات في مجال العلاقات الإنسانية، أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد أتسع نطاق العمل في هذا الشأن إذ شمل تدريب العاملين وتنميتهم ووضع برنامج لتحفيزهم وترشيد العلاقات الإنسانية، ولا زالت هذه الاتجاهات مستمرة على هذا المنحى لتستمر الاتجاهات الحديثة بالتركيز على العلاقات الإنسانية [2].

فعلى ركام الحرب الكونية الأولى والثانية وعلى أطلال تخلف صناعها شاع الفقر والعوز والكساد والجهل مما سبب نضوجاً فكرياً تنموياً مفاده رفض تجربة البلدان الرائدة للعالم إبان الحربين الكونيتين على جميع الأصعدة، وما هذا إلا دليل فيما نزعم في كون الحضارة الغربية الحديثة قد تقلص وجودها وحُددّت حركتها على الساحة العالمية في جميع المجالات إلا أللهم بما يتعلق بالمحور المادي الذي تبنته وتميزت به، فقد ترتب على أثر تقلصها اتساع رقعة العوز والجريمة والفوارق الطبقية والاقتصادية وتقهقر الروابط الاجتماعية وغياب الوازع الإنساني، كل

---

(١) عبد العزيز عبد الحسن، الإدارة المتميزة للموارد البشرية، تميز بلا حدود، ١٨.

(٢) ظ: عبد العزيز عبد الحسن، الإدارة المتميزة للموارد البشرية، تميز بلا حدود ، ١٩.

ذلك يُعدّ مؤشراً واضحاً لإخفاق الإستراتيجية الاقتصادية وماكينتها التنموية، مما سبب رد فعل جماهيري يتقدمهم مجموعة من المفكرين والأدباء والفلاسفة، فولدت حركات ومؤسسات تُعنىٰ بالإنسان وحقوقه ومكانته أسهمت في نشوء نهج فلسفي جديد ركز علىٰ الإنسان أولاً، ثم حاولت هذه المؤسسات والجمعيات أن تبحث عن أدوات وآليات لتطبيق هذا النهج كالاستفتاء وحق الاقتراع وحرية التعبير عن الرأي وحكم الشعب وغيرها من العنوانات اللاتي تصب في ذات المصب حتىٰ بدأت تنحو منحىً مغايراً لنهج التنمية الاقتصادية التي أكدت إنتاج الإنتاج، لتأخذ التنمية منهحاً جديداً باتجاه محورها الجديد ألا هو الإنسان الذي يُعدّ جوهر العملية التنموية.

لا شك في أن الحضارة الغربية الحديثة اعتمدت في رسم سياستها للتنمية علىٰ الجانب المادي لتحقيق النمو الاقتصادي (وخصوصاً "عنصر رأسمال" ، فحتىٰ كارل ماركس الذي أحدث انقلاباً في منحىٰ الفكر الاقتصادي قد عزا عوامل التغير إلىٰ الجانب الاقتصادي فقط...... - إلا أننا- نجد أن شومبيتر ورغم تأثره بالنظرية الماركسية فإن نموذجه أحدث قفزة نوعية في مفهوم التنمية)[1]، حين وضح أثر (الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تسود المجتمع وتؤثر في نموه الاقتصادي)[2]، لذا يُعدّ شومبيتر هو أول من وسع رقعة التنمية إلىٰ التنمية الاقتصادية والاجتماعية وأثر الأخيرة علىٰ ذات التنمية.

---

(١) أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ١٠.

(٢) محمد فاضل عزيز قفطان، التنمية الاقتصادية، ٢٥٨.

وفي المطلب نفسه نجد الدكتور أسامة العاني قد سلط الضوء على نظرية الدفعة القوية (ليروز شيتن) عام ١٩٥٩م، التي نصت أن التنمية هي مجموعة من أجراء تغيرات شاملة في المجتمع المتُخلِّف، ونقله إلى مستوى أعلى، علاوة على عدد من الإجراءات أهمها أحداث «تغير قوي وجارف في عقلية الإنسان نفسه، وفي تفكيره وثقافته ووضعه الحضاري»، وبذلك تم تأكيد العنصر البشري صراحة[١].

بينما نجد آخرين قد حددوا أن بداية تطوير مفهوم التنمية البشرية بدأ (منذ أواخر أربعينيات القرن المنصرم وعلى وجه التحديد منذ العام ١٩٤٩م ، حيث ظهرت التلميحات الرسمية الأولية لضرورة تحقيق التنمية في البلدان الفقيرة، كما جاء في برنامج ترومان الرئيس الأمريكي الثالث والثلاثين ١٩٤٥م – ١٩٥٣م، ذي النقاط الأربعة، الذي نص حرفياً: الاستفادة من تقدمنا الخاص والتقدم الصناعي المتاح لتحسين وإنماء المناطق المتخلفة)[٢] ومنذ ذلك الوقت في بنظر بعضهم بدأت تظهر الدراسات والبحوث الخاصة بالتنمية وتطويرها، كون تتبع نضوج مصطلح التنمية البشرية يقتضي البحث في تطور هذا المفهوم وتتبع استخدامه وتترجى نضوجه، إذ لم يكن شائعاً لا على مستوى التعبير ولا على مستوى دلالته، بينما نجد قد شاع مفهوم تنمية الموارد البشرية الذي ورد في التقارير الدولية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية وبعد أن شَرَعَتْ الشعوب المستضعفة بلملمة جراحها، مما أوجب تنمية هذه البلدان بوصفها ضرورةً ملحةً؛ بل قضية تهم العالم الإنساني

(١) ظ: أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ١٠.

(٢) عبد الجبار محمود العبيدي، خرافة التنمية والتنمية البشرية المستدامة، ١٣.

أجمع في أبعاده الإنسانية والأخلاقية التي أُضفيت عليها لذا(كان المنبر الملائم لطرحها ونشرها هو أعلى وكالة دولية، إذ ظهرت بشكل رسمي أول مرة عام ١٩٦٠م، مع صدور القرار المرقم ١٥١٥ عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٦٠م حول العمل المشترك في سبيل الإنماء الاقتصادي)[1].

ونجد تأكيد مفهوم تنمية الموارد البشرية الذي (ورد في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الصادر في ١٩٦٢م حول دور الأمم المتحدة في تدريب الكوادر الوطنية)[2]، وهكذا نجد أن المفهوم بقيت له الريادة في أدبيات التنمية والتطوير(حتى منتصف الثمانينات حيث تم اعتبار تدريب الكوادر الوطنية المؤهلة يشكل جزءاً مهماً لا ينفصل عن تنمية الموارد البشرية)[3].

مما تقدم نستدل على أن مفهوم التنمية كانت بداية استعماله مقرونةً بعلم الاقتصاد للدلالة على مجموعة من الخطوات المدروسة والمتأنية لأحداث تغير في مجتمع معين يكسبه تطوراً في معيشة كل فرد، أي يمنح المجتمع الذي هو مجموعة أفراد قدرة سد حاجاته الأساسية عن طريق استغلال الموارد الاقتصادية، إلا أن مفهوم التنمية بدأ يتطور لينتقل إلى حقل السياسة منذ ستينات القرن العشرين،

---

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، التنمية والتنمية البشرية المستدامة، النشؤ والارتقاء المفاهيمي الإشكالي،الدكتور عبد الجبار محمود، ٩٣.

(٢) أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية ، ١٢.

(٣) جورج القصيفي، التنمية البشرية مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون، ٨٦.

حيث أهتم بتطوير البلدان غير الأوربية لتكون التنمية تنمية سياسية، ولاحقا تطور مفهوم التنمية ليرتبط بالعديد من الحقول المعرفية فأصبح هناك تنمية ثقافية وتنمية اجتماعية [(١)].

وبعد الحرب العالمية الثانية سعت التنمية إلى تحسين مستوى المعيشة للإنسان، إلا إن هذا الهدف الاستراتيجي انتقل إلى تحولات عدة رئيسة خلال زمن ما بعد الحرب منها: مرحلة النمو الاقتصادي المرحلة المهمة الأولى خلال الخمسينات أوائل الستينات التي سادت بين التنمية الاقتصادية والنمو الاقتصادي[(٢)]، حيث تم تعريفها بالزيادة المستدامة لحصة الفرد من إجمال الدخل الوطني [(٣)].

مرحلة عدالة التوزيع: ونستطيع أن نسميها بمرحلة النمو مع عدالة التوزيع (ففي أواخر الستينات وأوائل السبعينات حيث ركز على النمو مع إعادة التوزيع)[(٤)] وبهذا المنظور يعني أن النمو الاقتصادي ما زال له الصدارة والأولوية مع مراعاة

---

(١) ظ: جمال حلاوة وعلي صالح ، مدخل إلى عالم التنمية، ٢١.

(٢) النمو الاقتصادي: هو زيادة حصة الفرد من إجمالي الناتج المحلي الحقيقي مع مرور الوقت، أما التنمية الاقتصادية، فهي مفهوم أوسع من مفهوم النمو الاقتصادي، فهي تضم مفاهيم مثل تحسين حياة الإنسان، المهارات، الإمكانات والخيارات، الحقوق المدنية.(ظ،: الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة، مواد تدريبية، ٥٦.)

(٣) ظ: دوناتو رومانو، بالتعاون مع مشروع GCV/SYR/OO/ITA، الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة، مواد تدريبية، ٥٣.

(٤) المصدر نفسه،٥١.



تحسين مستوى الفقراء أصحاب الدخل المحدود.

مرحلة الحاجات الأساسية: في هذه المرحلة حاولت التنمية أن تستوعب حاجات الإنسان الضرورية المادية والمعنوية التي تهدف إلى تخفيف الفقر، وان هذا المنهج الاستراتيجي (ظهر من خلال الدعوة إلى إستراتيجية الاحتياجات الأساسية التي ظهرت في عام ١٩٧٦م في مؤتمر العمالة العالمية لمنظمة العمل الدولية)[(١)].

مرحلة التنمية المستدامة: وهي المدة التي منها بدأ ينعطف مفهوم التنمية للجانب الإنساني والأخلاقي، وكذا سعى ليشترك (مع إستراتيجية الاحتياجات الأساسية في التركيز على تحسين ظروف معيشة الفقراء والتي لا تتحقق إلا إذا كانت الاستراتيجيات التي تم صياغتها وتنفيذها مستدامة من الناحية البيئية والاجتماعية)[(٢)].

مما تقدم نستشف أن الاستدامة لا تتحقق إلا من خلال التوازن والتواصل بين قوى العالم الثلاث (الفلاسفة، علماء البيئة، الاقتصاد، أي: إن الاستدامة ستكون انسجاماً بين النظريات الثلاث: النظرية الاقتصادية، النظرية البيئية، نظرية العدالة والمواقف الأخلاقية، ونقتبس حقيقة ذلك من نص المفوضية العليا للبيئة والتنمية عام ١٩٨٧ م " تشمل التنمية المستدامة ما يزيد على النمو، فهي تتطلب تغيراً في محتوى النمو بحيث يصبح أقل مادية واستخداماً للطاقة وأكثر عدالة في تأثيراته

---

(١) دوناتو رومانو، بالتعاون مع مشروع GCV/SYR/OO/ITA ، الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة، مواد تدريبية، ٥١.

(٢) المصدر نفسه، ٥٢.

ويجب تحقيق هذه التغيرات في جميع الدول جزء من مجموعة الإجراءات للمحافظة على رأس المال البيئي ولتحسين توزيع الدخل وتخفيف درجة الحساسية للأزمات الاقتصادية)[1].

ولأن نضج مفهوم التنمية استمر بتطور مفرداته المتجددة في اذهان رواده كانت ولادة التنمية المستدامة، إذ أكتسب هذا المصطلح اهتماماً عالمياً كبيراً خاصةً بعد ظهور تقرير لجنة (مستقبلنا المشترك الذي أعدته اللجنة العالمية للبيئة والتنمية في عام ١٩٨٧م، حيث صيغ أول تعريف للتنمية المستدامة في هذا التقرير على أنها "التنمية التي تلبي الاحتياجات الحالية الراهنة دون المساومة على قدرة الأجيال المقبلة في تلبية حاجاتهم")[2].

أما مفهوم سبل العيش التي تزامنت ولادته مع بقية المفاهيم في العقد الثامن من القرن العشرين وسط صخب وزحمة التنمية، حيث كثر الحديث عن نهجه (في إطار برامج مجموعة من المنظمات الإنمائية مثل وكالة التنمية الدولية في المملكة المتحدة وسواها من الجهات المانحة والوكالات غير الحكومية)[3].

إن مفهوم التنمية البشرية قد تطور نتيجة اتساع الحضارة الإنسانية بصورة

(١) دوناتو رومانو، بالتعاون مع مشروع GCV/SYR/OO/ITA، الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة، مواد تدريبية،٥٣.

(٢) ريده ديب، التخطيط من أجل التنمية المستدامة، ٤٨٨.

(٣) مسار التنمية البشرية،٣٦ ، www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

عامة، وقد نجد أن المفهوم قد ترعرع وسط زحمة الأحداث السياسية والاقتصادية والفكرية فصار منعطفاً إلىٰ معانٍ جديدة، ليصبح بعض من متبنياته، إشباع الحاجات الأساسية المادية والمعنوية، تحسين سبل عيش الفقراء، النظر بعين الإنسانية والإنصاف في حق الأجيال القادمة، ثم تطور بأثر عوامل جمة ليصبح هدفه الإنسان وسبل الارتقاء به، وليستقر عند مصطلح التنمية البشرية ببعده الاصطلاحي الآني ، لذا عد الباحث وجود عوامل ساعدت علىٰ نضج مفهوم التنمية البشرية ، منها ما يأتي:

- الأيمان بأن العنصر البشر هو الركيزة والمحور الأساس في منظومة التنمية البشرية.
- اتساع أفق العقل البشري نتيجة انطلاق المعارف والعلوم العلمية والإنسانية.
- هيمنة العولمة علىٰ العصر الحديث ودخول الإنسان مجبراً وتأثره بها.
- السير قدماً في البحث والدراسة لمعرفة ماهية وحقيقة الإنسان.
- فشل إيديولوجيات الأنظمة السياسية الحاكمة في إشاعة روح بناء الإنسان والمجتمع.
- تحول الصراع بين القوىٰ العالمية من صراع اقتصادي وعسكري إلىٰ سياسي وفكري.
- أفول نجم الحضارة الغربية الحديثة بنظر أغلب شعوب الأرض الأخرىٰ.
- تلاقح حضارات الأمم وكسر طوق العزلة للتقدم المذهل في برامج التكنولوجيا والتقنية الحديثة.

- إيمان الإنسان على أرض المعمورة أجمعها بأن التقدم قيمة حضارية حديثة لا بد منها.
- ردم الهوة بين المبادئ والنظريات من جهة والواقع من جهة أخرى، ذلك بأتباع المنهج العملي.
- الانفلات عن طوق بعض العادات والأعراف المتخلفة التي كانت تشكل عائقاً في مسيرة تقدم الشعوب.
- إشاعة روح علمية المؤتمرات والندوات بين المفكرين وفلاسفة العصر لشعوب الأرض كافة.
- مساندة الشعوب والمؤسسات غير الحكومية (منظمات المجتمع المدني) للوقوف بوجه الأنظمة الحاكمة المستبدة.
- إشراك المرأة في عملية التفكر بعد أن كان مغيباً عند أغلب الأمم والشعوب.
- الخشية من نفاذ المصادر الاقتصادية الطبيعية والتي لا يمكن تجديدها.
- شعور الإنسان بتلوث بيئته، مما دعاه للوقوف أمام الكوارث الطبيعية التي تداهم كرته الأرضية.

ولزيادة الفائدة ارتأى الباحث أن يستعرض أحد مصاديق تدرج الحركة الحضارية المعاصرة من وجهة نظر (ألفن تافلر)[1] وكتبه الثلاثة " صدمة الحضارة، وسطوة المعرفة، والموجة الثالثة" والتي تحدّث فيها عن ثلاث موجات رئيسة سادت حركة تغير العالم، أولها الآلة العسكرية: وتعني أن يملك زمام التغير آنذاك هو من كان يمتلك المعدات العسكرية الأشد فتكاً.

والموجة الثانية: هي الازدهار الاقتصادي وتعني أن الذي يُدير دفة التغير وقتها كان من يملك المال لا السلاح، ومن يهيمن على مقدرات السوق وليس ساحات المعارك.

أما الموجة الثالثة: هي التفوق التكنولوجي، وتعني أن من سيكون بمقدوره اليوم السيطرة على زمام الأمور، وإدارة دفة التغيير عالمياً، هو ليس من يملك السلاح أو الاقتصاد فقط؛ بل هو من يجيد فن التعامل مع تكنولوجيا المعلومات، ووسائل وأساليب التفوق التقني المعاصرة.

بينما كانت الموجة الرابعة هي موجة القيم: بمعنى أن من ستتاح له فرصة توجيه قيم الشعوب وتحديد اتجاهات الدول سيكون بمقدوره ليس أحداث التغير فحسب، بل السيطرة

---

(١) مفكر أمريكي وعالم في مجال دراسات المستقبل، مواليد ١٩٢٨م، تُرجمت كتبه إلى عدة لغات عالمية، أشهرها كتاب الموجة الثالثة، الذي يبين فيه ثلاثة أنواع من المجتمعات،، كل موجة تزيح المجتمعات والثقافات الأسبق جانباً. قام بتدريس رؤساء دول مثل ميخائيل غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفيتي الأخير، والرئيس الهندي أبو بكر زين العابدين، ورئيس وزراء ماليزيا السابق مهاتير محمد، كما عُرف بأعماله بمناقشة الثورة الرقمية وثورة الاتصالات وثورة الشركات والتميز التكنولوجي. ظ: وكيبيديا الموسوعة الحرة، موقع الكتروني/ar.wikipedia.org/wiki .

على تلك البيانات دونما حاجة إلى قوة مادية عسكرية، أو سيطرة مالية اقتصادية، أو تفوق تكنولوجي تقني[1].

فإن مفهوم التنمية البشرية الذي سبب (قفزة نوعية مع صدور تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٠م)[2]، قد أخذ حيزه الاصطلاحي ابتداءً من التأريخ أعلاه ليتطور أكثر فأكثر بساحة الباحثين والناشطين والمهتمين في هذا الميدان المهم والحيوي، مما عكست نتائج بحوثهم على تقارير الأمم المتحدة الإنمائية للأعوام اللاحقة والتي حاولت جادة أن تبلور التنمية البشرية بأبعادها المختلفة لترتقي تباعاً بمعايير إنسانية وأخلاقية، وهي كالآتي:

(١٩٩٠م مفهوم وقياس التنمية البشرية.

١٩٩١م تمويل التنمية البشرية.

١٩٩٢م الأبعاد العالمية للتنمية البشرية.

١٩٩٣م المشاركة الشعبية.

١٩٩٤م الأبعاد الجديدة للأمن البشري.

١٩٩٥م نوع الجنس والتنمية البشرية.

١٩٩٦م النمو الاقتصادي والتنمية البشرية.

١٩٩٧م التنمية البشرية للقضاء على الفقر.

---

(١) ظ: خالد المدني، ومجموعة باحثين، الرخصة الدولية في التدريب مركز التطوير المتكامل، ٢.

(٢) أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ١٣.

١٩٩٨م الاستهلاك من أجل التنمية البشرية.

١٩٩٩م العولمة ذات الوجه الإنساني.

٢٠٠٠م حقوق الإنسان والتنمية البشرية.

٢٠٠١م توظيف التقنية الحديثة لخدمة التنمية البشرية.

٢٠٠٢م التنمية الإنسانية / خلق الفرص للأجيال القادمة.

٢٠٠٣م نحو إقامة مجتمع المعرفة.

٢٠٠٤م الحرية الثقافية في عالمنا المتنوع.

٢٠٠٥م التعاون الدولي على مفترق الطرق المعونة والتجارة والأمن في عالم غير متساو.

٢٠٠٦م ما هو أبعد من الندرة القوة والفقر وأزمة المياه العالمية.

٢٠٠٧م – ٢٠٠٨م محاربة تغير المناخ – التضامن الإنساني في عالم منقسم.

٢٠٠٩م التغلب على الحواجز: قابلية التنقل البشري والتنمية.

٢٠١٠م الثروة الحقيقية للأمم: مسارات إلى التنمية البشرية.

٢٠١١م الاستدامة والإنصاف: مستقبل أفضل للجميع.)[١]

وبذلك فإن تقرير عام ١٩٩٠م قد صور محددات التنمية البشرية، وإن كل ما ورد تباعاً من تقارير ما هي إلا بلورة لذات المفهوم، وأن تقارير الأمم المتحدة لهذه الأعوام تُعدّ تقارير مستقلة لاستنادها إلى تحليل التجارب التي تهتم بالمتبنيات والقضايا والاتجاهات والتطورات والسياسات الإنمائية.

---

(١) الأمم المتحدة، موقع الكتروني، www.un.org/ar/esa/hdr/.

(٣): الرؤية العصرية للتنمية البشرية (التنمية البشرية المستدامة).

إن الحديث عن التنمية البشرية المستدامة يكاد يختلف اختلافاً كبيراً عن الحديث عن المفاهيم التي ذُكرتْ سلفاً، كون المفردات التي تبنيناها جعلت نفسها مقدمة الوصول إلى مفهوم التنمية البشرية أو ركن من أركانه، بينما نلاحظ أن الحديث عن مفهوم التنمية البشرية المستدامة بخلاف ذلك تماماً، فهو عبارة عن أنموذج ذي رؤية متطورة من زاوية جديدة.

ولعل ما أورده الدكتور عدنان ياسين مصطفى من بحثه يُعدّ مدخلاً موفقاً لمعرفة هوية وماهية التنمية البشرية المستدامة، وهو ما نسعى إليه، فقد تضمن بحثه عدة إثارات جميلة وأستفهامات علمية، اضطر العقل أن يكون تواقاً لمعرفة إجاباتها، فقد ذهب إلى أن صفة الاستدامة للتنمية والتنمية البشرية لا تشكل هوية مميزة كما نحن بصدده على حد تعبيره: (إذ لم يقل احد من قبل إن التنمية الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية – الاجتماعية، هي مؤقتة أو ليست مستدامة، كما لم يقل أحد إن تلك الأنماط التنموية كانت تساوم على قدرة الأجيال القادمة، إذن ما هو المستدام؟ هل هو مجرد التواصل والمواصلة زمنياً؟ أم أن في المفهوم أبعاد أخرى أكثر خطورة؟)[1].

---

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، التنمية المستدامة بين أيديولوجيا الشمال ومآزق الجنوب – رؤية سوسيولوجية، الدكتور عدنان ياسين مصطفى، ٢٣٢.

إن جملة الاستفهامات التي آثارها الدكتور عدنان ياسين مصطفى تُعدّ جوهر موضوعنا، في الوقت الذي عد رواد هذا اللون من التنمية أن التنمية البشرية لها حاجة إلى بلورة بعض المعاني ونضج لمفاهيم تتضمن العنوانات الإنسانية والثقافية والبيئية والاقتصادية.

من أجل ذلك عُبر عن هذا المفهوم بالتعبير الآتي: (توسيع اختيارات الناس وقدراتهم من خلال تكوين رأس مال اجتماعي يقوم بتلبية احتياجات الأجيال الحالية بأعدل صورة ممكنة دون الإضرار بحاجات الأجيال القادمة)[1]، علماً إن التنمية البشرية المستدامة (برزت بوصفها تركيبة مشكلّة من إستراتيجية التنمية البشرية الأصلية كما عبرت عنها تقارير التنمية البشرية التي يصدرها البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، ومفهوم التنمية المستدامة كما طوره المعنيون بالبيئة، وتم تبنيه من قبل مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية الذي عُقد في ريودي جانيرو عام ١٩٩٢م)[2].

ولهذا نجد أن بعضاً من الباحثين قد ذهب إلى تخصيص مفهوم الاستدامة واستعماله ليكون تعبيراً (في أغلب الأحيان في معرض الإشارة إلى البيئة، لكنه لا ينحصر فيها، فمفهوم الاستدامة على جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والمالية

---

(١) مجموعة من الباحثين، اثر التعليم في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، الدكتور سوسن شاكر الجلبي، ٣٩٣.

(٢) المصدر نفسه ، الإطار المفاهيمي المستخدم في عمليات قياس التنمية البشرية المستدامة وتحديد مستوياته، الدكتور صلاح عبد الحسن، ٨٠ – ٨١.

والمجالات الأخرىٰ ذات الصلة.

وتعني الاستدامة البيئية الناتج الإنمائي من دون تعرض قاعدة الموارد الطبيعية والتنوع البايلوجي للخطر، ومن دون إلحاق الضرر بقاعدة الموارد المتاحة للأجيال المقبلة..... ويصح المعنىٰ نفسه علىٰ الاستدامة المالية التي يقصد بها طرق تمويل التنمية وتأثيرها في المستقبل، فالتنمية لا تعني إثقال البلدان بالديون وتحريرها من الموارد التي يُفترض أن تبقىٰ للمستقبل)[١]، وهكذا هي حالها مع بقية أنماط التنمية الأخرىٰ.

بينما يرىٰ آخرون مفهوم التنمية البشرية المستدامة من زاوية أخرىٰ تُقارب الجنبة الاجتماعية، إذ حددوا هذا المفهوم علىٰ أنه هو رأس المال الاجتماعي: (والذي هو من الأشكال الطوعية من التنظيم الاجتماعي الذي يعتمد بصورة أساسية علىٰ المبدأ القائل بأن علىٰ المرء أن يتجاوز المصلحة الشخصية ويتصرف بموجب مصلحة المجتمع أو الجماعة التي ينتمي إليها)[٢].

ومنهم من يرىٰ أن هذا المفهوم - التنمية البشرية المستدامة- بالرغم من تطرقه لمعان جديدة ذات أبعاد معينة، وعلىٰ الرغم من تداوله في الساحة التنموية بوضوح وبقوة، فإنه ليس بالضرورة أن يُعدّ (المفهوم الوحيد أو الأفضل، ولا ينفىٰ عنه

---

(١) مسار التنمية البشرية،٦
www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

(٢) طارق بانوري وآخرون، التنمية البشرية المستدامة من المفهوم النظري إلىٰ التطبيق، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ٩.

الأهمية الكبيرة التي اكتسبها والتي يمكن ملاحظتها من خلال الاهتمام الكبير لمنظمة الأمم المتحدة بهذا المفهوم وتقديم الدعم الفني والمادي لتطويره وتطبيقه، فضلاً عن قيام العدد الكبير من الدول بإصدار تقارير ودراسات حوله)[1] ومن ثم فإن هذا المصطلح قد فرض نفسه كالأكثر حيوية في أروقة المناقشات التي تدور في ميدان التنمية والتنمية البشرية.

فقد عرفت منظمة الفاو التنمية البشرية المستدامة بإنها: (هي إدارة وحماية قاعدة الموارد الطبيعية وتوجيه التغير التقني والمؤسسي بطريقة تضمن تحقيق واستمرار الحاجات البشرية للأجيال الحالية والمستقبلية)[2] في حين عرفت بتعبير أخر على أنها: (التنمية التي تغطي احتياجات الحاضر دون الإضرار بقدرة الأجيال المستقبلية على تغطية احتياجاتها)[3].

ولو أمعنا النظر في محددات مفهوم التنمية البشرية ومفهوم الاستدامة على وفق ما ورد بضوء التعريفات المذكورة آنفاً، لوجدنا أن الغلط كان يكمن في أصل فهم التنمية البشرية من أول يوم من عام ١٩٩٠م حين عُرفت على أنها:(عملية تهدف

---

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، الجهود العربية في تبني مفاهيم وإعداد تقارير التنمية البشرية المستدامة (تجربة سلطنة عمان)، الدكتور نبيل النواب، ٣٤٨.

(٢) دوناتو رومانو، بالتعاون مع مشروع GCV/SYR/OO/ITA ، مواد تدريبية الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة، ٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ٥٥.

إلى زيادة القدرات المتاحة أمام الناس)[1]، في الوقت الذي أدركنا أن ولادتها جاءت نتيجة العدول من الحاضنة الاقتصادية والمادية البحتة إلى الحاضنة التي تُعدّ فيها الجنبة الاقتصادية إحدى جوانب الحياة الأخرى، كما كانت الولادة مبنية على أساس محورية الإنسان وأهمية المعايير القيمية والأخلاقية التي اُلتفت إليها أخيراً، إلا أن الغلط كان يكمن في مضمون التعريف حين حُدد الهدف من التنمية البشرية في كونه زيادة خيارات الناس من دون النظر إلى الآليات والأدوات التي تحقق هذا الهدف، والتي يجب أن تكون بعيدة الوقوع في الخطأ، فضلاً عن الخشية من توسيع مساحة خيارات الإنسان التي قد تصل لتصادر حق إنسان آخر في زمن أو مكان آخر، مع ضرورة النظر بمشروعية ما يُتاح إلى الإنسان عمن لا يُتاح له، وما هي الضوابط التي تُسوغ إليه تلك السعة، وما هي حقوقه وواجباته أمام تلك العملية، كل ما أوردناه لابد من أن يكون على وفق رؤية فكرية معتدلة.

إن مجموعة الاستفهامات التي أثيرت تُعدّ المدخل الطبيعي لتكامل أي هيكل تنظيمي لأي علم أو نظرية، وما هذه الاثارات إلا أمر طبيعي قبال تعريف غير متكامل ويفتقر للكثير، وهذا لا يعني أن الباحث يدعي أن ولادة مفهوم التنمية البشرية كان ناقصاً من حيث كلياته التي لم يُختلف عليها تقريباً، والدليل على ذلك، أنه لم يكن هناك أي اختلاف بشأن الموضوع أو الأهداف أو الأساليب والعناصر وبقية مفردات العلم إلا بقضايا تكاد تكون فنية أو نسبية، خصوصاً وأن كل تلك المفردات قد أُشبعت بحثاً ودراسةً وتحليلاً.

(١) اسامة العاني: المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ١٣.

نعم إن ضعف التعريف من جهة وعدم تكامل الرؤية الوضعية للتنمية البشرية أعطى مسوغاً للتعليق على بعض المطالب أو تغيراً وعدولاً في مطالب أُخر أو توضيحاً وشرحاً في بعضها الآخر، وما الاستدامة إلا إحدى تلك الشروح بحسب وجهة نظر الباحث، كما نستطيع أن نعد افتقار التنسيق بين كثرة المفاهيم هي إحدى الأسباب التي آلت إلى إضافة الاستدامة للتنمية البشرية في بعض التقارير أو الدراسات الأخيرة، فالتنمية البشرية لم تُنكر ضرورة النظرية البيئية، كما لم تُنكر ضرورة النظرية الاقتصادية أيضاً، ولا بقية المجالات الأخرى، بل حاولت أن تفلسف الحياة وتضع لها معايير وضوابطاً، محورها الرئيس هو الإنسان، فمن غير المنصف أن تكون ولادة مفهوم التنمية البشرية على حساب الإنسان الذي هو ذات موضوع المفهوم.

ولكي نكون موضوعيين فمفهوم التنمية البشرية المستدامة يكاد لا يختل عن نظيره - التنمية البشرية - إلا بثلاثة محاورٍ بحسب وجهة نظر المهتمين بالاستدامة وهي : محور البيئة والاهتمام بها، ومحور ضرورة النظر للمستقبل وحقوق الأجيال القادمة، والمحور الأخير هو العمل على استمرارية حركة التطور وديمومتها، وإن إضافة هذه المنطلقات الجوهرية والمهمة أعطت للباحثين مسوغات تسمية جديدة هي رأس المال الاجتماعي، تكون متبنياته وعي وإدراك المحاور المذكورة آنفاً، كما عد ما تقدم هو الفارق بين التنمية البشرية المستدامة والتنمية البشرية.

والحق إن التنمية البشرية لا تُخرج هذه المحاور عن دائرتها، فهي تسع خيارات الإنسان عموماً بغض النظر عن كونه في هذه الحقبة الزمنية أو التي بعدها، أو في هذه البقعة المكانية أم تلك، فضلاً عن حتمية اهتمامها بالبيئة بوصفها ساحة

الإنسان ومنطلقه إلى تحقيق طموحاته ورؤاه، وأنها مستمرة في الإنماء والتطور طبيعياً لاقترانها بمفردات متطورة بذاتها، بحيث يُعدّ التطور من ماهية متمنياتها، لاعتقادها أن الإنسان لم يُخلق لتنتهي خياراته وطموحاته لحد معين، وبهذا سنجد أن ماكينة التطور والإنماء مستمرة حتماً من دون حاجتنا لتسمية التنمية البشرية بالتنمية البشرية المستدامة، كون غاية الأولى هي غاية الثانية نفسها.

فعلى الرغم من تحفظنا على مصطلح الاستدامة الذي أضيف إلى التنمية البشرية، فإنه يمكن القول بإنه جاء نتيجة محاولات لصياغة مصطلح لمفاهيم بطرق تحاول التقريب بين عدة مفاهيم في مفهوم واحد، مما شكل تداخلاً بيناً واختلاطاً واضحاً في ماهية كل مفردة، في الوقت الذي لم يُزاود على متبنيات الاستدامة حيث (اُعتبرت قضية أخلاقية وإنسانية بقدر ما هي قضية تنموية وبيئية، وهي قضية مصيرية ومستقبلية بقدر ما هي قضية تتطلب الاهتمام بالحاضر أفراداً ومؤسسات وحكومات)[1]، ومن هنا كان يؤمّل أن تتجلى الصورة الوضعية للتنمية البشرية من حيث الشمول والكمال والديمومة وبقية السمات الأخرى، كما هي حالها في المنظور القرآني، والتي سنتحدث عنها في المبحث الأول من الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، التنمية المستدامة بين أيديولوجيا الشمال ومآزق الجنوب - رؤية سوسيولوجية، الدكتور عدنان ياسين مصطفى، ٢٣٤.

وما الدراسة المشتركة بين منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة ووزارة الزراعة والإصلاح الزراعي السورية لعام ٢٠٠٣م إلا دليل على حجم التخبط الوضعي للمفاهيم ومنها الاستدامة وما تعتريها من مشكلة، لأن مشكلتها تكمن في التواصل والتنسيق بين تلك المفاهيم المتباينة التي تُطرح من الفلاسفة وعلماء البيئة وعلماء الاقتصاد، حيث نتلمس الضعف في مطالبهم بعدم استيعاب

وفهم كل ميدان للآخر، وهذا ما نراه واضحاً حين نسلط الضوء على كل علم أو توجه فـ(النظرية الاقتصادية تساهم من خلال التركيز على الكفاءة الاقتصادية وحقوق الموارد، والنظرية البيئية تساهم من خلال التركيز على تشغيل النظم البيئية والمحافظة على الهيكل البيئي، ونظرية العدالة والمواقف الأخلاقية التي تحيط بها تساهم من خلال التركيز على العواقب التوزيعية لبدائل السياسات)[1]

وبمقتضى ذلك نجد أنفسنا أمام حوار جديد يبحث عن محورية التنمية البشرية المستدامة وتباين الباحثين والمهتمين في هذا الشأن لتحديد العنصر الأساس لها بغية تكريس الجهود النظرية والعملية للارتقاء بالإنسان، حيث وجدنا كثرة الخلط داخل الدائرة الواحدة، ووجدنا تباين الاهتمام والتركيز على عنصرها الأساس بين العناصر المتعددة، البيئة، الموارد الطبيعية، مصير الأجيال الحالية والقادمة، تعظيم الفائدة، التفكير بالمستقبل، الإنسان، وغير ذلك مما سببت تزاحماً فكرياً وتداخلاً في الرؤى عند البعض من الفلاسفة والمفكرين.

---

(١) دوناتو رومانو، بالتعاون مع مشروع GCV/SYR/OO/ITA ، مواد تدريبية الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة ٥٣.

لذا نستطيع أن نستخلص ما اتفق عليه من معايير للاستدامة وهي (ما يأتي: هي التنمية المتجددة القابلة للاستمرار، هي التنمية المتجددة التي لا تتعارض مع البيئة، هي التنمية المتجددة التي تضع نهاية لعملية استنزاف لا نهائية للموارد الطبيعية)[1].

وعلى وفق المعايير أعلاه ستكون التنمية البشرية المستدامة هو عبارة عن: عملية ترمي لتطوير القوى الكامنة لدى الإنسان و على فق رؤية كونية منتخبة خدمة لتحقيق طموحاته وتلبية حاجاته المشروعة هو والأجيال القادمة، لتكون هذه العملية بمثابة رأس مال اجتماعي.

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، التنمية المستدامة بين أيديولوجيا الشمال ومآزق الجنوب - رؤية سيولوجية، الدكتور عدنان ياسين مصطفى، ٢٤٣.

إلا أن الحق نستخلصه في تأملنا للمعايير ، حيث نستنتج أن مصطلح التنمية البشرية المستدامة يُعدّ مفهوماً جديداً نابعاً من تزاوج التنمية المستدامة والتنمية البشرية، ليشكل بُعداً جديداً هو رأس المال الاجتماعي، تكون من أولوياته الوعي الاجتماعي الباعث للالتزام في حق الأجيال الحالية و مُراعاة حق الاجيال المقبلة، وفيها عدالة التوزيع، الإنصاف، بناء البيئة، تأهيل الإنسان، وتوسيع خياراته مع مراعاة الفقراء وغيرها من الصور التنموية المتكاملة[1].

فالباحث يرى أن التنمية البشرية مستدامة بطبيعة ماهيتها، أي هي ليست عملية توسيع خيارات الناس وتطوير قابلياتهم وقدراتهم فحسب، بل أنها تتعدى ذلك لترتقي سُلم إنسانية الإنسان، لتحقيق وتواصل وتجدد معاني التطور والإنماء

---

(١) ومن الجدير بالذكر أننا وجدنا أن معايير التنمية المستدامة تقارب معايير التنمية البشرية المستدامة، حيث يرى بابير أنها (تحقق التوازن بين النظام البيئي والاقتصادي والاجتماعي وتسهم في تحقيق أقصى قدر من النمو والارتقاء في كل نظام من الأنظمة الثلاثة، حيث حدد بابير أربع سمات للتنمية المستدامة: أنها تختلف عن التنمية بشكل عام في كونها اشد تداخلاً وأكثر تعقيداً وخاصة فيما يتعلق بما هو طبيعي وما هو اجتماعي في التنمية، التنمية المستدامة تتوجه أساساً إلى تلبية متطلبات واحتياجات أكثر الشرائح فقراً في المجتمع وتسعى إلى الحد من تفاقم الفقر في العالم، التنمية المستدامة بُعد نوعي يتعلق بتطوير الجوانب الروحية والثقافية والإبقاء على الخصوصية الحضارية للمجتمعات، لا يمكن في حالة التنمية المستدامة فصل عناصرها وقياس مؤشراتها لشدة تداخل الأبعاد الكمية والنوعية. المصدر: مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، التنمية المستدامة بين أيديولوجيا الشمال ومآزق الجنوب – رؤية سيولوجية، د. عدنان ياسين مصطفى، ٢٣٦.

واستمرارها واستدامتها.

فرؤية الباحث بخصوص الاستدامة هي ذات رؤيته بخصوص المفاهيم المذكورة آنفاً التي اقترنت أو جاورت أو عدت كمقدمة أو مكملة لمفهوم التنمية البشرية بحيث نستطيع أن نسميها بالروافد التي تصب فيه، وإن أخذت بعضاً من تلك المصطلحات طابع الإنفراد ، كحقوق الإنسان أو سبل العيش أو الحاجات الأساسية أو غيرها، إلا أن الاستدامة اختلفت عن غيرها بنسبة ما، حيث عدت مرحلة متطورة لمفهوم التنمية البشرية ذات رؤية بعيدة المدىٰ ليس إلا.

ولو دققنا النظر في موضوع المفهوم والنهج والغايات لوجدنا أن التنمية البشرية محور موضوعها الإنسان، والنهج إعداد القدرة وتعبئتها لديه بُغية استعمالها خدمة لتحقيق طموحاته المشروعة، بينما نرىٰ أن أغلب المفاهيم الأخرىٰ، تكون الفئة المستهدفة فيها هو الإنسان الضعيف أو المستضعف، التي تسعىٰ مناهجها لرفع الكاهل عنه وانتشاله من الواقع المرير وتحويله إلىٰ فرد منتج وفاعل اجتماعي، وبمقتضىٰ ذلك ستكون التنمية البشرية اشمل واعم من المصطلحات الأخرىٰ، وهو الدليل الذي دفع الباحث لتبني مفهوم التنمية البشرية تحديداً ، وعد كل ما دونه هو ترف فكري أو لحن في صياغة المصطلحات.

والدليل علىٰ ذلك أن تقارير التنمية البشرية المستدامة لم تزد شيئاً علىٰ ما ذكرته تقارير التنمية البشرية في بداية نشأتها، إلا في الصياغة الفنية أو في بعض الشروح أو بيان ما كان مجملاً أو تخصيص ما كان عاماً أو تقيد ما كان مطلقاً.

نعم لقد أدرك الباحثون وجود متطلبات مستحدثة أدركوها من خلال التجربة والبحث، مما دعاهم الىٰ العدول في الرأي، إلا أن الباحث يسعىٰ الىٰ بيان

أن التنمية البشرية بمفهومها العام كلياً لا يقتضي الاختلاف على متبنياتها مع اعتقادنا بمشروعية جواز التعديل والعدول في بعض المطالب، وهذا ما ستوضحه تلك التقارير، (فالتقارير الأولى للتنمية البشرية أكدت على أهمية البيئة وقيمتها، فالتقرير الأول حذر من التزايد المطرد في المخاطر البيئية ومنها المخاطر التي تصيب الصحة، ومن ارتفاع درجة حرارة الأرض، والضرر اللاحق بطبقة الأوزون، والتلوث الصناعي والكوارث البيئية)[1].

وهكذا هي حال تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٤م، حيث أكد عدم وجود أي تعارض بين مفهومي التنمية البشرية والمستدامة، فكل منهما راسخ في حق الثاني ومتبنياته، وهذا ما يؤكده تقرير التنمية البشرية الإنمائي للأمم المتحدة لذات العام، حيث أشير إلى هدف التنمية البشرية على أنه (إدامة الحريات والإمكانات التي تفسح المجال أمام الناس ليعيشوا حياة لائقة، وتعريفنا للتنمية البشرية المستدامة هو تعريف معياري، فنحن لا ننشد الاستدامة لأي حالة من الحالات، بل لتلك التي توسع الحريات الحقيقية، وهذا يعني أن التنمية التي تفتقر إلى الإنصاف لا يمكن أبداً أن تكون تنمية بشرية مستدامة)[2].

ومن الموضوعات التي يقتضي الوقوف عندها وتسليط الضوء عليها هو أن (الإنصاف) في تقارير الأمم المتحدة للسنوات الأخيرة طابقت الرؤية الإسلامية

(١) تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠١١م، ١٤ الموقع الالكتروني الرسمي. www.un.org/ar/esa/hdr/hdr09.shtml.

(٢) المصدر نفسه، تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ١٩٩٤م.

الاقتصادية بتأكيدها عدالة التوزيع، فان التقرير ينص على ما يأتي: (والإنصاف في فهمنا: كانت فكرة الإنصاف في الماضي تعني مكافئة الأفراد حسب مساهمتهم في المجتمع، وقد أصبح الإنصاف بمعناه المرادف للعدالة، يشير إلى عدالة التوزيع، أي تجنب حالات عدم المساواة المجحفة بين الناس)[1]، وبالنتيجة فالاستدامة والإنصاف سيشتركان يقيناً في عدالة التوزيع سواء كان بين أفراد الجيل الحاضر أم الجيل القادم؛ وبهذا سيكون من البديهي أن التنمية البشرية لا تتحقق إلا من خلال الاستدامة والإنصاف معاً.

وهكذا نجد أن مفهوم التنمية البشرية أخذ حيزاً جديداً، إذ نرى أن تقرير التنمية العربية لعام ٢٠٠٢م على سبيل المثال ينص على أنه (تم فتح آفاق في تعزيز مفهوم جديد للتنمية أقرب للمفهوم الاجتماعي الإنساني منه للمفهوم الاقتصادي البحت الذي كان شائعاً في الفترة الماضية)[2].

أما تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠١٠م فلم يخرج عن المجال العام للتقارير السابقة، بل رفع من شأن الاستدامة، إذ جدد تأكيد أهمية ونهج التنمية البشرية و(التنمية البشرية هي توسيع لحريات البشر، فيعيشوا حياة مديدة ملئها الصحة والإبداع، ويسعوا إلى تحقيق الأهداف التي ينشدونها، ويشاركوا في رسم مسارات

---

(١) تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠١١م، ١٤ الموقع الالكتروني الرسمي. www.un.org/ar/esa/hdr/hdr09.shtml.

(٢) عبد الله محمد الصادق، ندوة تحديات التنمية البشرية في الوطن العربي (الواقع والافاق)، ٨٩.

التنمية في إطار من الإنصاف والاستدامة على كوكب يعيش عليه الجميع، فالبشر أفراد وجماعات، هم المحرك لعملية التنمية البشرية وهم المستفيد منها)[1].

بهذا نجد أن معظم تقارير الأمم المتحدة والدراسات والبحوث قد أكدت تعريفات التنمية البشرية مع تركيزها على فكرة: أن السعة في الخيارات المتاحة لإنسان الغد يجب أن لا تختلف عن سعة خيارات إنسان اليوم، ويُعدّ هذا القيد السبب الرئيس في التفرقة بين المفهومين، بالرغم من أن مفهوم التنمية البشرية أكد مبدأ السعة في الخيارات والحريات، لأن للإنسان حقاً لا يتأثر بزمن معين.

فعند اطلاعنا على بقية التقارير والدراسات والبحوث نجد ما تبنيناه في أن نهج التنمية البشرية هو الأساس، وما بقية المفاهيم إلا مفاهيم تؤازر مفهومنا الأول وتناصره، وما محل التمكين والإنصاف والاستدامة في تقرير الأمم المتحدة بتقريرها الإنمائي لعام ٢٠١١م إلا دليل آخر على ذلك فـ (نهج التنمية البشرية هو منذ نشأته وسيلة تتيح لنا فهم العالم الذي نعيش فيه اليوم وفي المستقبل، وقد جدد تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠١٠م التأكيد على أهمية مفهوم التنمية البشرية، فركز على التمكين، والإنصاف، والاستدامة في توسيع الخيارات المتاحة للإنسان، كما بين أن هذه الأبعاد الأساسية لا تتلازم دائماً.... إذ هي أبعاد متآزرة لا يتحقق أي منها على حساب الأخر)[2] مطلقاً، وهذا يعني أن التقارير أكدت ما يأتي:

---

(١) تقرير الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠١٠، ١٦.

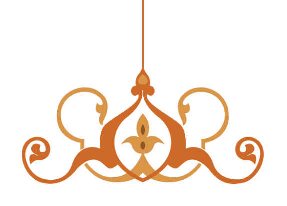
(٢) تقرير الأمم المتحدة الإنمائي،٢٠١١م الموقع الالكتروني الرسمي www.un.org/ ar/ esa/ hdr/ hdr٠٩.shtml.

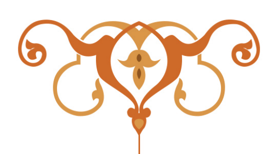
- تحقيق النمو في المجالات كافة.
- العمل على تعزيز متبنيات التنمية البشرية وعدها متآزرة لتحقيق الأهداف المرجوة.
- تآزر الناس وتنشيطهم بدل من تهميشهم وإشراكهم باتخاذ القرارات.
- المحافظة على البيئة، والخشية من عواقبها الخطيرة التي قد تطال الإنسان نتيجة التدهور البيئي.
- تمكين الإنسان الفقير والمحروم بالعمل على سعة خياراته.
- توسيع الفوائد ووجوب جعل الإنصاف والعدل والمساواة جزءاً لا يتجزأ من المنظومة التنموية.
- تأكيد أن للإنسان حقاً لا يتأثر بزمن، مما يقتضي أن ينعم الإنسان بحرية الاختيار من دون الإضرار بالأجيال القادمة.
- العمل بمبدأ الأولويات، كأولوية الفقراء والضعفاء.

تعزيز الأركان الثلاثة للعملية التنموية المستدامة: ركن بيئي، ركن اقتصادي، ركن اجتماعي.

وتأسيسا على ما تقدم فإن النتائج المستخلصة أعلاه لم تأت بأمر جديد يضيف لمفهوم التنمية البشرية شيئاً، إلا اللهم بما يُعدّ تبياناً وتفصيلاً لبعض المطالب.

لذا يقتضي علينا العودة إلى مطلع حديثنا حين تبنينا رأي مفاده: إن التنمية البشرية المستدامة ما هي إلا ترف فكري أو لحن مفاهيمي، فمتبنياتها وموضوعها ونهجها وأهدافها وأسسها هي ذات متبنيات التنمية البشرية.





التنمية البشرية وأسسها الوضعية

ثالثاً: منظومة التنمية البشرية .

١- موضوع التنمية البشرية.

٢- أهداف التنمية البشرية.

٣- مؤشرات التنمية البشرية.



(١): موضوع التنمية البشرية.

تعارف عند بعض علمائنا المتقدمين والمتأخرين أنه لا بد لكل علم من موضوع يميزه من بقية العلوم الأخرى، ويتبين ذلك من اهتمامهم به اهتماماً كبيراً حتى استغرق مساحة واسعة من أبحاثهم، بحثاً عن المائز والفارق بين العلوم.

ويرى الفلاسفة على أن (موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية)[١]، وكذا نجد أن بعض الأصوليين قد أكدوا (أن موضوع كل علم هو عين المسائل التي يبحثها ذلك العلم)[٢]، بينما ذهب آخرون منهم إلى خلاف ذلك، حيث أشاروا إلى أن (لا حاجة إلى الالتزام بأن العلم لابد له من موضوع يُبحث عن عوارضه الذاتية في ذلك العلم، كما تسالمت عليه كلمة المنطقيين، فإن هذا لا ملزم له ولا دليل عليه)[٣]، وكذا أكد هذا المنحى جملة من علمائنا الأعلام من الأصوليين وأهل المنطق معلقين (أن لا دليل على أنه يتحتم أن يكون لكل علم موضوع يُبحث فيه عنه، ولعل هذا الذي ذكروه إنما هو لبيان أقرب الطرق للواقع)[٤]، بينما نجد فريقاً آخر ومنهم السيد الخوئي يرى لزوم وجود المائز بين العلوم والمبني على أساس أحد ثلاث (الموضوع ، المحمول، الغرض) ، حيث أشاروا إلى أن الظاهر أن مركز

---

(١) علي الحسيني السيستاني، الرافد في علم الأصول، الحلقة الأولى،١، ٥٩.

(٢) محمد جواد مغنيه، علم أصول الفقه في ثوبه الجديد، ١٤.

(٣) محمد رضا المظفر، أصول الفقه، ١، ٧.

(٤) الخميني ، تنقيح الأصول، تأليف حسين التقوي الأشتهاردي،١، ٢١.

النفي والإثبات ليس أمراً واحداً، فتارة يراد من تمايز العلوم مرحلة الإثبات لمن يجهلها، وأخرىٰ يراد منه التمايز في مرحلة الثبوت وفي مقام التدوين[1]، فأكدوا (أن الدواعي تختلف، وباختلافها يختلف ما به التمييز)[2]، وهذا يعني أن هذا الفريق يؤمن بلزوم المائز بين العلوم إلا أنه لا يُلزم أن يكون بالموضوع.

فعلىٰ الرغم من اعتقاد بعض الأصوليين والمناطقة بما ذهبوا إليه، إلىٰ عدم لزوم موضوع لكل علم، فإن الباحث وجد أن هذا الفريق من علمائنا الأعلام بالرغم من إنكارهم لاعتبار الموضوع إلا أنهم يسلمون به ضمناً، كقول الشيخ المظفر حين أشار إلىٰ موضوع العلم أنه (ما تسالمت عليه كلمة المنطقيين)، والتسالم مبني علىٰ أساس ضرورته والاتفاق عليه والتصديق به، وكذا هو السيد الخميني حين أشار بعدم لزوم أن يكون لكل علم موضوع، ثم عرج ليشير بخصوص من اعتمد علىٰ ضرورة وجود الموضوع قائلاً: (ولعل هذا الذي ذكروه إنما هو لبيان أقرب الطرق للواقع)[3]، فإن كان ذلك فهو الحق، لأن الباحث يرىٰ أن الحق هو ما جاور الواقع.

---

(١) ظ: أبو القاسم الموسوي الخوئي، مصابيح الأصول، ١، ٢٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الخميني، تنقيح الأصول،١، ١٤.

وبالعودة إلى من ذهب من علمائنا الأعلام لاعتبار الموضوع[1] وضرورته لكل علم، ومنهم السيد محمد باقر الصدر الذي أكد ذلك في حلقاته الثلاث إذ أشار في الحلقة الأولى إلى أن: (لكل علمٍ – عادة – موضوع أساس ترتكز جميع بحوثه عليه وتدور حوله وتستهدف الكشف عما يرتبط بذلك الموضوع من خصائص وحالات وقوانين)[2]، وأن تحديد موضوع لكل علم (يراد ما يكون جامعاً بين موضوعات مسائله، وينصب البحث في المسائل على أحوال ذلك الموضوع وشؤونه، كالكلمة العربية بالنسبة إلى علم النحو مثلاً)[3]،

(١) ذكر الأصوليون والمناطقة أدلة على اعتبار الموضوع منها: ١- إن لكل علم غرضاً واحداً يتحقق بمعرفة مسائله. ٢-الملازمة العقلية بين فائدة العلم ووجود الموضوع. ٣- الكبرى المطروحة في كلمات الفلاسفة « موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية» حيث استفاد منها بعض الأصوليين أنها تدل على لزوم وجدود موضوع لكل علم. ظ: علي الحسيني السيستاني، الرافد في علم الأصول،١، ١٠١.

(٢) محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول – الحلقة الأولى والثانية، ٤٩.

(٣) المصدر نفسه،١٧٣.



وكذا هي حال علم أصول الفقه فإن موضوعه[1](هو كل ما يترقب أن يكون دليلاً وعنصراً مشتركاً في عملية استنباط الحكم الشرعي والاستدلال عليه)[2]، أي بتعبير آخر هو: (الأدلة المشتركة في الاستدلال الفقهي)[3] لأنها مادة علم الفقه وموضوعه .

ولقد استدل هذا الفريق على ضرورة وجود موضوع لكل علم بدليلين، هما:

أحدهما: إن التمايز بين العلوم بالموضوعات، أي اختصاص كل علم بموضوع

---

(١) إن أضخم خلاف وقع في شأن اعتبار الموضوع من عدمه، عند علماء علم الأصول، حيث وقع خلاف بين المولعين حول موضوع علم الأصول (هل هو الأدلة الأربعة، الكتاب، والسنة، والاجماع والعقل، بما هي أدلة أو بما هي بصرف النظر عن وصف الدلالة) أو (لا موضوع لعلم الأصول واقعاً......... أو لا لزوم للموضوع ولا دليل عليه).
ولهذا ذكر جملة من الأصوليين أن علم الأصول ليس له موضوع واحد، (غير أن بالإمكان ما قيل من كون الأدلة هي الموضوع من عدم الالتزام بحصرها في الأدلة الأربعة) أو فقل (الأدلة المشتركة في الاستدلال الفقهي)، ويعد ذلك موضوعاً كلياً لعلم الأصول.
ظ:- موسوعة الإمام الخوئي، محاضرات في أصول الفقه، المقرر محمد إسحاق الفياض، ٤٣، ١٤ محمد جواد مغنية ،علم أصول الفقه في ثوبه الجديد، ١٤ المظفر، أصول الفقه، ١، ٧ السيستاني، الرافد في علم الأصول، ١١٥،١ الخميني، تفتح الأصول، ٢،١ محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الحلقة الأولى والثانية، ١٧٤.

(٢) محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الحلقة الأولى والثانية، ١٧٤.

(٣) محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الحلقة الثالثة، ١٩.

كليّ يتميز من الموضوع الآخر، فلابد من افتراض الموضوع لكل علم.

والآخر: أن التميز بين العلم إن كان بالموضوع فلابد من موضوع لكل علم، إذن لكي يحصل التمايز وإن كان بالغرض على أساس أن لكل علم غرضاً، يختلف عن الغرض في العلم الآخر، ولما كانت مسائل العلم متعددة ومتغايرة فيستحيل أن تكون هي المؤثرة بما هي كثيرة في ذلك الغرض الواحد[1]، نستشف مما تقدم أن هناك من يجعل التمايز بين العلوم على أساس الغرض من العلم وما يسعى إليه، وما أكثر التباين بين أغراض وغايات العلوم فيما بينها.

والباحث يذهب بما ذهب اليه مدعٍ أن لكل علم موضوعاً، حيث يُعدّ هذا ضرورة لبيان مزية هذا العلم وخصائصه وقوانينه عن ذاك، وقد اعتنى العلماء بهذه الدراسة لأنها تحدد التمايز والتفاضل بين العلوم، فلا يُعقل أن لا يكون هناك فارق بين علم الفيزياء الذي يهتم بحالات الطبيعة وقوانينها وعلم الطب الذي موضوعه سلامة بدن الإنسان من الأمراض والعاهات، فضلاً عن التمايز بين شرف هذا العلم عن ذاك، فإن جميع العقلاء والباحثين والدارسين شرفوا العلم على أساس موضوعه أو غايته أي (إن شرف كل علم إنما بشرف موضوعه وغاياته، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة ، بقدر شرف الإنسان وإصلاحه على جلود البهائم)[2]، فشرف وقدر كل علم بشرف وعظيم موضوعه أو غاياته وشدة الاحتياج إليه، وكذا هي الحال إلى شرف المادة التي بين أيدينا التي أعني بها التنمية

(١) ظ: محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الحلقة الثالثة، ١٩-٢٠.

(٢) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، ١، ٥٩.

البشرية، فشرف علم التنمية البشرية مبنيٌ على شرف الإنسان الذي يُعدّ مادة هذا العلم، لا لكونه مرتكزاً على انتمائه لمنظومة العلوم الحديثة.

إن الاهتمام بموضوع أي علم يعني الاهتمام بمحورية ذلك العلم أو غرضه الذي يقود إلى بيان أسسه ومرتكزاته ومناهجه وغاياته، والتي تكشف عن حقيقة وماهية العلم، وعمق المادة التي ترفده، زيادة على ما يترتب على ذلك من آثار ومعطيات تفصيلية دقيقة وأخرى بعيدة المدى تصب خدمة لذات العلم وما يصبو إليه .

فعلى الرغم من تأكيدات الكثير من رواد الأصول والمنطق والفلسفة ضرورة اعتبار الموضوع لأي علم كان، ولأن التنمية البشرية أحد تلك العلوم التي لها من العمق بما استوعب المفهوم ومصاديقه على مدى تاريخ الرسالات السماوية والأفكار الوضعية، بل وحتى مدة العصر الحديث الذي ذاع صيته وكثر رواده واتسعت نشاطاته، فعلى الرغم من كل ذلك فإننا لم نجد من بوّبَ ومَنْهجَ هذا العلم وحدد موضوعه علمياً، ولعل السبب في ذلك هو حداثة العلم بوصفه مصطلحاً جديداً من جهة، وندرة المهتمين به من الأكاديميين والباحثين الذين لهم الملكة العلمية في إعداد الدراسات التي تخرج هذا العلم بثوب لائق جديد من جهة أخرى.

ولأن الباحث يسعى لأن يضع بصمته في هذا الميدان، حاول أن يقرأ ما بين سطور الباحثين والمهتمين في التنمية البشرية لغرض تشخيص موضوع هذا العلم من خلال قراءته للتعاريف والمباحث والتقارير والدراسات الخاصة بهذا المفهوم، لذا فإن تشخيص موضوع التنمية البشرية سيكون بلا شك مبنياً على أساس تحديد

مفهومه وما يحيط به من خصائص وقوانين وغايات، وبخلاف ذلك سيكون موضوع العلم تحت وطأة التباين في المفهوم الواحد مما يسبب تعدد الغايات ويسبب تعدده.

ومن خلال استقرائنا لدراسات هذا العلم ندرك أن موضوع التنمية البشرية هو الإنسان أن المحور الأساس الذي ترتكز عليه جميع البحوث والنشاطات وتدور حوله، بل يُعدّ الجامع لمسائله والباحث عن شؤونه، كما يتجلى الموقف وضوحاً حين نجد أن غرض وغاية التنمية البشرية هي المحاولة الجادة لردم الهوة وتقليل الفارق بين ما هو كائن للإنسان وما ينبغي أن يكون له، أي الانعطاف به من مستوى إلى مستوى أفضل وأرفع على الصعيد النفسي والعقلي والبدني، وكذا على الأصعدة لتي تحيط به كافة.

والدليل على ما أوردناه هي تلك المحاولات الجادة التي ظهرت في نهاية القرن المنصرم لتبني مفهوماً جديداً للتنمية يُعطي الإنسان الدور الأهم والقدرة على النهوض بالتنمية، حيث تبنت الأمم المتحدة عام ١٩٩٠م، مفهوم التنمية البشرية الذي حدد على أنه عملية تهدف إلى زيادة القدرات المتاحة أمام الناس[١]، بغية إحراز الأنموذج الأمثل(لإنسان التنمية الذي من خلاله يحدث النمو الكمي والكيفي المنشود في الجوانب المختلفة، وهو الأمر الذي يُعدّ جوهر عملية التنمية)[٢].

---

(١) ظ: أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ١١-١٢.

(٢) عبد العزيز محمد الحر، التربية والتنمية والنهضة، ٢٧.

وهذا يعني أن التنمية البشرية تسعى جادة إلى سعة خيارات الإنسان كي تستوعب جميع ظروفه الذاتية، والموضوعية التي تحيط به ونعني بها الحريات الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وما تنضوي تحتها من مفردات تؤهله للارتقاء بنفسه، فإن الاهتمام بالإنسان بوصفه محوراً ووسيلةً وهدفاً يعني إنه موضوع التنمية البشرية، وهذا ما أكده التقرير الإنمائي للأمم المتحدة لعام ١٩٩٢م، حيث جرى التشديد على مزيتين هما استقلالية مفهوم التنمية البشرية بطابعه الاصطلاحي الجديد، والتشديد على الجانب الإنمائي للإنسان، إذ ذكر التقرير: (إن التنمية البشرية فكرة أوسع وأشمل فهي تعطي جميع اختيارات الإنسان في كل المجتمعات وفي جميع مراحل التنمية)[1]، ثم جاء تعريف التنمية البشرية بشكل أوسع واشمل في التقرير الإنمائي للأمم المتحدة لعام ١٩٩٣م، حيث بين جلياً أن الإنسان فعلاً هو المحور وهو الهدف وهو موضوع التنمية البشرية، فعُرفت التنمية البشرية بأنها: (تنمية الناس من أجل الناس بواسطة الناس)[2]، وهكذا هي حال بقية تقارير الأمم المتحدة الإنمائية، وكذا هي البحوث والدراسات الدائرة في هذا المجال المعرفي.

فالإنسان هو المحور الذي يدور حوله جزئيات التنمية البشرية ساعية لسعة خياراته المشروعة بتطوير إمكاناته الذاتية، مع إيجاد سبل تحقيقها، وصولا بالإنسان إلى موقع الريادة في العملية التنموية من حيث استقراره وطموحاته، ونستخلص

---

(١) أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ، ١٥.

(٢) المصدر نفسه،١٥.

من ذلك أن من المسلّم به أن موضوع التنمية البشرية هو الإنسان، بل هو موضوعاً لمفهوم مركب، يكون فيه الإنسان هو الوسيلة والهدف في الوقت نفسه.

وعلى أساس محورية الإنسان بوصفه موضوع التنمية البشرية، نتلمس اختلاف المعادلة جلياً قياساً في العلوم الأخرى، ففرق في أن يكون – الإنسان– أحد عناصر الإنتاج، وبين أن يكون أهم مورد قياساً بباقي الموارد الأخرى، بل عد العنصر الأساس في العملية التنموية بكافة ميادينها خدمة له، حيث كان ينظر إلى (أن الموارد الطبيعية هي العامل الحاسم في تحديد الثروة لأي مجتمع)[1]، فمن الطبيعي جداً أن تكون الأولوية لعناصر الإنتاج ومنها الموارد التي يُعدّ الإنسان أحدها على وفق منظار المنظومة الاقتصادية باعتبار اختلاف موضوعها، فيما نرى كيف أصبح الإنسان موضوعاً للتنمية والتنمية البشرية على حد سواء نتيجة تطور الفهم الموضوعي للعلم ومفهومه، حتى بات (العنصر الأهم بلا منازع في هذا العصر هو الإنسان......وهو العنصر الحاسم في تحديد ثروة المجتمع ومدى درجة تقدمه.....من هنا فجوهر الحركة الإستراتيجية المقترحة هي تطور الإنسان وتنميته)[2].

---

(١) عباس آل حميد ، الإستراتيجية الإسلامية، كيف تساهم في النهوض بالأمة الإسلامية، ٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ١٨٤.

(٢): أهداف التنمية البشرية.

لا شك في ان مفهوم التنمية البشرية قد وضعت له عدة محددات ميزته من غيره من المفاهيم، ويُعدّ هذا التمييز ضرورة للبحث بوصفه اللبنة الأولى التي سيقوم عليها بناء الهيكل التنظيمي لبقية المطالب والمباحث، مما أقتضى أن يكون جلّ اهتمامنا هي تلك المحددات التي من خلالها ستُرسم معالم الخطوات التالية التي كانت إحداها هذا المطلب.

إن الشروع بهذا المطلب كان مبنياً على أساس الضرورة الحتمية التي ستحدد معالم مسيرة أي علم أو فن، وما علم التنمية البشرية إلا أحد تلك المعارف التي نسعى لتحقيق أهدافها وغاياتها على وفق مراحل قريبة المدى أو بعيدة.

لاشك في أن التنمية بصورة عامة والتنمية البشرية بصورة خاصة، تسعى لتحقيق أهدافها بفعل التفاعل والتأثير، مضافاً إليه قوة المؤثرات الخارجية التي لها أثر فعال في انتزاع الكوامن والقدرات التي لا يمكن طبيعياً انتزاعها على وفق النمو الطبيعي، لتحقيق ذلك التغير الإيجابي.

فمنذ الولادة الأولى لمفهوم التنمية البشرية – إن كان بالقوة أو الفعل– تزامنت معها السعي وراء محور رئيس هو كيفية الوصول بالإنسان إلى المكانة التي يستحقها بوصفه الثروة الحقيقية لأي أمة، أي اعتبار الإنسان هدفاً لجهود الإنسان أي لتحقيق ذاته وإنسانيته[١]، وبهذا ستكون أهداف التنمية البشرية هي تحقيق ذلك التغير الإيجابي الذي تكمن وراءه أهداف ثانوية، نستطيع أن نقول إنها مختبئة وراء

---

(١) ظ: أشواق عبد الحسن الساعدي، الثقافة والتنمية البشرية، ٦٩-٧٠.

كل دافع لأي عملية تنموية، فالذي يسعى لتنمية عامل مصنع على سبيل المثال فإنّ هدفه هو زيادة الفائدة المترتبة على زيادة الإنتاج والمرتكزة على عطاء العامل المُنمى، وكذا هي الحال لو كانت التنمية تهتم بأمة ما، فهي تهدف لترقية تلك الأمة لمستوى طموحاتها الخاصة بها وتوسيع خياراتها المشروعة من خلال رفع كفاءتها وتهيئة المناخ الإيجابي المتمثل بالخطط والآليات أو السبل لتحقيق ذلك الرفاه الإيجابي والغاية المنشودة.

إن مفهوم التنمية البشرية وإن تعددت معه بعض المفاهيم الأخرى أو لازمته أو شاركته في الأهداف فإن غايته الأساس هي السعي لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته مادياً وروحياً، لأنه الموضوع الذي تتمحور حوله جميع مفردات العلم بجميع مسائله الرئيسة والفرعية، وإن كل الأهداف الأخرى تُعدّ ثانوية قياساً بالهدف الرئيس الذي تنضوي تحته بقية الأهداف، لذا عُد الإنسان الهدف الأول في التنمية البشرية (لأهميته ودوره في الحياة باعتباره أداة التنمية وغاياتها في آن واحد بحيث لا يمكن أن تتحقق تنمية أو تقدم أو تطور في الحياة إلا عن طريق الإنسان وبواسطته)[1]، ولهذا عدت مقولة ("تنمية الإنسان والتنمية بالإنسان والتنمية للإنسان «شعار التنمية البشرية وهدفها)[2].

على أساس ذلك كان هناك بون شاسع بين أهداف التنمية البشرية بعنوانها العام

---

(١) عمر محمد التومي، قضايا الإنسان، ١٣٨.

(٢) كريم أبو حلاوة، موقع الكتروني، دور الثقافة في التنمية البشرية المستدامة www.almarsd.net/news.php?id=276.



وبين أهداف التنمية أو أهداف تنمية الموارد الطبيعية أو التنمية المادية أو غيرها، والتي تسعىٰ كل منها لتحقيق دوافع ذلك المفهوم المبني علىٰ أساس الموضوع (الإنسان نفسه).

فهناك بعض من الباحثين يرىٰ -وهو الحق- أن أهداف التنمية البشرية أو أي علم إنما يحدد من خلال قراءة المفهوم وعرض مضامينه، فمن الممكن أن ندرك أهمية أهداف التنمية من خلال عرضها علىٰ (ماهية التنمية البشرية، فيمكن الآن تحديد الهدف الرئيس الذي تسعىٰ إليه .... وهي زيادة تنمية الأفراد من خلال تطوير وتحسين قدراتهم ومواهبهم من علوم جديدة وغيرها)[1]، وعلىٰ ضوء الهدف الرئيس هناك أهداف أخرىٰ منها: (إكساب الفرد مهارات ومعلومات وخبرات تنقصه، إكساب الفرد أنماطاً واتجاهات سلوكية جديدة لصالح العمل، تحسين وصقل المهارات والقدرات الموجودة لدىٰ الفرد)[2].

إن سعي الباحث إلىٰ معرفة وظيفة أي مفردة من مفردات المفهوم، اقتضت عليه العودة واللجوء إلىٰ ماهية المفهوم، إذ تُعدّ عودته هذه ضرورة علمية، لأن المفهوم هو الذي يحدد مطالب العلم ويكشف عن ماهية كل مفردة، إلا أن الدكتور جمال حلاوة والدكتور علي صالح بالرغم من أشارتهما لضرورة هذا المطلب، فإننا لم نلمس منهما ما أكداه، خصوصاً عندما أشارا إلىٰ أن هدف العملية التنموية (هو

(١) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلىٰ علم التنمية، ١٩٩.

(٢) عمر وصفي عقيلي، إدارة القوىٰ العاملة،٢٣٥-٢٣٦.

إزالة جوانب الضعف والقصور في أداء وسلوك الأفراد)[١].

أما الدكتور إبراهيم العسل فقد صوَّر أهداف التنمية على شكل أهداف مزدوجة رئيسة وثانوية، بحيث جعل تحقيق أي واحدة منهما متعلقة بالأخرى، واصفاً إياها: بأن هدف التنمية الأساس هو تحسين حياة البشر، وهذا يعتمد على مستوى إشباع حاجات الأفراد الأساسية والثانوية، وكذا يعتمد على رفع قدرات الأفراد للحصول عليها، وإن رفع مستوى إشباع الحاجات الأساسية يعزز تطلع الفرد إلى رفع مستوى إشباع حاجاته الثانوية وتحقيق ذاته الإنسانية[٢]، ولقد أجاد الدكتور العسل في رسم معالم الأهداف، إلا أن الباحث يرى أنه على وفق في تعزيز التنمية بتزاوج الجزئيات بالكليات وليس العكس، فالإنسان يفتقر لتعبئة يُحي بها ما في داخله من أهداف كبرى، ثم يسعى لترجمتها عملياً تلازماً مع الأهداف الصغرى التي تُعدّ مقدمة ضرورية لتوحيد وتحقيق الأهداف برمتها، من قبيل قاعدة (مقدمة الواجب واجبة).

بينما يرى الأستاذ جورج قرم أن هدف التنمية البشرية بحسب وجهة نظره، هي ليست مجرد زيادة في الإنتاج، بل (هو تمكين الناس من توسيع نطاق خياراتهم ليعيشوا حياة أطول وأفضل وليتجنبوا الأمراض وليملكوا المفاتيح لمخزون العالم من المعرفة إلى آخر ما هنالك، وهكذا تصبح التنمية عملية تطور القدرات، لا

(١) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلى علم التنمية، ١٩٩.

(٢) ظ: التنمية في الفكر الإسلامي، د. إبراهيم حسين العسل،٢٧.

عملية تعظيم المنفعة أو الرفاهية الاقتصادية كما ينظر إليها اليوم)[1]، وقد يؤاخذ الأستاذ جورج قرم على رؤيته في تحديد تلك الأهداف، كون ما حدده كان أقرب لمنهج للتنمية البشرية وليس لأهدافها.

وبمقتضى أهمية الأهداف لزم وجود بعض من المعايير والمواصفات منها[2]: الإيمان بالهدف ، الاقتناع بضرورة تحققه، وضوح الهدف، وضوح الرؤية في رسم خطة التطبيق، لابد من ان يكون الهدف ممكن التحقق، أن يكون مقبولاً ومنطقياً في زمانه ومكانه وظروف تحقيقه، وأن يكون منسجماً مع المثل والقيم والنظم،

---

(١) حسن بن إبراهيم الهنداوي، التعليم وإشكالية التنمية، مفهوم التنمية. موقع إلكتروني للمكتبة الإسلامية على شبكة إسلام ويب (http://www.islamweb.net/newlibrary/index.php).

(٢) وضعت إحدى الدراسات التي تنسب إلى المفكر المعروف ديكارت خمسة أساسيات، يجب أن تؤخذ بالحسبان عند وضع الأهداف، تكون الحروف الأولى منها كلمة (SMART) وهي:

Specific أو محدد. أن لا يكون الهدف الذي تطمح لبلوغه عاماً، بل يكون واضحاً ومحدداً.

Measurable أو قابل للقياس، يجب أن يكون كل هدف تريد تحقيقه مربوط بكمية. أو يمكنك تحديده .

Achievable أو يمكن بلوغه أو تحقيقه، حينما تبدأ العمل على تحقيق الهدف تعلم بأن هدفك يمكن الوصول إليه.

Realistic أو أن الهدف واقعي، فلا تجعل لهدفك شروطاً تعلم أنه من المستحيل تحققها.

Timely أو محدد بوقت، أن الهدف وتحقيقه مربوط بوقت معين.

ظ: مدونة زاوية مستقيمة، موقع الكتروني، dralsuraikh.wordpress.com/2011/02/.



احتياجه إلى دفق جيد من النشاط والعمل، إخلاص وصدق[1].

ولهذا ارتأى الباحث كما ارتأى بعض من المهتمين في ميدان التنمية البشرية، أنه إذا فككنا عناصر التنمية البشرية بغية تحليلها واستخلاص الاستدلالات منها، ستكون في المحصلة النهائية أنها: (وسيلة وليست غاية؛ هي وسيلة نحو الارتفاع بمستوى الإنسان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي، وما دام هذا هو هدف التنمية الحقيقية، فكل ما يؤدي، على أي نحو، إلى الإضرار بالإنسان، جسداً أو روحاً، لابد وأن يكون عملاً معادياً للتنمية حتى ولو أُرتكب باسمها)[2]، حيث ذهب الباحث إلى وجود أهداف كبرى وغايات عظمى للتنمية البشرية وهذا لا يعني أننا نلغي الأهداف الفرعية والثانوية، بل بالعكس فهو يعتقد أن لكل مفردة لأي علم ومنها مفردات التنمية البشرية لها أهدافها الخاصة، إلا أن ما نؤكده هو أن تذوب وتندمج الأهداف الصغرى بأهداف كبرى وصولاً إلى الغاية الكبرى التي تنضوي تحتها كل الأهداف، بحيث تُعدّ كل الأهداف الصغرى وسيلة إليه، فكل هدف صغير هو وسيلة لهدف أكبر منه، وكل هدف كبير هو غاية لهدف أصغر منه، ووضوح الهدف الأكبر أن كل الأهداف الصغرى يجب أن تسهم في الاقتراب منه والوصول إليه[3] تحقيقاً.

---

(١) ظ: عبد الكريم بكار، تجديد الوعي، ٢٦٣-٢٦٤ ظ: عبد الكريم بكار، العيش في الزمن الصعب،٩١- ٩٣.

(٢) غازي عبد الرحمن القصيبي، التنمية الأسئلة الكبرى، ٢٤.

(٣) ظ: عبد الكريم بكار، العيش في الزمن الصعب، ٩١.

فالتنمية البشرية وسيلة إلى حد ما مهمتها إتباع مجموعة من الإجراءات هدفها تحقيق سعادة الإنسان المادية والمعنوية (الجانب العقلي والنفسي والبدني) لأنه محورها، فتطوير الإنسان وتنميته هو الهدف والغاية، ولكن في الوقت نفسه وسيلة أيضا[1]، فالتنمية البشرية من وجهة نظر الباحث تُعدّ وسيلة أكثر مما هي غاية، إلا أنها تتضمن هدفين رئيسين هما:

- محاولة تفجير القوى الكامنة لدى الإنسان بغية الارتقاء به من مستوى إلى مستوى أعلى وأسمى، بحسب المكانة التي يستحقها والتي حددها الله تعالى إليه.
- محاولة توسيع خيارات الإنسان المشروعة لسد حاجاته الأساسية في المجالات كافة، أي الانعطاف بالظروف المحيطة بالإنسان في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، خدمة له وتلبية لسد حاجاته المعقولة والممكنة، تجسيداً لمبدأ اعمار الأرض ومن فيها، وهو عين وظيفة الإنسان ووظيفة التنمية البشرية في ذات الوقت، وبتعبير أدق توظيف كل القدرات البشرية واستثمارها لتحقيق متطلبات الإنسان وطموحاته الأساسية المشروعة.

وبما أن الهدفين في أعلاه ثانويان قياساً بالأهداف الرئيسة لذا نرى من الضروري أن ينضويا تحت هدف أكبر خدمةً للإنسان بوصفه المحور الرئيس والكائن الحي

(١) ظ: عباس آل حميد، إستراتيجية الإسلام، كيف تساهم في النهوض بالأمة الإسلامية، ١٨٥.

الوحيد الذي كرمه الله تعالىٰ علىٰ بقية المخلوقات بناءً علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾[1] وقوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[2]، وبسبب تتابع وتدرج الأهداف والغايات سننظر كيف ستنضوي هذه الغاية هي الأخرىٰ تحت غاية كبرىٰ يكون محورها العلة من وجود الإنسان أساساً.

ولقناعتنا بأن التنمية البشرية هي وسيلة إلىٰ حد ما هدفها خدمة الإنسان، وأن تحقيق أهدافها بل حتىٰ أهداف تلك المفاهيم التي عددناها روافداً تصب في مفهوم التنمية البشرية، كـ(مفهوم حقوق الإنسان، الحاجات الأساسية، الأمن البشري، رأس المال البشري، سبل العيش، الاستدامة وغيرها من المصطلحات المهمة)، فإن تحقيقها يُعدّ أمراً ضرورياً وملزماً.

فعلىٰ لزوم ما تقدم، اقتضىٰ أن نحدد بعض تلك الأهداف وهي من وجهة نظر الباحث كالآتي:

- إزالة جميع صور التخلف وآثاره وعواقبه[3].
- تحقيق العدالة، بتأمين حاجات الأجيال الحاضرة دون الإضرار بالأجيال القادمة.
- فرض فكرة الابتعاد عن العنف بكل أشكاله في منظومة المجتمع الواحد

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

(٢) التين: ٣.

(٣) لمفهوم التخلف دلالة علمية اصطلاحية، نتعرض له لاحقاً.

والمجتمعات الأخرىٰ.

- تطوير ظروف الإنسان والسير به نحو الارتقاء به صحياً وتعليمياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً.
- سد الفجوات التي تعتري علاقات الشعوب المستندة علىٰ أساس الهيمنة.
- (الاهتمام بالأمن الغذائي للبشر لأنه وسيلة المساهمة في النمو البشري.
- تطوير الجانب الفكري والعقلي للإنسان لكونه العامل المؤثر في رفع مستواه الثقافي والنفسي)[1].
- تأمين كرامة الإنسان وحماية حقوقه العامة والخاصة وذلك بتأمين حياة مستقرة له.
- تعزيز الجانب الروحي والأخلاقي بوصفهما ركنين أساسين في عملية التنمية البشرية.
- المساواة بين الجنسين، وبين الجنس الواحد في مشاركتهما الفعالة في بناء حياة أفضل.
- توسيع خيارات الإنسان المشروعة ضمن موروث ومعتقد كل مجتمع من المجتمعات.
- سيطرة الإنسان علىٰ بيئته علىٰ وفق الإمكانات المتاحة له في بناء حاضره

---

(١) هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، بحث مقدم لنيل الإجازة في العلوم السياسية، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا، ٢٤.
موقع الكتروني لجامعة الرسالة
(http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267).

ومستقبله[1].

- (توسيع فرص الحريات والقدرات الموضوعية لتوليد تغير سريع في بناء إنسان جديد)[2].
- (إحداث سلسلة من التغيرات الوظيفية وهيكليتها لاستغلال طاقة الإنسان المتاحة إلى أقصى حد ممكن لتوفير الحرية والرفاهية له)[3].

---

(١) ظ: مجلة عالم المعرفة، التنمية حرية، العدد١٠، ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه ١٠، ٣٠٣.

(٣) احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ١٨٧.

لقد حاول الباحث أن يختزل مجموعة الأهداف التي أوردها أعلاه، بالرغم من أن بعضهم اجتهد في وضع مجموعة من أهداف أخرى، فإن الواقع إن جميع الأهداف الأخرى لا تخرج عن ما أوردناه باعتقادنا [1].

ومما تقدم نستفيد أن التنمية البشرية تهدف إلى (خدمة الإنسان عقلياً وجسدياً ووجدانياً وحركياً، وتحقيق توازنه البايلوجي والنفسي في الوسط الاجتماعي، عبر تحسين ظروفه المادية والاقتصادية والاجتماعية، وتغير مستوى معيشته من خلال تقديم رعاية صحية لائقة به وتحسين دخله الفردي السنوي وتوفير منظومة تربوية متقدمة تؤهله للانفتاح والمساهمة في تحقيق الازدهار والتقدم)[2].

---

(١) لقد اهتمت الأمم المتحدة بدراسة ومناقشة تطوير أهداف التنمية البشرية وفق نظرة إستراتيجية من خلال تبني مشروع الأهداف الإنمائية للألفية، وفي مطلع الألفية الجديدة سعت إلى هذا المشروع الذي تضمن على ثمان مرام، اتفقت عليها الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة وعددها ١٩٢ دولة وما لا يقل عن ٢٣ منظمة دولية، حيث حاول هذا المشروع أن يرسم أهداف محددة للتنمية البشرية، على أمل تحقيقها عام ٢٠١٥، وقد تم التوقيع عليه في سبتمبر من العام ٢٠٠٠م، حيث يلزم هذا المشروع الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة بمكافحة الفقر والجوع والأمراض والأمية والتميز ضد المرأة ، كما وضعت مؤشرات لقياس التقدم نحو هذه المرامي، وفي رأي الباحث أن أهداف الألفية لم تخرج عن الأهداف العامة التي ذكرها المهتمين بهذا الشأن والتي ذكرناها في متن البحث بحسب وجه نظر الباحث.
المصدر: ظ: الموسوعة الحرة ويكيبيديا .ar.wikipedia.org/

(٢) حسن بن إبراهيم الهنداوي، التعليم وإشكالية التنمية ، مفهوم التنمية، موقع إلكتروني للمكتبة الإسلامية على شبكة إسلام ويب ، (http://www.islamweb.net/newlibrary/index.php).

فهدف التنمية البشرية قد يضيق عند بعض المهتمين في هذا الشأن كما هي حال الأستاذ حسن الهنداوي في ما أورده أعلاه، ليصل إلى مستوى المؤشرات والمقاييس التنموية التي تعتمد لديه للتميز الإنمائي بين مجتمع أو بلد لآخر، ولهذا فقد حُدد هدف التنمية عند بعض من الباحثين على أنه: (تهيئة بيئية يعيش فيها الأفراد حياة مديدة وصحية وخلاقة، فمهمة التنمية البشرية هي ترسيخ آثار التنمية في حياة الأمم والمجتمعات والمجموعات والأفراد، فالإنسان هو جوهر التنمية)[1].

وبعبارة ادق فمنهج التنمية البشرية يهدف إلى (تحقيق مبادئ التنمية الأساسية والتنمية البشرية، وهي دعوة إلى الإنصاف والإنتاجية والكفاءة والمشاركة والتمكين والاستدامة)[2].

ولأهمية موضوع أهداف التنمية البشرية سنفرد مطلباً خاصاً في المبحث الثاني من الفصل الثاني تحت عنوان (أهداف التنمية البشرية في المنظور القرآني وغاياتها)، ليتسنى للقارئ الكريم أن يقارن بين سعة أهداف القرآن الكريم وعظمتها وبين صغر الأهداف الوضعية التجريبية، لأن التنمية البشرية في المنظار القرآني والإسلامي شمولية (فهي اقتصادية واجتماعية وبشرية وروحية وثقافية غايتها تكريم الإنسان)[3]، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي**

---

(١) مسار التنمية البشرية،٧
www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

(٢) المصدر نفسه ،٢٢.

(٣) مجموعة باحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، الإسلام والتنمية البشرية المستدامة مقارنة في الأهداف والمورد، ١٤٤.

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]، فالآية المباركة قد جمعت خمس منن كان إحداهن التكريم (فهي مزية خص الله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضية، والتكريم جعله كريماً أي جعله نفيساً غير مبذول ولا ذليل في صورته)[2] وسمة تكريمه تقتضي تنميته تكريمه حتى يصل إلى مرحلة الرفاه والانموذج الأسمى، لذا كان حقاً على السماء أن تضع منظومة متكاملة في النص القرآني يُنتزع منها مبادئ التنمية البشرية بلحاظ هدفها الانسان من أجل الوصول به إلى ماهية التكريم التي حباها به الله سبحانه؛ ذلك بإن اعتبار الانسان موضوع هذا العلم .

إن اعتبار الإنسان موضوع التنمية البشرية في الرؤية القرآنية مبنيٌّ على أساس تكريمه من الله تعالى، فقيل (كرمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد)[3]، وأن هدف التنمية البشرية هو تجسيد هذا التكريم وهذه المنن، فهي ناظرة إلى الموهبة الإلهية التي أوتيها الإنسان، كما هي ناظرة للكمال الإنساني من حيث وجوده الكوني وتكريمه

(١) سورة الإسراء، الآية٧٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ٦، ١٥، ١٦٥.

(٣) الكشاف، عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي،١، ٦٤١.



وتفضيله بالقياس إلى سائر الموجودات الكونية الواقعة تحت النظام الكوني[1].

فيتضح إن الله تعالى قد منَّ على الإنسان تلك المنن التي منحها إياه ، والتي منها ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2]،لأنه خليفته في الأرض ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[3] حيث نجد أن الله تعالى زود الإنسان بأدوات وآليات كفيلة بإقداره على الاستفادة منها، وأهمها قدرته على التفكير والتأمل وكشف القوانين الكلية في الوجود، وبها يكون الإنسان قادراً على السير بصورة صحيحة في سلم التكامل الذي تصب في طريق تحقيق هدفه وغايته[4] بوصفه (الإنسان) موضوعاً مستوعباً لمنطق التكريم الإلهي وعاملاً به.

وعلى أساس فلسفة الإسلام لرؤية الإنسان تتضح مكانته عن غيره من الموجودات، ولأجل الاستفادة مما حوله من الطبيعة، لابد له من إجراء تغيرات عليها لكي تكون الطبيعة منسجمة مع حاجاته على خلاف بقية الموجودات في

---

(١) ظ: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي ١٣، ١٥٥.

(٢) الجاثية، الآية ١٣.

(٣) البقرة ، الآية ٣٠.

(٤) ظ: كمال الحيدري، فلسفة الدين، مدخل لدراسة منشأ الحاجة إلى الدين وتكامل الشرائع، ٩٨- ٩٠.

الأرض التي تفتقر للطبيعة من دون إجراء أي تغيير لفقدانها للتكريم، فضلاً عن مزية أخرى هي أن الإنسان كلما ازداد تطوراً في العلم ازداد حاجة للطبيعة، ومن خلال النقطتين نشأت للإنسان فكرة استخدام الآخرين لتلبية حاجاته، وتزداد فكرة الاستخدام كلما ازداد تطوراً[1] يتضح مما تقدم أن الأهداف الثانوية تتسع بمرور الزمن مع تطور الإنسان ومع سعة حاجاته التي نعدها سبلاً لتأمين تلك المتطلبات على أساس ضرورة اعتبار الأهداف الصغرى والمتعددة والمتجددة هي سبل لتأمين الهدف الأكبر والأسمى من وجود الإنسان أصلاً، التي نعني بها علة خلقه ووجوده وهو الكمال النهائي حين يكون بالقرب من الذات الإلهية.

وآخر ما يريد أن يؤكده الباحث هو أن الهداية نحو الأهداف الصغرى للتنمية البشرية ممكن أن يهتدي إليها الإنسان بحكم اقترانه بتلك الحاجات الذاتية، إلا أن المشكلة تكمن في معرفة الغايات العظمى التي يفتقر إليها الإنسان، وأن الهداية إليها لا تتحقق إلا بفعل القائم عليها أو بوحيٍّ منه، فالأهداف السامية والمتكاملة لا تُدرك بكائن ناقص يفتقر إليها أصلاً ، ولعلل أحد أهم الأسباب لإرسال الأنبياء والكتب السماوية هو أن يكونوا هداة نحو الأهداف الكبرى فكل هذه الأمور بواعث ووسائل لتحقيق التنمية للإنسان فكأن موضوع التنمية البشرية (الإنسان) هو موضوع السماء ذاته وأن كل ما أرسله سبحانه من دواعي توجيه وهداية للبشرية إنما هي مسلطة على أساس تجسيد التنمية البشرية في حياة الإنسان

---

(١) ظ: كمال الحيدري، فلسفة الدين، مدخل لدراسة منشأ الحاجة إلى الدين وتكامل الشرائع، ١٠٠ -١٠١.

وصولاً لتحقيق الرفاه والنجاح في الدنيا فضلاً عن تحقيق المسعىٰ الأعظم والغاية المثلىٰ وهي نيل الفلاح في الآخرة، ولا يتحقق ذلك كله إلىٰ بالتنمية البشرية لهذا قلنا سلفاً أن التنمية البشرية هي مشروع إلهي ولد مع ولادة الإنسان نفسه فالتنمية له وبه ومن اجله، ومن المؤلم أن نجد الماديين يحومون بين أهداف صغرىٰ للتنمية البشرية أو حتىٰ لغيرها بعيداً عن الأهداف الكبرىٰ لبعدهم عن شريعة الله تعالىٰ التي رسمت طريق الهدىٰ، والتي تتكفل هداية البشر إلىٰ والغايات الأساسية التي بها يُنمىٰ الإنسان ويتكامل ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[1]، فالتمية البشرية هي الهداية و(الهداية إراءة الشيء الطريق الموصل مطلوبه، إما بإيصاله إليه بنفسه أو إلىٰ طريقه الموصل إليه، والظاهر أن المراد هداية كل شيء إلىٰ مطلوبه، ومطلوبه هو الغاية التي يرتبط بها وجوده)[2]، فالآية المباركة تحمل مدلول الهداية حيث ظهر (أن المراد بالهداية العامة الشاملة لكل شيء دون الهداية الخاصة بالإنسان، وذلك بتحليل الهداية الخاصة وتعميمها بإلقاء الخصوصيات)[3] فحذف متعلق الفعل (هدىٰ) في الآية يفتح نطاق مضمون الهداية علىٰ الاطلاق ليشمل الهداية في كل ما تجد فيه الهداية، وبهذا ندرك أن الهداية هي السبيل والمسلك لنجاح الإنسان ومن ثم فهي المعادل الموضوعي لماهية التنمية ، فالهداية هي أساس

---

(١) طه، الآية ٥٠.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٤، ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه١٤، ١٦٧.

التنمية البشرية وبهذا فإن حق المخلوق (الإنسان) على خالقه (الله) هي هدايته ووضع منظومة التنمية البشرية له وصولاً لمرتبة الإنجاز والنجاح.

ومن هنا تكون التنمية البشرية حجة على الإنسان يُلزم بها لأنها نعمة من نعمه سبحانه وتعالى، فمن يعرف طريق النجاح والنجاة ولا يسلكه فهو آثم لأن الله تعالى دعاه لهذا وبسط له السُبُل فتجافى.

وقد علق السيد الحيدري مشيراً إلى أهم السمات التي ميزت الإنسان في كونه مختاراً، وأن الاختيار يستلزم الحرية، كما نجد الإنسان قبال ذلك منصاعاً لإرادة الأهداف العليا التي تحكمه وتحكم الوجود بأسره (فلكي يكون الإنسان هادفاً لابد أن يكون حراً في التصرف ليتاح له أن يتصرف وفقا لما تنشأ في نفسه من أهداف، فالترابط بين المواقف العملية والأهداف هو القانون الذي ينظم ظاهرة الاختيار لدى الإنسان)[1]، ثم يعلق مشيراً إلى وجود مصالح للإنسان قسمهما على: مصالح طبيعية ممكن الظفر بها من الطبيعة، ومصالح اجتماعية التي يكفلها له النظام الاجتماعي بوصفه كائناً اجتماعياً يرتبط بعلاقة مع الآخرين، ولكي يتمكن الإنسان من تأمين مصالحه الطبيعية والاجتماعية يجب عليه أن يعرف تلك المصالح وكيف تُحقق أولاً، وأن يملك دافعاً يدفعه بعد معرفتها إلى تحقيقها ثانيا[2]، وعلى أساس ذلك سيقع الإنسان في مأزق التناقض بين أهداف المصالح الطبيعية المنسجمة مع ذات الإنسان وميوله وبين المصالح الاجتماعية التي تسعى لتنظيم

---

(١) كمال الحيدري، المذهب الذاتي في نظرية المعرفة، ٣٣، ٤٠٨.

(٢) ظ: المصدر نفسه، ٤٠٦- ٤١٢.

كافة العلاقات والحفاظ على توازنها، وبما أن الإنسان غير قادرٍ على إدراك القيم العليا لافتقاره إليها أصلاً ، ونجده غير قادرٍ على استيعاب الأزمة وإكمال وإتمام ما نقص بسبب ميوله الذاتية، لذا سيكون الإنسان غير قادر على تحديد أهدافه العليا، فالرشد الإنساني مهما بلغ عاجز عن أن يحدد الغايات الكلية للوجود بعيداً عن الوحي[1] .

وهنا يأتي دور السماء لبيان سبل الهداية ورسم معالم التنمية التي بها (يتطور المفهوم المادي للإنسان عن الحياة وبتطوره تتطور طبيعياً أهدافها ومقاييسها)[2]، ومن هنا ستكون أهداف التنمية البشرية في المنظور الإسلامي متوازنة بين تلبية حاجات الإنسان الطبيعية الذاتية والتي تُعدّ أهدافاً ثانوية للتوحد تحت الأهداف الكبرى للتنمية البشرية التي تسعى لتنظيم حياة البشر في المجالات كافة على وفق منظار السماء.

(١) ظ: عبد الكريم بكار، من أجل انطلاقة حضارية شاملة ، أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع، ١٨٦.

(٢) كمال الحيدري، المذهب الذاتي في نظرية المعرفة، ٤١٧.



(٣): مقاييس التنمية البشرية.

اشرنا من قبل إلىٰ أن تأكيد أبعاد أي مفهوم يُعدّ أمراً ضرورياً، وأن ضرورته تكمن في تحديد الفرق والجمع بين وظائف مفردات ذات المفهوم، وكذا قياسه بالمفاهيم الأخرىٰ.

أن هذا المطلب يتحدث عن إحدىٰ أهم المفردات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقواعد وأسس مفهوم التنمية البشرية والتي نعني بها مقاييس التنمية البشرية التي تُعدّ أحدىٰ أهم المصطلحات التي ترتبط مع مفهومها، وإن الدراسات والتقارير والبيانات التي تنضوي تحت هذا المفهوم لها (أهمية كبيرة في مجال رسم السياسات ويمكن الاستفادة من أجزائها الثلاثة المتمثلة بالتحليل ومجموعة المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية، ودليل التنمية)[(١)].

وما التقارير والبيانات إلا مادة هذه الأجزاء الثلاثة ومعينها الذي من خلاله يُدرك مدىٰ تطور حركة التنمية البشرية، فعلىٰ سبيل المثال يمكن معرفة مقدار تطور النمو البشري بالاعتماد علىٰ بيانات النمو الاقتصادي، وكذا هي الحال إلىٰ مقاييس النمو الثقافي أو مقاييس التخلف أيضاً[(٢)]، حتىٰ بات من المسلّم به أن

---

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، ٤١٣.

(٢) كل مفهوم له طرق وأدوات يقاس بها ،إلا أن الباحث أختار مفهوم التخلف دون غيره من المفاهيم ليسلط الضوء علىٰ مقاييسه لقناعته بأنه المفهوم المعكوس لمفهوم التطور، وأن مؤشراته ستخدم مطلبنا، لذا سنقف عند هذا المطلب لاحقاً.

تكون تلك المؤشرات بمكانة انعكاساً للمفهوم، فكلما تطور المفهوم وأخذ بعداً اصطلاحياً جديداً تطورت معه المؤشرات والمقاييس لتتلبس وتتقمص ذلك الثوب الاصطلاحي، إلا أننا نجد أن بعض الباحثين عدّ مفهوم التنمية البشرية أوسع نطاقاً من مقياس التنمية البشرية، وإن هذا الاطراد بين المفهوم والمؤشر لا يمثل مطابقته للواقع بالرغم من وجوده والعمل به، (وبالتالي ومع تطور الدليل "المقياس" فأنه – أي الدليل – لن يعبر تعبيراً تاماً عن التنمية البشرية)[1].

وهذا ما أكده أغلب الباحثين فقد قالوا (التنمية البشرية أوسع نطاقاً من دليل التنمية البشرية، فمن المستحيل التوصل إلى مقياس شامل –أو حتى مجموعة شاملة من المؤشرات– ذلك لأن أبعاد حيوية كثيرة من أبعاد التنمية البشرية لا يمكن قياسها كمياً)[2].

وما يُعزز الرأي أعلاه هو أن مكتب القائم على إعداد تقرير التنمية البشرية في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي قد شدد على أن دليل التنمية البشرية لا يمثل بمفرده مقياساً شاملاً وكافياً لهذه التنمية، وإن لابد من الرجوع إلى مؤشرات أخرى تستكمل هذا الدليل، ومع ذلك يظل هذا الدليل دليلاً غير متكامل هدفه

(١) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، مداخلة (البعد الصحي في التنمية البشرية المستدامة) د. مهدي محسن العلاق، ١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، الجهود العربية في تبني مفاهيم وإعداد تقارير التنمية البشرية المستدامة، د. نبيل النواب، ٣٥٦.

تقديم صورة عن الخطوات التي قطعتها البلدان والتي مازال يتعين قطعها[١]، ومن الجدير بالذكر أنه كلما وضعت ضوابطاً لتحقيق هذا المطلب، وجدت (أنها غير متكاملة ولا شاملة، وبالتالي سيتم إعادة النظر في مناقشتها، بتوسيعها وتفصيلها، ليمكن اعتمادها كشروط تحمل إمكانية التحول إلى مؤشرات ليتم اتخاذها أساس للمقارنة)[٢].

ولأهمية المؤشرات التي تُعدّ دلالة على تطور النمو من عدمه اعتنى الباحثون والدارسون في هذا الشأن، فمنهم من عدّ (الدخل) معياراً ومقياساً لمستوى النمو، إلا أن الاعتماد على هذا الدليل يُعدّ أمراً يجافي الصواب (لأن المؤشرات التي تعتمد على الدخل في القياس تظل قاصرةً؛ لأن الدخل ليس حاصل جميع حياة الإنسان، وهو لا يعدو كونه أحد الخيارات المهمة)[٣]، ولقد عانى الباحثون أول وهلة خطأ في مقاييس التنمية البشرية، إذ اقتصر في أغلب الأحيان على الجانب الاقتصادي، حيث ارتبط إلى حد بعيد بالعمل على زيادة الإنتاج الذي يؤدي إلى زيادة الاستهلاك، لدرجة أن أصبح معها حضارات أمم تقاس بمستوى دخل الفرد بعيداً عن تنمية خصائصه ومزاياه، وإسهاماته الإنسانية، وإعداده لأداء الدور المنوط به في الحياة،

(١) ظ: مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، ٣٥٦، انظر مصادره.

(٢) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلى علم التنمية، ٢٠٧.

(٣) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، مقاييس التنمية البشرية – عرض وتقديم، محمد المعموري، ١١٢.



وتحقيق الأهداف التي خُلق من أجلها[1].

وما هذه النظرة الضيقة لمقاييس التنمية أو التنمية البشرية إلا نتيجة حتمية لسوء فهم ماهية المفهوم ومغزاه، حيث نُظر إليه من زاوية واحدة من دون ملاحظة الزوايا الأخرىٰ، حيث قُيد التطور الاجتماعي والسياسي وبقية المجالات الأخرىٰ لأي مجتمع بالنمو الاقتصادي وعد الدليل والمؤشر للتعبير عن التطور أو الانتعاش، في حين لو عدنا لقراءة مفهوم التنمية البشرية وما يحمل من دلالات ومضامين وأهداف، لوجدنا أن قياسه علىٰ أساس مؤشر الدخل هي رؤية قاصرة ومخالفة لمقتضيات تعريف المفهوم، وأنه علىٰ الرغم من أهميته وأثره في سعة خيارات الإنسان المشروعة، فإنه لا يتعدىٰ ان يكون أحد المؤشرات ليس إلا.

بينما نجد قبال ذلك اهتماماً واسعاً ومتزايداً بمقاييس التنمية البشرية منشأه عوامل عديدة يختزلها الباحث بما يأتي:

١. تزايد الاهتمام بذات مفهوم التنمية البشرية.
٢. كثرة تباين المقاييس التنموية فيما بينها بالرغم من اعتمادها علىٰ تقارير ودراسات وبيانات رسمية ودولية غنية بدقتها.
٣. الاعتقاد بأن هذا المطلب هو الدليل الحقيقي والعملي الذي يقود إلىٰ تحقيق التنمية البشرية.
٤. تُعدّ المقاييس ومؤشراتها أحد الحوافز المهمة لتحقيق التنمية البشرية لأنها مبنية علىٰ أساس التحليل والقياس بين فئة أو حالة وأخرىٰ.

---

(١) ظ: إبراهيم حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ١٣.

٥. النظر إلى أنه (كلما تعددت المتغيرات المقاسة والدالة على التنمية البشرية كلما أدى ذلك إلى إعطاء صورة أكثر شمولاً وأدق قياساً للتنمية البشرية)[١]، لذا كانت العناية بالمقاييس امر في غاية الآثر.

ويرى الباحث أن دقة مقاييس التنمية البشرية وتطورها مرهون بتطور المفهوم، ومرهون بتغطيته لجميع مفرداته ومتطلباته الرئيسة والثانوية، وكأن المقاييس يجب أن تكون صورة عاكسة ودليلاً موصلاً إلى المفهوم، وكذا يقتضي على مفهوم التنمية البشرية أن يكون بدرجة من الوضوح والبيان من حيث يصبح من المعتاد أن تكون مقاييسه دالة عليه.

إن معرفة أهمية مقاييس التنمية البشرية مبنية على أساس موضوعها الذي يُعدّ المحور الذي تدور حوله آلية التعامل مع الواقع الذي يعكس دلالة النمو والتطور، فموضوع القياس (هذا لا يعدو كونه التعبير عن الكيفية التي يتم بها قياس التنمية......وبالتالي يتعين علينا أن نجد أدوات للربط بين المدخلات الداخلة في التنمية وبين مخرجاتها بالعلاقة مع محور التنمية وهدفها الذي هو الإنسان)[٢].

وبالعودة إلى مفهوم التنمية البشرية وموضوعه نجد ما يلفت الانتباه وهو: أن مصاديق مفهوم التنمية البشرية ودليلها يخضع لحركة التطور، وإن خيارات الفرد الشرعية وما يحيط به في المجالات كافة كذا تتطور هي الأخرى، مما يستلزم

(١) أشواق عبد الحسن الساعدي، الثقافة والتنمية البشرية، ٦٥.

(٢) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، مقاييس التنمية البشرية - عرض وتقديم، محمد المعموري، ١١٢ - ١١٣.

أن تتطور معه المؤشرات ومعاييرها، وبهذا سيكتسب مفهوم التنمية البشرية خصائص واحتياجات كل مرحلة، فخلال الخمسينات مثلاً ارتبط المضمون بمسائل الرفاه الاجتماعي، وانتقل بعد ذلك إلى التركيز على التعليم والتدريب، ثم على إشباع الحاجات الأساسية، ليقدم مؤخراً برنامج الأمم المتحدة الإنمائي مضمون "القدرات البشرية" و "تمتع البشر بقدراتهم المكتسبة"[1].

ومن خلال قراءتنا لما تقدم يتضح لدينا أن مقاييس التنمية البشرية تتباين على قدر تباين مصاديق مفهوم التنمية البشرية وتباين حاجات الإنسان، لذا لا يكون هناك معيار ومقياس خاص لمؤشرات التنمية البشرية على طول الوقت بل؛ حتى على بقاع الأرض المتعددة في الوقت الواحد[2]، إذ من الممكن أن نسمي بلداً ما

---

(١) ظ: جورج القصيفي، التنمية البشرية، مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون، ٨١ - ٩٩.

(٢) هذا لا يعني أن مقاييس التنمية البشرية بلا فائدة وبلا جدوى بل بالعكس فإنها ساعدت بشكل فعال إلى تكريس وتدعيم العملية التنموية حيث قدمت عدة فوائد منها:
١- أمكانية المقارنة بين الوضع الحالي ووضع سابق، وذلك لأخذ القيمة القصوى والقيمة الدنيا لكل مكون من بيانات النقطتين لغرض إجراء المقارنة.
٢- المقارنة بين الوضع الحالي والمستهدف، وهذه المقارنة يمكن أن تكون أساساً جيداً لتقييم الخطة، ومساعدة متخذ القرارعلى تصويب اتجاهها
.٣- إجراء مقارنة بين دولة ما ودول أخرى تمر بنفس المرحلة في مدة بين نقطتين للتعرف على مدى التقدم الذي حققته كل منهما في مجال التنمية البشرية.
المصدر: ظ، ندوة التحديات العربية للتنمية البشرية، مركز البحرين للدراسات والبحوث، ٦١.

نامياً نتيجة انعطافه نحو الأفضل باتجاه الأهداف المرجوة، في الوقت الذي يُعدّ متخلفاً قياساً بغيره من الدول أو المجتمعات الأخرىٰ الأكثر تطوراً وتقدماً، وعليه فإننا نستطيع أن نقول إن عدم قبول الإنسان لواقعه والاتجاه والانعطاف بنفسه ومحيطه نحو ما هو المستهدف الأفضل يُعدّ عين التنمية البشرية.

ولعل السبب في عدم ثبوت مقاييس التنمية البشرية واستقرارها مرجعه (سعة خيارات الإنسان) كمحور أساس في المفهوم، حيث يُعدّ بنداً غير محدودٍ إطلاقاً، مفاده تجدد حاجات الإنسان المستمرة وعدم الوقوف عند مساحة معينة، إلا أنه وعلىٰ الرغم من ذلك كله انحسرت تلك الآراء في ثلاثة مؤشرات تقريباً، عدت مقاييس للتنمية البشرية وهي: (العمر المتوقع عند الولادة، ومعدل القراءة والكتابة بين الكبار، ونصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي)[1]، أي إن المراد مما تقدم كما صورته بعض التقارير هي (أن يحيا الناس حياة طويلة خالية من العلل وأن يكتسبوا المعرفة وأن يحصلوا علىٰ الموارد اللازمة لمستوىٰ حياة كريمة)[2].

فعلىٰ الرغم من تحفظ الباحث علىٰ ما تقدم لمحدودية رؤية المقاييس وضيقها قياساً بالرؤية الإسلامية القرآنية للتنمية البشرية، فإن في ما ورد أعلاه هو رأي أغلب التوجهات الوضعية، ومن هنا عد كثير من الباحثين أن مقاييس الحركة

---

(١) مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مؤشرات التنمية البشرية العربية وتطورها، مجلد٨، العدد١٠٨،٣.

(٢) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، الجهد العربية في تبني مفاهيم وإعداد تقارير التنمية البشرية المستدامة (تجربة سلطنة عُمان)،د. نبيل النواب، ٣٥١.

التنموية المتكاملة هي ثلاثة، حيث أشير إلى أنها (قد تم بناء مقياس التنمية البشرية على نحو يجعله يعكس أهم أبعاد التنمية البشرية وهو ما يعرف بدليل التنمية البشرية الذي يتكون من ثلاثة مكونات هي: الصحة، التعليم والدخل)[1].

فخلاصة القول إن التباين بين مقاييس التنمية البشرية منشأه التباين في المفهوم الواحد أو تطور المفهوم أو المفاهيم الأخرى المتعددة، حيث نجد في حالة اعتماد مفهوم التنمية البشرية على الحاجات الأساسية مثلاً سوف لا يتعدى المتطلبات الضرورية، على عكس لو أن المفهوم قد أُحيط بمفهوم نوعية الحياة[2] الذي (سيشمل مسائل تتعلق بالصحة والتعليم والسكن وما شابه ذلك، أي ما أصطلح عليه بالحاجات الأساسية، فضلاً عن مسائل أخرى كالحرية والجمال والاطمئنان والمساواة)[3]، وكذا ستكون المقاييس متباينة على ضوء التباين في المفهوم، فالمقاييس على وفق مفهوم تحسين نوعية الحياة ستتعدى متطلباته مساحة الحاجات الأساسية،

---

(١) المصدر: ندوة التحديات العربية للتنمية البشرية، ٢٠٠٤ مملكة البحرين، مركز البحرين للدراسات والبحوث، ٦٠.

(٢) هو المفهوم الأقرب لمفهوم التنمية البشرية والموضوع لتقيم علم الاجتماعي: وقياس مسألة الرفاه الاجتماعي.(فهو مقياس مركب أوجده «جان درونسكي» احد علماء الإجماع لقياس نوعية الحياة بين الدول المختلفة والذي طور عام ١٩٧٤م، اشتمل على عدد كبير من المؤشرات) المصدر: الثقافة والتنمية البشرية، أشواق عبد الحسن الساعدي،٦٩ موقع ألكتروني.
thiqaruni.org/gena/77/1%20(20).doc.

(٣) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، مقاييس التنمية البشرية،١١٤، انظر مصادره.

من حيث تكون المقاييس مبنية على أساس مستوى أعلى للرفاه الاجتماعي [1].

وبمقتضى ما أكدنا في أن المقاييس تتأثر بتأثر المفهوم، نجد هناك من أكد هذا المطلب من باحثين وناشطين في التنمية والتنمية البشرية، إذ أشاروا إلى أن معرفة العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلدان المتخلفة والمتقدمة يعيننا في استشراف معالم الطريق إلى مؤشرات التنمية[2].

ولكي نكون موضوعيين وواقعيين علينا أن نشير إلى أنه على (الرغم من التنوع الكبير في المقاييس المطروحة لقياس مديات التنمية البشرية - والذي هو عائد ومنبثق من أن للإنسان احتياجات متنوعة - إلا أن هناك اتفاقاً وإجماعاً على المقاييس الثلاثة الأساسية المشار إليها في أغلب تقارير التنمية البشرية التي أصدرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي إلى الوقت الحاضر)[3].

---

(١) يتباين الرفاه الاجتماعي وفق مفهوم نوعية الحياة بحسب مقاييسه التي تتباين هي الأخرى بين أشهر مدرستين « الذاتية والموضوعية» فمقاييس المدرسة الموضوعية تركز على قياس مؤشرات مثل مستوى التعلم والصحة، بينما المدرسة الذاتية تعطي أهمية كبيرة لإحساس الناس بالسعادة والرفاه والتعلم، لأن في كثير من الأحيان قد يتوفر إشباع معين في المستوى الموضوعي، لكن الناس لأسباب معينة يشعرون بالتعاسة. المصدر:ظ: مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، مقاييس التنمية البشرية ،١١٤.

(٢) ظ: ، إبراهيم حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ٤٠ - ٤٤.

(٣) أشواق عبد الحسن الساعدي ، الثقافة التنمية البشرية،٦٩.



وأن المقاييس الوضعية للتنمية البشرية تكاد تنحصر في الأبعاد الأتية:

أولاً: البعد الأول، الصحة[1].

ثانياً: البعد الثاني، المعرفة[2].

ثالثاً: البعد الثالث، مستوى المعيشة[3].

---

(١) قياس هذا المؤشر يكون بمتوسط العمر المتوقع عند الولادة في بلد معين واعتماد ذلك القياس بوصفه يمثل المجموعة بكاملها، (فطول العمر يستخدم كدلالة على التغذية الكافية والصحة الجيدة ومدى توافر العناية والرعاية والخدمات الطبية للفرد في البلد المعني). المصدر: محسن عبد الحميد توفيق، التنمية المتواصلة والبيئة في الوطن العربي،١٧.

(٢) يقوم المؤشر بتسليط الضوء على التحصيل العلمي لرصد مستوى التعليم في بلد معين، حيث (يقاس بمزيج من معدل معرفة القراءة والكتابة بين البالغين، ونسب القيد في مراحل التعلم الابتدائي والثانوي والعالي، وأن المتغيرات التي يتضمنها هذا المؤشر تتعلق بتكوين رأس المال البشري الذي يؤدي بدوره إلى زيادة القدرة وأتساع المشاركة في حياة المجتمع). المصدر: مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، مقاييس التنمية البشرية، محمد المعموري،١١٨.

(٣) يقاس هذا المؤشر بنصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، وقد وصف الأستاذ المعموري في تقريره المقدم لدار الحكمة عام ٢٠٠٠م هذا المقياس على أنه المؤشر الذي يُعد كناية عن جميع أبعاد التنمية البشرية التي لا تنعكس في البعدين الصحة والمعرفة، وأن هذا البعد أو المؤشر يعرف من نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، أي (بأنه الناتج القومي الإجمالي مقسوما على عدد السكان، ويعبر عن هذا النصيب عادة بالدولار) أو بغيره من العملات.المصدر: محي الدين خيري، مؤشرات التنمية البشرية العربية وتطورها، ١٨.

لقد عد بعضهم البيئة[1] بعداً رابعاً، كما ذهب آخرون إلىٰ ضرورة (توسيع نطاق دليل التنمية البشرية بحيث يشمل الدليل الموسع علىٰ مؤشرات "مخرجات" للمكونات المختلفة ومنها: البيئة، الغذاء والتغذية، الأمان الوظيفي، السكن، الأمان الشخصي، المشاركة والحرية السياسية، المياه النقية الصالحة للشرب، محو الأمية الوظيفية والتعليم)[2].

فعلىٰ الرغم من المحاولات الكثيرة لرصد حركة التنمية البشرية ومدىٰ قوة حركتها فإننا لا نستطيع أن نعد ما تقدم هي مقاييس حقيقية للتنمية البشرية، فيجب الانتباه إلىٰ القصور الذي يشوب هذه المقاييس، حيث جميعاً ليست سوىٰ متوسطات حسابية لا يظهر أي منها التباين سوىٰ العمر بين الفئات المختلفة من السكان، أو مستويات القراءة والكتابة وخصوصاً بين الذكور والإناث كذلك لا يظهر التفاوت في توزيع الدخل[3]، نعم بإمكاننا أن نعدها مؤشرات من الممكن للباحث أن يستأنس بها لقياس حركة التنمية البشرية، وأن مبنىٰ عدم اعتماد تلك

---

(١) ذهب بعض من الباحثين إلىٰ مقترح يرمي لتوسيع نطاق دليل التنمية البشرية بحيث يشمل مفردات أخرىٰ تعد مؤشرات إضافية، مثل البيئة التي كثر الحديث عنها، والمراد من ذلك أن البلد الذي تتسع فيها رقعة الأرض الخضراء المزروعة يُعد بلداً نامياً، أي كلما زادت رقعة الخضار، كلما زاد البلد نمواً قياساً بغيره من البلدان.

(٢) مجموعة باحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، مقاييس التنمية البشرية – عرض وتقديم، محمد المعموري، ١٣٢-١٣٣.

(٣) ظ: محسن عبد الحميد توفيق وآخرون، التنمية المتواصلة والبيئة في الوطن العربي، ١٨.

المؤشرات بالصورة القطعية مبنيٌّ على ما يأتي: رفض اعتماد قياس الجزء - مجموعة أفراد- على الكل أولاً، الجهل بنمط تحقيق تلك المؤشرات ثانياً، عدم اعتماد تلك المؤشرات وتطبيقاتها لقياس نوعية الحياة ثالثاً، فأن مؤشر (متوسط عمر الإنسان) أو العمر المتوقع عند الولادة في بلد ما لا يعطي لنا تصوراً عن طبيعة هذه الحياة لأن ذلك مرهون بجملة من الأمور قد تكون خارجة عن نطاق العناية بصحة الإنسان ، لذا لا نستطيع أن نعده مؤشراً حقيقياً لمقياس سلامة الإنسان البدنية والنفسية وحتى العقلية التي ترتبط بهذا العامل بنسبة ما، أما فيما يتصل بمؤشر مستوى دخل الفرد ومقدار نصيبه من الدخل الإجمالي، فهو على المنحى نفسه من المؤشر السابق، فالقياس به لا يعني حقيقية مستوى دخل الفرد ولا يعكس عدالة توزيع الثروة من عدمها، أما فيما يخص المؤشر الثالث وهو التعليم، فكذا هو لا بظهر حقيقة مستوى التعليم وما مدى تأثيره في إكساب الإنسان للعلم، ودوره في إنماء قدراته، وهكذا الحال إلى البيئة التي أضيفت مؤخراً من قبل البعض كمؤشر مهم، فإن الكثرة في المساحات الخضراء لا يُعدّ مقياساً تنموياً مقارنة ببعض الدول ذات المساحات الخضراء التي يُعدّ نموها طبيعياً، وكذا هي حال بقية المؤشرات، إلا أننا نستطيع الاستئناس بها جميعاً وبغيرها كقرينة يُقاس بها نمو هذا الفرد أو ذاك المجتمع أو تلك الدولة، ولهذا نجد هناك من قسم العالم على أساس تلك المؤشرات ومقاييسها إلى بلدان ذات تنمية بشرية عالية، وبلدان ذات تنمية بشرية متوسطة، وبلدان ذات تنمية بشرية منخفضة، وذلك اعتمادا على دليل التنمية البشرية [١].

(١) ظ: إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ٣٣، انظر مصادره.

وأخيراً فالباحث يحسب أن التنمية البشرية متعددة الأبعاد وبعيدة الأهداف لذا يجب أن تكون هناك آلية أوسع وأشمل لرصد حركتها ورصد تطورها الإنمائي على صعيد الفرد والمجتمع، مما يقتضي في هذه الحالة اعتماد ما يأتي:

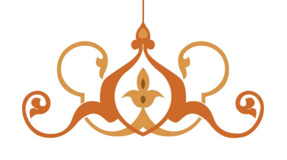
- اعتماد المقاييس على ذات مبادئ المفهوم وعده أساً لها، فيجب أن تكون هذه المحاولات جادة، وتشمل مضامين المفهوم وتستوعب مفرداته.
- حتمية الارتقاء بمفهوم التنمية البشرية إلى مرتبة التعبير عن نوعية الحياة (بالانتقال من الحاجات الأساسية إلى المستويات العليا من الرفاه والتنعم)[1].
- ضرورة الاستعانة بالمعايير الفنية التي تبتكر بيانات كمية ونوعية (وتعتبر المسوح، الأبحاث الميدانية والبيانات الإدارية مصادر هامة لجميع البيانات اللازمة لقياس التنمية)[2].
- ضرورة عدم اعتماد معايير ثابتة لمقياس التنمية البشرية، واطرادها مع تطور المفهوم وتطور الإنسان واتساع خياراته، لأن خيارته تتسع وتتطور وتتغير بمرور الزمن.
- عدم الوقوف عند ذات المؤشر في حالة بلوغه؛ بل يقتضي تغيره تناغماً مع التطور الحاصل، ومثاله عدم الاكتفاء بمحو الأمية (القراءة والكتابة) في

---

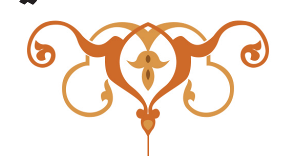
(١) مجموعة من الباحثين، لتعديل مقاييس التنمية البشرية HDI، ١٩١.

(٢) مسار التنمية البشرية، ٢٩
www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf موقع ألكتروني.

حالة بلوغها، والعمل على محو الأمية الرقمية (أمية الحاسبة) كمرحلة متطورة أخرى، حيث أصبحت مؤشراً يقاس به تخلف الفرد أو المجتمع بالرغم من قراءته وكتابته أو حيازته على الدراسة الجامعية.



الفصل الثاني



التنمية البشرية منهج قرآني

أولاً: الخصائص القرآنية لمفهوم التنمية البشرية وموضوعه.

١ - مفهوم التنمية البشرية في المنظور القرآني.

٢ - موضوع التنمية البشرية في القرآن الكريم.

٣- خصائص التنمية البشرية في ضوء القرآن الكريم.



(١): مفهوم التنمية البشرية على وفق المنظور القرآني.

إن مصطلح التنمية البشرية يُعدّ من المصطلحات الحديثة في ميدان المعرفة، إذ شاع صيتهُ في العقد الأخير من القرن العشرين، وبان أثر حركته من خلال البحوث العلمية والتقارير الدولية التي سعت لرصد حركة الإنسان وتتبع نموه وتطور مستواه الحياتي، وعلى الرغم من حداثة هذا المصطلح فمفهومه ومضامينه لم تكن جديدة على ساحة الإنسانية، هذا إذا ما قلنا أن المضمون قد اقترن بوجود الإنسان، وامتد بامتداده وتطور بتطوره، كما لا نجده بعيداً عن منأى الإسلام وميدانه، فقد حفل القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تحمل مضامين التنمية البشرية، بل نجده يحمل مضامين مفرداتها حتى وصل إلى رصد بعض المؤشرات التي تُعدّ أحد مقاييس المفهوم، هذا فضلاً عن تعرضه – القرآن الكريم– إلى الركائز والعناصر الأساسية للتنمية البشرية من خلال فهم السياق القرآني ومدلول آياته.

إن النظرة الإسلامية والقرآنية للتنمية البشرية أكثر شمولاً وتكاملاً واستيعاباً عن النظرة الوضعية له، وللتعرف الى التنمية البشرية على وفق المنظور الإسلامي يتطلب منّا الإحاطة بذات المفهوم، إلا إننا استوفينا هذا المطلب في المباحث السابقة[1]، كما أستقر رأي الباحث على تعريفه الإجرائي الذي نص على أن التنمية البشرية التنمية البشرية هي: عبارة عن عمليات إجرائية منظمة على وفق رؤية فكرية منتخبة تهدف لتطوير القوى الكامنة في الإنسان بصقلها وتوجيهها نحو تحقيق طموحاته

(١) راجع ص٤٢ – ٥٠ من الكتاب.



بغية إشباع حاجاته المشروعة في شتى مجالات الحياة[1].

ومن خلال تسليط الضوء على هذا التعريف يجد المتتبع أن الباحث أختلف بتعريفه هذا عن بقية التعريفات بما يأتي:

أولا: محاولته في اقتران النظرية بالعمل، إذ وجدت بعض من التعريفات تؤكد احد المطالب من دون الالتفات إلى المطلب الآخر.

ثانيا: ضرورة إسناد العمليات الإجرائية إلى منظومة فكرية أو رؤية كونية[2] ترتكز عليها، كما هي حال التنمية البشرية في المنظور الإسلامي، وهذا يعني إرواء أبعاد ومعطيات التنمية البشرية من روافد الأدلة الشرعية واعتماد مفرداتها عليها والذي يُعدّ القرآن الكريم أحدها، فالإشارة إلى "المنظومة الفكرية" في التعريف كان المراد منها ذلك.

---

(١) راجع ص٥٠ من الكتاب.

(٢) الرؤية الكونية تعني النظم الفكرية والعقائدية التي يحملها الإنسان لتفسير الحياة في مختلف مجالاتها .
فهي الإجابة عن المحاور التالية: معرفة الوجود، معرفة الإنسان، معرفة السبيل.
وعلى ضوء هذا التقسيم قسم العلماء الحكمة إلى قسمين:
• حكمة نظرية : وهي تصور الوجود كما هو في الخارج، وهي التي تهتم في معرفة الوجود والإنسان.
• حكمة عملية: وهي فهم خط سيرة الحياة كما ينبغي ، وهي الحكمة التي توضح تعرف الإنسان ماهيته وسبيله، فما ينبغي نتيجة طبيعية لما هو موجود.
ظ: مرتضى مطهري، الرؤية الكونية التوحيدية، ٨ كمال الحيدري، مناهج المعرفة عند الإسلاميين، ١٩١.

ثالثا: لقد نص التعريف على قيد أن تكون عملية إشباع حاجات الإنسان وتأمين تلبية طموحاته بالمشروعة[1] على خلاف بقية التعريفات التي لم تشترط لهذا القيد بتاتاً او تشير إليه، مما اضطروا لاحقاً أن يعلقوا بشروحات أو أن يقيدوا التعريف بقيد آخر كما في إضافة كلمة (الاستدامة) إلى التنمية البشرية، فحاجات الفرد وطموحاته يجب أن تكون مشروعة بجانبين اثنين هما: مطابقة حاجات الإنسان على وفق المنظومة الفكرية التي يرتبط بها، كما هي حال شرعية حاجات المسلم، الواجب تأمينها على وفق الرؤية الكونية، والجانب الآخر هو لزوم أن تكون تلبية الحاجات الفردية أو العامة لا تتقاطع مع القيم الإنسانية العامة، فالغاية لا تبرر الوسيلة مطلقاً.

رابعا: إن أطلاق عبارة «رؤية فكرية منتخبة» من دون تقييدها قصد الباحث منه، هو تأسيس مفهوم علمي يحمل مضمون التنمية البشرية بموضوعية بعيداً عن ضيق الأفق قريباً لمنهج البحث العلمي.

وتأسيساً على ما تقدم كان قيد عنوان فصلنا الجديد التنمية البشرية على وفق رؤية القرآن الكريم، كي يتسنى لنا تسليط الضوء على المفهوم على وفق الرؤية

---

(١) لقد عرف الأستاذ محبوب الحق التنمية البشرية هي: (عملية ترمي لتوسيع خيارات الفرد)، أو (عملية توسيع للخيارات المتاحة أمام الناس)، علما أن هذا التعريف قد أقر في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي منذ عام ١٩٩٠م أيضا.
ظ: تقرير الأمم المتحدة لعام ١٩٩٠م أشواق عبد الحسن الساعدي ، الثقافة والتنمية البشرية،٢٠ محسن عبد الحميد توفيق وآخرون، التنمية المتواصلة والبيئة في الوطن العربي، ١٧ إبراهيم العسل، التنمية البشرية في الفكر الإسلامي، ٢٤.

القرآنية حصراً، لما في القرآن الكريم من آيات تحمل بدلالتها الكثير من مضامين التنمية البشرية.

أما فيما يتصل بمرادفات التنمية أو التنمية البشرية في القرآن الكريم فهي كثيرة ومتنوعة[1]، ومن الممكن استنباطها من المفردة القرآنية ومن المعنى الإجمالي

---

(١) لقد عرض الدكتور جمال محمد أحمد عبده إلى مجموعة من المرادفات للفظ (التنمية) في القرآن الكريم، إلا أن الباحث سيذكر البعض منها لقناعته ببعضها تاركاً البعض الآخر لبعدها نسبيا بحسب وجهة نظره، ومرادفات التنمية هي:

أولاً التزكية: إذ تعد الزيادة والكثرة كماً ونوعاً ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾الشمس: ٩.

ثانياً: التربية: وهي تعني التنمية والزيادة وتتعلق بالقوة الجسدية، والعقلية والخُلقية ومصداقها قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾الإسراء: ٢٤.

ثالثاً، التكثير أو التكاثر: والمعنى هنا نقيض التقليل أو القلة وهي الزيادة والتسابق في الكثرة لقوله تعالى:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾الأعراف: ٨٦.

رابعاً، البركة: فهي تعني النماء والزيادة والسعادة والخير ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾الأعراف: ١٣٧.

خامساً، الإنبات أو التنبيت: فهي تعني التنشئة والعلو والارتفاع والبروز ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾آل عمران: ٣٧.

عرض الدكتور إلى مرادفات أخرى للتنمية كالتثمير والتنشئة والنشور والنشوز والبناء وعدها مرادفات لمفهوم التنمية إلا أننا وجدنا أنها خارج عن الترادف المطلوب ←

لسياق آية أو مجموعة آيات، بالرغم من عدم عرض القرآن الكريم لمصطلح

خصوصاً إذا علمنا أن التنمية تعني لنا الاجتهاد في الزيادة غير الطبيعية المطردة بأثر تفاعل المؤثرات الخارجية، نعم بإمكاننا أن نجعل مما اعترضنا عليه مصداقا للتنمية البشرية، لأن الفارق بين النمو والإنماء كبيرا، فالأول: يعني النمو الطبيعي، وفي الثاني: النمو غير الطبيعي الحاصل نتيجة ومؤثرات خارجية غير طبيعية.

بينما نجد الكثير من الباحثين ومنهم الدكتور سعد عبد الله محارب الذي ذكر في معرض بحثه المعنون اسس التنمية البشرية من منظور إسلامي، أن التغير من المرادفات أو من أسس التنمية في النص القرآني مستشهدا بقوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾، (الرعد:١١)، وهو الحق لأن التنمية تسعى لتغير الإنسان ومهاراته وإمكاناته نحو الأفضل، واكتساب كل جديد على أن يكون التغير ايجابيا، فليس التغير مطلوبا لذاته، وإنما لغاية ايجابية يعمل من أجلها.

بينما أشار في صدد هذا الموضوع الأستاذ محمد جواد شبع قائلا: (فلم نجد في القرآن الكريم استعمالا لمصطلح النمو أو التنمية في معرض الحث والأمر ولكننا نجد بدلاً من ذلك عدداً من المصطلحات المرادفة، ومنها الاعمار، الابتغاء من فضل الله والسعي في الأرض، وإصلاح الأرض وعدم فسادها، ونشدان الحياة الطيبة)

ظ: جمال عبده، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ٢١٧-٢٢١. (بحث) المصباح، التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع، العدد ٩، ١٧٠ مجلة الوعي الإسلامي، موقع الكتروني،

alwaei.com/topics/current/article_new.php?sdd=2249&issue=532

التنمية صراحة، وهذا لا يعني زهده في هذا المطلب بل العكس، فالقرآن الكريم لم يعرض لمصطلحات تتغير وتتأثر بحكم الظرف الزماني أو المكاني، في حين أن القرآن الكريم يُعدّ بحكم سماويته عالمياً، متكاملاً، شمولياً، واسعاً، معجزاً ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فمنه نستسقصى منه مفاهيم ومعاني ومضامين كل العلوم،

فهو الأساس الذي يُقاس عليه وليس العكس[1]، إذ لا يصح أن نُحّمِل القرآن الكريم ما لا ينطق به بحجة وجود استدلالات علمية تطبيقية أو عقلية اجتماعية، بحيث يُعدّ النظر (في ذلك تطبيق وليس بتفسير)[2] فهذا ما لا يمكن القول به أو فرضه على النص القرآني مطلقاً .

والحق أن الإسلام ينظر إلى التنمية البشرية على أنها صومعة بناء الإنسان وتسخير البيئة له وتذليل الصعاب وتطوير ما يحيط به لإسعاده وتحقيق طموحاته، فالإنسان في المنظار القرآني: (خُلق على كمال في نفسه واعتدال في جوارحه)[3] لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[4]، كما منح أعلى المراتب بتكريم الله

---

(١) يُنقل عن الحبيب المصطفى ﷺ أنه قال:(اذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب اللهَّ تعالى فما وافق كتاب اللهَّ فاقبلوه و ما خالفه فاضربوا به عرض الحائط) المصدر: محمد الفيض الكاشاني، تفسير الصافي ج١ ص ٣٦ السيد علي خان بن أحمد كبير المدني، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين، ج٥، ص٤٤٠ .

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١، ١١ .

(٣) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٦، ٣٠، ١٧٩ .

(٤) التين: ٣.

تعالىٰ إليه﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[1] واستأمنه علىٰ الولاية الإلهية واستخلفه في الأرض لقوله سبحانه تعالىٰ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[2].

فرفعة مكانة الإنسان في التنمية البشرية القرآنية لا تضاهيها منزلة قياساً بمنزلته في الدراسات التنموية الوضعية، بالرغم من وجود بعض المشتركات بين التنميتين، إذ نجد أن منحىٰ التنمية البشرية في القرآن الكريم هو ذات منحىٰ التنمية البشرية بمفهومها العام والشائع في الأوساط العلمية، فإننا نلمس التباين واضحاً حينما ندخل في الجزئيات والتفاصيل، وكذا في الغايات وإن اتفقتا في بعض الأهداف والموارد الأخرىٰ.

إن اختلاف مفهوم التنمية البشرية القرآني عن المفهوم السائد في الفلسفات الوضعية مرجعه ذات المزية التي تميزت بها مفاهيم الرؤية الإسلامية وسماتها من بقية الرؤىٰ الأخرىٰ، مما عد العلة الحقيقية وراء هذا التباين في فهم الإنسان والحياة والكون، فالرؤية الكونية هي التي تحدد معالم الطريق لحركة المفاهيم الأخرىٰ ورؤاها داخل دائرتها وهي التي تتحكم بحركة مساراتها علىٰ وفق مؤشرات البوصلة الرئيسة التي تمثل خلفية أي نظرية.

إذ يُعدّ وقوفنا عند التنمية البشرية القرآنية وقوفاً عند مضامين الرؤية الكونية الإسلامية وأحكامها الشرعية، فالغوص في معرفة غاية ومقصد التنمية البشرية في

---

(١) الإسراء:٧٠.

(٢) البقرة: ٣٠.

القرآن الكريم هو ذات الغوص في مقصد الشريعة المقدسة واحكامها، أذ يعمل الحركة نفسها وبطول مطلب ومنهج شريعة السماء، ومن هنا كان الاهتمام في قضية الملاك في الحكم، لعلمنا أن (في كل حكم وجوبي أو تحريمي ملاك أي وجود مصلحة أو مفسدة موجبة لتشريعه)[1] بناءً على حكمة المشرع وعدالته.

فالتنمية البشرية لها موقع ريادي في عموم الشريعة المقدسة وكذا القرآن الكريم الذي يُعدّ اصل منابعها الأساس، حيث نلمس ذلك واضحاً حين نبحث في مقاصدها بين آية أو رواية أو حكم فقهي، فنلمس تأصيل ذات هدف الرؤية الإسلامية في تحقيق سعادة وطموحات الإنسان، وان المتتبع للمصالح التي قصد الفقه تحقيقها يجد ثلاثة مقاصد تستقيم الحياة الاجتماعية بها وتهنأ، ومقصد الشريعة الإسلامية هو تحقيق مصالح العباد بالإيجاد لها أولاً ثم حفظها ثانياً، وهذه المصالح هي حفظ الضروريات وتحقيق الحاجات وضمان التحسينات[2] وهذا هو عينه غاية التنمية البشرية ومرادها.

ولقد فسر الشاطبي المقاصد الضرورية (بأنها المقاصد التي لا بد منها من قيام مصالح الدين بحيث إذا فقدت لن تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد، والضروريات التي لا تستقيم الحياة دون تحقيقها هي ضرورة حفظ الدين والنفس

---

(١) لجنة التأليف مؤسسة البلاغ، مفاهيم حضارية،٣٣.

(٢) ظ: عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ٣٧٩.

والعرض والمال والعقل)[1]، وعند التأمل في المحاور والمصالح أعلاه نجدها هي هي محاور التنمية البشرية فهي تسعى لتحقيق هذه الأمور لاغير.

إن اعتمادنا في هذا المطلب مبنيٌّ على القاعدة التي تنص على»جلب المصالح ودرء المفاسد« والتي اعتمدت على أساس مبدأ منفعة الإنسان قبل كل شيء حيث (يجب أن لا ننسى أن الغاية من الشريعة وبيان الأحكام الشرعية هي إيجاد الحلول والمشاكل التي يعانيها الإنسان)[2]، وهذا يستدعي أن نؤكد (أن التشريع والحرمة والوجوب تشخيص لحقائق الموضوعات والسلوكيات الإنسانية[3])[4] تحديداً.

وبما أن التنمية البشرية في الإسلام عموماً وفي القرآن الكريم خصوصاً تتبنى منهج دفع الضرر عن الإنسان وجلب المنافع إليه وسد حاجاته وتحقيق طموحاته فهي تعمل بطول الأحكام الشرعية وتدخل تحت نطاق الرؤية القرآنية، فالغاية من الأهداف هي معرفة مقاصد الشريعة و يُعدّ هذا أمراً ضرورياً للمكلف لأنَّ (فيه

---

(١) الشاطبي، الموافقات،٥٠٤.

(٢) محمد علي أيازي، مقاصد الأحكام الشرعية وغاياتها، دراسة في سبل اكتشاف الملاكات ،١ ، ٢٦-٢٧.

(٣) استنادا إلى وجود ملاك في كل حكم شرعي يبين مصلح أو مفسدة موجبة لتشريعه أي يعني إن الأفعال الإنسانية والأشياء تحمل وصفا ذاتيا من الضرر والنفع باعتبار أن الحسن والقبح ذاتيان ظ: مؤسسة البلاغ، مفاهيم حضارية، ٣٣.

(٤) ظ: مؤسسة البلاغ، مفاهيم حضارية، ٣٣.

كل حركة تكمن في معرفة الغايات والأهداف العامة لتلك الحركة)[1].

والبحث في معرفة غاية التشريع يُعدّ وازعاً لنمو وتطور الإنسان وأدائه، حيث نجد العمل التنموي يتجلى نظرياً وعملياً عندما تُحدد الأهداف وتُعرف المقاصد، إلا أن الأمر لم ينحسر عند حد معرفة علة التشريع فحسب، بل عملت التنمية البشرية القرآنية مع باقي مصادر التشريع على ترويض الإنسان وتجنيده لضرورة لزوم الامتثال لأمر الله تعالى تعبداً[2]، لتسليمه -الإنسان- بحكمة الشارع المقدس ولمسعاه بكسب رضاه سبحانه وتعالى الذي يُعدّ الهدف الأساس للتنمية البشرية في القرآن الكريم.

فتسليم الإنسان للرؤية الكونية السماوية والرؤية الإيديولوجية لها[3]، يعني الانعطاف به نحو العدالة الاجتماعية التي تُعدّ العلة الحقيقية لتطور وإنماء كل الأمم والشعوب، حيث تبنت علاجها المنظومة الإسلامية والقرآنية من خلال اللجوء إلى فهم واستيعاب ذات المفهوم والتعامل مع نشاطاته التنموية على أساس

(١) محمد علي ايازي، مقاصد الأحكام الشرعية وغاياتها، ١، ٣٤.

(٢) (يراد بالتعبد التسليم لله تعالى فيما أمر به وإن كان المأمور به لم نعلم المصلحة فيه) أصول الفقه، محمد رضا المظفر ١،٦٩.

(٣) هناك علاقة مترابطة بين الرؤية الكونية «الحكمة النظرية» وبين الرؤية الأيديولوجية « الحكمة العملية» فالأولى هي القوة التي من شأنها العلم والثانية من شأنها العمل .
ظ: جعفر سبحاني، رسالة في التحسين والتقبيح، مؤسسة،٣٣ كمال الحيدري، فلسفة الدين،١٦-١٧.

خريطة الرؤية الكونية وعلاقتها مع الإنسان، الكون، الحياة.

من هنا نجد اختلافاً جديداً فرض نفسه على الساحة الفكرية بين رؤية التنمية البشرية في الإسلام والقرآن وبين التنمية البشرية الوضعية أو في عموم الرؤيتين التي تناولتا المشكلة الاجتماعية على أساس أنها العلة وراء التباين لكثير من الأبعاد والمعطيات، حيث عد السيد محمد باقر الصدر أن المصلحة المادية الخاصة التي أقامها النظام الرأسمالي مقياساً ومسوغاً وهدفاً وغايةً تلك الفكرة هي الأساس للبلاء الاجتماعي في فشل تحقيق سعادة الإنسان وتوفير كرامته [1].

ثم عرج السيد الصدر إلى أن العقدة في الفكرة تكمن في التفسير المادي المحدود للحياة، وأن الإنسان في هذا النظام لا يمكن أن يكسب من هذه الحياة غاية إلا اللذة التي توفرها له المادة، وان حب الذات[2]- الغريزة الطبيعية للإنسان- سيكون معيارها مادياً بحتاً ، ومتى أردنا أن نغير من سلوك الإنسان علينا أن نغير من مفهوم اللذة والمنفعة عنده ، ونُدخل السلوك المقترح ضمن الإطار العام لغريزة حب الذات أي أن يطور المفهوم المادي للإنسان عن الحياة[3] ومن ثمة فإن تغيير مسار اللذة والنفع من المادي إلى غير المادي (النفسية، السلوكية، الاجتماعية،

---

(١) ظ محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ٤٥.

(٢) يعد السيد الصدر أن غريزة حب الذات غريزة طبيعية للإنسان فيقول: (إن حب الذات هو الغريزة التي لا نعرف غريزة أعم منها أو أقدم فكل الغرائز فروع هذه الغريزة وشعبها) محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ٤٦.

(٣) ظ: محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ٤٥- ٤٧.

الثقافية) سوف نطوُر مفهوم الإنسان عن الحياة، فيجد أن استحصال الجانب المادي ليس هو الجانب الوحيد الذي تتجسد فيه تلك اللذة أو تتمثل فيه تلك المنفعة، فالمسألة أوسع من هذا الانحصار وابعد مراماً من هذا الانحسار، ذلك بإن اللذة والمنفعة تكمن في مناحي كثيرة من الحياة، ليست المادة إلا وجهاً منها، ويبدو ان نقد السيد الصدر لمفهوم التنمية والتغيير عن الجانب المادة مؤسسة على قوله تعالى﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1] .

لقد تعامل القرآن الكريم مع الإنسان الذي يُعدّ موضوع التنمية البشرية على أساس التأثر والاستيعاب للمظاهر الاجتماعية من خلال فهمه لها بمنظور جديد، ومن الأولويات التي حاول التأثر بها هو تنمية فهم غريزة حب الذات والمادة، وتأثيرهما في نشاطات التنمية البشرية ومجالاتها الحياتية المختلفة، كون الإسلام والقرآن تعامل مع الإنسان - المحور الأساس في الحياة والتنمية- على أنه مركب من العقل والشهوة، وبحكم غريزته وفطرته يسعى لذاته، ويطلب لنفسه الكمال غير المتناهي، وأنه متعدد الحاجات والمطاليب[2]، من حيث تُعدّ جميع تلك الحقائق أزمة اجتماعية تُعيق حركة الإنسان وتطوره في العملية التنموية التكاملية، مما يستدعي حينئذ أن نبحث عن منقذ لحل الأزمة الاجتماعية (وهذا حكمه وجوب اتخاذ المدنية والاجتماع التعاوني، ويلزمه الحكم بلزوم استقرار الاجتماع بنحو ينال

(١) الرعد: ١١.

(٢) ظ: كمال الحيدري، فلسفة الدين، ٧٨- ١٠٣.

كل ذي حق حقه، وتعادل النسب والروابط، وهو العدل الاجتماعي)[1]، مما يقتضي بموجب الأزمة الاجتماعية أن يُسن للإنسان والحياة نظاماً عادلاً، وهنا يستدعي أما اللجوء إلى النظام المادي بفلسفته الرأسمالية أو الاشتراكية أو اللجوء إلى الرسالة الإسلامية السماوية التي عملت على أن يتطوّر المفهوم المادي للإنسان عن الحياة وبتطويره تتطوّر طبيعياً أهدافها ومقاييسها، من خلال جعله يؤمن بان حياته منبثقة عن مبدأ مطلق الكمال، أي إن الإسلام جاء ليوحد بين المقياس الفطري للعمل والحياة وهو : حب الذات، والقياس الذي ينبغي أن يقام للعمل والحياة، ليضمن السعادة والرفاه والعدالة[2] وسيكون كل ذلك مرهوناً بعدة خطوات منها: وجود رؤية كونية متكاملة، تعقبها رؤية أيديولوجية واقعية، إدراك الإنسان للرؤية ولمفرداتها وفهمه لها، تحديد أصل المشكلة الاجتماعية والتعامل معها بموضوعية، وضع الحلول المنطقية التي تؤّمن التوازن بين القيم الفردية والاجتماعية، ضرورة إدراك الإنسان على أن الحل والتطور والإنماء مرهون به وبوعيه وإرادته، لأنه موضوع التنمية البشرية القرآنية، فهو الوسيلة والهدف لتحقيق الغاية الكبرى التي نعني بها أصل وجود الإنسان وعلاقته بالموجِد والوظائف الموكلة إليه كخليفة وأمين.

فالقرآن الكريم احتوى واستوعب كل المحاور والخطوات، فهو المرجع والحجة البالغة للعلوم والمعارف، وهو الحاضنة لنشاطات التنمية البشرية وفعالياتها التي

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢، ١١٧.

(٢) ظ: محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ٤٩- ٥٥.

وجدت متناثرة بين آيات الله، ساعية لتحقيق مشروع بناء الإنسان وتطوره، الذي عد أيضاً محور القرآن الكريم والتنمية البشرية بل محور الأرض وخليفتها وحامل سرها ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾[1]، فالآية المباركة تعرض عدة إثارات ومطالب مهمة وجوهرية تحاول من خلالها بيان المائز بين الإنسان وبقية المخلوقات.

فالآية أكدت آثر الإنسان وأهميته في تحمل الأمانة[2] وأداء الرسالة الإلهية، بتسنمه ذات (الولاية الإلهية)[3]، التي لم تُدرك لولا وجود العقل فإن(الحكمة

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) لقد تباينت أراء المفسرين بخصوص معنى « الأمانة» فأوردوا عدة أراء نجملها بما يلي:
هي الولاية الإلهية وكمال صفة العبودية، صفة الاختيار والحرية والإرادة، أعضاء جسم الإنسان، الأمانات التي يأخذها الناس بعضهم من بعض، معرفة الله تعالى، الواجبات والتكاليف، خلافة الإنسان لله جلّ وعلا، الطاعة والصلاة، جميع الفرائض، حفظ الفرج، التوحيد أو دلائل الوحدانية، الوفاء بالعهد، العقل، الولاية مطلقا، ولاية الأمام علي عليه السلام.
ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٣٥٤-٣٥٥ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن مج٥، ٢٢، ١٧٣- ١٧٤ أبن عاشور، التحرير والتنوير، مج٩، ٢٢، ١٢٧ ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٠، ٤٩٤ هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن،مج ٦، ٣١٨- ٣٢٢.

(٣) محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن،١٦، ٣٥٥.

اقتضت أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات)[1]، وأن الخلافة "الولاية الإلهية" لا تدرك إلا بالعقل : فـ(التسليم للقيادة هو الأمانة، وهو من أبرز تجليات الإرادة والوعي البشريين)[2]، وبمقتضى ذلك ستتجلى الأمانة بـ(ما عهد الله سبحانه إلى عباده من أمره ونهيه، وأنزل فيه الكتب وأرسل الرسل وأخذ عليه الـميثاق)[3]، مما يتبين ضمناً (أن الإنسان موجود له استعدادات وقابليات يستطيع من خلالها استغلالها أن يكون أتم مصداق لخليفة الله، ويستطيع أن يصل إلى قمة العظمة والشرف باكتساب المعارف وتهذيب النفس وتحصيل الكمالات)[4] وما تَحّمُله لتلك الأمانة إلا على أساس ما تقدم، إذ من الممكن أن نقول إن الأمانة

هي الولاية الإلهية فهي تعني (الكمال الحاصل من جهة التلبس بالاعتقاد والعمل الصالح وسلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة إلى أوج الخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره وهو الولاية الإلهية)[5]، وعلى أساس الجعل التكويني الإلهي للإنسان الذي حمل الأمانة الإلهية منح (قابلية التكامل غير المحدودة والممتزجة بالإرادة والاختيار، والوصول إلى مقام

---

(١) أبن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير،٩، ٢٢، ١٣١.

(٢) محمد تقي المدرسي ، من هدى القرآن، ٧، ٢٤٧.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج ٥، ٢٢، ١٧٤.

(٤) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٠، ٤٩٤.

(٥) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٣٥٥.

الإنسان الكامل، وعبودية الله الخاصة وتقبل ولاية الله)[1] وهنا يكمن ميدان التنمية البشرية في الأنسان.

إن موقع الإنسان في ظل الآية المباركة المتقدمة واضح وجلي، وأن مرتبة قبوله للأمانة صارت على درجات وأصناف، (ولذلك نرى الآية التالية قسمت البشر إلى ثلاث فئات "المؤمنين والكفار والمنافقين")[2]، ﴿**لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾[3]، وعلى ضوء تصنيف الآية المباركة وصُف الإنسان على ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾، وكأن مراد الآية تشير إلى (أنهما صفتان مغروزتان في الإنسان وهما من طبيعته العدمية الضعيفة)[4]، إلا أن (الظلم والجهل إنما يتصف بهما من كان شأنه الاتصاف بالعدل والعلم)[5].

والرابط والمحور بين كل ما استعرضناه من مطالب في هذه الآية المباركة هو الإنسان، إذ قد هُدي إلى عدة سبل وغرس فيه الخير والشر، ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا**

(١) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٠، ٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ١٠، ٤٩٥.

(٣) الأحزاب، الآية ٧٣.

(٤) من هدى القرآن، محمد تقي المدرسي، ٧،٢٤٧.

(٥) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٣٥٦.

شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[1]، لذا فهو يستطيع أن يتحمل أعباء الأمانة بحكم العقل الذي يُعدّ الباعث على التغير والانتقال من حال إلى حال ومن مكان إلى آخر[2] وبامتثاله لأمر الله تعالى والانتهاء عن نهيه، يكون قد نال مرتبة الخليفة والأمين[3].

وبالعودة إلى جوهر مطلبنا والعمل على لملمة المقدمات التي تحدثنا عنها من تحديد لمفهوم التنمية البشرية في المنظور القرآني إلى أهمية الرؤية الكونية فيها، وإلى أهمية وآثر الإنسان لفهم المشكلة الاجتماعية، فالمقدمات تستقر عند عتبة محورية الإنسان بوصفه موضوعاً للتنمية البشرية القرآنية ، فالخلافة تستلزم التنمية البشرية وبهذا يكون العقل والاختيار أساً وأصلاً من أصول التنمية البشرية، فكأن الله سبحانه هيء الإنسان بهذه السمات وقيض له ميدان التنمية البشرية ليكون خليفةً وبهذا الزمه بالحجة، فالعقل والاختيار أساس ميدانهما التنمية البشرية وغايتهما التمكن من تحقيق الاستخلاف، لذا كان وجود مفهوم التنمية البشرية وسُبُلها في النص القرآني أمراً واجباً لأنه يمثل جزءاً أساسياً من تحقيق مقاصد الشريعة وداعي أصيل من دواعي نزول النص المُعجز ابتداءً ومطلباً وغايةً، لذا لا نغالي إذا قلنا بأن التنمية البشرية هي الميدان والسبيل الذي يُتجسد من خلاله وبه مسعى السماء لجعل الإنسان (غاية التنمية) الانموذج الارقى

---

(1) الإنسان: ٣.

(2) ظ: أبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،مج ٩، ٢٢، ١٢٧ – ١٣١.

(3) إشارة لرأي أغلب المفسرين ولقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس: ٧-١٠.

الذي يستحق أن خليفة الله في ارضه على وجه الفعلية لا الشكلية .

(٢): موضوع التنمية البشرية في القرآن الكريم.

لم يكن القرآن الكريم بمنأى عن التنمية البشرية وموضوعها، بل العكس فالقرآن الكريم الذي عد الحجة الأولى لمنظومة الفكر الإسلامي، أذ أكد محورية الإنسان وأثره الريادي على الأرض الذي اصطفاه الله تعالى على بقية المخلوقات، وهذا يعني إن التنمية البشرية في القرآن الكريم كان همها الإنسان، بل أن نزول الكتب وإرسال الرسل كان على أساس ذات الغاية وهي هداية الإنسان وتطويره وتنميته في جميع جوانب شخصيته وذلك عن طريق غرس القيم السماوية فيه وتطوير قدراته الفكرية والسلوكية على الصعيدين الذاتي والمهني.

والإنسان في ميزان الإسلام والقرآن الكريم هو مركز الكون ومحوره، فإذا صح الإنسان صح الكون، وإذا فسد فسد هو الآخر (من أجل ذلك يُحفَلُ بالإنسان كما لا يُحفَلُ بغيره.... لأنه أهم العناصر الحضارية وأخطرها، ولأنه المحور الذي تدور عليه حركة معظم الموجودات المتماوجة من حوله؛ ولأنه هو الذي سيُكلف بتيسيرها وتسخيرها نحو هدف جدّ عظيم وخطير)[1]، هو استخلاف الله في الأرض، ومن هنا نجد أن الإسلام هي المنظومة الوحيدة التي بجلت الإنسان ورفعت من شأنه، وتبجيلها إليه ليس على مستوى الأدبيات، بل من خلال تشريع

(١) محمد سعيد رمضان البوطي ،منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ٤١.

الأحكام إليه[1] ووضع المعايير له حتى أصبح مقياساً لكل شيء لأنه رأس مال العقيدة الإسلامية.

لذا نجد أن الأعم الأغلب من خطاب القرآن الكريم والسنة المطهرة موضوعهما الإنسان وكيفية معالجة مسائل نهوضه وتطويره والارتقاء به، وما هي السُبُل التي تساعد على الارتقاء به من وحل الشيطان والهوى وصراعات النفس وملذات الدنيا، إلى عالم الملكوت الأعلى حيث القيم السامية والكمالات التامة.

فالإنسان هو موضوع القرآن الكريم ومحوره الأساس؛ لأنه خليفة الله في الأرض، لذا كانت أُولى الآيات القرآنية التي نزلت على الرسول الأعظم ﷺ تحدثت عن الإنسان لبيان هويته ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾[2]، وهكذا تتابعت الآيات لتبين حقيقة الإنسان وماهيته، وحقيقة القوة الكامنة فيه والمتصارعة في داخله التي عكست حقيقتين متناقضتين بين أن يكون مخلوقاً تافهاً مذموماً، أو أن يكون ذاك المخلوق المكرم والمعزز المنتخب الذي اصطفاه الله تعالى عن بقية خلقه

---

(١) رعت الشريعة المقدسة مكانة الإنسان فشرعت له أحكاما استوعبت أدنى الإحكام حتى أرش الخدش، ثم صانت كرامته وحرمته لتفوق حرمة الكعبة الشريفة التي تعد رمز التوحيد وقبلة المسلمين، إذ (رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ مَرْحَباً بِالْبَيْتِ مَا أَعْظَمَكَ وَ أَعْظَمَ حُرْمَتَكَ عَلَى اللهِ، وَ اللهِ لَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكَ لِأَنَّ اللهَ حَرَّمَ مِنْكَ وَاحِدَةً وَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ثَلَاثَةً مَالَهُ وَ دَمَهُ وَ أَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ) المصدر: محمد بن أحمد فتال النيسابوري، روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج٢ ص ٢٩.

(٢) العلق: ٢.



ليكون خليفته في الأرض، ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[1].

وما تأكيد القرآن الكريم على الإنسان بوصفه موضوعاً للتنمية البشرية إلا لأنه القيمة الحقيقية للوجود، فعلى أساس العملية التنموية بات التطور مطرداً مع مستقبل الكون والأرض والمجتمع والفرد والبيئة لكونه مرهوناً بإنماء الإنسان وإدراكه ووعيه وتحمل مسؤوليته ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ**﴾[2].

فالإنسان يُعدّ مكوناً أساسياً وجوهرياً متميزاً على وفق المعيار القرآني، فهو (صفوة الخليقة وفلذتها وسرها الكامن في سلسلة الوجود، فيه من الصفات

---

(١) هود: ٦١.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

والميزات التي أهلته ليمثل هذه الغاية والحباء[1])[2]، على خلاف الكثير من (الحضارات الإنسانية الأخرى التي قسمت البشرية إلى فئات وطبقات متعددة تتباين في حظوتها ومكانتها وتتفاوت مراتبها وفقاً لمتغيرات الدم والعرق واللون

(١) لقد كرم الله تعالى الإنسان فكانت له عدة خصال منها:

· (خلقه الله بيديه ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾الحجرات: ٧٥.

·﴿**نفخ فيه من روحه فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ص: ٧٢.

· أودعه أمانته ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ﴾الأحزاب: ٧٢.

· علمه الأسماء كلها ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة: ٣١.

· اسجد له ملائكته ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾البقرة: ٣٤.

· منحه الخلافة﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾البقرة:٣٠.

· سخر له ما في السماوات والأرض جميعاً ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾الجاثية: ١٣.

· ثم بارك نفسه في هذا الخلف الممتاز ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٤.)

شبهات وردود حول القرآن الكريم، الشيخ محمد هادي المعرفة، تحقيق مؤسسة التمهيد، قم المقدسة، ط٣، ٢٠٠٦، ٢٢

(٢) المصدر نفسه.

وغير ذلك من المتغيرات التميزية)[1].

كما يُعدّ الإنسان في المنظور الإسلامي هو ذاته موضوع التنمية البشرية في القرآن الكريم لشمولية عنوان الإنسان في منظومة الإسلام، وعدم تباينه بين أبناء الجنس الواحد، قال الرسول الأكرم ﷺ :(النَّاسُ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْط)[2]، وهكذا هي الحال في الخطاب القرآني الذي أكد عدم التمايز بين الجنسين أصلاً، ناهيك عن التمايز في الجنس الواحد، وما صيحات التنمية البشرية لهذه الدعوات التي نضجت في العصر الحديث بعد جهد جهيد إلا خلاصة قدمها القرآن الكريم مع اللحظة الأولى لنزول الوحي، لإيضاح مركزية الإنسان وبيان ما منح من إمكانات وامتيازات تفرد بها عن بقية أقرانه من الموجودات ليكون كل فرد كياناً بذاته، ولكي نفهم المنظومة الإسلامية بالصورة الصحيحة ما علينا إلا أن نفهم حقيقتين: الأولى إن الأهمية الحقيقية في نظر الإسلام هي للفرد فكل فرد من أفرادها مسؤول أمامه تعالى، أما الثانية: إنه لا يمكن أن يتحقق النمو الصحيح لفردية الإنسان إلا بالحرية في فكره وعمله[3]، مما يستدعي أن يكون دور الإنسان في العملية التنموية جوهرياً وأثره فيها أساسياً وتنشيطها به ضرورياً، كونه القوة التي تحرك الذات والمحيط وتأثر في منظومة العلاقات، بين أن يكون فرداً مستقلاً بذاته، وبين أن يكون فرداً

---

(١) هاني عبد الرحمن الطويل، الإدارة بالإيمان، ٢٣٧.

(٢) محمد بن علي الصدوق ، من لا يحضره الفقيه ٥٧٩٨، ج٤ ، ص ٣٧٩.

(٣) ظ: أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ٢٩.

من بين مجتمع أو أمة، كي يدرك دوره الفعّال في الحالات كافة ودور تأثيره في تحديد معالم المجهول، لأن له أثراً متميزاً في حاضره، و(دوراً في بناء مستقبله يصدر عن وعي وحرية، فهو يعي نفسه ومحيطه، وهو يتمكن بحكم قوة العقل والإدارة من أن يختار مستقبله)[1] لذا عد المحور في العملية التنموية.

ولخصوصية الإنسان على وفق النظرة السماوية، ولتركيبته العضوية ولتعقيد قواه النفسية اقتضت أن تكون له ملكات ومزايا متصارعة يكون الفوز أو الخسارة فيها لذات الإنسان وخياره، لأن النظرة الإسلامية إليه مبنية على أساس التوازن والاعتدال التي تُعدّ أحد أهم سمات التنمية البشرية، فهي (لا تتفق مع نظرية الشر المطلق، ولا مع نظرية الخير المطلق، بل الإنسان هو مجموعة طاقات ولياقات وإمكانات مدعّمة بجموح فطري نحو الخير، ولكنها محاطة بموانع ومعوقات ومزالق هي التي يعبر عنها الخطاب الديني بالشيطان وأحياناً بالهوى)[2] وهي مُعرقلات المسيرة نحو النجاح وركوب سمة التطور.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[3].

بعد أن فهمنا أن موضوع التنمية البشرية هو الإنسان وغاية العلم تنميته

(١) مرتضى مطهري، الإنسان في القرآن، ٣٣.

(٢) صدر الدين القبانجي، الأسس الفلسفية للحداثة - دراسة مقارنة بين الحداثة والإسلام، ٣٤١.

(٣) الشمس: ٧- ١٠.

والارتقاء به إلى مستوى الطموح وتأمين حاجاته المشروعة، هو ذات عمل القرآن الكريم الذي يسعى لهداية البشر إلى سبيل الله تعالى الذي هو أعلى مراتب الكمال وأتمها، ولكي نستوعب كامل الصورة التنموية في الرؤية القرآنية علينا أن نحلل الإنسان للبحث عن عناصره التي تُعدّ موضوع حركة التطور والنهوض وعنوانها الرئيس، مما يستلزم علينا أن نفهم رؤية القرآن الكريم لعناصر الإنسان ومكوناته وآلية حركته وماهيته، خصوصاً أن كتاب الله المعظم اشبع هذا الجانب بحثاً وتفصيلاً لتبنيه محورية الإنسان ودوره الفعال والمؤثر في بناء ذاته والمجتمع والمشروع الحضاري، فضلاً عن أثره الأساس في تجسيد الجعل التكويني الإلهي لاستخلافه في الأرض وتمكينه لها بغية اعمارها ومن فيها.

وعلى أساس ذلك كان الخطاب القرآني للإنسان بعدة أنماط وألوان، كان أهمها من وجهة رأي الباحث هو تأكيد الجانب الفكري والنفسي لإدراك حقيقة ذات الإنسان وعناصره التي نعني بها الجانب المادي والروحي له، وأن تأكيدنا هذا المطلب مبنيٌّ على تأكيد المنظومة الإسلامية لهذا الجانب، على جميع مجالات حركة الإنسان ومجرياته وما يحيط به، على خلاف النظرة لأغلب النظم الوضعية التي نظرت للإنسان من الزاوية المادية البحتة فقط، بينما نجد أن القرآن الكريم حاول أن يغرس الجانب الروحي في كل عمل أو نشاط أو نظام لأنه ركن وعنصر أساسي لذات الإنسان الذي يُعدّ الماكينة والآلة لكل نشاط أو عمل، (فالروح والبدن حقيقتان اثنتان...والإنسان مجموع الحقيقتين، فإذا قارنت الروح الجسد، كان إنساناً حياً، وإذا فارقت فهو الموت، فإن الإنسان واحد حقيقي هو المبدأ الوحيد

لجميع آثار البدن الطبيعية والآثار الروحية)[1]، قال الله تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ**﴾[2].

حيث صوَّر لنا القرآن الكريم بأن الإنسان عبارة كيان تجتمع فيه النقائض، من خير وشر، ومن حب وكراهية، ومن تقوىٰ وفجور، ومن مادة وروح، وكأن له عالمين أو نشأتين هما:(أولاً: هندسة خارجية هي بدنية وتظهر في عالم الملك، ثانياً: هندسة باطنية نفسانية يكون في عالم الملكوت)[3].

نخلص مما تقدم إن الإنسان مجموعة صراعات جوهر هذا الصراع هو تنازع عنصري الإنسان المادة والروح، فبعض هذه النزاعات والصراعات بين الملك والملكوت وبين السماء والأرض، كون الروح تمثل الجانب الملكوتي بدليل﴿**إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[4]، فقرينة (**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**)، أي ان نفخ الروح فيه (جعله ذا نفس حية إنسانية وإضافة الروح إليه تعالىٰ تشريفية)[5] وقوله تعالىٰ (**فَقَعُوا**) فهو (أمر من الوقوع وهو متفرع علىٰ التسوية

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢٠، ١٥٢.

(٢) السجدة: ٩.

(٣) ميثم السلمان، صناعة السعادة، ٢٢.

(٤) سورة ص: ٧٢.

(٥) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٤، ٢٢٥.

والنفخ)[1]، فالآية المباركة تدل على أن خلق الإنسان (موجود عجيب لم يسبق له مثيل، وذلك بعد امتزاج روح البارئ عزّ وجل الطاهرة مع التراب [2])[3]، وكأن السجود يُعدّ القرينة لإكبار خلق الله وإجلاله الإنسان المبني على أساس الروح التي هي من روح الله، أما المادة التي أشارت إليها الآية المباركة ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ**﴾[4]، فعلى الرغم من أن الطين أو التراب من خلق الله إلا أن الآية لم تبين إكبار الإنسان على أساسه، بينما اقترن السجود للإنسان بنفخ الروح، وهو الجزء المهم أو العنصر الأهم للإنسان بالمنظور القرآني والإسلامي، (فالبعد الروحي هو الأصيل وهو المحقق لإنسانية الإنسان، وبه ينال الإنسان كماله، وهو الذي يلتذ ويتألم ويصل إلى السعادة أو الشقاوة، أما البعد المادي فهو تابع للبعد الروحي)[5] وعليه يجب ان يكون وسيلة لتكامل البعد الأول.

وإن ما يلفت الانتباه من خلال قراءتنا لآيات القرآن الكريم نجد حقيقة مفادها

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٤، ٢٢٥.

(٢) المراد من سياق الكلام قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرَاً مِنْ طِينٍ﴾ سورة ص: ٧١.

(٣) ظ: ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١١، ٤٣٨.

(٤) سورة ص: ٧١.

(٥) كمال الحيدري، فلسفة الدين، مدخل لدراسة منشأ الحاجة إلى الدين وتكامل الشرائع ١٦، ٨٨.



أن تجرد الروح والمادة عنصران ينفردان احدهما عن الآخر ويمثلان في الوقت نفسه حقيقة الإنسان، وإن هذه الحقيقة لم تنحسر في الحياة الدنيوية فحسب بل كذا هو واقعها في عالم الآخرة، فإن السعادة الأخروية كذا لها لذائذ روحية من قبيل رضوان الله، وهناك سعادة تمثل اللذة الحسية التي يصورها القرآن الكريم بالأكل والشرب والملذات الأخرى، كما حال الشقاء الأخروي كذلك، فهناك عذاب روحي كتأنيب الضمير وعذاب الوجدان زيادةً على العذاب الحسي كاحتراق لحم الإنسان وجلده و تجرعه الشراب من الحميم واكل الزقوم ونظائر ذلك[1].

ولعل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]، تُعدّ إشارة إلى أن حسن صورة الإنسان تكمن في تركيبته المتوازنة والمتكاملة من روح وبدن ومن مجموعة قوى كامنة في النفس الإنسانية، زيادة على بقية الصور الحسنة، فمدلول الآية المباركة تدل على (خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كل الجهات الجسمية والروحية والعقلية)[3] معاً على حد سواء لأن البعض يسعى لتحقيق الآخر الأرقى. ولهذا وصف على أنه صورة متكاملة وجميلة من جميع أبعادها على الرغم من تعدد جوانبه التي (تشتبك بعضها ببعض اشتباكاً كبيراً إلى درجة أنه يصعُب عزل جانب

(١) ظ: ميثم السلمان، صناعة السعادة، ٢٢ – ٢٣.

(٢) التين، الآية ٤.

(٣) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٥، ٤٠٧

عن جانب آخر إلا بصورة نظرية)[1] شكلية.

فالباحث يرىٰ أن من أهم الأخطاء الإستراتيجية التي وقعت بها النظريات الوضعية، هي النظرة الأحادية والذاتية للإنسان ولما يُحيط به من ظروف ونشاطات للمجالات كافة، أي أنها نظرت إليه وللوجود بعين واحدة مبناها الدليل الحسي الذي يُغيب الروح ودورها في عملية البناء والتطوير، مما سبب اختلال المعادلة وإمالة الكفة بالاتجاه المخطوء، حيث يقتضي هنا إعادة فاعلية الإنسان في تنمية الجانب الروحي، بغية العودة به وبمنظومته إلىٰ مرتبة الاتزان والاعتدال، فالتلازم بين المادة والروح مرتبط علىٰ حد بعيد في تحقق الاستزادة والنماء للمجالات المادية والمعنوية.

نستفيد مما تقدم أن المنظور القرآني للإنسان مبنيٌّ علىٰ أساس عنصري المادة والروح، إذ يصورهما القرآن الكريم علىٰ أنهما حقيقته، وأن بنيته التحتية منشأها تلك الحقيقة، وأن كل ما يبنىٰ من عمل أو نشاط يجب أن يكون متوازناً ذا بعدين من المادة والروح كما هي حقيقة الإنسان، وبما أن الإنسان هو موضوع التنمية البشرية ومحورها الرئيس، فبمقتضىٰ ذلك يجب أن تكون جميع النشاطات التنموية وحركة وفعاليات التنمية البشرية مبنية علىٰ أساس حقيقة الإنسان المادية والروحية، مما يحتم أن تكون أهم سمات التنمية البشرية هي التوازن بالمعنىٰ الأشمل الذي يتضمن الاعتدال بين المادة والروح، فالإسلام يرىٰ أن جميع نشاطاته وفعاليته يجب أن تكون علىٰ مستوىٰ من الوسطية بين المادة والروح أيضاً .

(١) جمال محمد أحمد عبده، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ٢٧٥.

إن الغاية من وراء هذا المطلب هو بيان سمات التنمية البشرية في المنظور الإسلامي بصورة عامة والمنظور القرآني بصورة خاصة، ومعرفة حقيقة العملية التنموية وأثرها في الإنسان بوصفه محورها، وما هو مبتغى القرآن الكريم ومقصد الشريعة المقدسة من هذا النشاط.

(٣): خصائص التنمية البشرية في ضوء القرآن الكريم.

ان الغاية من وراء هذا المطلب هو بيان سمات التنمية البشرية في المنظور القرآني ومعرفة حقيقة نظرته للعملية التنموية وأثرها في الانسان، الحياة، الكون.

كل ذلك سنستشفه من خلال استعراضنا لخصائص التنمية البشرية في المنظور القرآني، فضلاً عن ضرورة دراسة ذات النظرية التنموية ومنهجها ومجالاتها وتطبيقاتها وسماتها من جميع زواياها بين دفتي كتاب الله تعالى لمعرفة وظيفة المسلمين في هذا الميدان العملي، ولبيان عمق الرسالة الإسلامية إذا ما قارناها بالنظريات الوضعية، إذ يجب أن لا نقيم مقارناتنا على أساس المعطيات النظرية فحسب، بل لابد من أن يدرس المجال المفروض للتطبيق وخصائصه وشروطه ليلاحظ ما يقدر لكل منهج من فاعلية لدى التطبيق[١].

فتأكيد خصائص التنمية البشرية في القرآن الكريم هو هدف مقصده بيان مزايا العملية التنموية ومواطن قوتها من خلال تسليط الضوء على تلك الخصائص التي نرى تكاملها بتجانس وتداخل بعضها مع بعضها الآخر لتعكس حقيقة الرؤية القرآنية للتنمية المتكاملة.

ومن خلال قراءة الرؤية التنموية تنكشف حقيقة هي (عبارة عن دفع وتحريك للكينونة الفردية والاجتماعية نحو الأفضل، ندرك أن عمليات الدفع ينبغي أن

---

(١) ظ: محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مقدمة الكتاب، هـ - و.

تشمل كل الجوانب الحضارية للأمة)[1]، ولكي تكون التنمية البشرية متكاملة يجب أن تتميز بعدة سمات موزونة كي تهب لها صفة التكامل، وما التنمية البشرية في القرآن الكريم إلا تنميةَ متكاملةً لتميزها بعدة خصائص قادتها إلىٰ جوهر التكامل، وهي ذات الخصائص والسمات التي اتسمت بها الشريعة الإسلامية بجميع أنظمتها بوصفها كلاً لا يتجزأ، لأن تجزؤ هذه المضامين يقود إلىٰ تفكيك عُرىٰ المنظومة الإسلامية، ومن أهم هذه الخصائص هي:

الشمولية:

حاولت أغلب الدراسات التنموية الوضعية بشكل نظري أن تجعل من الشمولية خصيصة مميزة للعملية التنموية، لأن هذه السمة تظهر سعة أفق تلك الدراسة من جهة وتعطيها فسحة واسعة لحلحلة الأزمة النظرية والعملية، إلا أن التنمية البشرية علىٰ وفق الرؤية القرآنية اختلفت تماماً عن أي نظرية، فالتنمية فيها (لا تقف عند التطور والتغيير المستمر نحو الأحسن فالأحسن، بل لا بد أن يضاف إلىٰ ذلك كله ميزة أخرىٰ وهي الشمولية)[2]، حيث شملت الرؤية القرآنية التزاوج بين المادة والروح، (فالقرآن لا يعرف الفصل بينما هو مادي وما هو روحي، ولا يفرق بين ما هو دنيوي وما هو أخروي)[3]، بل نظر إلىٰ الإنسان بوصفه كياناً واحداً

---

(١) عبد الكريم بكار، مدخل للتنمية المتكاملة، ٢٢.

(٢) (بحث) المصباح، التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع، العدد التاسع، ١٧٦.

(٣) إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ١٠١.

يشمل واقعه بما تضمن من عنصريه[1]، وكذا نظر إليه ولفلسفة الدنيا والآخرة.

إن التنمية البشرية القرآنية متكاملة لأنها مبنية على (الوحدة الشاملة، وحدة الخالق، ووحدة حقيقة الكون ووحدة الكائنات ووحدة النوع الإنساني ووحدة توجهه في العبادة ووحدة مصدر التلقي عن الإله الواحد)[2]،ومنها سيتوجه الإنسان فطرياً ليتعامل مع (الحياة وحركتها على أنها سلسلة من العبادة المتلاحقة لله الخالق رب العالمين)[3]، فشمولية التنمية القرآنية وتكاملها مبنية على أساس استيعابها لمنظومة الحياة ومجالاتها كافة وتداخلها مع كل مفردة منها ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**﴾[4]، كما نجدها كذلك لاستيعابها حركة الإنسان التنموية مراعية قدراته وإمكانياته وظروفه والمؤثرات المختلفة التي تحيط به.

إن مبدأ الشمول في التنمية القرآنية (تقتضي تحقيق الاحتياجات البشرية كافة)[5]، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً**

---

(١) إشارة لعنصري الروح والبدن، وإن عد البعض أن شمولية الإنسان بمجموعة عناصره، (فالشمولية هي أن تصل بالإنسان إلى كمال نموه الجسمي والعقلي والنفسي والانفعالي والخلقي والاجتماعي. ظ: مدخل إلى التربية، ٢٠.

(٢) ظ: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، ١٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ١٠٧.

(٤) الإسراء: ٨٩.

(٥) إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ١٠١.

﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، ولهذا تُعدّ أحدى مصاديق التبيان الكلي للأشياء النظرة إلى الإنسان بشمولية من حيث بيان السُبل التي يسلكها ليصل إلى مرحلة استيفاء حاجاته تلبيةً بلا استثناء فهو يبين له كل المسالك والطرق ليبلغ به الوفاء بمتطلباته وحاجاته كافة وعلى وجه الشمولية، فتبيان كل شيء يعني فتح جميع المنافذ امام الإنسان عموماً ساعياً لتلبية حاجاته الأساسية في مجالات الحياة كافة.

فمبادئ المذهبية القرآنية الإسلامية (إنها تنظر إلى الكون نظرة شمولية من غير فصل بين أجزائه، وهذا يتحقق بتوظيف العلوم الطبيعية في إيمان الإنسان لأن تلك العلوم تكشف له حقيقة آيات الله في الكون)[2].

لقد أحاطت المنهجية القرآنية بشمولية ضمت (جميع الأمور فأقرت الخلافة وأمرت بالعمارة، وفرضت الولاية وحاربت الفساد، فخلقت ترابطاً شاملاً بين الفرد والمجتمع، لم يغفل به أي جانب من جوانبه، ونظمت العلاقة بين الاثنين)[3]، لذا فالشمولية تشمل (الإنسان والكون والحياة، على أن ينظر إلى الإنسان باعتباره روحاً وعقلاً وجسداً وعاطفة، وكذا تشمل علاقة حياته العامة والخاصة، وكجزء من المجتمع، وتشمل ما بين المتكاملات بين الدنيا والآخرة)[4].

---

(١) النحل: ٨٩،

(٢) محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ١٣٢.

(٣) مجموعة من الباحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، الإسلام والتنمية البشرية المستدامة، مقارنة في الأهداف والموارد، ١٤٨.

(٤) ظ: طارق محمد السويدان وفيصل عمر باشراحيل، صناعة الثقافة، ٥٣.

فالشمول في العملية التنموية على وفق الرؤية القرآنية هو استيعاب لجوانب الإنسان كافة [1] والحياة والكون وصولاً إلى التكامل الحقيقي، بينما نجد أن السبب الرئيس في أخفاق أغلب العمليات التنموية الوضعية هو لأنها لم تكن شاملة لحقيقة الإنسان وقدراته ولعلاقاته مع الحياة والكون.

التوازن:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدا**﴾[2]، إن مبدأ التوازن من المبادئ القرآنية التي اعتمدت عليها الفلسفة الإسلامية، وأمتازت بها من سائر الأيديولوجيات كافة، لذا نجد التنمية البشرية في القرآن الكريم على ذات المنحى، فهي ترفض (أن تنفرد التنمية بالنواحي الاقتصادية دون القضايا الصحية أو الثقافية أو الاجتماعية، وأن تستأثر الصناعة بالتنمية دون الزراعة)[3]، وغير ذلك من الأمثلة التي تفرض

---

(١) إن العملية التنموية كحال الشريعة الإسلامية المقدسة قد اهتمت بالإنسان عموماً على أنه كيان واحد من روح وجسد ومن ظاهر وباطن، فهي أوسع نطاقاً من بقية الرؤى التنموية، كونها تتحكم وتهتم (بالمظهر ينفذ إلى السرائر ويقيس تصرفات الفرد بمعيار مزدوح، أولاهما معيار ظاهري يتناول التصرف في مظهره وأثره، وثانيهما معيار باطني يتغلغل في خفايا النفس ليكشف دوافع السلوك) مصطفى الزلمي وعبد الباقي البكري، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ٤٢.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ١٠٢.

حد التوازن في حركة الإنسان كما فرضته في حركة الوجود والكون وفي أسس وكليات النظام الإسلامي ليعم التوازن في كل جزء أو مفصل على مستوى النظرية والتطبيق، مستوعبة مصاديقاً كثيرة كالتوازن بين الحقوق والواجبات، وبين مصالح الفرد والجماعة، بين العبادة والعمل ﴿**فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهَّ**﴾[1] ففي هذه الآية يلحظ للتوازن بين الجانب الروحي (العبادة) والجانب المادي (الكسب) لديمومة حياة الإنسان وتلبية مطلبه الاقتصادي، بل عند التأمل في الآية نقف على حقيقة أن التوازن ليس دعوى في القرآن؛ بل هي أمر واجب التحقيق في الحياة بدليل استعماله سبحانه لفعل الدعوة لكسب العيش بعد الصلاة بقوله ﴿ **فَانتَشِرُوا** ﴾.

إذن التوازن أمر إلهي لتحقيق كل سمات التنمية البشرية في حياة الإنسان لتلبية كل مطلب لا على أساس حساب القصور في المطلب الثاني، وبهذا يتحقق التوازن الذي يُعدّ أحد خصائص إنجاح التنمية البشرية وتحقيقها وتحققها في الحياة، فالجانب الروحي مأمور في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهَّ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[2] فقوله ﴿**فَاسْعَوْا**﴾ أمر بالعبادة لأداء الجانب الروحي وقوله ﴿**وَذَرُوا الْبَيْعَ**﴾ تعني التوقف عن الجانب الاقتصادي ثم قال ﴿**فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ فوقع التوازن لأنه امر بأداء الجانب الاقتصادي الذي توقف ، لذا

---

(١) الجمعة: ١٠.

(٢) الجمعة:٩.

أحتيج إلىٰ التوازن بين المطلبين فوقع، فقد ورد أن الانتشار وابتغاء فضل الله تعالىٰ يشمل طلب الرزق والكسب والتجارة وأداء الواجبات وطلب العلم والمعرفة بل ليصل المعنىٰ إلىٰ عدم الانحراف عن جادة الحق والعدالة، فهو مفهوم واسع يشمل جميع تلك المعاني وغيرها[(١)]، ومن النظر في الآية المباركة نجد أن القرآن الكريم أوْجَدَ حالةً من الانسجام والتوافق الحقيقي بين العبادة وتأمين متطلبات الحياة، فلا استغراق في الروحانيات مما ينسي الواجبات الحضارية، ولا انغماساً في الماديات[(٢)]، حيث تأتي التنمية البشرية علىٰ وفق المنظور القرآني لتحقق التوازن بين النزعات والرغبات من غير إفراط ولا تفريط، لأن القرآن الكريم جاء (منهجاً كاملاً وشاملاً لأبعاد الحياة الإنسانية جعله الله متوازناً في أصوله وأحكامه بحيث لا يتضخم بسببه جانب في حياة الإنسان علىٰ حساب جانب آخر، فهو منهج الدين والآخرة، والدين والسياسة، والروح والجسد، وحيث تتكامل شخصية الإنسان بالوصول إلىٰ المصالح المشروعة من جانب وبالتزام الواجبات المفروضة من جانب آخر)[(٣)].

والتوازن هو التوسط بين طرفين، وهذا يعني عدم الميل وعدم المغالاة لأي طرف من الأطراف، ولهذا وُصفت الوسطية بالفضيلة، لأنها تعني المحافظة علىٰ

---

(١) ظ: ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤، ١٩٤.

(٢) ظ: طارق محمد السويدان وفيصل عمر باشراحيل، صناعة الثقافة، ٦٠.

(٣) محمد تقي المدرسي، من هدىٰ القرآن، ١٠، ٤٧٢.

حد الوسط، واجتناب طرفي الإفراط والتفريط اللذين هما الرذائل، لتصدر منه أفعال يصل بها إلى السعادة المرجوة[1]، فالتوازن يعني الاعتدال، حيث عُدت سمت الاعتدال من أشرف الخصائص وأفضلها لما تنفرد به من مزية عن غيرها، فهي (أقرب إلى الوحدة وشأنها الخروج من الاكتراث، والتأليف بين المتباينات، والتسوية بين المختلفات)[2]، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[3].

تجلت صورة التوازن في النظرية القرآنية ليصل تجليها إلى درجة أن أحاطت بين إرادة الله المطلقة وبين إرادة الإنسان كمختار، وبين عبودية الإنسان المطلقة لله ومقام الإنسان الكريم، فيتحقق وجود الإنسان من دون أن يتحول إلى إله[4].

فالرؤية القرآنية تدعو التنمية البشرية بكل مفرداتها إلى موازنة دقيقة على مستوى الإنسان وما يحيط به لتدخل في أدق التفاصيل لتصل إلى كينونته مستوعبة قواه النفسية والعقلية والروحية والبدنية بغية الموازنة دون أن يحصل أي طغيان

---

(١) ظ: حسين نجيب محمد، جمال السالكين، العالم الرباني السيد عبد الأعلى السبزواري، ١٠٦.

(٢) النراقي، جامع السعادات، ١١٣.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) ظ: محمد قطب، مناهج التنمية الإسلامية، ٤١.

لجانب على جانب آخر، وكذا هي حاله بعلاقاته المتعددة[1]، وفهمه إلى الحياة والكون، وكذا نشاطاته في ميادين الحياة المختلفة.

الثبات[2]:

مما لا شك فيه أن ثبات الرسالة الإسلامية وسماويتها تُعدّ خصيصة مهمة لأنها مبنية على أساس تشريع الحاكم المطلق، وأن قيمة وأهمية "الثبات"غايتها (ضبط الحركة البشرية حتى لا تصل في مشاعرها وأفكارها وتصوراتها ونظمها

---

(١) للإنسان علاقات ثلاث وهي: (١- العلاقة مع الله تعالى. ٢- العلاقة بالناس. ٣- العلاقة بالنفس.) ظ: محمد مهدي الآصفي، في رحاب القرآن، ٢٠٧.

(٢) هناك من عدّ السماوية كإحدى خصائص التنمية البشرية في الإسلام استناداً إلى استلهامها من الله تعالى، فعلى الرغم من سلامة هذه الخاصية التي لا أشكال فيها فأننا نستطيع أن ندرجها من ضمن سمة الثبات، لأن سمة الثبات لم تعد مائزاً إلا من خلال سماوية الكتاب والسنة المطهرة، وأن مسألة الثبات أو السماوية تعني إن الشريعة الإسلامية بما فيها التنمية البشرية كإحدى نشاطاتها أو اهتماماتها هي جاءت تنزيلاً من الله (فهو مصدرها، فقد تنزلت عن طريق الوحي معنى ولفظ على صورة آيات بينات، أو جاءت وحياً بالمعنى دون اللفظ على سورة السنة المطهرة، وما جاء من قواعدها عن طريق الاجتهاد) وهذا يعطي خاصية للرسالة الإسلامية ومنها التنمية البشرية، إذ تعد هذه الخاصية مائزاً من غيرها من القواعد الاجتماعية بأمرين، هما: (الأول: عصمتها من الخطأ والنقص والجور والهوى، الثاني: قوة سلطانها على النفوس فيطاع لا خشية جبروته فحسب، وإنما شغفاً بطاعته وإجلالا لحكمته). ظ: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مصطفى الزلمي وعبد الباقي البكري، ٤٠ – ٤١.



الحيوية فتستسلم إلى الهوى والمجون والخرافة والأسطورة المادية الآلية)[1].

وبما أن القيم والمفاهيم الإسلامية والقرآنية ثابتة لسماويتها[2]، فمضامين التنمية البشرية ستكون ثابتة بفعل ثبات الموازين والمعايير القرآنية، وكذا فالقيم والكليات التي تُعدّ أسساً للمنظومة الفكرية الإسلامية تُعدّ ذاتها لمنظومة التنمية البشرية أيضاً لارتكازها عليها، ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [3] فإحكام آيات الله كان وراء حفاظ الرسالة الإسلامية على هويتها ووجودها، فلا تذوب وسط الثقافات والحضارات الأُخر، وأن هذا الثبات لا يعني الجمود أو التخلف أو محاربة كل جديد، بل حركة منضبطة[4]، فكليات المذهبية القرآنية عميقة متجددة ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾[5]، فهي تعني كليات الإسلام في الخالق والكون والعالم والإنسان واليوم الآخر، ثابتة قطعاً في

---

(١) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مصطفى الزلمي وعبد الباقي البكري، ٤٠ – ٤١.

(٢) يعلق السيد الحيدري بخصوص مطلب الثابت والمتغير بإثارة قائلا:(إن الدين الواقعي لدى المعصوم وما هو متداول بأيدينا هو فهم من هذا الدين المتشكل من القرآن ورواية المعصوم، فما نمتلكه هو معرفة دينية، فإن الدين ما هو عليه في الواقع) كمال الحيدري، الثابت والمتغير في المعرفة الدينية، ٤٣، ٣٥.

(٣) هود: ١.

(٤) ظ: طارق محمد السويدان وفيصل عمر باشراحيل، صناعة الثقافة، ٥٩.

(٥) إبراهيم: ٢٤.

كتاب الله والسنة الشريفة[1].

ولأن التنمية البشرية تستقي من جملة روافد أهمها وأوسعها وأعمقها كتاب الله تعالى، وأن القرآن الكريم غالب على نصه، متجرد عن خصوصية الزمان والمكان، وآياته تمثل ثوابت الدين الإلهي فهو حبل الله المتين[2]، فالتنمية القرآنية لها خصيصة القرآن من الثبات والعمق، علماً أن الثابت لم يكن ثابتاً لولا أنه (منصوص عليه بدليل قطعي، بما يجعله أساساً غير خاضع للتغير)[3]، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهَّ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهَّ تَحْوِيلاً**﴾[4]، أي أن (سنة الله لا تقبل تبديلاً ولا تحويلاً؛ لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضاً ولا استثناءً)[5]، وقال الله جلّ وعلا: ﴿**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهَّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[6]، و(أن جملة "لا تبديل لخلق الله" وبعدها جملة "ذلك الدين القيم" تأكيد أن مسألة كون

---

(١) ظ: محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ١٢١.

(٢) ظ: نجف علي ميرزائي، فلسفة مرجعية القرآن المعرفية – في إنتاج المعرفة الدينية، ١٥٤.

(٣) جواد أحمد البهادلي، الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية، ١١٣.

(٤) فاطر: ٤٣.

(٥) الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن، ، ١٧، ٥٨.

(٦) الروم: ٣٠.

الدين فطرياً وعدم أمكان تغير هذه الفطرة)[1] مطلقاً.

التطور[2] والتغيير[3]:

قبال سمة الثبات التي ذكرناها هناك خصيصة تميزت بها التنمية البشرية في القرآن الكريم من بقية الرؤى في هذا الميدان، ألا هي سمة التطور والتغيير، كون التنمية أساساً تهدف إلى التغيير الإيجابي الذي عُد العنصر الأساس في العملية التنموية

---

(١) مكارم الشيرازي الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر ، ١٠، ١٥٨.

(٢) لقد عد بعض من الباحثين أن «الاستمرارية» من خصائص التنمية البشرية في القرآن الكريم، في حين إن إقرارنا بتسمية التطور يعني إقرارنا بالاستمرارية، لأن من خصائص التطور الاستدامة واستمرار العملية التنموية، كون التنمية (لا تتوقف عند تحقيقها، بل تقتضي تأمين الكثير من احتياجات الإنسان المتجددة بفعل انعطافه نحو الأفضل بشكل دائم.

(٣) إنّ عملية التغيير تكون في التنمية دائمًا نحو الأحسن فالأحسن، وذلك لوجود فرق مهم بين كلمتي التغيير والتنمية؛ فالتنمية دائماً تعني التحسين والرقي والزيادة في الشيء، بينما التغيير قد يكون لما هو حسن كما يكون لما هو سيئ. وقد ورد لفظ التغيير في موضعين من القرآن الكريم، أولهما في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال:٥٣)، وثانيهما في سورة الرعد وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١). فالتغيير الوارد في الآية الأولى إنما هو تغيير نحو السيئ، بحيث إنّ الله لا يُغيّر نعمته إلى نقمة إلا إذا حصل ما يقتضي ذلك، وهو التغيير السيئ لأنفس قوم ما. فنظراً لهذا الفرق المهم بين التنمية والتغيير قيّدت التغيير بكونه «نحو الأحسن فالأحسن.» ظ: (بحث) المصباح،التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع، العدد ٩، ١٧٤.



لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، فالتنمية البشرية (دائمة التطور والتغير وتختلف باختلاف الزمان والمكان، ومن مجتمع لآخر، بل إنها تختلف في داخل المجتمع الواحد)[2]، وما الانفتاح على أنماط التنمية الأخرى أو على الثقافات والنشاطات التنموية إلا من قبيل التكافؤ الحضاري والثقافي، فإن مسايرة الحضارة والمدنية لا ضير فيها إن كان هناك صمام أمان ومرجعية ثابتة وأسس وكليات خالدة لا تقبل التحريف والتأويل، فعلى الرغم من عدم السماح لحركة الجزئيات والفروع إلا داخل حدودها، فإنها خضعت لضابطة أخرى هي أن تكون تحت حاكمية الثوابت والكليات والأصول وداخل حيزها العام، وعلى أساس ذلك فإن من لوازم التغيير والتطور تغيير ما تسوده من قوانين وتشريعات، وعليه فلابد من وجود جنبة تشريعية ثابتة للثوابت، وللجانب المتغير تشريع متغير[3].

ولقد أُستدل على جواز محاكاة التغيير وتطور التنمية البشرية لذاتها وما يحيط بها هو سياق فلسفة الإسلام وما تحمل من سعة في الحركة على وفق مجالات ومضامين الأدلة الشرعية الذي يُعدّ القرآن الكريم أحدها والذي يُجيز للإنسان اكتشاف قوانين الحياة وتسخيرها لسعادته ، ومن أجل مراعاة التغيير في الحياة، فُسح المجال الكبير أمام العقل الإنساني أن يتحرك ويجتهد في داخل الضوابط

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) عمر أحمد هموش، مدخل إلى التربية، ٢٠.

(٣) ظ: جعفر السبحاني، أضواء على عقائد الشيعة الأمامية، ٥٦٥.

العامة التي تشكل المحور الثابت[1]، فضلاً عن ما ذكره بعض المعاصرين من أن العلاقات والثقافات البشرية كلها متغيرة وتستبطن عنصر الصيرورة والتحول في حركة التكامل البشري، وذلك يستدعي نظاماً منسجماً مع هذه التغيرات، مع ان التشريعات الإسلامية في مجال "المعاملات، والحدود، والقضاء، والحكومة" والغالب فيها أنها أحكام أمضائية تنسجم مع ذلك المجتمع[2].

وعلى ما تقدم فالتنمية البشرية تُعدّ أحدى السبل لتحقيق الشريعة المقدسة وبكلا المنهجين الثابت والمتغير، ولعل مرجعية ذلك عائد إلى أساس الفلسفة الإسلامية التي تُجيز الحركة كما أشرنا سلفاً ولسببين هما أولاً: صلاح أحكامها لكل زمان ومكان، وقد بنيت على أساس جلب المصالح للعباد ضرورية أو حاجية أو تحسينية ودرء المفاسد عنهم، وهي تعليل دائماً بالمصالح، ثانيا: مرونة قواعدها مرونة تسمح بتطور كثير من أحكامها استجابة لتغيير الحاجات والظروف، حيث تبدو أن أدلة الأحكام الشرعية على قدر كبير من المرونة بحيث تُسمح بتطور الأحكام بتغاير الأزمان وفي مقدمته هذه الأدلة، القياس، والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف[3]، فبالرغم من إقرارنا إلى سمة التطور والتغير فإن هناك من أدعى عدم

---

(١) ظ: محسن عبد الحميد، منهج التغيير في الإسلام، ٥١ – ٥٥.

(٢) ظ: منطقة الفراغ مساحة لتشريعات الحداثة والمعاصرة، الشيخ محمد إسحاق الفياض، مجلة النور، العدد ١٧١، ٥٤.

(٣) ظ: مصطفى الزلمي وعبد الباقي البكري، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ٤٦.

جواز ذلك[١].

الاستقلالية:

لقد عرف الباحث التنمية البشرية إنها: (عبارة عن عمليات إجرائية منظمة على وفق رؤية فكرية منتخبة تهدف لتطوير القوى الكامنة في الإنسان بصقلها وتوجيهها نحو تحقيق طموحاته بغية إشباع حاجاته المشروعة في شتى مجالات الحياة.)، ومن خلال تسليط الضوء على التعريف أعلاه نجد تأكيد ضابطة "المنظومة الفكرية" حيث كشف أن التنمية البشرية لها خصوصية مُستمدة من المنظومة الفكرية، وكذا

---

(١) إن موضوع الثابت والمتغير من المواضيع المهمة التي أخذت حيزها الواسع من النقاش، إلا إن المعيار الذي بقي كقاسم مشترك بين فريقي مدعي الثبات ومدعي التغيير هو أن التغيير لا يصح إلا في الجزئيات والفروع، أما الكليات والأسس فهذا أمر غير قابل للنظر فيه لتسليم الطرفين بهما، فبالرغم من قناعة الباحث جواد أحمد البهادلي بمدرسة الثبات وضرورة عدم السماح بحركة التغيير فإنه أورد جملة من الضوابط التي يصح فيها التغيير وهي ذاتها تُعد من المسلمات لمذهب ومدرسة التغيير ومنها: أولاً: ما ذكره الشيخ النائيني إن القابل للتغير هو الأحكام السياسية... ثانياً: تغير وتبدل الموضوع الجزئي يؤدي إلى تغيير الأحكام.... ثالثاً: وجود التزاحم والورود بالعناوين الثانوية....رابعاً فهم الضوابط التي تمنع الإنسان من الوقوع في الاشتباه عن تميز الجزئيات....خامساً: الموضوعات ذات العلاقة بالأمور العرفية....سادساً: مساحة الإباحة التي ترك المشرع للإنسان فيها الاختيار بما يناسب مصالحه ورغباته، بما يلائم كل عصر والذي ابتنت فكرة منطقة الفراغ التشريعي...سابعاً: العناوين ذات الطبيعة الاستثنائية، فالواجبات الشرعية مشروطة بعدم العسر والحرج والاضطرار والإكراه... ثامناً: القضايا ذات العلاقة بالشؤون الخاصة بالناس والأمة....تاسعاً: تنظيم وتطبيق الواجبات الكفائية والعينية بما يحقق أهدافها المطلوبة.

ظ: جواد الشيخ احمد البهادلي، الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية، ١٣١ – ١٣٣.

هي مزية التنمية البشرية في القرآن الكريم، إذ هي تنفرد بهذا المائز من بقية المناهج التنموية الأخرىٰ المرتكزة بمساراتها علىٰ أيديولوجيات وضعية قلقة، في الوقت الذي نجد أن التنمية البشرية في القرآن الكريم تستمد وجودها من المد الغيبي لكتاب الله تعالىٰ الذي أصبغ الأمة ذوقاً وطباعاً وثقافةً انفردت بها عن باقي الأمم، (وبناء علىٰ ذلك، فإن العملية التنموية لابد أن تكون نابعة من خصائص ومميزات تلك الأمة، كما لابد أن تتم بعيداً عن أي نوع من أنواع التبعية، بحيث يصح أن نطلق عليها تنمية مستقلة)[1].

من هنا يقتضي أن تكون التنمية البشرية في المنظور القرآني بمقتضىٰ حاكمية ذات القرآن الكريم، وما يحمل من رؤية فلسفية للإنسان والكون والحياة، بل ما يحمله من رؤية كونية للوجود ولعلة الوجود، لذا وجب أن يكون للمنهج الإسلامي القرآني استقلالية لأنه (إلهي المنشأ سوي البنية، راسخ الأركان، لاستناده إلىٰ الدين الكامل وتولده في النعمة التامة)[2] قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[3].

وبمقتضىٰ ذلك فان من أهم خصائص التنمية البشرية في القرآن الكريم هي الاستقلالية، ونعني عموم الاستقلالية لمرجعيتها له سبحانه تعالىٰ، فهي تشمل

---

(١) (بحث) المصباح، التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع، العدد ٩، ١٧٨.

(٢) علي الشربجي، المدخل إلىٰ دراسة الفقه الإسلامي، ٥٧.

(٣) المائدة: ٣.

الرؤية الثقافية والخطاب والتبليغ والاستيعاب والمنهج والأحكام والتطبيق، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1] فالآية المباركة تؤكد جملة مطالب منها إثبات صحة أن الله تعالى هو الباعث والمُرسِل للرسول والرسالة (أي هو لا غيره أرسل رسوله)[2] الخاتم محمد ﷺ حيث وصُف بالرسول، كما (وعبر عن الإسلام بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ)[3]، كون دين الإسلام مشتملاً (بالصواب والصلاح ومطابقة الحكمة وموافقة المنفعة في الدنيا والآخرة)[4]، وإن إظهار الدين الإسلامي بإعلائه على جميع الأديان لاستقلاليته ومرجعيته إلى السماء، غالباً على بقية المذاهب (بالحجة والغلبة والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلا مغلوباً)[5] وهذا يعني أن الإسلام هو الدين التام والمستقل بذاته عن أي زيادة أو تعديل أو تبديل.

وعلى الرغم من خصيصة استقلال التشريع واستقلال أحد فعالياته وهو التنمية البشرية لتبعيتها لله الواحد الأحد فإن التنمية البشرية يجب أن تكون ذات طابع استقلالي من زاوية أخرى بانطباق رؤاها تمشياً مع ذوق كل أمة وذلك بالعمل

---

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) محمد أبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج ٥، ١٠، ١٧٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الرازي، التفسير الكبير، مج٨، ١٦، ٣٥.

(٥) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ،مج٣، ١٠، ٥٠.

بطول المعطيات النظرية والظروف الموضوعية للأمة وتركيبها النفسي والتأريخي، لأن الأمة هي مجال التطبيق لتلك المناهج، فمن الخطأ تفعيل نشاط تنموي من دون أن يؤخذ بعين الاعتبار درجة أمكان تفاعل تلك الأمة مع هذا المنهج ومدى قدرته على الالتحام بالأمة[1].

الإنسانية [2]:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً**﴾[3].

لم يكن دين الإسلام حكراً على أمة دون أخرى وأن مدلول ظاهر الآية يدل (على أن محمداً ﷺ مبعوث إلى جميع الخلق)[4]، لمخاطبة الآية عموم الناس دون تخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً**﴾[5]، وقد شاع هذا السياق في الخطاب القرآني، مما جعله متميزاً من بقية الخطابات الوضعية، فكانت لغته لغة إنسانية دائماً، بل خطابه مبنيٌّ على

---

(١) ظ: محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مقدمة الكتاب، و – ز.

(٢) لقد أفرد بعض الباحثين سمة العالمية بوصفها تنفرد بها التنمية البشرية في القرآن الكريم، في حين أن ما أوردناه عن خصيصة الإنسانية في النشاط التنموي الإسلامي يعني عالمية الفكر بقبول الإنسان أينما كان وفي أي زمان.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج٨، ١٥، ٢٢.

(٥) النساء: ١٧٤.

أساس العلة من إرسال الرسالة والرسول، بغية هداية الإنسان وإصلاح وضعه وشأنه.

إن مطلب عالمية القرآن والرسالة السماوية الإسلامية مطلب مسلّم به لكثرة ما وردت من آيات بينات بهذا الخصوص، وإن عالمية القرآن الكريم وإنسانيته ستكون دافعاً لترجمة فعاليات التنمية البشرية التي تُعدّ عالميةً أيضاً، فضلاً عن أن ذات التنمية البشرية القرآنية لها الكثير من المشتركات مع فنون ومهارات بقية الفلسفات التنموية الأخرىٰ خاصة في العقود الأخيرة بعد فترة نضوج العقل البشري من جهة واكتساب تلك الفلسفات للخبرات التجريبية من جهة أخرىٰ.

فعلىٰ الرغم من خصوصية أفكار المنظومة الإسلامية والتنمية البشرية المرتبطة بها، إنها كانت إنسانية بخطابها علىٰ أساس أن الإنسان موضوع لها، فهي (تنظر إلىٰ الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض فتهدف إلىٰ الوصول بالإنسان إلىٰ مرتبة الكمال)[1]، لذا كان التكريم في القرآن الكريم مبنيّاً علىٰ أساس الآدمية فحسب ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[2] من دون النظر إلىٰ مكانه وزمانه ، ومما يُنقل عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن أنه قال: (الناس صنفان: إما أخٍ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)[3]، فالإنسان هو جوهر خواص التنمية البشرية في القرآن الكريم

---

(١) محمد الطيطي ومجموعة باحثين، مدخل إلىٰ التربية، ٢١.

(٢) الإسراء، الآية ٧٠.

(٣) العاملي: وسائل الشيعة، ٢٩، ١٢.

كون غايته هو أحياء الإنسان وبناؤه، لـ(يكون حراً، كريماً، يعمر الأرض، ويُحي حياته بالعمل الصالح فيحقق رسالة الاستخلاف)[1]، ولم تكن التنمية البشرية إنسانية إن لم يكن موضوعها ذات الإنسان.

الإلزام:

لم يجد الباحث أن إحدى الفلسفات قد عدت التنمية البشرية أمراً ملزماً أي أن ترتقي بالتنمية البشرية وعمليتها إلى درجة الوجوب والإلزام، بينما وجد الباحث عدم اللزوم في مناهج أغلب الرؤى والأيديولوجيات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب بل تعدت هذه الرؤية لتعم رواد ومؤسسي التنمية البشرية، فقد عرفوا التنمية البشرية على أنها (عملية تهدف إلى زيادة القدرات المتاحة أمام الناس)[2]، إذ هي محاولة ومسعى لتحقيق مسارات التنمية البشرية ليس إلا، في الوقت الذي يرى القرآن الكريم أن التنمية البشرية ليس حقاً للإنسان فحسب بل ضرورة ملزمة إتيانها، (فالأكل واللبس والسكن والأمن ... والحرية في الفكر... والعلم والتعلم... والمشاركة في صناعة النظام العام للمجتمع... والثورة لتغيير نظم الضعف أو الجور والفسق والفساد، كل هذه حقوقاً للإنسان من حقه أن

---

(١) هشام إخزام، عبد الفتاح حلوة، دور المجتمع المدني في التنمية البشرية، الجمعيات أنموذجا.
موقع ألكتروني لجامعة الرسالة
(http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267).

(٢) أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية، ١٣.



يطلبها ويسعى في سبيلها ويتمسك بالحصول عليها، ويحرم صده عن طلبها... وإنما هي ضرورات واجبة لهذا الإنسان بل أنها واجبات عليه أيضاً)[1].

إن عرض ما تقدم من معان تُعدّ مفردات تبنتها التنمية البشرية، وهذا ما أدركناه سلفاً في المباحث السابقة، حيث تعامل القرآن الكريم مع هذه المفردات التنموية وغيرها على أساس اللزوم، وعد تركها أو مخالفتها على وفق مقتضى المفهوم أمراً مذموماً يصل درجة الحرمة، وعلى هذا الأساس كانت الشريعة السماوية تُفعّل مبدأ الثواب والعقاب، أو مبدأ الترغيب والترهيب الذي يُعدّ حافزاً حقيقياً ودافعاً فعالاً لتحقيق التنمية البشرية، ويُعدّ الحكم الشرعي بجزاء أبداً، ويبدو في صورتين: ثواباً يغري الناس بطاعتها، وعقاباً يزجر الناس عن مخالفتها... وقد يكون الجزاء دنيوياً أو أخروياً، فالأحكام الشرعية تقترن بجزأين أحدهما دنيوي قضائي والثاني أخروي إلهي[2].

قال الله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾[3]، فإن مدلول الآية المباركة أن (وجوب الإتباع فيما أنزل الله تعالى يدخل فيه الواجب والندب المباح، لأنه يجب أن يعتقد في كل منها ما أمر

(١) محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، ١٥.

(٢) ظ: مصطفى الزلمي وعبد الباقي البكري، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، ٤٩.

(٣) الأعراف: ٣.

الله سبحانه به كما يجب أن يعتقد في الحرام وجوب اجتنابه)[1]، حيث يتضح مما تقدم أن منظومة التشريع الإسلامي قد استوعبت جميع أقسام الحكم[2]، وبذلك ندرك حقيقة وأهمية التنمية البشرية في المنظور الإسلامي والقرآني التي تدخل بكل فعالياتها داخل منظومة الأحكام الخمسة، بحيث ترتقي بعض النشاطات لتصل إلى درجة الوجوب أو الندب، وقد تُعدّ مصدات ونواهي التنمية البشرية من الحرمة أو الكراهية خصوصاً حينما تكون عائقاً لبناء الإنسان والمجتمع، وأن ثقل هذه الأحكام مبنية على أساس أنها (خطابات إلهية موجهة إلى المكلفين تتضمن الأوامر والنواهي وترسم الحدود والمعالم لأفعال المكلفين)[3] وبهذا نضيف للتنمية البشرية خصيصة أخرى تكون بضميمة الخواص الأخرى أنفة الذكر ألا وهي لزوم الانضباط والامتثال، ونعني بها أن التنمية البشرية في القرآن الكريم لها ضوابط ومقاييس لا تتعدى الأدلة الشرعية، والذي يُعدّ القرآن الكريم أحدها، على عكس

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٣، ٨، ٩.

(٢) بما أن الحكم ينقسم بحسب تقسيمات الأصوليين إلى حكم تكليفي وحكم وضعي، فحبذا لو نقف عند أقسام الحكم التكليفي الذي قسموه إلى خمسة أقسام: الوجوب: وهو الإلزام بالفعل، والندب: وهو دعوة الشارع إلى فعل شيء دون ألزام، والتحريم: وهو الإلزام بترك فعل، الكراهية: وهو ردع الشارع للكف عن الإتيان بفعل مع ترخيصه بالإتيان به، والإباحة: وهي تخيير الشارع المكلفين بين إتيان فعل وتركه دون ترجيح من قبله لأحدهما على الأخر. ظ: أحمد كاظم البهادلي، مفتاح الوصول إلى علم الأصول، ١، ٣٧ – ٥٤.

(٣) علي الشربجي، المدخل إلى دراسة الفقه الإسلامي، ٦٤.

النظريات الوضعية التي نرى فيها التخبط واضحاً بين مجتمع وآخر وبين فترة زمنية وأخرى، حيث نلمس التباين واضحاً في المفهوم والمنهج والأهداف والوظائف والأدوات.

التواصل والتتابع:

قد يتبادر لذهن القارئ الكريم أن المراد من هذه الخصيصة ما أشرنا إليه في خصيصة التطور والتغيير، فعلى الرغم من أمكانية اعتبار ذلك من قبيل الترادف، فإن الباحث رام غير ذلك، حيث وجد هناك خصيصة أخرى انفردت بها التنمية البشرية في القرآن الكريم، ولم يجد من يذكرها من الباحثين إلا ما ندر، مما حدا أن يفردها في هذا المطلب تحت العنوان أعلاه.

فالتواصل والتتابع في التنمية البشرية القرآنية مقصده وعي الإنسان إلى عدم محدودية عالم الدنيا وحتمية تواصله بعالم الآخرة، على أساس التلازم بين الدارين فالتنمية البشرية في الرؤية القرآنية يجب أن تكون(موصلة بالآخرة وبالأهداف الكريمة للحياة التي تجد ثوابها في الآخرة)[1]، قال الله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا**﴾[2]، قال رسول الله ﷺ: (الدنيا مزرعة الآخرة)[3]، فتتابع التنمية البشرية للدارين الدنيوي والأخروي يُعطي حافزاً

---

(١) (بحث) المصباح،التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع، العدد ٩، ١٨٣.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) المجلسي ، بحار الأنوار: ٦٧، ٢٥٥ .

إضافياً للإنسان بديمومة واستمرارية التنمية، فهي لا تتوقف عند حد عالم الدنيا، والإنسان فيها لا يتقاعس في عمله لقرب أجله أو لعارض ما، لإيمانه بأن الدنيا حقاً مزرعة الآخرة، على عكس الدراسات الوضعية والمادية التي قيدت تنميتها وحددتها بعالم محدود ضيق.

فعلى الرغم من تعرضنا إلى شمولية التنمية البشرية في القرآن الكريم، بل إلى ذات الرسالة الإسلامية حين استشهدنا بالنظر إلى عالم الدنيا والآخرة، فإن الواقع هناك متطلبات فكرية تقتضي على الإنسان الاهتمام بعالم الآخرة أكثر من عالم الدنيا، مما يلزم الإنسان النظر إلى الدنيا ونشاطها التنموي بصورة التتابع والتواصل.

لقد أستطاع القرآن الكريم أن يصور لنا حقيقة هذا التواصل والتتابع بين دار الدنيا والآخرة من خلال بناء الأمة القادرة على العطاء، والإنتاج، والتطور والتحضر، وذلك بقراءة المشهد الأخروي الذي سوف يترك أثره على طبيعة حركة الإنسان وسعيه وطبيعة أماله وتطلعاته في هذه الدنيا[1]، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[3]، ولعل مراد الآية المباركة هو

---

(١) ظ: صدر الدين القبانجي، الأسس الفلسفية للحداثة، ٤٠٦ – ٤٠٧.

(٢) القصص: ٦٠.

(٣) البقرة: ٣٦.

(أنما قُدر لهم ذلك ليتخذوها وسيلة إلى دار الآخرة)[1].

وبغض النظر عن مراد الرسول ﷺ عن ما نقل عنه :(إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمُ الْفَسِيلَةُ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا)[2]، إلا أن الواقع نلمس لغة خاصة فيها كثير من الأبعاد والمعطيات، قد نجد فيها ما نسعى إثباته في مطلبنا هذا من ضرورة إدراك واحتساب عالم الآخرة، وقد يكون المقصد منه بعداً إرشادياً مراده ضرورة الاهتمام بشؤون الحياة والجانب الاقتصادي، أو قد يكون مراده ﷺ ضرورة تأكيد الإنسان على العمل، كتأكيده العبادة حتى وإن حل وقت قيام الساعة، وغير ذلك كمفاد ذلك التتابع والتواصل.

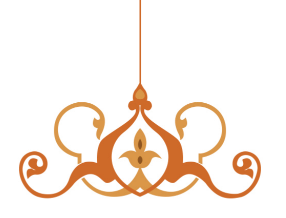
وخلاصة ما تقدم فالباحث تبنى من خلال ما عرضه مجموعة من الخصائص التي انمازات بها التنمية البشرية في القرآن بالرغم من وجود بعض الخصائص الأخرى[3]، كما نستطيع أن ندعي أنه لا توجد رؤية تنموية متكاملة وروحانية شمولية واقعية كالرؤية الإسلامية.

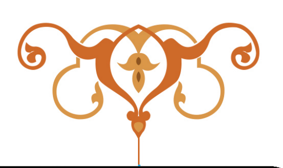
---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٣، ١١٠.

(٢) حسين بن محمد تقي النوري أ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل ج١٣، ص٤٦٠ اغا حسين البروجردي ، جامع احاديث الشيعة ، ج٢٣، ص٩٥٨.

(٣) هناك خصائص أخرى عدها بعض الباحثين كخصائص للتنمية البشرية على وفق الرؤية الإسلامية إلا أن الباحث وجدها تكاد تتداخل تحت العنوانات التي ذكرناها، وأن التدبر فيما قلناه يثبت حقيقة ما أوردناه، ومن هذه الخصائص الواقعية، الفعلية، العدالة، المسؤولية، الكفاية، الفردية، المؤسسية، الوسطية، الأولوية، الأخلاقية، الإيمانية، الربانية وغير ذلك.





ثانياً: غايات ومقاييس التنمية البشرية ومعوقاتها في القرآن الكريم.

١- أهداف التنمية البشرية في القرآن الكريم وغاياتها.

٢- مقاييس التنمية البشرية في المنظور القرآني.

٣- تخلف التنمية البشرية ومعوقاتها – رؤية قرآنية.



(أ): أهداف التنمية البشرية في القرآن الكريم وغاياتها.

نستطيع أن نستخلص أهداف التنمية البشرية في الشريعة الإسلامية من خلال انتزاع مدلول الآيات القرآنية التي تُعدّ معين القرآن الكريم الذي رسم لنا أسس الشريعة المقدسة ونواميسها ومنها الإنسان وأهدافه التي عُدت رأسمال التنمية البشرية.

حيث قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾[1]، فالآية المباركة توضح عدم عبثية الكون والإنسان؛ إذ يجب أن تكون هناك أهدافاً عليا لخلقه من جهة وجوده، وأهدافاً أخرىٰ لتحقيق وتجسيد ذلك الوجود عملياً، فالآية المباركة تحاور البشر، مقررة لوجود هدف وغاية وجودهم في هذه الحياة مخاطبة إياهم في استحالة أن تكون حياتكم الدنيا بلا هدف، وأن الله تعالىٰ أنزه من أن يخلق الإنسان بلا هدف، خصوصاً إذا تأملنا في أنظمة سائر الوجودات، فإنا نجدها جميعاً تخدم وجود البشر، وكذلك خُلقت بهدف محدد، فهل خلق الإنسان نفسه بغير هدف؟[2] فهذا محال عقلاً.

ويُنقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه أجاب عن سؤال أحدهم (لِمَ خلق الله الخلق؟. فقال عليه السلام: أن الله تبارك وتعالىٰ لم يخلق خلقه عبثاً ولم يتركهم سدىٰ، بل

---

(١) سورة المؤمنون: ١١٥.

(٢) ظ: محمد تقي المدرسي، من هدىٰ القرآن، دار الكتاب العربي، ٥، ٤٩٥.



خلقهم لإظهار قدرته وليكلفهم طاعته)[1].

هنا ندرك حكمة الله تعالى من خلال رؤية القرآن الكريم، وهو يحدد الأهداف الأساسية لوجود الكون والإنسان، وهدف تجسيد ذلك الوجود بالطاعة التي توضحها الرواية ويبينها القرآن الكريم بوصفه هدفاً أعلى لقوله تعالى:﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[2].

فهدف التنمية البشرية في القرآن الكريم هو ذات هدف التنمية البشرية اصطلاحاً، وهو الارتقاء بالإنسان وتطوره في النشاطات البشرية المختلفة جميعاً، والسعي لتحقيق سعادته الدنيوية والأخروية، وما ذلك إلا تجسيد لقوله تعالى: ﴿**ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا**﴾[3]، حيث حددت الآية لزوم امتثال العبد لتحقيق الغاية الأساسية التي هي رضا الله تعالى (وهو أن تعمل في الدنيا للآخرة)[4]، وهذا ما سيتلمسه الإنسان دنيوياً ويحرزه أخروياً، (فهدف التنمية هو الإنسان، ولذا تكون العملية التنموية وسيلة غايتها تحقيق سعادة

(١) الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص٩. الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ٣، ٤١٢ المجلسي: بحار الأنوار، ٥، ٣١٣ .

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) القصص: ٧٧.

(٤) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج ٥، ٢٠، ٣٢٣.

الإنسان المادية والمعنوية، فالإنسان هو محور التنمية القرآنية وهدفها الوحيد)[1].

لذا نجد القرآن الكريم يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لبيان علة إرساله وإنزال الذكر عليه بقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [2]، ولبيان محددات الرسالة السماوية التي تنم عن نهج أدائي يُعدّ وسيلة غايتها تحقيق سعادة الإنسان المادية والمعنوية والدنيوية والأخروية لكونه المحور والموضوع في العملية التنموية القرآنية.

فلو سلطنا الضوء على بعض آيات القرآن الكريم لأدركنا وجود مصاديق أخرى توضح غاية أصل الرسالة والتبليغ، وهدف ما تروم من البشر من تكاليف تصب جميعها لبيان متطلباته لحياة ﴿**أَقْوَمُ**﴾ تكون ﴿**هُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى**﴾ لمن آمن بما أُنزل، ومن تلك المصاديق في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [3]، أي (يدعو للطريقة التي هي أقوم الطرق، وأشد استقامة)[4]، وقوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[5]،

---

(١) (بحث) المصباح ،التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع، العدد ٩، ١٨٤.

(٢) النحل: ٤٤.

(٣) الإسراء: ٩.

(٤) محمد محسن الفيض الكاشاني ، الأصفى في تفسير القرآن، ٤٥٧.

(٥) النحل، الآية ٨٩.

فالآية المباركة تشير إلىٰ الهداية علىٰ وجه الإطلاق، فيشمل الهدىٰ أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل المنهج، والهداية إلىٰ العقيدة والتنسيق بين عقيدة الإنسان وعمله وإلىٰ العبادة الموازنة ولعلاقة الناس بعضهم ببعض[1].

لا شك من أن نزول القرآن الكريم علىٰ صدر الخاتم محمد ﷺ وهدفه هو هداية الإنسان إلىٰ الحالة المثلىٰ والفضلىٰ التي تنقله من حال إلىٰ حال أقوم، كما أن القرآن كان تبياناً لكل شيئاً فلم يدع شيئاً يفتقر إليه الإنسان لا من قريب ولا من بعيد إلا وذكره تلميحاً أو تصريحاً، إذ يُروىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (إن الله تبارك وتعالىٰ انزل في القرآن تبيان كل شيء حتىٰ والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد إلا وقد أنزله الله فيه)[2].

فالآية المباركة تعلن صراحة أن القرآن كان تبياناً لكل شيء وهدىٰ يهتدي به عباد الله وبشرىٰ لمن جعله نهجاً له، كون الآية المباركة، (ذكرت أربعة تعابير متلازمة حسب تسلسلها لتوضح الهدف من نزول القرآن....... فالمرحلة الأولىٰ في مسير الهداية تستلزم البيان والتعلم، وبعدها تأتي مرحلة الهداية، ومن ثم يأتي العمل الموجب للرحمة، وأخيراً البشرىٰ بثواب الله لمن آمن وعمل صالحاً وسرور جميع السائرين عن طريق الحق)[3].

---

(١) ظ: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج٤، ١٥، ٢٢١٥.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، ص٥٩.

(٣) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧، ١٤٦.

إن الترابط والتلازم بين محاور الآية المباركة والآيات التي سبقتها توضح الهدف من نزول القرآن وكيف يحاول أن ينتشل الإنسان من التخلف، ثم يضعه على الجادة الشرعية المقدسة بخطواتها الأربع التي نعدها ذات الصلة بالتنمية البشرية وصولاً إلى البشرى التي يطمئن بها الإنسان ويحقق مبتغاه من خلال المرتسم القرآني الهادف للوصول إلى المعارف الدينية والدنيوية التي يفتقدها الإنسان.

فعناصر وسمات القرآن الكريم هي التي حددت أهداف المنظور القرآني ومنها أهدافاً للتنمية البشرية التي تباينت بمقتضى ذلك مع أهداف الدراسات الوضعية؛ حيث عد ذلك السبب الرئيس وراء هذا التباين، وعلى أساسه كانت محاولة الباحثين في استظهار الأهداف الحقيقية التي تستبطنها الآيات المباركة، وما محاولتنا هذه إلا كباقي المحاولات التي تسعى لانتزاع بعض من مراد الله من بين آيات الله[1].

---

(١) من الضروري أن يجتهد الباحث للكشف عن أهداف القرآن الكريم المرتكزة على أساس العناصر والسمات القرآنية وعن الشواهد المتناثرة بين دفتيه، لذا أشار الشيخ ضياء الدين زين الدين إلى هذا المطلب مصوراً أن هنالك مجموعة من العناصر القرآنية تمثل حدوده الموضوعية يقتضي الوقوف عندها لاستيضاح العوامل التي تعد مصداقاً وأهدافا لها وهي: (أولاً: عامل الاختيار الإنساني، إذ الدين والقرآن الكريم في أساسه منهج ذو طبيعة اختيارية، أُعد لتنظيم حياة الإنسان، حيث نجد كثرة مصاديق هذا الاختيار في كل شأن من شؤون الدين، قال الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة: ٢٥٦.
ثانياً: سعة الأهداف القرآنية لآفاق الحياة: وهي سعة أملاها شمول الحاجة الإنسانية إلى الهدى الرباني، وعموم الضرورات التي تحكم ←

علاقات الإنسان المختلفة، ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾يوسف: ١١١.
ثالثاً: استيعاب الأهداف الربانية إذ ما كانت حاجة الإنسان من الهدىٰ الرباني لتقتصر علىٰ فئة من الناس دون فئة، ولا علىٰ طائفة منهم دون طائفة، أو علىٰ مجتمع دون مجتمع، بل هي حاجة عامة شاملة، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾سبأ: ٢٨.
رابعاً: امتداد الأهداف القرآنية مع الحياة فالله سبحانه وتعالىٰ أنزل القرآن هدىٰ للناس وحجة له علىٰ البصائر كافة حينئذ فمن الطبيعي أن يمتد دور القرآن في البشرية مع الزمن﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجمعة: ٢-٣.
خامساً: فطرية الأهداف القرآنية، أصبح من المعروف إن إدراك الإنسان لشيء واعتقاده بأمرٍ إنما يأتيان له من خلال مسارات تعتمد التعقل واستقامة المنطق وتسلسل المقدمات والنتائج وغير ذلك، ولهذا عد القرآن الكريم ذلك حجة مما لزم علىٰ الإنسان تلك المسارات في بناء حياته والوصول إلىٰ أهدافه العليا، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٣. ظ: ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، القرآن كتاب الله، ١، ٩١ – ٩٩ .

ومن أهداف القرآن الكريم بناء الإنسان من خلال قربه للخط البياني للمعرفة الحقة، ووضعه لمرتسم يعزز من خارطة البناء بأدوات وآليات عقلية وتجريبية هي بطول وحي السماء، هذا في حال عدم عرض القرآن الكريم إلى تلك القوانين أو عدم الإشارة إليها من قبله، كونه يتعامل مع المطالب على أساس الكليات أو العموم وكذا الإجمال في الأعم الأغلب، مما يعطي للمفسر أو المتدبر فسحة النظر في حالة غياب الدلالة الواضحة للنص، وأن يسلك المنهج العقلي في التفسير للكشف عن بعض بواطن النص القرآني، وهذا ما أكده استأذنا الدكتور الصغير حين أشار إلى المنهج العقلي القائم على الحس والتجربة والذي وصفه على أنه: (عبارة عن الجهد العقلي في استنتاج الحوادث على أساس التجارب الإنسانية)[1].

أما لو أردنا أن نبحث بين شذرات آيات القرآن الكريم لمعرفة غاية التنمية البشرية على وفق منظورها، فسنجد أنفسنا أمام محاور ومطالب تكاد تكون أهدافاً كما تكون سبلاً في الوقت نفسه ، إذ نجد أن الآية الواحدة قد تحمل جملة مضامين وقد يتلمس بعضهم منها التصريح في مطلب ما وتلميح لمطلب آخر، ثم نجد آية أخرى تكون وسيلة لمطلب ما ومرة تكون هدفاً أو غاية ، وما هذا إلا سر القرآن الكريم وإعجازه الكامن في شكله ومباني ألفاظه ومداليله، وبما أكتنز من نظم اختبأت خلفه معنىً، ومعنى المعنى المخزون في أبنية ألفاظه، يُنقل عن الحبيب المصطفى أنه قال بهذا الشأن: (هُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَ بَيَانٌ وَ تَحْصِيلٌ وَ هُوَ الْفَصْلُ

---

(١) محمد حسين علي الصغير، الصورة الفنية في القرآن الكريم، دراسة نقدية بلاغية، ١٢.

لَيْسَ بِالْهَزْلِ وَ لَهُ ظَهْرٌ وَ بَطْنٌ فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَ بَاطِنُهُ عِلْمٌ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَ بَاطِنُهُ عَمِيقٌ لَهُ نُجُومٌ وَ عَلَى نُجُومِهِ نُجُومٌ لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَ لَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ.)[1]، وبذلك (فقد وفّق القرآن في استعمالاته للجمع بين معان ظاهرة وأخرى باطنة، لتفيد كل لفظة معنيين أو معاني متراصة، وربما مترامية الأجيال والأزمان)[2].

إن ما قصده الباحث وهو يعرض بعض من آيات القرآن الكريم هو ليس تحديد أهداف التنمية البشرية برؤية قرآنية، وإن تضمن ذلك بعض مطالبها، إلا أن المراد الحقيقي وراء ما استعرضناه هو الاستشهاد بآيات تُعدّ مباحث مهمة كما تُعدّ أهدافاً عليا في ذات الوقت نسعى لاستخراج دلالتها واستنطاقها لاستكشاف حقيقة تلك الأهداف والغايات والمضامين الأخرى، إذ عزم الباحث انتهاج النهج في أعلاه للوصول إلى مراده لمعرفة الآيات التي تُعدّ هدفاً أو غايةً التنمية البشرية.

فتعدد الأهداف وتباين درجات الغايات واستغراق الوسيلة بالهدف أو نقيضه ، كان مرجعه فخامة الرؤية الكونية الإسلامية وما يترتب عليها من تسلسل للأهداف تُحدد من خلاله الهيكل التنموي القرآني، ولقد صور هذا المعنى الأستاذ الدكتور جمال محمد أحمد عبده تصويراً جيداً حين أشار قائلاً: (فإنه لابد من وجود أهداف فرعية كالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وغيرها تسهم في تحقيق الهدف

---

(١) محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، الكافي، ج ٢، ص٥٩٩.

(٢) محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ١، ٨٦.

النهائي)[1]، ثم يعرج ليعبر عن تصوره بتعبير آخر مستنداً بالاستدلال الاستقرائي للكون فقد أشار أن (ما من شيء إلا وله هدف يحققه، وهذا الهدف متعلق بغيره، الأعلى مستوى منه، إذ انه ناتجه النهائي يصب عند هذا الأعلى، وذلك حتى يصل الأمر نهاية إلى الإنسان، فتنتهي عنده أهداف كل الموجودات، إذاً فلابد أن يكون هدف الإنسان راجعاً إلى ما هو أعلى منه، وهذا الهدف من وجود الإنسان)[2].

وعلى سبيل المثال، فتنمية الإنسان بترويض فكره وإن كان هدفاً إلا أنه يُعدّ ثانوياً أو فرعياً مقصده تنمية الإنسان عقلياً، وكذا يُعدّ الأخير هو ليس هدفاً أساسياً بل هدفاً يقصد منه تنمية الإنسان وتكامله كأحد متطلباته الضروري - التنمية العقلية والبدنية والنفسية- كي يؤهل ويُعدّ عنصراً معطاءً منتجاً يُملىء وجوده ويحقق ذاته.

وتأسيساً على ما تقدم يرى الباحث أن النظرة الإسلامية بصورة عامة والنظرة القرآنية بصورة خاصة تُبقي الأمر متعلقاً للبحث عن الهدف الأسمى والأكبر بالرغم من أهمية أهداف التنمية البشرية الثانوية، وهو إحياء الإنسان وبناؤه من الداخل والخارج، إذن فالأهداف مشتقة من بعضها بالتسلسل، أما الهدف النهائي فهو تحقيق الغاية من وجود البشر، وهذا لا يعني أن كل هذه الأهداف غير مطلوبة، بل مطلوبة بكاملها ولكنها متدرجة، فلابد من أن ترسم أول الأهداف،

(١) جمال محمد أحمد عبده، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ٩٦.

ثم تأتي الأهداف التي هي أدنى منه لتحقيقه؛ وذلك لتحقيق وحدة الهدف[1]، وما الغاية الكبرى والهدف الأساس في المنظور القرآني إلا العلة الكبرى وهو الله تعالى، ومن هنا كان تأكيد الشريعة لزوم تمسك الإنسان بغايته الكبرى وتلازم هذا المعنى في عموم حركاته وسكناته؛ بل عدت الخلوص في النية ركناً من أركان أي نمط عبادي، كون حضور الغاية الكبرى تستلزم الإخلاص ، والاستمرار، والصدق، والالتزام، ووضوح السبيل، واطمئنان النفس، وغيرها التي تعني انتهاء الأمر إليه سبحانه ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾[2]، قال أمير المؤمنين عليه السلام واصفاً المتقين: (عظم الخالق في أعينهم فصغر ما دونه في أعينهم)[3] وبخلافه أي نسيان الغاية الكبرى وعدم دوامها وتلازمها مع العبد يعني نسيان الهدف الأكبر وحضور الأهداف الثانوية الزائلة، (فنسيان الغاية يستعقب نسيان الطريق فمن نسي ربه نسي نفسه، ولا يُعدّ لغده ومستقبل مسيره زاداً يتزود به ويعيش باستعماله وهو الهلاك ، وهذا معنى ما رواه الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله : "من عرف نفسه عرف ربه")[4].

فالبحث عن علة وجود الخلق ومنها الإنسان وفلسفته تُعين طلاب المعرفة

(١) ظ: جمال محمد أحمد عبده، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ١٠٦ – ١٠٧.

(٢) النجم: ٤٢.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، ٢، ١٦١.

(٤) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٦، ١٤٦.

للكشف عن معالم الأهداف الرئيسة، لأنها تُعدّ الدعامة لبناء الهيكل التنظيمي لكل إيديولوجية أو نظرية، وهذا يعني إننا لا يصح أن نعمم بعض الأهداف الثانوية على علم أو ميدان معرفة، فيكون ذلك على حساب الأهداف الكلية والرئيسة وعلى فلسفة العلم أيضاً، بل إننا نؤمن أن لكل مرحلة هدفاً خاصاً بها تتدرج لترتقي سلم الهدف الأساس، وما هذا الهدف الأساس إلا علة وجود الإنسان، الذي سيوضح معالم أهداف التنمية البشرية بغية الشروع بتطبيقاتها.

لذا يأمل الباحث أنه على وِفق حين وضع يده على ثلاث آيات مباركة عدها غاية التشريع ومنتهى فلسفة الحياة والإنسان، كما جعلها مصداقاً لأهداف التنمية البشرية العليا على وفق المنظور القرآني بحسب وجهة نظره المتواضعة.

الآية المباركة الأولى:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

المراد من الآية المباركة (خالق في الأرض خليفة، أراد للخليفة آدم عليه السلام فهو خليفة الله في أرضه يحكم بالحق)[2]، والمتأمل في الآية المباركة والآيات التي سبقتها يدرك أن الآية بمدلولها تؤكد (أن الله سبحانه وتعالى خلق ما في الأرض جميعاً للإنسان، وفي هذه الآيات تقرير صريح لخلافة الإنسان وقيادته، وتوضيح لمكانته

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج ١ ،١، ١٦٢.

المعنوية التي استحق بها كل هذه المواهب)[1].

إذن (فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين.....وكشف ما في هذه الأرض من قوىٰ وطاقات...... وتسخيرها في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه)[2]، وبذلك سنحرز أن الإنسان قد وِهب من (الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوىٰ وطاقات.....ووهب من القوة الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية)[3] التي تُلهم الإنسان القدرة علىٰ تنمية نفسه وما يحيط به وصولاً إلىٰ مرتبة الاستخلاف.

فعلىٰ الرغم من أن الإنسان أحد أطراف المنظومة الكونية التي ينتمي إليها، فإن الله تعالىٰ سخّر له آيات كُثر لاستخلافه في الأرض، مما أقتضىٰ أن تكون له مؤهلات وامتيازات تفوق بقية الموجدات الأخرىٰ، إن لم تكن كمثيلاتها كحد أدنىٰ، لقد عرض الشيخ ضياء الدين زين الدين إلىٰ ضوابط المنظومة الكونية وانتظامها ودقتها التي أيدها الإنسان المدرك والعلم التجريبي علىٰ حد سواء، حتىٰ باتت حقيقة لا تفتقر إلىٰ ذلك الجهد للاستدلال بمرجعية الوجود إلىٰ خالقها وبارئها، وفي معرض بحثه عرّج إلىٰ تلك النواحي للنظام الكوني ومدلولاته ومنها اعتبار

---

(١) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١، ١٣٠.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مج ١، ١، ٥٦.

(٣) المصدر نفسه مج ١، ١، ٥٦..

وجود الموجودات أثر النظم، أن تكون الموجودات الكونية موحدة الاتجاه، موحدة التركيب والجوهر، التنامي الدقيق في النواميس الكونية، استقامة كل موجود مع نظمه الخاص التي تحكمه[1] لأنها جميعاً تسير لغاية واحدة لذا وجب الانتظام.

وبعد أن عرض الشيخ تلك النواحي والمدلولات عرض إلى قضية أن الإنسان بعض من مظاهر الكون، وهذا مما يعني استحالة تجريد الإنسان عن أي مجرى من مجريات الوجود وعن أي ضرورة من ضرورياته سوية المظاهر الأخرى[2].

ثم عرّج ليربط بين دقة النظام الكوني الذي يُعدّ الإنسان أحد أطرافه وبين مبدأ الاستكمال الذاتي (حيث يعتبر هذا الاستكمال أحد الغرائز الثابتة التي فطر عليها كل مظهر من مظاهر التكوين بدليل الدراسات التجريبية والفلسفية والفكرية، ولعمق هذا الاستكمال في جبلة الموجدات فقد أصبح مبدأ ارتكازي لدى الإنسان..... إذ كما أن الارتباط الذاتي بعلة الإيجاد هو الحاكم على الوجود الكوني في نفسه، كذلك هو الحاكم على كمال هذا الوجود أيضاً)[3].

إن تطابق مدلولات الوجود على الإنسان أمر مسلّم به لكونه من معية المنظومة الكونية، إلا أن ما يلفت الانتباه أن حاكمية الإنسان على بقية الموجودات كانت بحكم مبدأ الاستكمال الذاتي ومبدأ الاستخلاف وبما تميز به من قوة عاقلة، فضلاً

---

(١) ظ: ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، ١، ٣٥.

(٢) ظ: المصدر نفسه، ١، ٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ١، ٣٦.

عن عقد الاستخلاف الذي أشار إليه السيد محمد باقر الصدر على إنه عرض وقبول بين طرفين (فالعرض هنا عرض تكويني والقبول هنا قبول تكويني[1])[2]، مما وجب على الإنسان أن يدرك ضرورة تمثيله بوصفه خليفة لله تعالى بأبهى صورة ممكنة بحسب ضوابط مَنْ استخلفه أولاً، كما وجب عليه أن يندفع بكل قابليته نحو تطبيق ما تبناه ثانياً، وبهذا ستكون الفقرة الأولى هدفاً رئيساً بترويض وتنمية الذات نحو مبدأ الاستخلاف، بينما تكون الثانية وسيلة تنموية لتحقيق الهدف الرئيس، على الرغم من أننا نستطيع أن نسمي الفقرة الثانية هدفاً ثانوياً على أساس أن تنمية الذات وترويضها هدف آخر.

وبالعودة إلى العقل الذي به تميز الإنسان عن أقرانه من الموجودات الأخرى، العقل الذي عد العلة وراء جعل الله تعالى استخلاف الإنسان إليه، وهو ذات السبب وراء تلك الإمكانات والامتيازات التي قادته إلى مراتب الكمال ولوضع أسس بناء منظومة الحياة التي تألقت تراتبياً بفعل التنمية العقلية والسلوكية والتجريبية.

والدليل الذي نستند إليه في مزية عقل الإنسان كمسوغ لغاية الاستخلاف هو: ما

---

(1) العرض يُقصد به اشارة الى قوله جلّ وعلا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولقوله تعالى أيضاً ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ والقبول إشارة إلى قبول الإنسان بالاستخلاف بمقتضى قوله تعالى: ﴿حَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ الأحزاب: ٧٢.

(2) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ١١١.

القي إلى الإنسان من علم بأثر الجعل الإلهي، بقرينة قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[1]، من حيث (تعلّم كل المعارف الإلهية، وما له دخل في استكمال الإنسان في النشأتين)[2]، وكذا بقرينة الآية المباركة: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**﴾[3]، أي (أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها)[4] والتي تعلمتها من دونهم.

ويمكن استنطاق قوله تعالى ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[5] بما يأتي:

من خلال منطوق الآية المباركة والتي تُعدّ جواباً عن استفهام الملائكة من الله تعالى: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَك**﴾[6]، ما هو إلا دليل إدراكهم للعلة والسر من اتخاذ هذا المخلوق خليفة لله تعالى، بعد أن أنبأهم بأسمائهم.

الجواب كان رداً على استفهام الملائكة، في بيان أن (التسبيح، والتحميد، والتقديس) هو ليس المعيار للاستخلاف، وكذا ليس مصداق العبادة وإن كان

---

(١) البقرة، الآية ٣١.

(٢) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ١، ١٨٠ .

(٣) البقرة، الآية ٣٣.

(٤) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ١، ١٨٧ .

(٥) البقرة، الآية ٣٠.

(٦) الآية نفسها .

جزاءاً منها، والجملة الاعتراضية للملائكة المبنية على الاستفهام هي: نحن الأولى بالاستخلاف من هذا المخلوق بقرينة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

لابد من أن يكون المُستخَلف بمستوى لائق عمن استُخلِف أو عمن ناب عنه، وهذا ممكن في حال تطور الإنسان لذاته وقابلياته، وهذا ما صوره لنا القرآن الكريم من خلال انتخاب واصطفاء الأنبياء والرسل وبعض ممن اتصفت بهم صفة الإيمان، لأن الاستخلاف لله في الأرض لا يتناسب مع سفك الدماء[1].

هو أن الاستخلاف كان على أساس تميز الإنسان بالعقل، وإن الجعل الإلهي لاستخلافه مبنيٌّ على تسخير الكثير من الآيات له، وتمكين الأرض إليه، وبموجب ذلك ألزمه الله تعالى أن يدرك وظيفته في الاستخلاف وفي اعمار نفسه والأرض التي تُعدّ هدفاً ووظيفة التنمية البشرية لقوله جل وعلا: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ

(١) إشارة إلى ما ذهب إليه بعض المفسرين إلى أن استفهام الملائكة مبني على أساس تنبوءهم بإعادة التجربة السابقة مع مخلوقات سبقت أدم عليه السلام أو أقوام من الملائكة وقيل من الجن وقيل من غير ذلك، وهذه المخلوقات تنازعت وسفكت الدماء، وذهب بعض آخر إلى أن أستفهامهم ناشئ لعلمهم بتركيبة الإنسان من قوى الخير والشر، أي من قوى متضادة من الشهوة والغضب والقوة والضعف ونحو ذلك، ومن كان هذا حاله هو في دار الكون والفساد يلازمه سفك الدماء، فيكون قولهم من باب كشف الملزوم عن اللازم. ظ: عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ١، ١٧٨ محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١، ١١٦ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١، ١٣٢ الطوسي، مجمع البيان، ١، ١، ١٦٢ هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، ١، ١٦٦.

مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

إن انتخاب الإنسان كخليفة لله بالجعل الإلهي لقوله تعالىٰ: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**، هي القرينة الأخرىٰ لمزية العلم والإدراك المنبعثة من العقل الذي تميز به الإنسان دون غيره من المخلوقات.

والدليل علىٰ أن العقل هو العلة من استخلاف الإنسان لله تعالىٰ وهو المدخل للتنمية البشرية: هو أن قيادة واستخلاف الأرض تفتقر لمكون يمتلك مؤهلات القيادة والإدارة والإدراك، وأن يكون هذا المكون ذات كفاءة لإدارة ذاته وما يحيط به من موجودات، وهذا لا يحصل إلا بالعقل الذي تميز به الإنسان، وافتقرت له بقية الموجودات الأخرىٰ فكان بذلك مستخلفاً لهذه العلة والحكم يدور مع العلة اين ما دارت .

ثم تأتي التنمية البشرية لتمارس نشاطها الواضح في تفعيل أثر الإنسان بوصفه خليفةً في الأرض من خلال تحقيق طموحاته علىٰ وفق المنهج المشروع وإتمام ما يحيط به من ظروف بما فيها البيئة التي تحيط به وباقي صور الطبيعة، فالهدف هو الاستخلاف وما أعظمه من هدف، حيث عزز لبناء حضارة تمثل استخلاف الإنسان لربه علىٰ وفق منظومة حياتية متكاملة يكون الإنسان فيها هو المحور كما هو محور التنمية البشرية.

ولأهمية ما تقدم عد للتنمية البشرية جانبان مهمان هما: جانب مذهبي نظري "إيديولوجي" يمثل الإطار الموجه وهذا من مهمة الوحي الإلهي، كي يضع

---

(١) هود: ٦١.

الإنسان على الطريق الصحيح، وجانب معرفي بحت يشكل الاستفادة القصوى من قوانين الوجود والحياة في التخطيط والتنفيذ والتطوير، وهو من مهمة العقل في حركته الدائبة لاكتشاف قوانين الوجود وتسخيرها في سبيل إخراج التنمية من حالة الاستعداد والقوة إلى حيز الفعل والحركة[1]، فإن مساحة العقل في هذه العوالم تنحصر حدوده في مجال عالم المادة فقط، في الوقت الذي يلغى دوره في عالم الغيب والقيم وأنظمة الحياة الضابطة لحركة الإنسان وسعيه في بناء منظومة حضارية سماوية يكون هو أحد أهدافها وأطرافها ليس إلا، وبخلاف ذلك سوف تختل معادلة منظومة السماء في ذهن الإنسان التي تمثل الغيب وبين منظومة الأرض التي تمثل المادة، والتي تُعدّ المنظومة الأولى ضابطة على الثانية.

في هذه المساحة الرحبة سوف يحقق الإنسان غايته الكبرى في تجسيد الاستخلاف من خلال تنميته باستلهام المعاني الغيبية من مداركها، وكذا تفعيل كل إمكانياته لتنمية وضعه وما يحيط به بفعل العقل وسلطانه الذي يُعدّ الحجة التي بها تميز الإنسان وبها كان خليفة الله تعالى.

الآية المباركة الثانية.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[2]، لقد عرض الباحث في ما مضى إلى أن تحقيق التنمية البشرية يتم من خلال تطبيق

---

(١) ظ: محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ٢١.

(٢) الذاريات: ٥٦.

النهج مروراً بالهدف الرئيس ووصولاً لإحراز الغاية الكبرىٰ التي تُعدّ بيان العلة من وجود الإنسان والتي تستظل بها تحقيق مطالب آنية أو وقتية مرهونة بزمان أو مكان أو حال.

إن تأكيدنا هدف وجود الإنسان مبنيٌّ علىٰ أساس ما ارتأته الرؤية القرآنية في بيان علة خلق الخلق ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾، فالمراد (ما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها)[1]، وكأن مراد الله تعالىٰ من هو (لم أخلق الجن والإنس إلا لعبادتي والمعنىٰ لعبادتهم إياي)[2]، ويتضح مما تقدم (إن اللام التي جيء بها في سياق بيان الهدف من الخلق **لِيَعْبُدُونِ**.... أنه قدّر وقضىٰ ليكون ذلك وسيلتنا إليه، وطريق سعينا ابتغاء مرضاته، ومدارج كمالنا في وجودنا......فإن العبادة غاية الخلق ومحتوىٰ ما أمر الإسلام به من واجبات)[3].

والجدير بالذكر أن للعبادة معانياً كثيرةً، ومداليل أوسع مما يتبادر إلىٰ الذهن، فينقل عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: (من عمل بما أفترض الله عليه، فهو من اعبد الناس)[4]، وكأن مراد الإمام عليه السلام أن العمل بمقتضىٰ شريعة الإسلام

(١) الزمخشري، الكشاف، ٢، ١١٨٩.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج ٦، ٢٧، ٢٢.

(٣) محمد تقي المدرسي، من هدىٰ القرآن، ٩، ٤٣٨.

(٤) محمد بن يعقوب الكُليني، أصول الكافي، ٢، ٣٧٦، ح ٧ الصدوق : الخصال، ١٢٥ الصدوق : من لا يحضره الفقيه، ٤، ٣٥٨.



العامة من آداب وسلوك ومنهج وطقوس هي العبادة بعينها، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم وهو يصور لنا العبادة بمعناها الشمولي، لقوله تعالىٰ عن لسان حال إبراهيم عليه السلام: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1].

نجد أن الخليل إبراهيم عليه السلام يصور لنا العبادة بطابعها الشمولي بتضمنها إلىٰ الطقوس العبادية (الصلاة والنسك) مضافاً إليها (الحياة والممات) التي تمثل حياة الإنسان بكامل نشاطاته وفعالياته وعلاقته الفردية والاجتماعية في المجالات كافة.

فالعبادة (هي التوحيد بكل أنماط سلوك الإنسان الداخلية والخارجية إلىٰ الله عزّ وجل ابتغاء مرضاته...... سواء كانت هذه الأنماط من السلوك متعلقة بالفرد نفسه أو بالآخرين أو بالله مباشرة)[2]، بقرينة الصلاة، النسك، الحياة، الممات، فالعبادة تشمل الشعائر والمعاملات في المنظور القرآني.

وإن خلق الله تعالىٰ للإنسان لابد له من غاية وهذه الغاية هي السعادة فـ(غاية خلقه التي هي سعادته ومنتهىٰ كماله التقرب العبودي إليه كما قال «**لِيَعْبُدُونِ**»، وهي الولاية الإلهية لعبده، وقد هيئ الله سبحانه له كل ما يسعد وينتفع به في سلوكه نحو الغاية التي خلق لها وهي النعم فأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنةً)[3].

وكأن المراد من العبادة هنا عبودية عامة وخاصة، فالأولىٰ تعني (خضوع

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ١٨.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢٠، ٤٠٥.

الانفعال الوجودي عن مبدأ الوجود، وعبودية خاصة: وهو الخضوع والانقياد في صراط الهداية إلى التوحيد)[1].

أي أن مراد الآية المباركة هي من قبيل العبودية العامة والخاصة معاً التي يراد بها الخضوع لله تعالى تجسيداً لطاعته وأداءً للمناسك والطقوس التي تُعدّ مصداق الإقرار والتسليم، بينما أقتضى أن يكون هناك تفاعل يجسد هذا المفهوم إلى واقع وسلوك أدائي وإجرائي يتمثل بالمعاملات والنشاطات الإنسانية العامة، وكأن المراد منها انعكاس للصورة العبودية الحقة لله تعالى والانقياد لأمره عملياً من جهة، ولأحياء شريعة السماء المتمثلة بإحياء الدين من جهة أخرى.

وبما أن العبادة تعني الإقرار والتسليم والانقياد إلى المعبود وتعظيمه وإجلاله، فيقتضي أن تكون (العبادة في الفرائض والمستحبات، والالتزام بالأوامر الإلهية، والانتهاء عن نواهي الشريعة الغراء، وتتحقق أيضاً بكل عمل إنساني نافع للناس ودوافعه سليمة ومرضية عند الله وعند الناس)[2].

فعلى الرغم من عرض عدة تصورات عن العبادة والتي عادة لا تخرج عن إطار ما استعرضه القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام، فإن الباحث وجد نفسه مضطراً للوقوف عند تصور الدكتور محمود البستاني للعبادة التي نظر إليها من زاوية أخرى، حيث أرتأى أن يكون فهم "العبودية" على أساس أنه يجسد حالة الإيمان أو الاعتقاد بحقائق لا سبيل التشكيك بها، وتعاملاً مع الواقع وليس

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١، ٤١٥.

(٢) مكي قاسم البغدادي، أهداف القرآن في أم الكتاب، ١، ١٣٥.

هروباً منه أو تمرداً عليه، وإن الشخصية السوية المخلصة في عبادتها لله تتعامل في مجمل سلوكها مع الله فحسب، أي أنها تتحرك من خلال كونها موظفاً في مؤسسة رسمية، يتلزم بتنفيذ مقرراتها، وهذا يعني أن العمل ينحصر لله من حيث لا تشرك معه أي قوة أخرى[1]، لذا قال الإمام عليه السلام: (لو أن عبداً عمل عملاً يطلب به وجه الله والدار الآخرة وأدخل فيه رضا أحد من الناس كان مشركاً)[2].

فأستاذنا البستاني رحمه الله تعالى أكد أهمية ضرورة إدراك العبادة على أنها توظيف إلزامي يستلزم الهدف أو النية (التي تشكل أساساً عاماً لأي تحريك بشري)، كما يصور أن إدخال رضا غير الله تعالى يعني شركاً مؤداه السعة للحركة الذاتية[3]، في الوقت الذي يقتضي أن تكون حركة الإنسان (العبد) في الرؤية الإسلامية حركة

---

(١) ظ: محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، ٢، ٢٨١ – ٢٨٨.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مقاصد الشريعة، الباب عشرة من أبواب مقدمة العبادات، ح١١، ج١، ٤٩.

(٣) يصور الدكتور البستاني (إن المتعة التي يسعى كل منا إلى تحقيقها تمثل نمطين: أحدهما ذاتي والآخر موضوعي، إلا أن النمط الأول يعني: إشباع الطليق من كل قيد، والآخر يعني الإشباع المقيد بمبادئ خاصة).
فهو يرى أن العبادة عبارة عن حركة للإنسان، فهي إما حركة ذاتية أو موضوعية، فإن إدخال رضا غير الله: فسح المجال لأن تتحرك ذاتياً، بدلاً من أن تتحرك موضوعياً في العمل، أي أننا سنتعامل بقدر النفع الذي نكسبه لذواتنا، وليس بقدر ما يتطلب العمل من أهمية.
محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، ٢، ٢٨٩.

موضوعية لأنها تمثل حقيقة العبادة الصادقة لمعلومية انتمائها ووضوح هدفها البين (الامتثال لشريعة الله تعالىٰ)، وبخلاف ذلك ستكون عبادة الإنسان ذاتية بمعزل عن الوظيفة المحددة له، مما يضطر الإنسان للبحث عن أهداف عنوانها ومساحتها حدود ذاته، وكذا سيكون حال نشاطاته التنموية نشاطات ذاتية مقيدة، علىٰ عكس لو كان منهجه التنموي منهجاً موضوعياً يكون فيه هو أحد أطرافها كون العبادة هي علاقة بين عدة أطراف أحدهم الإنسان [1]، مما يعطيه حافزاً ودافعاً لسعة مساحة وأهداف التنمية البشرية لعدة أطراف بدلاً من حصرها في حدود ذاته.

ومن هنا نجد أن العبد المؤمن له قدرة علىٰ تنمية ذاته وتنمية ما يحيط به من خلال رغبته بالانتماء إلىٰ العنوان الأكبر – وهو الله تعالىٰ – بعيداً عن الرغبات والأهواء الشخصية والذاتية، لهذا فإن أهمية النشاطات التنموية وأهدافها بل جميع الأهداف الفرعية أو الرئيسة للإنسان، فأهمية أي منها بقدر القرب أو البعد من الخط البياني الذي هو العبادة وتعظيم الإيمان في نفس الإنسان، باعتبار أن سمو الهدف الكبير وإعلائه، وسعة مساحة التنمية البشرية مرهونان علىٰ قدر ضعف المصالح المادية الذاتية (الأنا) وعلىٰ توسعة مساحة أطراف العبادة (نحن)، فالأهداف العليا تورّث قناعة بضرورة تفعيل عدة نشاطات تنموية تتناسب مع سمو الهدف، بينما

---

(١) إن علاقة العبد مع ربه مبنية علىٰ أساس (سعة أملاها شمول الحاجة الإنسانية إلىٰ الهدىٰ الرباني، وعموم الضرورات التي تحكم علاقات الإنسان المختلفة، سواء مع نفسه أم مع مجتمعه ام مع الموجودات الأخرىٰ، ومن قبلها جميعاً علاقاته بمبادئ وجوده ومدبر حياته – تعالىٰ شأنه –). ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، ١، ٩٢.

نجد أن ضعف الأهداف وتدنيها يعني ضعف عطاء الإنسان ونشاطه التنموي.

وتأسيساً على ما تقدم فالآية وضحت العلة من وجود الإنسان وما يجب عليه من آثار تكون أهمها كغاية كبرى وهي العبادة بشكلها العام والشمولي التي تتجسد من خلال تنمية الإيمان وديمومته، والتواصل معه بأنماط سلوكية ظاهرية وباطنية تسع العبد وما يحيط به من موجودات أخرى زيادة على العلاقة مع الله تعالى، من حيث تكون جميع تلك الأنماط السلوكية مصداقاً للعبادة ، (كون تعامل الإنسان مع مختلف شؤون حياته الشخصية والمؤسسية والاجتماعية هي ضرب من ضروب العبادة)[1]، ولهذا اختلفت نظرة الإسلام إلى العبادة ورفض ما تعارف عن المبدأ الساذج القائل: إلى الفصل بين العبادة والحياة، وإلى حصر الحياة في حيز ضيق العبادة [2]، لأن إحياء الحياة مصداق العبادة، وإحيائها تعني الارتقاء بمستوى جميع ظروف المعبود التي تحيط به مما يقتضي عليه الإبداع وبذل الجهد والاجتهاد لتحقيق غاية الاستخلاف من جهة وكسب رضا الخالق جلَّ وعلا من جهة ثانية.

ومن هنا نجد هناك كثيراً من الآيات والروايات تؤكد مضامين سلوكية تعدها نمطاً عبادياً، من حيث نستطيع أن ندعي أن أكبر ضمان لنجاح التنمية البشرية واستمرارها هو (هو رفع الإسلام بالتنمية إلى مرتبة العبادة .... بل اعتبر العمل في

---

(١) هاني عبد الرحمن الطويل ، الإدارة بالإيمان،٢٣٩.

(٢) ظ: محمد باقر الصدر، نظرة عامة في العبادات، ٣٢-٣٣.

ذاته عبادة)[1]؛ بل عد الإسلام التفكير والتدبر وطلب العلم والسعي لجلب قوة العيال أو أداء الواجبات، وجميع الأخلاقيات، وصفاء العلاقات؛ بل حتى الترفيه عن النفس وغيرها عبادة؛ بل هي من صميم العبادة بالرغم من أنها خارج عن أداء الطقوس[2]، فـ(المسألة ليست في الذكر اللساني المسألة في الذكر الوجداني والقلبي والحسي أن يكون الوجود كله لله)[3] وكذا العبادة بجميع ضروبها.

وخلاصة القول فإن العبادة في المنظور القرآني تعني استيعاب (جميع جنبات الحياة الإنسانية وآفاقها، بما فيها علاقة الفرد مع ذاته، ومع مجتمعه، أو مع ما حوله من مظاهر الوجود، لتصبح هذه العلاقات جميعها مظهراً من مظاهر العلقة الذاتية بالله سبحانه وتعالى، وطريقاً من طرائق توثيقها)[4]، وهذا يعني أنها زيادة في الترويض الإيماني وسعة في المُناخ الروحاني والنضوج الذي يعكس مجموعة من انفعالات ونشاطات داخلية وخارجية للفرد تحقق من ورائها قوة في الرابط بين

---

(١) إبراهيم حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ٢٧١.

(٢) إن التكامل في الإسلام شمل مفردات العبادات والمعاملات جميها وشمل تفاصيلها وجزئياتها ، فعلى الرغم من سعة افق العبادة وشمولية مساحتها، نجد أن الطقوس العبادية قد أخذت عمقاً وبعداً آخر، فهناك نوعان من العبادة : عبادة ظاهرية وهي أدائية، وعبادة باطنية تستحضر فيها المضامين، علماً أن العبادتين تكمل إحداهما الأخرى، حيث تُعد الأولى مقدمة إلى الثانية، والثانية هي عين التمثل بالعبادة.

(٣) ميثم السلمان، صناعة السعادة، ١٤٥.

(٤) ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، ٢، ٢٨٢.



أطراف العبادة، وللنظر بين ما كان ما ينبغي أن يكون، على وفق ضوابط سماوية شرعية، لها من الشمول بحيث تسع تلك النشاطات التي عنوانها رضا الله تعالى، وبها ستكون جميع أنماط السلوك التنموية وسيلة هدفها ترجمة العبادة لله تعالى.

الآية المباركة الثالثة.

قال الله تعالى في كتاب العزيز: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾[1].

إن لفظ (كذلك): إشارة إلى ما مضى من جعل هدايته قرينة لمعنى الوسطية، والمراد من (الجعل): التقدير والخلق، (الأمة): الجماعة، والوسط معروف كمعيار لتعيين الطرفين إن أضيف إلى الأجسام أو إلى الأعداد، أما إن أضيف إلى المعنويات يكون معياراً لتمييز مرتبتي الإفراط والتفريط المذمومين، وقد فُسر الوسط في الأخبار بالعدل، ويعرف من الآية المباركة لا تشمل جميع الأمة، بل المراد من كان متبعاً لشريعة الرسول ﷺ وإن دينهم هو الحد الفاصل بين الروحانية البحتة والمادية الصرفة، ولأجل ذلك صاروا (**شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**) جميعاً (**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**)، لأن الرسول ﷺ شهد عليكم بأنكم تتصفون علماً وعملاً بما علمكم به[2].

وقد أكد هذا المعنى مكارم الشيرازي حين أشار إلى أن الوسط هو ما اعتدل وابتعد عن الإفراط والتفريط، والوسط المعتدلة في العقيدة، التي لا تسلك طريق

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) ظ: عبد الاعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ٢، ١٠٦ – ١١١.

الغلو ولا طريق التقصير والشرك، معتدلة في القيم المادية والمعنوية، وكذا معتدلة له في الجانب العلمي وفي الروابط الاجتماعي وفي الجوانب الأخلاقية...معتدلة في عبادتها، في تفكيرها وفي جميع أبعاد حياتها[1].

إن مراد الآية المباركة أن يكون هناك أنموذجاً حاضراً صادقاً ينظر للحقيقة ويتصدىٰ لها كقدوة، يُنظر إليها كمثل أعلىٰ لتبني الوسطية التي تعني الاعتدال والاتزان كسمة أساسية في النظرة الإسلامية القرآنية بعيداً عن الغلو والتطرف، الاعتدال الذي به تستقيم حياة الإنسان ومن خلال وسطية نشاطات التنمية ومجالاتها، فبوسطية تلك الصور ستحقق الشمولية المرجوة لكل عمل تنموي، لذا نجد أن القرآن أكد هذا البند الأساس الذي اتخذه هدفاً لتحقيق شريعة الإسلام وتحقيق النشاطات التنموية التي ترتقي بالإنسان؛ لهذا كان تأكيد الآية علىٰ هذا البند علىٰ أساس الجعل الإلهي (الذي يكون تمام سببه كمال العبد في نفسه بينه وبين ربه..... والجعل أن أمة محمدn هم الوسط في جميع المعارف والكمالات النفسية، ودينهم هو الحد الفاصل بين الروحانية البحتة والمادية الصرفة ولأجل ذلك صاروا شهداء علىٰ الناس جعلاً تَفَضُلياً)[2].

من أجل ذلك تحدثت الآية المباركة عن أهمية الوسطية، ومثالها امة الوسط وما أهمية وظيفتها في بقعة الأرض، ودورها الأساس في حياة الناس بوصفها هدفاً وانموذجاً يُحتذىٰ به لبقية الأمم والشعوب والنظريات والسياسات؛ لأن نموذج

---

(١) ظ: ناصر المكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١، ٣٣٨.

(٢) عبد الأعلىٰ السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ٢، ١١٠.

هذه الأمة الحقيقي قد استلهم حضوره من شخص الرسول الأكرم الذي اصطفاه الله تعالى عن بقية البشر؛ لتكامله واعتداله واتزانه واستقامته.

مما تقدم نجد أن الآية تهدف إلى أن تنطلق هذه الأمة كمثل تنموي أنموذجي يكون مصداقاً للتألق والنمو في جميع المجالات والميادين التي تحيط به بقرينة (**أُمَّةً وَسَطاً**).

فهي الأمة (الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي – الحسي، (**أُمَّةً وَسَطاً**).... في التفكير والشعور....أو في التنظيم والتنسيق.... أو في الارتباط والعلاقات..... وفي المكان في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها.... في الزمان)[1]، أو جميع ذلك لأن التكامل والشمول التي هي من خصائص التنمية البشرية هو ناتج الوسطية والاعتدال وهذا هو عين ما تهدف إليه التنمية البشرية في القرآن الكريم.

فخلاصة القول أن غاية الجعل الإلهي أن تكون أمة الإسلام أنموذجاً حياً وواقعياً كمجتمع متطور ومنضبط ومتألق يكون انعطافه قدر الإمكان نحو الأفضل وأن يكون هذا النشاط مثمراً وشاملاً ومستمراً متواصلاً لنمو قدرات هذه الأمة المادية والمعنوية لتكون قدوةً ومثالاً لبقية الأمم والديانات، فهدف التنمية البشرية في القرآن الكريم هو تكامل الإنسان (واستثمار مرحلة الحياة الدنيا

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١، ٢، ١٣٢.

لتحقيق القدرة على النجاح، والحياة الأكمل والأسعد في عالم الآخرة)[1] وخذه هي محصلة التنمية البشرية لا غير.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[2]، فغاية القرآن الكريم من ذكر خلق الموت والحياة هو لتكامل الإنسان ورقيه وتناميه للوصول إلى مراتب العمل الحسن والصالح، والنموذجي لبناء المشروع الإسلامي الحضاري الذي يسعى للحفاظ على هوية الإنسان في منظومة الوجود ضمن علة الوجود.

فغاية نزول القرآن هو مصلحة العباد، وإن تمام وتكامل التنمية البشرية باعتدال وتوازن الرؤية الكونية الإسلامية ونهجها التشريعي، إذ من الضرورة الحتمية أن تكون التنمية البشرية متوازنة ومعتدلة بها دون إفراط ولا تفريط، مُتمثلة الوسطية بين العوامل والمؤثرات، بين المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، عازمة على نبذ كل حالات الإفراط وصور التفريط، وتعدها خارجة عن رؤية الشريعة المقدسة.

فإن تنمية الفرد والمجتمع يجب أن تكون بكافة الميادين والجوانب وذلك بعدم التفرد بتأكيد أحد الميادين أو التغاضي عن ميادين أخرى أو التقليل من شأنها، فكل إفراط في أمر ما، يقابله تفريط في أمر آخر، (فإن إصابة نقطة الهدف أعسر من

(١) صدر الدين القبنجي، الأسس الفلسفية للحداثة – دراسة مقارنة بين الحداثة والإسلام، ١٤١.

(٢) الملك: ٢.

العدول عنها ولزوم الصواب)[1].

فالمنظور الإسلامي للتنمية البشرية على وفق هذه الآية يقتضي أن تكون وسطيتها شمولية ومتكاملة، ولعل السبب في ذلك الاعتدال رؤية الإسلام إلى هذا المطلب باعتبار أن أي ميدان تنموي لا يُعدّ هدفاً أساسياً للإنسان وإن افتقر إليه، لأن ذلك المفتقر إليه يقيناً سوف لا يكون هدف الإنسان الوحيد، بالرغم من قناعة الرؤية الإسلامية بضرورته كمطلب بذاته من جهة ولانضمامه كجزء إلى المنظومة المتكاملة من جهة أخرى.

يأمل الباحث أنه على وفق حين انتخب ثلاث آيات عدها محوره الرئيس الذي ينطلق من خلاله لبيان أهم أهداف أو غايات التنمية البشرية في القرآن الكريم، كما عد الباحث ذات الآيات غاية شرع الله تعالى، وهي غاية لكثير من الغايات التي تتمحور على تحقيق مصالح العباد، إذ ذهب أغلب الفقهاء لتأييد القاعدة التي تنص: (حيثما كانت مصلحة المسلمين، فثمة شرع الله)[2].

بعد هذه الخلاصة في التدبر لهذه الآيات المباركة الثلاث نستشف أنه كما هناك تدرج واسترسال في الأهداف صعودا ونزولا، فكذا كان التدرج التراتبي والاسترسال الانسيابي لغايات آياتنا الثلاث والتي أُنتخب تسلسلها على وفق رؤية التدبر القرآني للباحث، لقوله إن الهدف الرئيس الأول مبنيٌّ على أساس الجعل الإلهي لفكرة خلق الإنسان واستخلافه (الإنسان الذي يُعدّ رأسمال التنمية

---

(١) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، ١، ٩٥.

(٢) محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ١٦.

البشرية)، مما ألزم على الإنسان أن يدرك غاية وجوده بالبحث عن الهدف الثاني المتمثل بالعبادة التنموية والتي تُعدّ احد الآليات والسبل لتحقيق الاستخلاف أيضاً، بالرغم من ما يحمل من مضامين تُعدّ غاية لخصوصيتها، ولكي نضمن للاستخلاف والعبادة موقعهما الرفيعين بعين الله تعالى كهدفين تنمويين أساسيين اقتضى أن يكون هناك هدف ثالث رئيس يحقق تكامل تلك المنظومة السماوية، تمثل الرؤية الكونية التي تجسد الاستخلاف والعبادة والتي عبر عنها بالأمة الوسط بما تحمل من مضامين وتطبيقات تمثل نشاطات الإنسان لتحقيق أهداف ووسائل التنمية البشرية في المنظور القرآني من خلال عمارة الأرض، وهذا يعني إن استخلاف الإنسان في الأرض تعني العبادة إتيان الإنسان بكل تصوراته وحركاته وسكناته على وفق ما يرتضيه الله عزَّ و جل، حسب المنهج الإسلامي[1]، وإن تحقيق هذا النموذج المستخلف الوسط والمعتدل لا يتم إلا من خلال تنميته ذاتياً زيادة على تنمية ما يحيط به من ظروف على الأصعدة كافة، بغية تعميم هذا النموذج التنموي المختار ليشكل مع أقرانه مجتمعاً يمثل امة ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُون** ﴾[2]، لتعميم هذا الإنماء والتطور على المجتمعات الإنسانية والديانات والسياسات الأخرى(أي تحقيق عالمية الإسلام) من خلال التنمية النظرية والعملية.

---

(١) ظ: عباس آل حميد، استراتيجية الإسلام، كيف تساهم في النهوض بالأمة الإسلامية، ١٨٣.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

وخلاصة القول إن جوهر وأهداف حركة التنمية البشرية في القرآن الكريم هو إدراك الإنسان أهمية دوره في الوجود بوصفه خليفة في الأرض لله عز وجل، مما يقتضي ان يفجر جميع قواه الكامنة في داخله لتحقيق تطوير ذاته وتنميتها، ليكون الأمثل الذي يستحق بحق أن يكون خليفة الله على الأرض، من هنا اودع سبحانه المَلَكات والقدرات في الإنسان على التطور وهيّء له الدواعي المادية وقدّر له الدعوة السماوية (الرُسُل والكتب المقدسة) ليصل من كل هذا لمبتغى السماء، فما دعوة القرآن المعجز إلا لماهية التنمية البشرية التي هي السبيل الأمثل للوصول الى الإنسان الأمثل تُحقّقاً.

(٢): مقاييس التنمية البشرية في المنظور القرآني.

سبق أن ذكرنا أن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى الذي أنزله للبشرية ليهتدوا بهديه ويتنوروا بنور شريعته التي رسمت لهم طريق الصلاح وحددت لهم سبل الفلاح ليصلوا لرضاه تعالى وهي أعلى مراتب النجاح، فالقرآن الكريم يحوي بين دفتيه معاني جليلةً وأبعاداً لمجالات مختلفة لقوله تعالى: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾[1]، من هنا (يتبرهن أسلوب ألّلاتفريط المأخوذ لفظه من الآية المشار إليها، وهو باب واسع يمكن على أساسه صياغة كثير من الأطروحات لكثير من المشاكل التي قد تثار في عدد من المواضع والمواضيع)[2].

فالقرآن الكريم لم يتبّنَ نظرية معينة لأحد العلوم الاجتماعية أو التطبيقية على مستوى المنهج العلمي المتعارف عليه في كتب الأبحاث، نعم هناك إشارات كثيرة مفادها التصريح تارة والتلميح تارة أخرى تُعدّ منهجاً أو سبلاً أو أبعاداً أو غاياتٍ أو قد تكون جميعها، بإمكان المفسر والباحث والمتدبر انتزاع هذه الدلالات من الآيات البينات.

فحديثنا عن المقاييس التنموية في القرآن الكريم هي ليست بالضرورة تحكي عن أسس وقواعد المؤشر والدليل التنموي من عدمه، فضلاً عن عدم ضرورة الإشارة علانية إلى ذات التنمية البشرية كعلم له أسسه ومناهجه وخصائصه وأهدافه، وما

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) محمد الصدر، منة المنان في الدفاع عن القرآن، ١٥.

هذا إلا السر الحقيقي وراء أعجاز النص القرآني الذي نستشف كثيراً من المعطيات ونستكشف العديد من المعادلات، وأن متابعة المصطلحات الحديثة وأدبيات العلوم الاجتماعية والنظر في الملائم منه على وفق المنظور القرآني أو الإسلامي نمط معرفي منقوص، مقتضاه الانطلاقة من القرآن إلى تلك المصطلحات وليس العكس، (ففرق بين أن يقول الباحث عن معنى آية من الآيات: ماذا يقول القرآن؟ أو يقول: ماذا يجب أن نحمل عليه الآية؟ فإن القول الأول يوجب أن ينسى كل أمر نظري عند البحث، وأن يتكئ على ما ليس بنظري، والثاني يوجب وضع النظريات في المسألة وتسليمها وبناء البحث عليها، ومن المعلوم أن هذا النحو في البحث في الكلام ليس بحثاً عن معناه في نفسه)[1].

ووقوفنا عند المطلب هذا مراده رؤية موقف القرآن الكريم لمقاييس التنمية البشرية أو التخلف- باعتباره عكس التنمية البشرية- هو ليس من قبيل توثيق ما سنرصده من مؤشرات تُعتمد كأسس لقياس أحد جزئيات مفردة علم من العلوم، أو اعتمادها كهدف قرآني أو غير ذلك (فلا يوجد دليل عقلي أو نقلي على وجود هدفٍ لكل واحدة من السور، بل أن بعض الآيات تعرضت إلى معانٍ متباينة

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١، ٩.

وأهداف متعددة[1])[2] كوننا أكدنا أن القرآن الكريم غير معنٍ بهذه التفاصيل والجزئيات، وقد نطق محدداً غرض نزوله ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[3].

لقد حددنا فيما سبق أن مؤشرات ومقاييس التنمية البشرية في المنظور التجريبي قد تمحورت في ثلاثة أو أربعة محاور، كما ذهب بعضهم إلى دعوة سعة تلك المحاور المذكورة آنفاً لعدم شموليتها واستيعابها لرصد العملية التنموية برمتها وتحديد مساراتها ، إلا أننا نجد أن القرآن الكريم له رؤيته الخاصة في قراءة العملية التنموية، مما حدا أن تكون له مقاييس تكاد تختلف عما تعارف عند بعض المؤسسات والمنظمات الدولية، لقد أهتم القرآن في مقاييس تقدم وتخلف أي فرد أو مجتمع وجعل لذلك مجموعة من المؤشرات تُعدّ بمثابة مقياس لمفردات التنمية من عدمها، كان أهمها وأولها هو القرب والبعد من ذات المفهوم، فضلاً عن ضرورة تزاوج المفهوم والمصداق – أي مبدأ انسجام الجانب النظري والعملي – وانطباق احدهما على الآخر، ولهذا عد الباحث أن مصطلح "نوعية الحياة" هو أقرب مقياس لحركة الإنسان وتطوره، إذ يسعى على تأمين الحاجات الأساسية للإنسان وبين إحساسه بالمستويات العليا للرفاه، لذا كانت الرؤية القرآنية في مقياس التنمية من

---

(١) لقد أشار السيد محمد الصدر قدس الله سره الشريف لما أورده مستشهداً بقوله تعالى ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ﴾ المائدة: ١.

(٢) محمد الصدر، منة المنان في الدفاع عن القرآن٢٦.

(٣) النحل: ٨٩.

عدمها مرتكزة على خصائص من الشمول والتوازن وغيرها، ففرق بين أن تكون الرؤية متكاملة مثل الرؤية القرآنية ، وأن تكون أحادية منقوصة مبنية على المقياس المادي البحت، (لقد حدث ذلك كله انطلاقاً من معيار أساسي يحكم مفهوم التقدم والتأخر، وهو القياس على أساس التقدم المادي ضمن أبعاده المتعلقة بالعلوم والتقنيات والقوى المنتجة وعلاقة الإنتاج)(١).

والنكتة المهمة في تحديد مقاييس التنمية البشرية قرآنياً، هي أن الآيات المباركة قد تعاملت مع كل ميدان أو نشاط أو سلوك حياتي بمنأى عن الميادين الأخرى، فالقرآن عندما يتحدث عن مقاييس نمو القائد غير ما يتحدث عن المدير ومقاييس تطوره، وكذا فالحديث عن مقاييس الأمة الفاسدة فكرياً هي غيرها التي تتحدث عن أمة فاسدة ومنحرفة سلوكياً، وهذا ما سنتلمسه ونحن نستعرض بعض المقاييس التي حاول الباحث انتزاعها من مدلول الآيات المباركة.

وبالعودة إلى كتاب الله العزيز ووقوفنا عند إحدى آياته كقوله تعالى: ﴿**يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً**﴾(٢)، الآية المباركة تتحدث عن نوح عليه السلام وهو يُعدّ قومه بالخير المناط بالإيمان، فهناك (ارتباط بين صلاح المجتمع الإنساني وفساده وبين الأوضاع العامة الكونية

---

(١) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ١٣٢.

(٢) نوح: ١١- ١٢.

المربوطة بالحياة الإنسانية، وطيب عيشه ونكده)[1]، والملفت للانتباه أن الآية المباركة توعد قوم نوح بالخير الوفير وتباشر في تحديد مقاييسه وعلاماته، مبتدئة بالإشارة إلى (نزول المطر الذي به السلامة من القحط وبالزيادة في الأموال... وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش)[2]، وورد الاستغفار في قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[3] أشاره إلى أنه يعني – التكفير عن الأخطاء والشروع بالعمل الصالح- يتسبب في النمو الاقتصادي والبشري والبيئي وهذا ما أكدته الآية المباركة ﴿يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾بقرينة نزول المطر الذي يشير إلى عموم الخير، وإلى دلالة الآية ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾حيث تبين أهمية المورد الاقتصادي الذي يُعدّ من أهم دعائم التنمية البشرية، وكذا هي الحال لمؤشر المورد البشري الذي يُعدّ العمود الفقري للعملية التنموية، لتختم الآية بمؤشر ودليل آخر للتنمية البشرية وقياسها، أما قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ فهو تعبير عن أهمية المورد الطبيعي كمؤشر يقاس به حجم مستوى الإنماء، (حيث تستوعب المياه وتُقلُّها للشاربين إنسا وحيوانات، وسقاء للجنان والأشجار والمزارع، وثابت علمياً وعملياً أن وجود الأنهار من العوامل الحضارية الأساسية، لأنه سبب الزراعة التي هي بدورها من مظاهر الحضارات

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢٠، ٣٠.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،مج ١٢، ٢٩، ١٩٨.

(٣) نوح : ١٠.

ومقوماتها)[1].

أما فيما ورد في كتاب الله العزيز قوله تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾[2]، فالآية المباركة تشير صراحة إلى (وضع المال والثروة والقوة الإنسانية الذين يُعتبران ركنين أساسيين في الحياة الدنيا)[3].

فالآية المباركة كالتي سبقتها فهي تشير إلى أهم العناصر لديمومة الحياة، وهي عنصر الموارد الاقتصادية، عنصر الموارد البشرية، عنصر الموارد البيئية أو الطبيعية، فالتفاخر بهما مبنيٌّ على أساس أهميتها، فضلاً عن تأكيد القرآن الكريم أهمية البعد الروحي المتمثل بـ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**﴾، فهو خير عند الله تعالى، (فتقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية وخيرات الآخرة دائماً باقية بقرينة ﴿**يْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾)[4]، فالقرآن الكريم أشار إلى خير الدنيا ووضع مقاييسها إلا أنه ضعف هذا الخير قبال خير الآخرة وهي ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**﴾.

أما مدلول قوله تعالى:﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي**

---

(١) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن ، ١١، ٢٦٢.

(٢) الكهف، الآية ٤٦.

(٣) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧، ٥٩١.

(٤) الرازي، التفسير الكبير، مج ١١، ٢١، ١٢٠.

بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾[1]، فمدلول الآية المباركة يصب بذات مصب من سبقتها من آيات، فهي تشير إلى أهمية الموارد الاقتصادية والموارد البشرية بقرينة (**وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**) كمؤشر مهم يقاس به هيمنة وسلطة بني إسرائيل.

وكذا هو مدلول بقية الآيات التي تعرض لهذا الباب، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[2].

فالتفضيل في الآية المباركة مبنٍ على أساس تيسير السبل والطرق والدليل للوصول إلى الرزق من الطيبات التي عنوانها العموم من الأرزاق (وقد جمعت الآية خمس منن، التكريم، تسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات)[3]، فالآية المباركة تؤكد خمس مزايا خصها الله تعالى للإنسان دون المخلوقات الأخرى، حتى عُدت من مزايا التنمية البشرية معياراً ومزيةً ومقياساً لمكان البشر ورفعتهم.

ثم وضحّ القرآن الكريم ليشير إلى مطلب مهم هو أن الامتثال لأمر الله تعالى

---

(١) الإسراء: ٥، ٦.

(٢) الإسراء: ٧٠.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج ٦، ١٥، ١٦٤.

ولأوامر منظومته السماوية يكون فيها خلاص البشر وسعادتهم دنيوياً وأخروياً، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[1]، فالأكل في هذه الآية ﴿لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، كناية عن مستوى السعادة والترف والرفاه، فهو (تأكيد أكيد على أن أقامة الحق وحفظ الشرائع السماوية توجب السعادة والتنعم بالنعم الإلهية المعدة لعباده المؤمنين، والمراد من الأكل مطلق التصرف والتنعم....ولكن سيستفاد من ظاهر الآية أن هذه النعم كلها تختص بالدنيا، فتصلح شؤونهم فيها)[2].

وإن دلالة هذه الآية دلالة واضحة بإزاء الإنسان دنيوياً وتنعمه مادياً بامتثاله لتلك الأوامر، فيكون الأكل بتعبيره المجازي مؤشراً لارتقاء الإنسان بنفسه وتنمية ما يحيط به، فكلما زاد الخير نال الإنسان منه، وأن زيادته إطرادية مع نضوج التنمية البشرية.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً﴾[3]، فسياق الآية يدل على بعدين هما: أولا إن امتثال الإنسان للأمر الإلهي الذي يُعدّ مؤشراً إلى تنميته ووعيه ونضوج عقله مما يقتضي بموجب الإدراك أن تتسع خياراته، أما الأمر الثاني فإن الامتثال لأمر الشريعة هو تجسيد لمنظومة العدالة السماوية في

---

(١) المائدة: ٦٦.

(٢) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ١٢، ١٠٩.

(٣) الجن: ١٦.

مجالات الحياة كافة التي تُعدّ سبباً وعلامة لسعة الرزق ومؤشراً للتنمية البشرية الحقيقية التي ترتب عليها هذا الخير لأن المراد من ﴿**لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً**﴾ فهو (مثل أريد به التوسعة في الرزق)[1] وإن هذه التوسعة على مستوى العموم كما هو واضح من سياق الآية المباركة بدليل استعمال ضمير الجمع (هم) الذي يدل على عموم المجموعة.

قال الله تعالى:﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَّ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهَُّ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهَُّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[2]،إن الآية المباركة تسلط الضوء على علة اصطفاء الله تعالى لطالوت عليه السلام محل شاهدنا، وكيف هو الاصطفاء الذي عُد علامة للدلالة على قابلياته وإمكاناته التي تنم عن مرحلة متطورة من الإنماء الذاتي المتضمن للإنماء العقلي والنفسي والبدني، وهي صفات مهمة للإنسان بصورة عامة وللقائد أو المدير بصورة خاصة، ولهذا نجد أن القرآن الكريم قد أكد صفتين (ينبغي وجودهما في كل ملك وقائد، فإن بالأول يدير النظم ويدبر الأمور وهما يتطلبان معرفة المصالح والمفاسد، والعلم بخصوصيات الإدارة، أما الثانية: فبها يمكن بسط نفوذه وهيمنته والمجتمع)[3].

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢، ٥٠.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

(٣) عبد الاعلى السبزواري، مواهب الرحمن، ٤، ١٤٤.

فنجد أن القرآن الكريم يؤكد من خلال سياق الآية المباركة ركنين أساسيين هما العلم والشجاعة كعلامة يقاس بهما نجاح هذا المجال التنموي والإداري والسياسي في الوقت الذي نجد أن الجانب الاقتصادي قد ضُعف في هذا المطلب وهذا ما تذكره الآية حيث اشتبه بنو إسرائيل وظنوا أن يكون الملك وإدامته ببسط المال، حين اعترضوا على نبيهم "اشموئيل» عليه السلام حيث قال لهم نبيهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً**﴾، فاستنكروا مستفهمين، ﴿**قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ**)، وذلك (لأننا أكثر أموالاً منه والملك يجب أن يكون غنياً وليس لطالوت كذلك﴾[1].

﴿**وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ**) هنا كان ظن بني إسرائيل الذين كانت مقاييسهم مادية بحتة أن تكون مزية القيادة كذلك في الوقت الذي أشار نبيهم عليه السلام قائلاً: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾، أي إن هذه (هي كفاءة القيادة الحربية أن يكون قادراً عليها جسدياً وعلمياً)[2].

لقد حاول الباحث متدبراً في سياق بعض الآيات المباركة أن يستنطق مدلولها لمعرفة دليل التنمية البشرية ومقاييسها في المنظور القرآني، فهو، حيث وقف عند الآيات التي تؤكد مؤشرات التنمية البشرية، كما هو واضح مما تقدم، أما هنا فالباحث يأمل أن يقف عند آية مباركة أخرى كمثال وكنموذج للتحدث عن عنوانات أخرى كالبلاء والتخلف والفساد والظلم والمعصية وغيرها من

---

(١) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ١، ٣٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ٣٠٣.

العنوانات التي تتضمن بعض المقاييس القرآنية لكل عنوان، محاولاً أن ينتزع بعض المؤشرات والمقاييس التي إن عكسها ستكون مؤشراً للتنمية البشرية، أي أن لمفهوم التنمية البشرية مؤشراته ومقاييسه الخاصة به، وكذا لمفهوم آخر كالتخلف – الذي هو عكس التنمية والتطور– له مقاييس تدل عليه، وأن تسليط الضوء عليها من القرآن الكريم والإشارة إليها يعني الإشارة إلى مؤشرات المفهوم المعكوس، وبعكس المطلب تتبين مؤشرات مفهوم التنمية البشرية عن طريق آخر.

فعندما نريد أن نقف عند قوله تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ**﴾[1]، نجد واقع ما نصبو إليه، فدلالة الآية المباركة تحكي عن (الاختبار الإلهي العام والمظاهر المختلفة باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير)[2]، كما تطرقت الآية المباركة إلى مؤشرات عديدة يمكن القياس عليها لعظيم البلاء الذي قد يُربك العملية التنموية المتكاملة ويشل من حركة الإنسان، إلا إذا عزم على تحمل أعباء ذلك البلاء بصبر وعزم وإرادة للانطلاقة نحو الإنماء، (ولما كان الانتصار في هذه الاختبارات، لا يتحقق إلا في ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك: ﴿**وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ**﴾)[3].

وبالعودة إلى المؤشرات القرآنية في الآية نجد أنها لم تغفل شيئاً من مؤشرات

(١) البقرة: ١٥٥.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١، ٣٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ١، ٣٦٤.

البلاء التي يقاس بها حجم ذلك البلاء الذي يصيب بعض الأمم والتي تربك حركتها التنموية، ومعنى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ (لنختبرنكم، نعاملكم معاملة المختبِر ليظهر المعلوم منكم)[1]، وما البلاء إلا من قبيل الاختبار الإلهي، (باعتباره سنة كونية لا تنقض من أجل تفجير الطاقات الكامنة، ونقلها من القوة إلى الفعل)[2]، ﴿مِنْ الْخَوْفِ﴾ يعني (خوف العدو)[3]، والخوف من الحروب يسبب عدم الاستقرار وفقدان الأمان، ﴿وَالْجُوعِ﴾ قيل التشاغل عن المعاش والحاجة إليه، وقيل القحط والجدب[4] وهذا يعني الفقر بعينه، ﴿وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ﴾، (والنقص يأتي بمعنى الخسران، والمراد بالأموال الأعم من الأعيان والمنافع وما يهتم الإنسان بحفظه)[5]، وهو مؤشر يقاس به خلل المنظومة الاقتصادية، (وَالأَنفُسِ: الأمراض)[6] و(الموت)[7]، وهذا مؤشر آخر لقياس المورد البشري في إرباك حركة الأمة التي يعتريها البلاء،

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن،مج١، ٢، ٣٩.

(٢) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١ ، ٣٦٥.

(٣) دار الكتب العلمية، تنوير المقباس من تفسير أبن عباس،٢٢.

(٤) ظ: الشيخ الطبرسي مجمع البيان في تفسير القرآن، مج١، ٢، ٣٩.

(٥) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ٢، ٢٠٧.

(٦) الزمخشري، الكشاف، ١،٥٩.

(٧) الطبرسي،مجمع البيان في تفسير القرآن، مج١،٢، ٣٩.

(﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾، موت الأولاد)[1] وقيل (أراد ذهاب حمل الأشجار بالجوائح وقلة النبات وارتفاع البركات)[2] ولعلّ المراد عموم الخير والرزق، بينما نرىٰ الطباطبائي يلخص رأيه بقوله: (وعامة الشدائد التي يأتي بها هو الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس فذكرها الله تعالىٰ، وأما الثمرات فالظاهر أنها الأولاد، فإن تأثير الحرب في قلة النسل بموت الرجال والشبان أظهر من تأثيره في نقص ثمرات الأشجار)[3].

والحق أن مؤشرات التنمية البشرية ومقاييسها في القرآن الكريم تتباين من مورد لآخر بحسب المطلب، كما هو واضح مما تقدم من الآيات المباركة والتي أوردناها كنموذج فحسب، فضلاً عن تأكيده -القرآن الكريم- عملية تزاوج الجانب المادي والروحي في المؤشر التنموي ومفهومه.

---

(١) الكشاف ، الزمخشري، ١، ٥٩.

(٢) الطبرسي،مجمع البيان في تفسير القرآن، مج١، ٢، ٣٩.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢، ٣٤٩.

(٣): تخلف التنمية البشرية ومعوقاتها - رؤية قرآنية.

إن العمل بمضامين ومقومات التنمية البشرية يُعدّ سبيلاً وهدفاً لبناء الحضارة الإنسانية وتقويمها، وبقدر اهتمام الباحث بهذه المضامين والمعطيات التي ولدّت تنمية الإنسان وحضارته، اهتم الباحث اهتماماً كبيراً بالأسباب التي ستؤول بالحضارة والإنسان إلى التصحر والركود، الذي سينتهي باغتيال حقيقي للحضارة والإنسان نتيجة تقهقر الإبداع والتطور وتعويضها بأنماط من العادات والنشاطات الذميمة والمستقبحة شرعاً وعقلاً ووجداناً .

حيث أكد الباحث في المطالب السابقة أن التنمية البشرية هي تنمية فكرية وأخلاقية وإدارية كما هي تنمية اقتصادية واجتماعية وسياسية، بحيث تشكل جميعها منظومة اجتماعية تمثل الميادين كافة، كما تناول ليؤكد الميدان الفكري بحيث عده بمكانة الحجر الأساس لتلك المنظومة الاجتماعية، وان جميع هيكل البناء الفوقي للمجالات الأخرى تبنى تباعاً فوق هذا الجانب.

ولأن التنمية البشرية مجموعة من نظم فكرية معتد بها يُعمل على ترجمتها سلوكياً غايتها الانعطاف بالإنسان من حال إلى أحسن حال، كان التخلف هو تعطيل تلك الإجراءات والأدوات العملية لترجمة ما استخلص من أفكار، هذا إن لم نقل إن التخلف قد ينبع أساساً من فساد فكري يعمل على نخر العقل البشري فيكون الإنسان فيه أسيراً لمبادئ خاوية، كون الخلاصة في ذلك هو ناتج التأثير والتأثر بين المنظومة الفكرية والإنسان - الذي هو رأس مال الرؤية القرآنية- وما يعقبها من إجراءات سلوكية يُعدّ عين الانتقال بين التطور والتخلف.

نخلص مما تقدم أن تخلف التنمية البشرية بني على تخلف الجانب الفكري، ولهذا كانت النظرة القرآنية للتخلف هي نظرة فكرية أولاً ومن ثم اقتصادية أو سياسية أو غيرهما، وإن كل ميدان له مساحته في التأثير في العملية التنموية كل بقدره، على أساس ما تبنيناه سلفاً في أن التنمية تتأثر بجميع العوامل المكونة لها، وهذا الاستدلال سنستصحبه على التخلف أيضاً بالرغم من قناعة الباحث بأهمية الجانب الفكري بوصفه حجر الأساس لكل عمل، وهذا ما سنستوضحه من مدلول بعض الآيات التي سنقف عندها، كون النظرة الفكرية تستوعب كافة مظاهر ونتائج وأسباب التنمية البشرية أو تخلفها، كما تُعدّ معالجات التخلف في المنظور القرآني معالجات فكرية أيضاً، فالقرآن الكريم يصور لنا تلك العلة من خلال الاستفهامات الاستنكارية الذي تعارف عليه نمط سياقه، بحيث نستخلص من ذلك أن التخلف مرجعه عزوف الإنسان عن استثمار الموارد المتاحة – المسخرة – له، في الوقت الذي تعاملت النظرية القرآنية مع الإنسان على أنه خليفة الله تعالى في الأرض وحامل أمانته.

وعلى أساس ما تقدم نجد هناك تبايناً واضحاً بين الفكر الوضعي والرؤية القرآنية حول مفهوم التخلف، بالرغم من سعة التباين داخل حلبة الفكر الوضعي حصراً، فقد حدد الباحثون هوية هذا المفهوم كل بحسب تخصصه، فالاقتصاديون عرفوه على أنه: مجموعة من الظواهر التي تصاحب انخفاض الإنتاجية، و يرى آخرون أنه: انخفاض نسبة المتعلمين بالقياس إلى مجموعة السكان، أو طبيعة النظام الحقوقي السائد.

بينما عُرف التخلف على وفق المنظور الإسلامي على أنه: عجز البنية الاقتصادية

والاجتماعية عجزاً كاملاً أو جزئياً عن تحقق معدل استثمار مستمر يعلو على معدل الزيادة السكانية، بما يجعلها – أي البنية – غير قادرة على الوفاء بالحاجات الأساسية، بسبب تقصير الإنسان في مهماته الاستخلافية من الجهة السياسية والاقتصادية، أو من جهة عدم استجابة الأفراد لبرامج الاستخلاف في تكليف الإنسان شرعاً بعمارة الأرض[1]، بينما وصِف التخلف بتعبير آخر على أنه (نمط من الوجود تنحط فيه الأوضاع النفسية والذهنية والسلوكية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن المستوى المقبول في معايير المنهج الرباني، وعن الوفاء بمتطلبات العيش الكريم الملائم للإنسان المسلم)[2]، يُعدّ التخلف في الرؤية الإسلامية ذا بعدين هما (التخلف عن الهدى الرباني والتخلف في المستوى المعيشي والمهني والاجتماعي)[3].

أما الباحث فقد صور التخلف بحسب وجهة نظره على أنه عبارة عن تدنٍ بمستوى الإنسان على صعيد الجانب الفكري أو على أحد أصعدة الحياة المختلفة أو بعض منها أو جميعها بمنظار الرؤية الكونية التي ينتمي إليها الإنسان، وهذا يعني عليه أن يقلص الهوة أو البون بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

---

(١) ظ: الأنوار الخمسة، شبكة البتول، المكتبة الإسلامية التخلف ومفاهيمه في الفكرين الوضعي والإسلامي.
http://www.anwar5.net/albatoul/index.php?id=3961 ، موقع ألكتروني.

(٢) عبد الكريم بكار، تجديد الوعي ، ١١٢– ١١٣.

(٣) ظ: المصدر نفسه، ١١٣.

وفي ضوء التباين في تحديد المفهوم تباينت بقية المفردات التي تلتحق به ومنها الأدوات التي يُقاس فيها التخلف وحجمه ومؤشراته، حيث عد بعض من الباحثين أن مفهوم التخلف يقاس مقارنةً بفترتين زمنيتين أو ببلدين أو بهما معاً، فمن الممكن أن يقاس مستوى الدخل مقارنةً بين مستوى الدخل القومي ومتوسط دخل الفرد، وكذا قياس مستوى الدخل ببلد ببلد آخر، فضلاً عن قياسه بالفترات الزمنية السابقة، لأن (مفهوم التخلف يقوم على أساس المقارنة....مقارنة معدل التنمية البشرية فيما بينها، مقارنة الأوضاع العامة لفترتين مختلفتين في بلد معين، مقارنة بلدين في مرحلة معطاة من الزمان)[1]، ثم شخص بعضهم أن معايير التخلف هي ذاتها معايير قياس التنمية البشرية والتي يقصد بها (التعليم، الصحة، دخل الفرد)[2] كون التخلف هو المفهوم المعاكس للتنمية البشرية، وإن انتكاس وتدني المعايير أعلاه يُعدّ تخلفاً.

فعلى الرغم من صحة ما تقدم بنسبة ما فإن الباحث يختلف مع بعض الباحثين في تحديد هذا المفهوم ومقاييسه كما اختلف معهم في مقاييس التنمية البشرية[3]، فهو يرى ضرورة سعة مساحة مقاييس التخلف وعدم حصرها في مؤشرات محدودة، كما هي حال تبنيه بسعتها في التنمية البشرية.

ولأهمية الموضوع كان هذا المطلب الذي تبنى محوراً مهماً لتسليط الضوء على

---

(١) إبراهيم حسين العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ٣٢.

(٢) راجع ص١٧٩ - ١٩٢ من الكتاب.

(٣) راجع ص ١٨٣من الكتاب.

تخلف التنمية البشرية ومعوقاتها، فإن بيان علة أي نشاط سلبياً كان أم ايجابياً يُعدّ المدخل أو نافذة الإطلالة نحو الاتجاه المقصود، فتشخيص موارد القوة أو الضعف هو تشخيص لخيار الإنسان وهدايته إلى احد الخيارين، ومن هنا فالقرآن صرّح أن الكشف عن معالم أي طريق ضرورة شرعية وعقلية كتبها الله جلَّ وعلا على نفسه ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا**﴾[1]، فالرسول هو الدليل للهداية إلى رضا الله تعالى وطريق السواء والتنمية لبناء الحضارة الإسلامية، من خلال الاعتقاد برسالة الرسول أولاً وبالامتثال لأمر السماء ثانياً، وما التخلف إلا نقصهما معاً والعزوف عنهما، فالقرآن الكريم يعرض كثيراً من صور قصص الأمم التي عاقبها الله وانتكست حضارتهم نتيجة انتهاجهم واستخدامهم لنمط وألوان التخلف.

ولكي نستوعب هذا المحور علينا تشخيص الأسباب الحقيقية للتخلف بغية تحديدها واجتثاثها والسعي للعمل على مخالفة نهجها بالانعطاف نحو التنمية والتطور، مع ضرورة وجود المائز للتفريق بين العوارض والمصدات الذاتية والموضوعية، أي ما بين أن يكون السبب في التخلف بعامل الفرد نفسه أو بين أن يكون التخلف موضوعياً بسبب عامل الضغط العام كالظروف التي تحيط بالفرد أو المجتمع .

وبالنظر إلى آيات القرآن الكريم نجد نمطين من الخطاب القرآني، خطاب يحاكي الإنسان مباشرة بصيغة المفرد أو الجمع إلا أن المراد منه مخاطبة كل فرد بعينه كقوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**

---

(١) الإسراء: ١٥.

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[2]، بينما نجد أن النمط الآخر من السياق القرآني كان مهمته التركيز على الجو والمناخ العام للمجتمع، حيث حمّل السياق القرآني مسؤولية التطور والتخلف إلى المجتمع عموماً، الذي هو مجموعة أفراد ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3]، فالنمطان لا يعني انحسارهما فيما سنذكره، أي إن هناك مجموعة من العلل بإمكاننا اعتبارها علة ذاتية وموضوعية في آن واحد كما هي الحال في تخلف الاستشراف المستقبلي والتخطيط إليه، فهذه العلة يتحملها كلا الطرفين أي الفرد والمجتمع، لذا كان الاهتمام في مبدأ التخطيط الفردي والتخطيط المؤسساتي كقوله تعالى: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[4]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[5].

بينما نجد أن كلا النمطين قد تعامل معهما القرآن الكريم على أساس التخلف وقد وسمهما بتسميات متعددة، حيث صورّت الآيات الكريمة التخلف على أنه

(1) القصص:77.

(2) العصر:1-2.

(3) الرعد: 11.

(4) الأعراف: 199.

(5) آل عمران: 104.

عملية ركود للقيم وإجهاض للإبداع وإتباع للمفاهيم المتدنية و العمل بسلوك غير سوي، حتى بات التخلف منعطفاً سلبياً تصحرت فيه التنمية البشرية وتراجعت خطواتها من خلال التغير السلبي، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فقد صوّر القرآن الكريم عملية نكوس التطور وتراجعه بتسميات عدة كالضلال والشقاء والكفر والفسق والفجور والجحود والظلم والمعيشة الضنك وغير ذلك من مصاديق آياته.

قال الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[2]فصيغة الدعاء في السورة لطلب الهداية والاستقامة باعتبار أن (المعرفة والاستقامة كلتيهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته.... فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين... فهو طريق اللذين قسم لهم نعمته، لا طريق اللذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه)[3].

فإن كثيراً من الناس ينحرفون عن الهداية والاستقامة لضغوط الشهوات الدنيوية وملذاتها أو لجهلهم بالدين، بحيث يُسلب منهم نور الفطرة ووهج العقل، فإذا بهم

---

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) الفاتحة: ٦- ٧.

(٣) سيد قطب، في ظلال القران، مج١، ١، ٢٦.

في ظلمات لا يُبصرون بحيث يكونون بالقرب من غضب الله ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بينما نجد الذين تعمدوا الانحراف سلب الله منهم نعمة الهداية فضلّوا منحرفين إلى الأبد ﴿الضَّالِّينَ﴾، لذلك يدعو المؤمنون أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم من خلال التخلص من الضلالة اللاواعية أي من الانحراف[1]، والضلال أو التيه هو ما (يقابل الهدى، والضالون هم الذين سلكوا غير طريق الهدى فأفضى بهم إلى الهلاك الأبدي والعذاب الدائمي، ولكنهم دون المغضوب عليهم في شدة الكفر، لأنهم وان ضلوا الطريق المستقيم عن تقصير في البحث والفحص، إلا أنهم لم يعاندوا الحق بعد وضوحه)[2]، ومن هنا يتضح أن الضلال والتيه - بشقيه أي النابع عن تقصير في النظر أو النابع عن العناد مع العلم - هما تخلف وانحراف عن الجادة المستقيمة، لأن التخلف هو مَنْ يهدّد المنظومة الفكرية والعقائدية ومن ثم يوقف حركة التطور والتنمية البشرية.

وبما إن التنمية البشرية القرآنية مسعاها درأ الضرر عن البشر وجلب المنفعة لهم، نلمس هذا المحور جلياً في سورة الفاتحة والآيات التي تناولناها، فطلب الخضوع أو طلب المعونة منه سبحانه وتعالى أمر مُسلّم، لأن غيره عاجزاً عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها، وطلب العناية الخاصة منه بإرشاده للطريق السوي وتجنبه لطريق الذين سخط عليهم والذين ضلوا طريق الصواب فتاهوا في الضلال

---

(١) ظ: محمد تقي المدرسي، من هدى القران، ١، ١٤٦.

(٢) أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القران، ٤٨٧.

والظلام[1]، وإن نبذ التخلف والسير باتجاه الطريق السوي هو عين نشاط التنمية البشرية.

قال تعالى في كتابه العزيز:﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[2].

أذ ذهب بعض المفسرين إلى أن آية ﴿**فَلا يَضِلُّ**﴾معناها أن الإنسان: (إذا اتبع الهدى الوارد من الله على لسان رسله سَلِمَ من أن يعتريه شيء من ضلال...أي فلا يعتريه ضلال في الدنيا)[3].

فالهداية هو جهد مبذول لاستنارة الطريق أو معرفة السبيل بالكشف عن الضلالات وتجنبها وتنحيها، وذلك بالعمل على سنة السماء وتشريعاتها التي تفتح نافذة الاستقرار ونافذة الأمان ونافذة السعادة التي هي نوافذ للتطور والارتقاء التي تطل على باحة الحياة الدنيا والآخرة، لأن مراد الآية من(**فَلا يَضِلُّ** أي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة)[4]، كما إن الآية المباركة تدل على (أن المراد بالهدى الذي ضمن الله على إتباعه ذلك إتباع الأدلة، وإتباعها لا يتكامل إلا بان

---

(١) محمد تقي الخوئي، قبس من تفسير القرآن، ٤٣.

(٢) طه: ١٢٣-١٢٤.

(٣) ابن عاشور تفسير التحرير والتنوير، مج٧، ١٦، ٣٣٠ .

(٤) الطبرسي، مجمع البيان، مج٤، ١٦، ١٥٢.

يستدل بها وبأن يعمل بها، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى)[1]، أما قوله تعالى﴿ :**فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً**﴾ (أي عيشاً ضيقاً)[2]، حيث تدلنا الآية على أن الضنك هو عدم القدرة على العطاء والإنتاج الاجتماعي الذي يؤمن متطلبات وحاجات الفرد أو الأفراد (إذ رتب على الإعراض عن هدى الله اختلال حاله في الدنيا والآخرة فالمعيشة مراد بها مدة المعيشة، أي مدة الحياة)[3].

كما عرض القرآن الكريم للكفر في موارد كثيرة كمصداق حقيقي للتخلف وكمعوق للتنمية والتطور البشري، قال تعالى : ﴿**فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[4]،وقال سبحانه جلّ وعلا :﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[5]، فعملية تبديل الكفر إزاء الإيمان هي عملية ضلال و خروج عن الجادة الشرعية المقدسة، وهي عين التخلف لأن الإيمان هو الطريق الواضح والسبيل القصير للوصول إلى مبتغى الإنسان في تحقيق أهدافه العليا وما نشاطات التنمية البشرية على سطح الأرض إلا مصداقها.

والآية المباركة تسعى لتسليط الضوء على نكتة هي: إن نشاطات وأعمال

---

(١) الرازي، تفسير الكبير، مج١١، ٢٣، ١٢٦.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، مج٤، ١٦، ١٥٢.

(٣) ابن عاشور تفسير التحرير والتنوير، مج٧، ١٦، ٣٣١.

(٤) المائدة: ١٢.

(٥) البقرة: ١٠٨.

الإنسان لها جهة عِلّية في نفس الفاعل فتكون مؤثرة فيه بنحو من الانحاء فيصير علة لعمله، وعمله علة مؤثرة فيه أيضاً، فإذا كان العمل الصادر من الإنسان خيراً أثر فيه واوجب صفاء النفس ونوراً في قلبه، وان كان شراً اوجب ظلمة وكدورة[1]، فلا يستطيع أن يهتدي إلى سبيل التنمية البشرية فيظل في حيز محدودية الحياة المتخلفة .

وبمقتضى ذلك فإن النتيجة التي نستخلصها من مدلول الآية المباركة هي: إن العلة تأثر أثرها أينما كانت وان الأمر يدل على المؤثر وبهذا فعملية تبديل الكفر وإحلاله يعني إحلال التخلف والضلال والتيه وضياع الإبداع والتنمية والتطور.

وان عملية سواء السبيل يقيناً تأتي من اثر وجود الإيمان بفعل ما يحمل من مؤثرات على الإنسان وما يحيط به، وهنا ستنتعش التنمية وستركب عجلتها على سكة السبيل إلى الله تعالى كحالة طبيعة بفعل تأثيراتها كونها نتيجة طبيعية لعلة المناخ الإيماني .

أما الآية المباركة: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾[2]، فهي تحاول أن تستوضح السخط الإلهي وعقابه، العقاب الذي لم يكن أن ينزل بأمة من دون وجود علة وباعث لذلك، وهذا ما نستوضحه لو تأملنا بحرف الفاء من قوله تعالى ﴿**فَفَسَقُوا**﴾ فالفاء سببية، أي أن سبب نزول العذاب هو الفسق والفجور، كما ذهب بعضهم في تفسير الآية قائلاً هي من قبيل قولنا: (أمرته فعصاني، حيث تكون المعصية وهي منافية للأمر قرينة

(١) ظ، عبد الاعلى السبزواري، مواهب الرحمن، ١، ٤٥٣.

(٢) الإسراء: ١٦-١٧.

على كون المأمور به هو الطاعة، والفسق والمعصية واحد فإن الفسق هو الخروج عن زي العبودية والطاعة فهو المعصية ويكون المعنى حينئذ :أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا عن أمرنا وعصوه، أو يكون الأمر في الآية مستعملا استعمال اللازم، والمعنى توجه أمرنا إلى مترفيها ففسقوا فيها عنه)[1].

بغض النظر عن كثير من الآراء في تفسير أو تأويل الآية المباركة إلا أن الذي استفدناه من مدلولها، إن هلاك أي امة أو قرية مرهون بالفسق وهو الخروج عن النطاق الشرعي الذي شرع نظاماً متكاملاً لإحياء وبناء الإنسان وتطوير ما يحيط به، وذلك بالاستقامة والعدل فكما تُعدّ العدالة هي معيار النهوض والبناء والتطور والتنمية، فكذا الفسق يُعدّ احد معوقات التطور والإنماء بل وصورة حقيقية للتخلف والتراجع والتقهقر.

وبالوقوف عند قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[2]، نستفيد من مدلول الآية إن الحاكم بصورة عامة هو صاحب التغير وهو القادر على تغير المعدلات بحكم امتلاكه للأدوات أن ينحو برعيته نحو سبيل الخير والاطمئنان والسعادة أو العكس، وهذا ما صرحت به الآية، حيث حددت مسؤولية الواقع الفاسد في الأرض على الحكام

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان،١٣، ٦١ .

(٢) الشورى: ٤٢.

الظلمة كونهم (يريدون السيطرة على الناس ونشر الفساد)[1]، فالظلم يعني كبت الحريات ومصادرة الحقوق والحكم بالتعسف والجبروت، حيث يُعدّ ذلك نمطاً من أنماط الفساد الفكري والسلوكي، ومعوقاً أمام حركة التنمية البشرية.

وهكذا هي حال التخلف حين نقف عند قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[2]، فقد ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً**﴾بقرية في اليمن مطمئنة، ﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ**﴾ تخلفاً منها فانهار نظامها الفكري والاقتصادي والأخلاقي وبقية المنظومة الاجتماعية، حيث أصبحت أنموذجاً قرآنياً لتخلف التنمية والتطور، فالآية (تشير إلى قوم سبأ الذين عاشوا في اليمن ... وكيف كانوا يعيشون على ارض ملؤها الثمار والخيرات في امن وسلام حتى أصابهم الغرور والطغيان والاستكبار وكفران النعم الإلهية)[3]، وما ذلك إلا معوقات للتنمية المتكاملة، فهذا نلحظ أن الكفر بالنعمة هي احد سبل غلق منافذ التنمية البشرية سواءاً كانت الفكرية ام الاقتصادية او أي ميدان من ميادينها الاخرى .

وكذا هي الحال لبقية الآيات التي أكدت ذات المطلب، ومنها قوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ**

(١) محمد تقي المدرسي، من هدى القران، ٨، ٤٠٨.

(٢) النحل: ١١٢.

(٣) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧، ١٨٩.

يَرْجِعُونَ ﴾[1]، وكذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2]، نجد أن المنظومة القرآنية كانت حريصة كل الحرص أن تضع آليات لرفع موانع ومصدات التنمية البشرية، كان أولها التحفيز على التفكر والتدبر والنظر، حتى بات هذا النمط من التحفيز نمطاً قادحاً في عقول ونفوس البشر لانتزاع العلم والمعرفة كأحد أهم العوامل للارتقاء بالإنسان، فضلاً عن أهمية دور النشاط الجمعي وتأكيده على الانضباط الاجتماعي ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يُعدّ أحد أهم أدواته، كما يُعدّ القصاص من الأدوات المهمة في إزالة المعوقات التنموية، من خلال الضرب على من يتعمد على مخالفة النظم القرآنية لمجالات الحياة كافة، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]، فالمنظومة القرآنية تعاملت مع المفسدين على أنهم جنود التخلف مما أوجب أن يكون جزائهم هو : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4]، بينما تعاملت الرؤية القرآنية مع من ينبذ ويرفض التخلف ومصاديقه من فساد وعلو في

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) هود: ١٠٢.

(٣) البقرة: ١٧٩.

(٤) المائدة: ٣٣.

الأرض وظلم أن يتلمسوا سعادة الدنيا وخير الآخرة، لقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1].

أما الآية المباركة من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[2] فهذه الآية المباركة قد اختزلت جهداً كبيراً من تفكير الباحثين وتأملهم في صدد هذا العنوان، لعلمنا أن القران الكريم قد بين محددات ومسارات التنمية البشرية التي تقود الإنسان إلى الرقي والتطور، كما بيّن المفهوم المعاكس له المتمثل بالتخلف صوره ومصاديقه، فالقرآن الكريم قد أشار إلى هذه المعاني بآيات عدة، إلا أن الآية المباركة التي نحن بصددها أوجبت الامتثال لأمر الله تعالى لقوله جلّ وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ**﴾، فالوجوب يكمن باتخاذ ﴿**الْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾ بوصفه معياراً للتنمية البشرية كما اشرنا لذلك سلفاً، كما نهت الآية لقوله تعالى: ﴿**وَيَنْهَى**﴾ بلزوم ترك ﴿**الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ واعتبار ذلك من معوقات التنمية البشرية، ومصداقاً للتخلف.

وما الآية المباركة إلا مسعى لعرض أنموذج من التعليمات الإسلامية في شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية حيث تضمنت أصول وقواعد ذات طبيعة ايجابية تتظافر مع غيرها من القواعد لتشكل مرتكزات المنظومة الفكرية التي تقود الأفراد لتحقيق التنمية البشرية وصورها، مثل ﴿**الْعَدْلِ**﴾ الذي يُعدّ

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) النحل: ٩٠.

قانوناً تدور حوله جميع أنظمة الوجود، إضافةً إلى ﴿الإِحْسَانِ﴾ الذي يشكل روح العدل والقانون، ومصداقهما في ذلك ﴿إِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾، بينما نجد قوله تعالى: ﴿يَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ فالنهي هنا هي الصورة الأخرى لبعض من مقومات تنمية الفرد أو الأفراد نحو التقدم والتألق حيث يظهر إن ﴿الْفَحْشَاءِ﴾ أشارة إلى الذنوب الخفيفة، ﴿والمُنكَر﴾ أشارة إلى الذنوب العلنيةّ، ﴿وَالْبَغْيِ﴾أشارة إلى كل تجاوز عن حقوق الإنسان المعنوية والمادية وذلك بظلم الآخرين والاستعلاء وغصب حقهم[1].

على أساس ما تقدم من مداليل للآيات التي عرضت، لزم تأكيد ما اشرنا إليه في مطلع مطلبنا هذا، حين قسمنا معوقات التنمية البشرية على وفق الرؤية القرآنية على قسمين أولاً المعوقات الذاتية : وهي التي سيكون فيها الفرد مسؤولاً عن تخلفه بغض النظر عن تخلف أو تطور محيطه الخارجي، وشواهد ذلك الجهل، الضلال، عدم وضوح الرؤية ، العبثية، الازدواجية وانفصام الشخصية، عدم اقتران القول بالعمل، الكذب، غياب التخطيط الذاتي، عدم الثقة بالنفس، ضعف الإرادة والعزم، الاتكالية، غياب الهدف، الفوضى والقلق النفسي والسلوكي، غياب الجدية، غياب الانتماء وضياع الهوية، ضعف الشخصية وتذبذبها باعتماد تقليد الآخرين، التقاعس والتكاسل، حب الدنيا بمختلف ألوانها، الميل للشهوات والملذات، السفاهة بتبني المطالب المتدنية دون المطالب المهمة، الجمود والتقوقع، الانغلاق بغياب عنصر الانفتاح والتغير، العبودية والاستسلام....الخ .

---

(١) ظ: ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧، ١٤٧-١٥٠.

أما المعوق الثاني : الموضوعي الذي نُسب التخلف فيه إلى الظروف الخارجية الضاغطة على الفرد أو مجموع الأفراد، بحيث اصطبغت معوقات هذا اللون بطابع السجية أو العادة التي تطبّع عليها أفراد المجتمع حتى باتت تشكل معتقدات راسخة قد أخذت حيزها فكرياً وسلوكياً أو أحدهما.

ولهذا كان اهتمام الرؤية القرآنية في معالجة مسألة التخلف معالجة جذريةَ عميقة، تبدأ من تمكين الأفكار في العقول إلى تمكينها عقائد في القلوب والنفوس، وبهذا يصبح استئصال التخلف تطوراً مهمته ترجمة الأفكار إلى ممارسات سلوكية لأحكام شرعية ترتقي في بعض الأحيان إلى درجة الوجوب، كون وضعها نابعاً من تأثيرات قيمية قدسية.

وللمعوقات الموضوعية صور كثيرة تكاد تتداخل مع المعوقات الذاتية تارة وتنفرد عنها تارة أخرى، ومنها غياب القائد، هدر الموارد، ضعف الإدارة، كبت القدرات، إجهاض الكفاءات، تغيب مبدأ الثواب والعقاب، الجهل، اختلال التوازن الاقتصادي، البطالة، تفشي الأمراض، تخلّف التشريعات وعدم مواكبتها لتطور الإنسان، ضغط الحضارات الأخرى، التبعية، التقليد الأعمى، غياب الهدف، غياب التخطيط، عدم الاكتراث بالتطور....الخ.

هناك كم من المعوقات التي تحول دون تطور الفرد أو مجموعة الأفراد، إلا أن القرآن الكريم حاول أن يستنهض همة الإنسان من خلال وضع اليد على أمهات العلل، لأن ضبط المفصل الرئيس للمشكلة يعني ضبط المشاكل الفرعية التي تأتي تباعاً بحكم حاكمية العلة الأولى.

ومن هنا حاول القرآن أن يحاكي المجتمع بصورة عامة والإنسان بصورة خاصة

إلى ضرورة تحوطه من الجهل كآفة حقيقية للتنمية البشرية، فكما كان العلم وتنمية الفكر الباحة التي منها ينطلق الإنسان لبناء صرح التنمية البشرية كذا نجد غيابها أو عدم وضوحها هي المعول الأول لهدم الإنسان والحضارة والمعوق الرئيس أمام التنمية البشرية، قال الله تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾[1].

فالآية تأسس قاعدة كلية لبيان أهمية تثبّت وتيّقن الإنسان من متبنياته وعدم الركون إلى الجهل، لذا كان استقباح الظن، فـ(المراد بالظن هنا العلم المخطئ، وقد بينت الجملة التي بعدها إن ظنهم لا دليل عليه بقوله ﴿**وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾، والخرص: القول بالحزر والتخمين)[2]،وإن التخمين لا يحكي واقع الحال من علم وإدراك وبهذا سوف يورّث هذا النوع من التفكير التخبط وعدم الاستقرار والتذبذب والتيه، فقد روي عن أمير المؤمنين أنه قال: (العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير طريق، لا يزيده سرعة السير إلا بعداً)[3]، فالجهل يُورّث مفسدة في التفكير وتخبط في العمل مما ينتج خسارةً وتقهقراً في التنمية البشرية، بل يُعدّ من أهم معوقاتها، لأنه يسبب العبث والتخبط، وذلك لغياب البصيرة وفقدانها من القاموس الفكري، وهذا يعني إن الإنسان الجاهل غير قادر على اتخاذ القرارات

---

(١) يونس: ٦٦.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج ٥، ١١، ٢٢٦.

(٣) أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، ج١، ص١٩٨.

المناسبة في تحديد المطالب المصيرية، فضلاً عن استصحاب التخاذل إلى القضايا الجزئية أيضاً لافتقاره أساساً إلى البنية الفكرية التي تأهله للتنمية والتطور والحركة الايجابية، (من لم يكن عقله أكمل ما فيه، كان هلاكه أيسر ما فيه)[1].

والجهل يعني فساد فكري وسلوكي، مرجعه عدم الاكتراث بالإيمان كما يصفه القرآن الكريم لأن الجُهّال قد ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[2]، وبقوله أيضاً ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[3] وهنا يكون الجهل في مثل هكذا حال جهلاً مركباً (فالجهل يقابل العلم بحسب الذات غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم إنهم يعملون كلاً من أعمالهم الجارية عن علم واردة، وان الإرادة إنما تكون عن حب ما، وشوق ما، سواء كان الفعل مما ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع أو مما لا ينبغي أن يفعل، لكن من له عقل مميز في المجتمع عندهم لا يقدر على السيئة المذمومة عند العقلاء)[4]، وبما أن تخلف التنمية البشرية هي جهل بالمعرفة أو سعة هوة بين المعلوم وعمله، كان الجهل من أقوى مصاديقه على وجه العموم.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج١، ص٩٤ و ج٦٨، ٢٢٩.

(٢) البقرة: ٧.

(٣) البقرة: ١١ – ١٢.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان، ٤، ٢٤٥-٢٤٦.

أما لو بحثنا بتأنٍ بين آيات القرآن الكريم عن صور أخرىٰ للتخلف لوجدنا أنه يحذر من تبعات عدم اقتران الفعل بالقول أو عدم تجسيد المعتقدات إلىٰ سلوك عملي، من حيث يُعدّ هذا الجانب من أخطر معوقات التنمية البشرية الذاتية والموضوعية، لأن عملية تفكيك عناصر الإيمان وحل التلازم بين الإيمان والعمل من أولويات التخلف والفشل علىٰ مستوىٰ الفرد والمؤسسة وفق الرؤية القرآنية وبها تتحقق الخسارة الحقيقية والحتمية، لقوله تعالىٰ: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾، فمدلول الآية يعني (إن الإنسان إذا لم يكن كذلك فهو في خسر)[1] لان الإيمان من دون عمل يؤول الى الفشل لتعطيل جانب التجسيد للإيمان وبهذا يدخل الخسران، من هنا لزم أن يقترن العمل بالإيمان وإلا خسر الإنسان نفسه وما يحيط به، وان التنمية تسعىٰ إلىٰ الربح والنجاح والتألق، فكما كان التلازم بين الاعتقاد والعمل كان هناك تلازماً بين الحق والصبر (فالحق وحده لا يكفي، ولكن الاستقامة والصبر ضرورة، لان عدمه يلازم عدم الحق)[2].

فالقرآن الكريم بيّن محددات نجاح الإنسان وتطوره وإنماءه من فشله وخسارته، حيث قيّدت الآيات المباركة ضرورة التواصل، ولكي نزيل معوقات التنمية البشرية علينا التواصل والاجتهاد والمثابرة لإنجاح وإتمام مقوماتها، ونجد هناك كماً هائلاً من الآيات المباركة التي تؤكد محور التلازم بين الإيمان والعمل الصالح ليكون

---

(١) محمد الصدر، منة المنان في تفسير القران، ١، ٣١٦.

(٢) المصدر نفسه،١، ٣٢٦.

مصداقاً لإنجاح التنمية والخروج من دائرة الاتكال والتقاعس والتذبذب والتردد وذلك من خلال الاعتقاد والعزم والإرادة لتحقيق متبنيات ذلك الاعتقاد، قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً**﴾[1]،وقوله تعالى:﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ**﴾[2]، وكذا قوله سبحانه جلَّ وعلا: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾[4]

فكل آلية تخالف المعادلة الإلهية من تلازم الاعتقاد والعمل تستدعي انهيار منظومة التنمية البشرية ومقوماتها وهذا ما سلّم به الشرع والرؤية القرآنية كما سلّم به العقل ،لذا ذمَّ القرآن الكريم مستقبحاً هذا اللون من التخلف، إذ قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾[5].

فالآية المباركة توبخ المؤمنين أيضاً بسخط الله عليهم في حالة عدم شروعهم في عمل ما ادعوه، أو مخالفة ما اعتقدوه، لأن الخلاف يقتضي لوم الله تعالى وسخطه

---

(١) الطلاق: ١١ .

(٢) يونس: ٤ .

(٣) الرعد: ٢٩ .

(٤) البينة: ٧ .

(٥) الصف، الآية،٢- ٣ .

وغضبه، أي إن مقت الله لا يكون حصراً بمخالفة القول فحسب بل يشمل مقته جلَّ وعلا من عمل خلاف معتقده أيضاً من قبيل القياس بالأولى، فالتنمية البشرية بأمس الحاجة إلى ذلك التزاوج بين الأفكار السليمة والسلوك القويم الذي يمثل الأثر المترتب عليه من حيث يكون صورة مغايرة للمفهوم، إذ من المستحيل أن يكون هناك تطور وتغير بلا حراك وتفاعل، فبلا شك أن ما من مبدأ إلا ويفتقر إلى ترجمة المفهوم إلى سلوك وعمل وإلا فهو نفاق لعلمنا أن تمام الحكمة مأتي من عملية الانسجام والتزاوج بين العقل والقلب والجوارح وانفتاح احدهما على الآخر.

يروى عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: (لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل، انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة)[1] فهذا هو الجانب العملي لتلك الدواعي العبادية والعمل والأصل والمراد من الداعي، فوجود الداعي بلا عمل لا يُحدث أي انتاج ومن ثم يتحقق الإنهيار.

ومن مدلول تلك النصوص الشرعية يتبين أن الانعطاف بالإنسان بغية تنميته والارتقاء به لا يتحقق إلا بصدق الحديث بما يتضمن من أفكار سليمة، وترجمتها إلى عمل وسلوك لتتحقق الأمانة التي هي مطابقة هذا على ذاك، وكذا عليه أن يسعى جاداً لردم وتقليص الهوة أو البون بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، وهذا يعني البعد عن جميع ألوان التخلف - التي ذكرناها والتي لم نذكرها- التي تُعدّ معوقات في طريق التنمية البشرية على وفق الرؤية القرآنية.

---

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص١٥٤.



الفصل الثالث



ميادين التنمية البشرية في القرآن الكريم ومبادئها

اولاً: ميادين التنمية البشرية في القرآن الكريم.

١- التنمية البشرية وميدانها الفكري في القرآن الكريم.

٢- التنمية البشرية وميدانها الأخلاقي في القرآن الكريم.

٣- التنمية البشرية وميدانها الاقتصادي في القرآن الكريم.

٤- التنمية البشرية وميدانها الاجتماعي في القرآن الكريم.



• ميادين التنمية البشرية في القرآن الكريم.

على الرغم من تحفظ الباحث على ما شاع في المباحث العلمية على ضرورة تصنيف المطالب على أساس المصطلحات الجديدة (الفكرية، الاقتصادية، الاجتماعية ...الخ) فإنه يرى مُعتقِداً إن المنظومة الفكرية لأي أيديولوجية يقتضي النظر إليها كتلة متداخلة متجانسة فيما بينها، فتجزئة أو تبويب أي منظومة اجتماعية يُعدّ خرقاً فكرياً في رأي الباحث، نعم يجوز ذلك من اجل البحث العلمي التخصصي شريطة عدم الخروج عن المجال العام، علماً إن دعوة الباحث ليست غريبة عن السياق القرآني، بل هي من صميمه فقد نجد آية واحدة بالرغم من أن ظاهرها يسوقنا إلى معنى ما، فإنها تقودنا إلى معان متعددة أخرى تتداخل مع المعنى الأول أو تنفرد عنه مشكلةً رافداً يصب في بحر النظام الإسلامي الكبير، فعندما نتأمل في قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون**﴾[1]، أو في ما ينقل عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله: (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لأخرتك كأنك تموت غداً)[2]، فالعمل في كلا النصين كلية تنطبق على الكثير من الجزئيات، فقد يكون المصداق العبادة أو الإنتاج أو الأداء السلوكي أو النشاط الفكري أو غير ذلك أو جميعها، وهذا ما لا نستطيع مناله إلا من خلال الوقوف عند النصوص الشرعية.

---

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص١٥٦ ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (المعروف بمجموعة بن ورام) نقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله ج٢، ص٢٣٤.

فمقصد حديثنا أن المنظومة الفكرية لأي رؤية كونية وبالذات رؤية القران الكريم التي تُعدّ دستور المسلمين والحجة والدليل الشرعي، قد انفردت برؤية متجددة من مبحث لآخر مرجعها في ذلك السياق القرآني المعجز نفسه.

إذ يجب (أن لا نفصل بين المذهب الإسلامي بصيغته العامة، وبين أرضيته الخاصة التي أعدت له، وهيأ فيها كل عناصر البقاء والقوة للمذهب[1])[2].

فعلى الرغم عما تحفظنا عليه فيما تعارف عن مباحث العلوم الاجتماعية في تقسيم الرؤى والأفكار إلى أنماط تخصصية يكاد حصرها في ركن من أركان المنظومة المعرفية، فأنه سلم في الوقت نفسه على ضرورة دراستها من جميع الاتجاهات والأركان وبجميع التخصصات الدقيقة والمتناهية، إلا انه يرى أن تقديم الأفكار كصفقة واحدة للإنسان وللحياة والكون تكون اقرب إلى الواقع والحقيقة .

ولهذا سيجد القارئ الكريم أننا سنذكر آية ما في مورد معين بينما سيجدها في مورد آخر لاستيعابها لميادين أو أكثر من جهة ولاستيعاب العلوم الاجتماعية لمحور ما من جهة أخرى، ومن هنا كان تأكيدنا أن مفهوم التنمية البشرية قد انضوت تحته مفاهيم ومصطلحات ومفردات أخرى، إذ له من المرونة التداخل

---

(١) ولتوضيح المطلب استشهد محمد باقر الصدر بمثال في هذا الصدد قائلا: (لا يجوز أن ندرس مجموع الاقتصاد الإسلامي، بوصفه شيئاً منفصلاً وكياناً مذهبياً مستقلاً، عن سائر كيانات المذاهب الاجتماعية والسياسية الأخرى، وعن طبيعة العلاقات العامة بين تلك الكيانات). محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٢٦٩.

(٢) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٢٦٩.

مع بقية العلوم لانضوائه أصلاً تحت المنظومة الإسلامية القرآنية، وبناءً على ما تقدم فالباحث يدعي أن ما من آية من آيات القران الكريم إلا وبإمكاننا إن نتلمس منها أبعاد التنمية البشرية من قريب أو بعيد، ويمكن أن نتلمس البعد الفكري والعبادي والأخلاقي والاجتماعي وغيرها من ذاتها، وانعطافاً على ما تقدم لزم أن يُنظر للإنسان بوصفه كياناً واحداً متكاملاً في حالة دراستنا له، خصوصاً إنا نعده موضوعاً ووسيلةً وهدفاً للتنمية البشرية، إلا أن الباحث وجد نفسه مضطراً أمام ما تعارف عليه في البحوث العلمية، فسلك مسلك من سبقه في تقسيم التنمية البشرية في القران الكريم على وفق الميادين الحياتية.

لقد اهتم الإسلام بصورة عامة والقرآن الكريم بصورة خاصة بدور الظروف التي تحيط بالإنسان وتأثره بها سلباً وإيجاباً، وحجم تأثيرها في عطائه وإنتاجه وسلوكه، مما وجب الاهتمام بكل هذه المجالات التي تؤدي اثراً في رؤية الإنسان إلى الحياة و بالعكس، إذ عرض القرآن الكريم إلى جميع تلك المجالات وبيّن آثرها وتأثيرها في الإنسان وسلوكه إذ عدها مسارات واضحة لتكامل رؤية التنمية البشرية في القرآن الكريم.

لقد كان الباحث حريصاً أن يَذكرَ أهم المجالات المؤثرة في العملية التنموية؛ لذا كانت تسمية تلك المفردات مقيدة بذكر التنمية البشرية، فاستيعاب القرآن الكريم لمجالات الحياة واحتواءه لها هو وعي عميق مرده (نظرة كلية كاملة نحو الحياة والكون والاجتماع والسياسة والاقتصاد والأخلاق، فهذه النظرة الشاملة هي

الوعي الإسلامي المتكامل)[1]، والمحاولة لاستعراض الرؤية القرآنية هي فلسفة للحياة والإنسان والكون، أي فلسفة تشريعات رؤية الإسلام للإنسان وللميادين الحياتية.

(١) محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ٦٠.

(أ) التنمية البشرية وميدانها الفكري في القرآن الكريم.

لقد كرم الله تعالىٰ الإنسان علىٰ سائر الموجودات بالعقل، فبالعقل عُرف الله تعالىٰ، وبه صدقّت دعوات الرسل ورسالاتهم، وبه عَرفَ الإنسان نفسه وفهم الحياة، وملأ مساحة التشريعات[1].

ولأهمية آثر العقل في قبول هذا المعتقد أو ذاك، كان اهتمامنا بالرؤية الكونية في هذا المطلب أيضاً، علىٰ الرغم من أن الاهتمام بها لم يكن أمراً اعتباطياً نابعاً من فراغ، بل الاهتمام مبنيٌّ علىٰ أساس أهمية ما تحمل من مضامين مهمة وجوهرية، تعطي تفسيراً للوجود بأسره فضلاً عن حركة الإنسان فيه، وإن القواعد المعرفية والأهداف الأساسية والمناهج العملية والمسارات التطبيقية لأي رؤية كونية مبنية علىٰ أساس تنشيط ذهن الإنسان ونضوجه الفكري باتجاه الوعي والإدراك، وما مشروع بناء حياة الإنسان وتسنين تشريعات هيكله الحضاري إلا بمقتضىٰ الرؤية الكونية التي تتبناها كل أيديولوجية.

فنتاج الصراع الذهني بين المعلوم والمجهول، ما هو إلا خلاصة العصارات الفكرية والمعلومات المعرفية التي تُعدّ مكتنزات تأهل الإنسان للحركة باتجاه الوعي والإدراك بحثاً عن مشروع يؤسس رؤية تحقق متطلبات استفهاماته العقلية وتلبي طموحاته المستقبلية ورغباته المادية والمعنوية، ولهذا قيل إن التفكير بأنماطه

(١) إشارة إلىٰ إن العقل حجة كأحد الأدلة الشرعية في بيان معرفة حكم الله تعالىٰ، في حالة غياب الدليل القطعي.

كافة يُعدّ الطريق إلى إدراك الحقائق، فهو مظهر من مظاهر العقل، وهو عملية تنشيط الذهن البشري، حيث يشمل أنواع النشاط الرمزي، فيشمل الاستدلال، والتخيل، وتكوين المعاني الكلية والابتكار[1].

فالتفكير هو اللبنة الأساس لأي مشروع أو نشاط تنموي، و(القاعدة التي يقوم على أساسها البناء الفوقي للمعرفة كله)[2] وإن عملية إنماء مجال التفكير تُعدّ الخطوة الأولى للمعرفة بكل ميادينها ولمجالات الحياة كافة، ولهذا فإننا ندعي جازمين إن الإنسان ليس بمقدوره تحقيق أي تطور أو تغيير على مستوى ذاته أو ما يحيط به (إلا بعد المبادرة إلى تنمية وعيه ورفع مستواه الفكري)[3]، ومن هنا قيل إن العملية العقلية والحركة الفكرية لها (بكافة وجوهها الاستدلالية قائمة على أولويات ضرورية تنتهي إلى نتائج حتمية، لها ما لهذه الأولويات من اليقين العلمي الثابت باعتبار إن المقدمات الضرورية تنتهي بالضرورة إلى نتائج ضرورية)[4].

وما تأكيد القرآن الكريم خاصية التفكر والتدبر والنظر إلا لأنه المقدمة الأولى لكل نشاط وأنه السبيل للوصول إلى الحقائق والمعارف، وأنه القائد نحو ترسيخ

---

(١) ظ: قسم الدراسات والبحوث للتنمية والتطوير، تنمية العقل البشري، ٤١-٤٢.

(٢) محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ١٦٠.

(٣) علاء الحسون، تنمية الوعي، ١٠.

(٤) محمد حسين علي الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني،٣٦٨.

تلك الحقائق إلى متبنيات وعقائد، وترجمتها إلى سلوك وأفعال، من هنا عد التفكير المرجع (لأن ليس كل ما في الكون واضح الرشد، وليس كل ما ليس له وجود بيّن الغي، وبعبارة أدق إن وجود كل موجود وعدم كل معدوم ليس أمراً بديهياً، وإلا لما وقع خطأ والتباس أبداً)(١).

من هنا جاء تأكيد القرآن الكريم على آثر العلم والمعرفة، لأنه المائز الحقيقي ما بين الحق والباطل، حتى باتت (كل آيات القرآن تدعو إلى التدبر، وكل معانيه تستأهل التفكر)(٢).

ولكي يحرز الإنسان سمة التفكر بغية الانعطاف بنفسه نحو النضج والتطور يجب أن تُراعى عدة خطوات(٣) لتكامل وتأمين ذلك النضج، زيادة على استثمار نتاج التفكر وتطبيقه ليكون دافعاً لتحقيق ما سعى إليه الإنسان ، وبخلاف ذلك

---

(١) جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ٨٤.

(٢) محمد حسين الصغير، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم، ٤٥.

(٣) استخلص الباحث مجموعة خطوات يجب على المتدبر أتباعها بغية تحقيق مراده، وهي ما يأتي:

١- هدفية البحث عن الحقيقة.

٢- موضوعية البحث والتجرد عن كل ميل.

٣- اعتماد المنهج العلمي في البحث والتنقيب.

٤- الدقة والتأني والاتزان في التحقيق.

٥- التأكيد على المباحث الكلية أولاً.

٦- ترويض العقل على الإدراك، وتجديد الوعي.

٧- حرية واستقلالية التفكير ونبذ التقليد.

سيكون مصداق ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: (العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير الطريق، لا يزيده سرعة السير إلا بعدا)[1].

ولأهمية التفكير في ميزان القرآن الكريم، بوصفه أحد وأهم السبل في رقي الإنسان وتطوره، كانت أول آية نزلت على صدر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هي: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[2]، لبيان أهمية العلم وأثر المعرفة حتى جعلها طريقاً موصلاً إليه سبحانه وتعالى، (وقد تقرر في أصول الفقه: إن تراتب الحُكم على الوصف مُشعِر بِكوْن الوصف علة، وهذا يدل على أن الله سبحانه اختص بوصف الأكرمية، لأنه علّم الإنسان العلم، فلو كان شيء أفضل من العلم وأنفس لكان اقترانه بالأكرمية المؤداة بأفعل التفضيل أولى)[3]،وهكذا كانت منزلة العلم في الإسلام إلى أن جعله مقدماً على العبادة في بعض الموارد كما نقل عن أبي عبد الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (تفكير ساعة خير من عبادة سنة)[4]، بل عد طلب العلم فريضة

(١) الكليني أصول الكافي، باب من عمل بغير علم، حديث ٢، ٢٩ الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ١٢.

(٢) العلق:١.

(٣) زين الدين بن علي العاملي الشهيد الثاني، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، ٩٥.

(٤) إبن عياش، تفسير العياشي، ٢، ٢٠٨. في قول عن تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ الرعد، ١٩.

ملزمة على كل مكلف، كما ينقل عن الحبيب محمد ﷺ أنه قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)[1]، وغير ذلك من الروايات المعتبرة التي تفيد الاطمئنان لصدورها عن المعصوم بتأكيده أهمية أثر العلم والمعرفة وفضلهما في تنمية الإنسان وبنائه ذلك بـ(أن الإسلام قد أقام بنيانه على العلم، وشيد صرحه على المعرفة وقد نطق القرآن الكريم في بيان خطر العلم وفي تبجيل حملته ورفع مستواهم على غيرهم)[2]، قال الله تعالى: ﴿**يَرْفَعْ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[3].

إن استنهاض همة الإنسان باستفهامات قرآنية في موارد عدة دليل على ما أوردناه، كقوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[5]،

(١) الامام السادس: ينسب إلى الصادق عليه السلام ، مصباح الشريعة، ١٣ و٢٢ الطبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ١٣٣ النوري : مستدرك الوسائل، ١١، ١٨٣.

(٢) باقر شريف القرشي، نظام الإسلام السياسي، ٣٨٩.

(٣) المجادلة: ١١.

(٤) الأنعام: ٥٠.

(٥) الأنعام: ٣٢.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[1]، وما هذه الاستفهامات الانكارية إلا إشارة للزوم تسليم الإنسان إلىٰ أن النظر في الحقائق والمعارف من الواجبات المسلّم بها، وان التعليم وطلب العلم واجب فهي دعوة لـ(دفع الإنسان إلىٰ أن يتفكر فيما حوله ويستثمر ما منحه الله تعالىٰ من قدرات ذاتية أو من الطبيعة)[2]، خصوصاً وأن مقدمات الإدراك أو وسائل المعرفة متيسرة لدىٰ الإنسان ولقد فُطر عليها، بل عُدت جزء من كيانه، فهي عبارة عن (الحس، الخيال، الوهم، العقل، والقلب[3]، علىٰ أن المدخل الحقيقي في كل هذه المراحل هي النفس ذاتها لأن النفس لها حضور وجودي في جميع المراتب، وهي في كل مرتبة عين تلك المرتبة من

---

(١) الطارق: ٥.

(٢) جمال حلاوة وعلي صالح، مدخل إلىٰ علم التنمية، ٦٠.

(٣) يعد المفكرون أن (القلب في المصطلح القرآني يشمل العقل أيضاً، و أن العقل يشمل القلب كذلك، والقلب في اصطلاح أهل الحكمة يُعد من المراتب العقلية العملية، وبعد التخلية والتجلية والتحلية يصل الدور إلىٰ الثناء والشهود) جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ٢٤٦.

دون امتزاج وانحصار [1])[2].

ولهذا نجد أن المهتمين بهذا الشأن ومنهم محمد باقر الصدر قد أهتم بتفسير المعرفة البشرية وعدّ لها محورين هما[3]: الأولى: في تحديد المصدر الأساس للمعرفة، فالتجريبيّون يؤمنون بأن التجربة والخبرة الحسية هي المصدر الوحيد للمعرفة، والعقليون يؤمنون بوجود قضايا ومعارف يدركها الإنسان بصورة قبليّة ومستقلّة عند الحس والتجربة.

الثانية: في تفسير نمو المعرفة، فمعناه كيف يمكن أن تنشأ منها معارف جديدة؟

---

(١) لقد فصّل جوادي آملي عن تلك الأدوات المعرفية واصفاً الحواس الخمسة على أنها مدركات الإنسان للشيء الذي له ارتباط بالمادة بنحو جزئي والتي تسمى بالمعرفة الحسية التي تتم بواسطتها، وقوة الخيال: وهي ذات الصورة المحسوسة التي تكون في الذهن من دون حضور المادة، أما القوة العاقلة: وهي الأداة التي يُدرك بها المعاني الكلية التي تحمل على الصورة الخيالية أو الحسية، والقوة الوهمية: وهي التي تدرك المعاني العقلية مضافة إلى الصور الجزئية، أي هناك فرق بين العقل والوهم، وأن الوهم يدرك المفاهيم المضافة إلى الصور الجزئية، والعقل يفهم المفاهيم الكلية المجردة، أما القوة القلبية: وهي قوة تدرك المعاني المجردة وهي تختلف عن إدراك العقل بأمرين: الأول: إن أدراك العقل للشيء من بعد على صورة مفهوم كلي، بينما شاهده القلب بسعته الوجودية، والأمر الثاني: هناك أشياء لا يستطيع أن يدركها العقل لانحصاره في إطار الإدراك المفهومي، أما القلب فلإدراكه الشهودي يحيط علماً بكثير من الكلية والجزئية. ظ: جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ٢٤٣ – ٢٤٥.

(٢) جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ٢٤٣.

(٣) ظ: محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ١٦٠.

وكيف نستنتج من القضايا التي تمثل الأساس الأول للمعرفة، قضايا أخرىٰ حتىٰ يتكامل البناء.

فبغض النظر عما أكده السيد الصدر في الركيزة الأولىٰ التي تنص علىٰ تحديد مصدر أساس المعرفة والخلاف بين الماديين والتجريبيين من جهة، وبين المدرسة العقلية من جهة أخرىٰ، إلا أن ما يهمنا في هذا النص هو تفسير عملية نمو المعرفة التي من خلالها نستطيع أن نفعل وننشط هذا النمو ونروضه لتوليد أفكار جديدة وسليمة متوازنة خدمة للإنسان والحياة والكون، إلا أننا وجدنا أنفسنا أمام طريقين لنمو المعرفة، هما: (طريقة التوالد الموضوعي الذي أعترف بها المذهب العقلي، وطريق المذهب الذاتي الذي يرىٰ أن في الفكر طريقتين لنمو المعرفة، وهما التوالد الموضوعي والذاتي، وأن الجزء الأكبر من معرفتنا هو علىٰ أساس التوالد الذاتي[1])[2].

---

(١) ولكي نعرف الفرق بين التوالد الذاتي والموضوعي علينا أن نقف علىٰ ما يأتي: إن في كل معرفة جانباً ذاتياً وجانباً موضوعياً، أحدهما الإدراك، وهو الجانب الذاتي من المعرفة، والآخر القضية التي أدركناها، وهذا له دافع مستقل عن الإدراك، وهذا هو الجانب الموضوعي من المعرفة.

والتوالد الموضوعي يعني: إنه متىٰ ما وجد تلازم بين قضية أو مجموعة من القضايا الأخرىٰ، فبالإمكان أن تنشأ معرفتنا بتلك القضية.

والتوالد الذاتي يعني: إن بالإمكان أن تنشأ معرفة ويولد علم علىٰ أساس معرفة أخرىٰ دون أن تلازم بين موضوعي المعرفتين، وإنما هو علىٰ أساس التلازم. ظ: محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ١٦٠ – ١٦٢.

(٢) ظ: محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ١٦٠.

لم يكن اهتمام القرآن الكريم حافلاً بآيات التفكر والتدبر والنظر بوصفها السبيل للوصول إلى الآفاق فحسب ; بل حذّر من عواقب الوقوع في شرك الجهل وبراثن الضلال، فما نخشاه هو أن يكون هناك فساد في طريقة التفكير[1] مما يسبب عائقاً للنمو العقلي، بحيث يصبح عائقاً هو الآخر أمام تطور الإنسان كما نخشى أن يكون سبباً للانقلاب على المفاهيم والقيم،﴿ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً**﴾[2].

لهذا كان اهتمام التنمية البشرية القرآنية بأهمية الجانب الفكري لكونه سبيلاً بين الضلال والجهل من جهة وبين الهداية والنور والعلم من جهة أخرى، أي بين أن يكون انحداراً للهاوية أو أن يكون أول سلّم الإبداع والتطور على مستوى الفرد والمجتمع والمؤسسة، لأن التفكر هو عملية ولادة أفكار جديدة ومناسبة، ولا سيما إذا كانت على وفق الأسس المنطقية[3]، فالمنطق يُعدّ صمام الأمان للتفكير من خلال حركة العقل، فوظيفة المنطق كما أكدنا سلفاً أن يعصم الإنسان من الخطأ في

(١) لاشك (إن تورط الفكر البشري في الخطأ له شكلان: هو الطريقة الذاتية: أي استنتاج نتيجة من مقدمات صادقة لا تستلزم تلك النتيجة، والآخر: استعماله لطريقة التوالد الموضوعي باستنتاج نتيجة من مقدمات تستلزم تلك النتيجة، ولكن المقدمة كاذبة) محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ١٦٢.

(٢) النجم: ٢٨.

(٣) عرف الشيخ المظفر المنطق على أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير. المنطق، ١٠.

التفكير، لذا قيل إن (طريق العقل ودور المنطق في توزينه، أي الطريق العقلي هو أحد الطريقين الداخلين الذين يؤديان إلى المعرفة اليقينية والمنطق معيار لسالكي طريق العقل، دونما اختصاص بموضوع خاص بموضوعات المعرفة)[1].

إن تأكيد القرآن الكريم باب التفكر والنظر مقصده الدعوة للوقوف عند الحقائق لقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[2]، فالدعوة إلى التدبر في القرآن الكريم للوقوف عند أسراره العجيبة التي تحمل الكثير من المضامين الجليلة ذات (الخيرات والبركات للعامة والخاصة فيهتدوا إلى الحق باستحضار حجته وتلقيها في بيانه)[3]، ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[4]، لم تكن دعوة للتدبر والتفكر لمعرفة الحقائق فحسب بل للوقوف عندها والعمل بها وتجنب مخالفتها لتحقيق تتمة الحكمة وكمالها، ومن هنا قيل إن الحكمة تنقسم على نظرية وعملية فالقوة المدركة وهي العقل النظري، ومحرّكة وهي العقل العملي، وأن العقل النظري: هو إدراك ما ينبغي أن يعلم من الوجود والعدم والروابط "فهي المدرَك"، والعقل العملي: وهو إدراك ما ينبغي أن

---

(١) جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ١٥٧.

(٢) ص: ٢٩.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٧، ١٩٨.

(٤) محمد: ٢٤.

يعمل وما لا ينبغي، الحسن والقبح [1].

ومن هنا تبنت التنمية البشرية القرآنية مشروع التفكر طريقاً موصلاً إلى تمام الحكمة التي هي سعادة الإنسان والتي لا تتوقف عند حد التفكير بل إلى ما بعده، ولهذا فسر التفكير على أنه نشاط لا ينحصر في مجال الكشف عن الحقيقة فحسب، (وإنما يساعدنا على تناول المعلومات المتاحة بطريقة جديدة، تضفي عليها أبعاداً جديدة، لم تكن مألوفة، كما أنها تفسرها على نحو جديد)[2]، فعملية تولّد الأفكار لأفكار جديدة وإلباسها ثوباً جديداً يُعدّ عين التفكير الإبداعي، فـ(الإبداع هو القدرة على التنقل بين الملفات الذهنية للوصول إلى محصلة مرجوة أو هدف منشود تتميز بكونها ابتكاراً أو أسلوباً أو نتاجاً فكرياً جديداً)[3].

لقد عد الباحثون أن عملية الابتكار والإبداع تستدعي التفكير المنطقي السليم، و(إن الوقت المستغرق في التفكير يُعدّ نوعاً من العطاء)[4] أيضاً، ويتجلى الإبداع تألقاً عندما يتكامل بتفكير إبداعي، وهذا هو ما تسعى إليه الرؤية القرآنية أن يستنفر العقل بقواه وصولاً إلى مطلب الإدراك الحقيقي للوجود ولنفسه لتحقيق منظومة التنمية البشرية.

---

(١) ظ: جعفر الحكيم، علم النفس الفلسفي، ١٠١.

(٢) عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة، ٤٧.

(٣) ميثم السلمان، التفكير، ١٢٥.

(٤) فاضل الصفار، إدارة المؤسسات من التأهيل إلى القيادة، ٣٧٧.

وتزامناً مع ضرورة النشاط الإبداعي اقتضىٰ أن تكون هناك حركة تنموية تُولد الأفكار الإبداعية، لذا قيل إن التنمية الفكرية يلزمها ثلاثة أسس رئيسة هي: (التعرف بالمبادئ والمنطلقات الصحيحة التي تستخدم في التفكير، إلىٰ جانب معرفة بعض التقنيات التي تساعدنا علىٰ استخدام إمكانياتنا العقلية علىٰ نحو صحيح، بالإضافة إلىٰ تسليط الضوء علىٰ بعض الانحرافات علىٰ سبيل التفكير المنهجي)[1].

ولأن مطلبنا هو بيان أهمية الجانب الفكري في عملية التنمية البشرية ووظيفته التي تُعدّ ترويض وتربية (تنمية الفكر الإنساني، وانطلاقه، وتحريره من ربقة الجهل والتقليد، وتنويره بالعبر والأحداث....لتشرق بذلك في عوالم النفس أضواء العقيدة الواعية التي تدفع الإنسان إلىٰ التسابق في ميادين البر ومجالات الخير)[2]، فلابد من أن نعي أهمية الجانب الفكري ومهاراته في عملية التنمية البشرية، لأنه سيؤول بالارتقاء بذات المستوىٰ الفكري من جهة، وتُعدّ عملية التفكر المنبعثة من الحركة الذهنية نشاطاً يقود الإنسان إلىٰ ما يزعم الوصول إليه من جهة أخرىٰ، فضلاً عن أن ذات التفكير الذي يُعدّ أحد أهم القواعد المؤثرة في بناء شخصية الإنسان وتكاملها، ومن خلال تكامل الشخصية تتحقق بناء الذات الإنسانية وتؤهل للارتقاء بنفسها وما يحيط بها بغية تأمين مشروعها، ينقل عن أمير المؤمنين

---

(١) عبد الكريم بكار، مدخل إلىٰ التنمية المتكاملة، ٥١.

(٢) باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، ٢٢٨.

عليه السلام أنه قال: (من لم يكن عقله أكمل ما فيه، كان هلاكه من أيسر ما فيه)[1]، ولأن التنمية القرآنية الإسلامية ارتأت أن يكون كمال العقل سبيلاً لكمال الإنسان كان اهتمام التنمية البشرية بالميدان الفكري.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج١، ص٩٤ وج ٦٨، ص ٢٢٩.

(٢) التنمية البشرية وميدانها الأخلاقي في القرآن الكريم.

هناك جملة تعريفات [(١)] سعت الى تحديد علم الأخلاق، إلا أن الباحث عوّل على أشهرها من وجهة نظره، وهو ما نُقل عن الغزالي حين عرّفَ الأخلاق على أنها: (عبارة عن هيأة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية)[(٢)].

وبعد أن فكك الغزالي قيود التعريف تبين أنه ركز على أربعة محاور هي:

١- فعل الجميل أو القبيح.

٢- القدرة عليهما.

---

(١) حاول الباحث انتخاب مجموعة من التعريفات عدها أهم ما كُتب في هذا الشأن، منها ما نُقل عن مسكويه حين عرف علم الأخلاق على أنه (الخُلق حالة للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية). تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (مسكويه) ت٤٢١هـ، ٥١.
في حين عرف الشيخ النراقي الخُلق على أنه عبارة عن (ملكة للنفس مقضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج إلى فكر وروية). النراقي، جامع السعادات، ١، ٥٥ .
بينما عرّف السيد الطباطبائي علم الأخلاق بما يلي: (هو الفن الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية، ليميز الفضائل منها عن الرذائل ليستكمل الإنسان سعادته العلمية، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني). محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١، ٣٦٨.

(٢) الغزالي،أحياء علوم الدين، جيم٣، ٥٣ .

٣- المعرفة بهما.

٤- هيأة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين، ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحُسن أو القبح[١].

إذ يُفهم من التعريف ومدلوله أن النفس الإنسانية هي وموضوع علم الأخلاق، وأن الاهتمام بهذا العلم وتشريفه مبنٍ على ضوء الاهتمام بالنفس التي هي ذات الإنسان وجوهره وماهيته، ولهذا عدت النفس صورة الإنسان النوعية وهويته الحقيقية، حيث (يجب أن ينسب جميع الأفعال الإدراكية والتحريكية لكل موجود حي إلى صورته النوعية، ونفس الإنسان هي صورته النوعية)[٢]، وأن نسبة الأفعال إليها لتجردها عن غيرها وإلحاق الجميع بها، مُشكلةً مع البدن هيأة الإنسان وواقعه، فهي الوجود الحقيقي له - بالرغم مما عُرف عن تجردها- لارتباطها به، لأن تجردها (في الذات دون الفعل لافتقارها فعلاً إلى الجسم والآلة، فحدها: إنها جوهر ملكوت يستخدم البدن في حاجاته.... وله قوى أربع، قوة عقلية ملكية،

(١) ظ: الغزالي،أحياء علوم الدين، جيم٣، ٥٣.

(٢) جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ٢٤٦.

وقوة غضبية سبعية، وقوة شهوية بهيمية، وقوة وهمية شيطانية[1])[2].

وما اهتمام القرآن الكريم بتنمية الأخلاق والمُثل والقيم العليا إلا لأهميتها في المنظومة القرآنية، وخير مثال على ذلك ما جاء في قول الله تعالى بحق النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[3]، فالآية نزلت لمدح الرسول الأكرم، أي إنك يا محمد على دين عظيم وهو دين الإسلام، وإنك متخلق بأخلاقه وعلى طبعٍ كريم[4]، وقد فسّر السيد هاشم البحراني الآية المباركة بما نقله عن محمد بن يعقوب بسند عن الإمام الصادق عليه السلام إنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أفاضلكم أحسنكم

---

(١) لكل قوة من القوى الأربع ميزايا تختص بها من غيرها، كما لها وظيفة معينة تعد فائدة تلك القوة.
القوة العقلية: شأنها إدراك حقائق الأمور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهي عن الصفات الذميمة.
القوة الغضبية السبعية: موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء، والتوثب على الناس بأنواع الأذى، وفائدتها كسر سورة الشهوية والشيطانية.
الشهوية البهيمية: لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم، ومن فوائدها بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس.
الوهمية: شأنها استنباط وجوه المكر والحيل وإدراك المعاني الجزئية، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها إلى المقاصد الصحيحة. ظ: النراقي، جامع السعادات، ١، ٦١ – ٦٤.

(٢) ظ: النراقي، جامع السعادات، ١، ٦١.

(٣) القلم: ٤.

(٤) ظ: الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٦، ٢٩، ٢٣.

أخلاقاً المُوَطّؤون أكنافاً الذين يألَفُون ويُؤلَفُون وتُوطأ رِحالهم)[1]، والحق إن الخُلق العظيم هو الخلق الأكرم من نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان، وهو أرفع من مطلق الخلق الحسن[2].

وقد خاطب القرآن الكريم الذين آمنوا بقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[3] أي (أن لكم في النبي ﷺ تأسيساً واقتداءً جيداً، فأيكم تستطيعون بالاقتداء به وأتباعه أن تصلحوا أموركم وتسيروا على الصراط المستقيم)[4]، وبما أن الرسول ﷺ هو المثل الحي لقدوة تمثل إحياء القيم الخلقية وجدانياً وتجسيدها سلوكياً، (فإن أعظم المسلمين شبهاً به هم أولئك الذين ضاقت الهوة بين سلوكهم وبين مبادئ الإسلام وآدابه وتوجيهاته السامية، وقد عبر عن هذه الحقيقة بشكل جلي)[5] قوله ﷺ (أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً)[6].

تتضح رفعة مكانة العامل الأخلاقي في المنهج القرآني جلياً من خلال قراءتنا

---

(١) الهيثمي : نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،٨، ٢٤.

(٢) ظ: أبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،مج ١٢، ٢٩، ٦٤.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٠، ٣٦٠.

(٥) عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة رؤية إسلامية، ٢٠٣.

(٦) الكليني ، الكافي، ج٢، ص١٠٢.

لآيات الله البينات، فكما عد الإنسان هو محور النظرية القرآنية، فكذا عُد الخُلق الحسن وتطويره وتنميته هو محور الإنسان وهي اللغة النابضة في جسده، وما تكريم الإنسان في قوله تعالىٰ ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[1]، إلا علىٰ أساس قيمتهُ كإنسان، فقد كرمه سبحانه وتعالىٰ (بخلقته علىٰ تلك الهيئة، وبالاستعدادات التي أودعها فطرته)[2]، ولما له من امتيازات (فمضافاً إلىٰ الامتيازات الجسمية، فإن روح الإنسان لها مجموعة واسعة من الاستعدادات والقدرات التي تؤهله لطي مسيرة التكامل)[3]، فالتكريم جاء علىٰ أساس النضج المتكامل والمنبعث من التنمية للصعيد البدني والروحي والعقلي والنفسي، لأن التكريم (معنىٰ نفسي وهو جعله شريفاً ذا كرامة في نفسه)[4]، أي أن قيمة كرامته بكيانه ككل متمثلاً بنفس متكاملة متوازنة من جميع اتجاهاتها، في الوقت الذي يكون مؤشر تفضيل هذا عن ذاك علىٰ قدر القرب والبعد من الخط البياني للقيم الأخلاقية المتنامية، والامتثال للإحكام الشرعية المقدسة متوجة منضبطة بلغة التوحيد وتجسيد العبودية الحقة، ولهذا قيل إن (القوانين والسنن وإن كانت عادلة في حدود مفاهيمها فهي لا تسد باب الخلاف وطريق التخلف إلا بأخلاق فاضلة إنسانية تقطع دابر الظلم والفساد كملكة إتباع

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) ظ: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج ٤، ١٥، ٢٢٤١.

(٣) الأمثل، مكارم شيرازي، ٧، ٣٤٨.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٣، ١٥٢.

الحق واحترام الإنسانية والعدالة والكرامة والحياة ونشر الرحمة ونظائرها)[1]، أي إن التشريعات والأحكام السماوية وحدها لا تصنع إنساناً متنامياً فاضلاً إن لم تأخذ الفضيلة حيزها منه، بل ألزمت التنمية القرآنية ضرورة وجود علاقة مقدسة يتحسسها الإنسان وجدانياً تكون بمثابة المظلة للعملية التنموية برمتها، يقول الطباطبائي: (إن الأخلاق لا تفي بإسعاد المجتمع ولا تسوق الإنسان إلى صلاح العمل إلا إذا اعتمدت على التوحيد وهو الإيمان بأن للعالم – ومنه الإنسان – إلهاً واحداً سرمداً)[2]، بحيث يُعدّ الإيمان بالتوحيد المظلة التي تستظل بها منظومة التشريع الإسلامية وبوابة صرحه، فضلاً عن البُعد الروحي والأخلاقي الذي هو الضابط والمعيار في العلاقات وجميع النشاطات، وإن علاقة الإنسان مع ربه أو أخيه الإنسان مرتبطة مع ما أوردناه (فالبعد الروحي والأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين، وحين ينحط الإنسان يتحول عن عبادته لربه إلى عبادته لذاته وشهواته، وتسود علاقاته بالآخرين القوة بدل الرحمة، والتعانف بدل التفاهم، وينصرف عن العناية الروحية إلى العناية بالجسد، وعن الاهتمام بالمبادئ إلى الاهتمام بالمصلحة)[3]، وبمقتضى تضارب الذات والمصالح والشهوات وغياب القانون والأخلاق يتحول الفرد إلى وحش كاسر في غابة اسمها المجتمع يسودها

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١١، ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ١١، ١٦٠.

(٣) عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة، ٢٠٥ – ٢٠٦.

التخلف بدلاً من التطور والإنماء، وبهذا ينتفي الشيء لانتفاء الموضوع، ذلك بأن آصل التنمية هي حسن السلوك ولا يتأتى هذا إلا بالإخلاف لذا ركز عليها النص القرآني بأهمية عالية .

والحق هو ما نلمسه بوضوح في الحركة الروحية والأخلاقية التنموية التي يصورها القرآن الكريم كونها جزءاً من العقائد والأحكام تسعى لبناء الإنسان وتطويره بغية انتشاله من وحل الجهل والظلام والانحراف والتخلف والارتقاء به ﴿**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً**﴾[1]، فالنظام القرآني عمل على بناء الفرد بصورة منضبطة ليضمن انضباط المجتمع الذي هو عبارة عن مجموع أفراد، فضلاً عن أن النظام الإسلامي جعل يكمل أحدهما الآخر ليشكلان عاملين لاعتدال الحضارة وتوازنها، فضلاً عن عامل الفلسفة ودور المؤسسات التي تشكل جميعها روافد بناء الحضارة ومنها تكريم الإنسان.

فالتكريم في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾، ما هو إلا تكريم إلهي للإنسان لاتزان ما تميز به من قوى الخُلق والخَلق والروح والعقل قياساً ببقية الخلق، بحيث يكون مؤهلاً لأداء الأمانة الكبرى وهي تحقيق خلافة الله في الأرض وإنشاء الحضارة عليها، على خلاف الأيديولوجيات الأخرى التي فقد الإنسان فيها تكامله واتزانه، لأنها نظرت له وللحضارة بعين التطور المادي بعيداً عن عدالة التشريع وعراقة القيم والمثل الأخلاقية.

---

(١) الإسراء: ٥٣.

إن تأكيد ما ورد في التمهيد لهذا المبحث من لزوم أن تكون المنظومة الاجتماعية منظومة واحدة ومتجانسة من ضمن غايتها هو أثر الأخلاق والجانب الروحي في العملية الاجتماعية برمتها، فهي تدخل مع الاقتصاد والسياسة والإدارة وبقية المجالات الحياتية الأخرىٰ، فالنظرة القرآنية لتنمية البشر تذهب إلىٰ أن صحة وسلامة أي منهج اجتماعي يبقىٰ منقوصاً إذ افتقر إلىٰ لغة الأخلاق في كل الحالات وفي كل الظروف، فضلاً عن ضرورة النظر إلىٰ المنظومة الاجتماعية علىٰ أنها وحدة متجانسة بعضها مع البعض الآخر، وهذا ما نلمسه ونحن نقرأ مضامين الرؤية الكونية وعناصرها من مفاهيم وقيم، وسنن وأحكام (فهناك من المفاهيم ما يقوم بدور الإشعاع علىٰ بعض الأحكام)[1].

فجميع سنن العلاقات[2] والمعاملات لا تؤّمن رد التخلف والضياع إلا إذا تغذت علىٰ فيض من حركة متنامية من الأخلاق الإنسانية واستظهرت بها لضمان سلامة كامل النظام الاجتماعي، وعلىٰ أساس ذلك انبعث (أساس النظام الأخلاقي في الإسلام الذي يضبط سلوك الفرد وسلوك المجتمع)[3]، وهذا ما نلمسه ونحن نطلع علىٰ ما نُقل عن الرسول الأكرم ﷺ في هذا الشأن، ومنها حين

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٣٤٥.

(٢) إشارة للعبادات التي هي علاقة بين الفرد وربه ونفسه وبقية البشر.

(٣) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ١١٧.

قال: (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1]، إذ تُعدّ هذه الرواية لوحدها دليلاً على قيمة الأخلاق وأثرها في بناء الحضارة الإسلامية وبناء الفرد وتطويره وتنميته[2]، مما يقدم لنا رؤية واضحة إلى أهمية القيم وأولوياتها في سلم المنظومة الاجتماعية القرآنية، بل وأولوياتها وتزاحمها مع بقية مفردات المنظومة الاجتماعية، بحيث نجدها قد ترأست عليها وتربعت على هرمها بالرغم من إيماننا بضرورة تداخل وتجانس المفردات والمجالات بعضها مع البعض الآخر، ينقل بما روي عن حبيب الله ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينّوا دينكم بهما)[3].

نستفيد من الرؤية القرآنية الإسلامية إن للتنمية الأخلاقية عدة ثوابت منها:

إن الأخلاق والقيم موجودة أصلاً لدى الإنسان لأنه مفطور عليها، وهي عبارة عن معانٍ أصطبغ بها.

---

(١) محمد بن علي الكراجكي، الرسالة العلوية في فضل أمير المؤمنين عليه السلام، في المقدمة ١٢ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ٣.

(٢) قال بعض من علمائنا القدماء أن الدين الإسلامي المقدس يتكون من ثلاثة أقسام اساسية:
(القسم الأول: وهو ما يتناول المسائل العقلية والفكرية، ويعبر عنه بأصول العقائد.
القسم الثاني: وهو ما يتناول الأمور النفسية، ويُعبر عنه بالأخلاق.
القسم الثالث: وهو ما يتعلق بالبدن والأفعال ويعبر عنه بالأحكام). مرتضى مطهري، تحقيق نظرية نسبية الأخلاق، ٦.

(٣) السيوطي: الجامع الصغير، ١، ٢٥٦ أبو القاسم باينده، نهج الفصاحة، ٢٨٩.

الأخلاق مطلقة وليست نسبية[1]، وأنها (قيم حقة ثابتة من طبيعة الوجود وهويته، وليست معطاة له من خارجه، كما أنها ليست من صنع الإنسان وأعتبارته الاجتماعية، بل هي جزء من الحقيقة الكبرىٰ)[2] لذلك أودع سبحانه الداعي الفطري لدىٰ الإنسان اتجاه تملّكه الأخلاق الحسنة تمهيداً للخلافة.

تطبيق الأخلاق نسبي علىٰ قدر استعداد الإنسان وفهمه وتعلمه وتربيته عليها.

بالإمكان ترويض النفس الإنسانية وتنميتها علىٰ الأخلاق من خلال التربية والتنمية مطلقاً[3].

الأخلاق تتداخل مع جوانب ونشاطات الحياة الكافة، لأنها تمثل الميدان التمهيدي لكل نوع من أنواع التنمية البشرية فهي المورد الأصل لاستظهار التنمية ونموها .

الأخلاق بوصفها قيماً لا تتغير وإن التجديد الأخلاقي هو (ليس عبارة عن نسخ لأخلاق وإحلال لأخلاق أخرىٰ، وإنما هو توسيع في مدلولات بعض المفاهيم الأخلاقية وبلورتها والتربية عليها، ومنها أهمية أكبر من النسق الأخلاقي

---

(١) ظ: مرتضىٰ مطهري، تحقيق نظرية نسبية الأخلاق، ١٤٣.

(٢) صدر الدين القبانجي، الأسس الفلسفية للحداثة، ٣٧٧.

(٣) هذا ما ذهب إليه عموم الفلاسفة والمفكرين إلا ما شذ وندر، وسنعرض في هذا المطلب جملة من تلك الآراء.

العام)[1].

لقد عُدَّ السلوك مرآة عاكسة لحركة النفس الإنسانية، وما من سلوك للفرد إلا نتيجة تخلق نفسه بما يحمله من معان وقيم حاكيةً لواقع وجوهر النفس، وعلى أساس ذلك كانت رؤية التنمية البشرية في القرآن الكريم تؤكد ضرورة الارتقاء بالتنمية الأخلاقية وتعدها أمراً ملزماً، لأنَّ (الشعور بالواجب من أخطر المشكلات الأخلاقية، وبسبب ذلك دخلت المجتمعات أنفاق التفكك والفوضى والتخلف)[2]، ففرق أن ينظر الإنسان إلى المثل والقيم الأخلاقية بمعزل عن حركته ونشاطه وبقية تعامله وبنظرة الندب بدلاً من الوجوب، ولهذا نجد قد عنى (الإسلام عناية بالغة بالفضائل النفسية، فأرصد لها منهجاً خاصاً يؤدي إلى تماسك الشخصية وصلابتها وتحلّيها بكل نزعة شريفة وصفة فاضلة)[3]، حتى بات المعيار الخلقي أحد أهم المعايير السماوية التي ميزت الإنسان المتطور من المتخلف، كونه النشاط التنموي الوحيد الذي يحتاج إلى جهد متميز لتعامله مع قوى النفس الإنسانية وتعقيداتها، لأن الأخلاق تعني: (تنظيم الغرائز وأن الإنسان له قوى روحية، له غرائز وأن لكل قوة منها تكاليف يجب على الإنسان أن يعرف حد كل قوة قابلتها وحاجاتها

---

(١) عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة، ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه، ٢٣١.

(٣) باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، ٢٤٤.

ويعطيها على قدر حاجاتها دون إفراط أو تفريط)[1]، وإن عملية الاستقامة والاعتدال أمر شاق يفتقر للجهد والاجتهاد لهذا احتاج إلى الترويض كما سبق القول.

ولهذا سعت الرؤية القرآنية - بالرغم من سعتها وانفتاحها الواسع على آفاق الحياة وتفرعاتها كافة - أن تحصّن الإنسان وتسوّره بأسوار نظرية وعملية، بغية صد رياح التخلف والضياع، فالرؤية القرآنية للتنمية حصّنت الإنسان بسور الرؤية الكونية الذي يولّد الإيمان بالله وبالقيم والمفاهيم، وسور الأحكام والقوانين وسنن المنظومة الاجتماعية، وآخر يحد من التجاوز على القوانين والانحراف عنها، وما التنمية الخلقية والروحية إلا سورها الأمثل وطوقها الرصين الذي يُعدّ بمثابة إرادة الخير بكامل مصاديقه، بحيث تكون الأطواق أحد أهم العوامل في إنماء الخير وتجذيره في النفس الإنسانية بغية تطويرها خدمة لذات الإنسان ومشروعه في حمل الأمانة واستخلاف السماء[2] الذي هي منطق التنمية البشرية وأصل وجودها في القرآن الكريم.

ومن أهم العوامل المساعدة لبناء النفس الإنسانية هو تنمية الخير وفهمه وترويض

---

(١) مرتضى مطهري، تحقيق نظرية نسبية الأخلاق، ١٣٨.

(٢) لعل سر تأكيد القرآن الكريم بناء الإنسان وتأهيله هو تمثيل لعامل الخليفة لاستخلاف الله تعالى في الأرض بالشكل اللائق الذي يتناسب مع أصل موضوع الاستخلاف، وما نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله (تخلقوا بأخلاق الله) وقوله صلى الله عليه وآله: (حسن الخلق خلق الله الأعظم) يعد دليلا على ذلك ومصداقاً عليه باللزوم.

النفس على العمل به وإشاعته ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[1]، فالآية المباركة تدل على إشاعة الخير وقبول العذر وترك المؤاخذة بالإساءة، والعفو والعطاء والتواصل، بل عموم المعروف وهو كل ما حسن في العقل فعله أو في الشرع، وقيل كل خصلة حميدة[2]، لأن هدف التنمية الأخلاقية يكمن بمواجهة الجاهلية الفاحشة والبشرية الضالة، والأمر الواضح من الخير الذي تعرفه فطرة البشر[3]، لذا روي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: (خير الناس من نفع الناس)[4]، ذلك بأن نكران الغريزة الطبيعية (الأنا) بترويض النفس وتربيتها من أجل بناء صرح نفع الناس إنما هو مصداق للخير والقيم الخلقية والتنمية المتكاملة الشاملة والخير هو القيمة العليا التي يستهدفها علم الأخلاق، وعلى أساس الوصول إليها تنتظم جميع التعاليم، والمناهج والقوانين التي تشرع للسلوك، والخير -كذلك- هو الرصيد الثابت الذي يمكن أن تقاس بموجبه مناهج الأخلاق الاجتماعية المتعارفة لتكون القمة في هذا الخير وهو ما يطلق عليه(الفضيلة)[5].

---

(١) الأعراف: ١٩٩.

(٢) ظ: الطبرسي، مجمع البيان، مج ٣، ٩،٨٩.

(٣) ظ: سيد قطب، في ظلال القرآن، مج ٣،٩، ١٤١٨.

(٤) علي بن محمد الليثي والواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ٢٣٩ المجلسي: بحار الأنوار، ٧٨، ٢٦٠ محسن الأمين: أعيان الشيعة، ٣، ١٦٨.

(٥) ظ: ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، ٢، ٢٨٦.

فبناء شخصية الإنسان ما هي إلا حركة مستمرة من الفعاليات لاكتساب سلوك تنموي جديد محمود ومستحسن على مستوى رؤية القرآن والسنة والعقل والعرف، وهذا يعني أن الإنسان لغرض تكامل سلوكه يفتقر لعدة خطوات[1]،وما الأخلاق إلا مجموعة الخطوات التي غايتها تأهيل الإنسان وتنمية أدائه بسلوك يحكي واقع القيم والمبادئ العليا، لأن تمثل الإنسان بالقيم الخلقية هي غاية السعادة، حيث (صرح الحكماء بإن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الإنسان في صفاته بالمبدأ: بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلاً، لا لغرض أخر من جلب منفعة أو دفع مضرة..... فتكون ذاته

---

(١) هناك جملة من الشروط لتكامل وإعداد الشخصية وتمثلها بالقيم الخلقية نعد منها:

١- تحديد الهدف:ويقصد به الهدف الذي يسمو فوق المصالح الماديات....﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ البقرة:٣٠.

٢- القناعة بضرورة التغيير ﴿**إِنَّ اللهَّ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾الرعد: ١١، والحق إن الإنسان حين يتطلع إلى التفوق على ذاته والتغلب على الصعاب من إمامه سوف يجد إن إمكانات التحسين أمامه مفتوحة.

٣- الشعور بالمسؤولية ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾الأحزاب: ٧٢، حين يشعر الإنسان بجسامة الأمانة المنوطة به تنفتح له أفاق لا حدود لها للمبادرة للقيام بشيء ما، إنا علينا أن نوقن أن التقزم الذي نراه اليوم في كثير من الناس ما هو إلا وليد تبلد الإحساس بالمسؤولية عن أي شيء.

٤- الإرادة الصلبة والعزيمة القوية، وهي شروط لكل تغيير بل وشروط لكل ثبات واستقامة ظ: ميثم السلمان، التحفيز الإيماني، ١٢ – ١٤.

غاية فعله، وفعله غرضه بعينه)[1].

والوصول إلى الرتبة لأخلاقية أمر يقتضي جهاد ومجاهدة حقيقية ﴿**الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[2]، فالجهاد هنا (هو استعارة كنائية عن كون جهده مبذولاً فيما يتعلق به تعالى من اعتقاد وعمل)[3]، وما العمل إلا الاخلاق التي يصل لها الإنسان بمحصلة اعتقاده، ذلك بأن الأخلاق سمة كل عمل حسن وصحيح ولهذا روي عن الرسول الأعظم ﷺ انه قال: (رحم الله أمرءاً عمل عملاً صالحاً فأتقنه) فنلحظ أن الرسول قيّد الإتقان على الرغم من كون العمل صالحاً بحد ذاته غير أن الإتقان يعني الأخلاق؛ لأن إتقان الشيء هو الشعور بالمسؤولية ونكران الذات وهذه هي محصلة الأخلاق الحميدة.

فحتى في العمل الصالح لا يُؤدَّى العمل كيف ما كان بحجة أنه صالح بل يجب أن يكون هناك شيء من الأخلاق حتى في أداء الصلاح الا هو (الإتقان) فما بالك في العمل الاعتيادي كيف يجب أن تكون نسبة الاخلاق فيه لذا عبر سبحانه عن الأخلاق بالجهاد، وبهذا تتحقق الهداية إلى سبيله جلَّ وعلا (فسبله هي الطرق المقربة منه والهدايه إليه تعالى)[4]، حيث يتضح في ضوء مدلول الآية

---

(١) النراقي، جامع السعادات، ١، ٧٤.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ١٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ١٦، ١٥٦.

المباركة وغيرها من الآيات أن القرآن الكريم يتبنى دعوة نسبية تطبيق القيم الخلقية وإمكانية تغيير الإنسان لسجاياه سلباً أو إيجاباً، بحيث يكون ذلك على قدر جهاده لنفسه بتطويعها وترويضها لما يسعى إليه.

أما قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[1]، فالآيات المباركة تعرض النظرية القرآنية لكثير من المطالب ومنها نظرتها إلى النفس الإنسانية وآلية كسب المعارف، وأن الأخلاق مطلقة، ونسبية التخلق بها، واطراد إصلاح النفس على قدر تربيتها، وان كل نفس قابلة للتغير، والإرادة والعزم هو السبيل للتغير، وغير ذلك من المحاور.

فالإلهام من قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ هو: (الإلقاء في الروع وهو أفاضته تعالى الصورة العلمية من تصور أو تصديق على النفس، وتعليق الإلهام على عنواني فجور النفس وتقواها للدلالة على أن المراد تعريفه تعالى للإنسان صفة فعله من تقوى أو فجور)[2].

وهذا يعني أن الإنسان له من المقدمات التي بإمكانه أن يختار حراً سبيل الفجور أو التقوى بدليل قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾، فالآيات المباركة تؤكد مطلب (إن بإمكان الإنسان أن ينمي نفسه ويكملها من

---

(١) الشمس: ٧ – ١٠.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٢٠، ٣٣٨.

خلال طلبه للأخلاق الحسنة)[1].

وإن حجم التغيير عملية مطردة مع مستوى الجهد المبذول لترويض وتنمية النفس الإنسانية بالاتجاه المطلوب، وإن ترويض النفس لا تتم إلا من خلال التربية والتأديب كما أشار لذلك الشيخ النراقي مستشهداً بقول أرسطو طاليس (يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلا أن هذا ليس كلياً، فإنه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل، وربما لم يؤثر أصلاً)[2]، (وهذا يعني أن التغيير يكون نسبياً على قدر زكاة النفس الإنسانية وتمسكها بأخلاقيات معينة أخذت طابع الملكة أو السجية، هذا من جهة، أما الجهة الأخرى على قدر وأثر التأديب والتغير، وإن التأديب يختلف باختلاف مراتب السياسات والتأديب)[3].

ومفاد القول إن الآيات المباركة تُعدّ دليلاً على استعداد الإنسان للتغير والقدرة لتنمية نفسه وترويضها وتأديبها، وأن كل فرد له القدرة على تطوير نفسه وإنمائها، لأنها مفطورة على الخير ميالة إليه، أي (إن خلق النفس ليس كخلق الجسد فيكون تارةً كاملاً ومستوياً وتارةً ناقصاً وغير مستوي الخلقة، بل إن جميع النفوس الإلهية مستقيمة في الفطرة الإلهية ومستوية بالإلهام الإلهي)[4]، وهذا ما نستوحيه أيضاً

---

(١) كمال الحيدري، في ظلال العقيدة والأخلاق، ٢٦، ٧٢.

(٢) النراقي، جامع السعادات، ١، ٥٨.

(٣) المصدر نفسه ١، ٥٩.

(٤) جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ٢٥٢.

من مدلول روايات المعصومين عليهم السلام في أمكانية ترويض النفس وتأديبها كقول الرسول ﷺ (حسنوا أخلاقكم)[1] وقوله ﷺ (تخلقوا بأخلاق الله)[2]، قوله ﷺ (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[3].

ونستفيد مما تقدم أن القرآن الكريم ينظر إلى ضرورة تنمية الجانب الأخلاقي وذلك بترويض النفس الإنسانية امتثالاً لشريعة الله المقدسة، لأن عملية التنمية تدخل في ضبط سلوك الفرد والمجتمع وضبط المنظومة الاجتماعية، لأن كل نظام يحتاج إلى متابعة دؤوبة للرؤى والسلوك لتأمين حالة الاستقرار والأمان والعدل بإشاعة الخير.

لم يكن المجهر القرآني الذي رصد حركة الصراع النفسي داخل حلبة الإنسان إلا ليبين حقيقة النفس وماهيتها وقواها المتنازعة، وهذه (القوى والأدوات النفسية هي شؤون ومراتب النفس المختلفة، والنفس حقيقة واحدة في عين وحدتها وتشمل جميع القوى أيضاً)[4]، وهذا ينم عن تركيبة معقدة وتداخل واضح للقوى النفسية فيما بينها، مما يحتم أن يكون السلوك المنبعث من هذا الزحام المعقد سلوكاً

---

(١) محسن الكاشاني، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، مج٣، ٦٤،٥ وانظر مصدره.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أبو القاسم بابنده، نهج الفصاحة، ٢٨٩. محسن الكاشاني، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، مج٣، ٦٤،٥.

(٤) جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ٢٤٧.

يشوبه القلق وعدم الاتزان، لافتقار القوى إلى الاعتدال بين الإفراط والتفريط، وأن توازن قواها تسمى اعتدالاً وهي عين الأخلاق وغايتها (فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها)[1].

نقول لما جاء القرآن الكريم بنظم شاملة متوازنة معتدلة في كل مضامينها ومتبنياتها فإنا نجد نظرته إلى الإنسان على أساس ذلك التوازن والانضباط والشمول والاعتدال في العناصر، أي بين البدن والروح من جهة وبين النفس الإنسانية وقواها من جهة أخرى، أي أن تأخذ كل قوة من القوى حقها من دون المساس بحق القوى الأخرى.

فلم يكن تأكيد القرآن الكريم تنمية الأخلاق إلا لأنه مطلب ضروري مؤداه أن يعم الخير على الإنسان والحياة، ولهذا عد على أنه وجه من أوجه العبادة من جهة وطريق موصل لبناء الحضارة الإنسانية من جهة أخرى، على عكس النظريات الوضعية التي لم تلتفت لهذا الشأن، بل أنكرت تدخل هذا النمط في ضبط السلوك الاجتماعي، وعدته شأناً فردياً بمعزل عن المؤسسات الاجتماعية، وإن منشأ دعوة النظم الوضعية بعزل الدين والقيم والأخلاق عن عمل الدولة – التي تدير الفرد ونظامه الإداري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي –منشأه تلك الرؤية الضيقة لأن (عمل الدولة عندهم يقتصر على تنظيم الشؤون الاقتصادية وتجديد وسائل الإنتاج وتحسينها وإدارة الهيئات السياسية والإدارية والمؤسسات العسكرية

(١) محسن الكاشاني، المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء، مج٣، ٥، ٦٩.

والثقافية)[1].

وما شقاء الأمم والشعوب وما ذاقته من ويلات إلا بسبب غياب الوازع الأخلاقي والإنساني الذي أكده القرآن الكريم حتى وصف بالحكمة والفضيلة، وان المتتبع يدرك حقيقة ما ورد في أهمية تحقيق العدالة التي التفتت إليها أخيراً الأمم والشعوب والمنظمات العالمية والدولية، وهذا ما نلمسه جلياً لو تتبعنا حركة الإنسان منذ ولادة التنمية بمفهومها العام إلى الولادة الاصطلاحية للتنمية البشرية عام ١٩٩٠م حين أقرته الأمم المتحدة، ثم صعوداً لتقريرِ الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠١٢م، الذي أقر فيه ضرورة وجود العدالة والإنصاف ركناً من أركان التنمية البشرية ومتبنياتها[2].

(١) محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ١٤٥.

(٢) راجع ص١٤٦ من الكتاب.

(٣) التنمية البشرية وميدانها الاقتصادي في القرآن الكريم.

لقد ذكرنا في مطلب التنمية الفكرية أهمية كافة المجالات التي تمثل جميعها فريقاً واحداً يعكس مضامين الرؤية الكونية بوصفها ميداناً تأسيسياً لمنظومة متكاملة، وقد اشرنا إلى أن علة أي مسار للمقتضيات الاجتماعية مبنية على أساس تلك الرؤية وقراءتها للإنسان والكون والحياة، حيث سنتلمس بوضوح كيفية إنشاء الهيكل الفوقي ما بعد الرؤية الكونية الذي سيعتمد على فلسفتها ويستند على أسسها، وما الجانب الاقتصادي إلا أحد بقية المجالات التي ستخضع لأسس وضوابط وفلسفة الرؤية الكونية، وكذا لفهمها للإنسان وموقعه ومكانته، ولحركته داخل دائرة الحياة، وكذا تتابع ذلك الفهم نزولاً إلى كل جزئية أو مفردة من كيانه العام كونه موضوع التنمية البشرية .

ولأهمية المجال الاقتصادي لتكامل التنمية البشرية أقتضى أن نقف عند هذا الميدان وعلى منهج نموه وآلياته، كونه محوراً مهماً وجوهرياً في بناء الهيكل التنظيمي للعملية التنموية خصوصاً وإننا أكدنا أن من أولويات التنمية البشرية هي تأمين حاجات الإنسان المشروعة وتحقيق طموحاته، وبلا شك ستكون هناك كثير من الحاجات الإنسانية التي لا نستطيع تأمينها إلا من خلال هذا الميدان الاقتصادي الجوهري والأساسي.

وما التباين بين المدرسة القرآنية والمدرسة الرأسمالية والاشتراكية إلا على أساس قراءة المفهوم الاقتصادي وتأثيراته في كل مفردة من مفرداته، ولعل أهم

هذه الفروق هي الرؤية لذات تنمية المفهوم الاقتصادي الذي يراه كل من المعسكر الرأسمالي والاشتراكي على أنه هدف، في الوقت الذي يرى القرآن الكريم أن تنمية الجانب الاقتصادي مبني على أساس أنه وسيلة وليس هدفاً، (فلا ينبغي أن يكون النشاط الاقتصادي غاية قصوى بحد ذاته)[١].

لقد صور بعض من الباحثين أن نشاط التنمية الاقتصادية هو عبارة عن: (عملية بموجبها تستخدم دولة مواردها المتاحة لتحقيق معدل سريع للتوسع الاقتصادي يؤدي إلى زيادة مطردة في دخلها القومي وفي نصيب الفرد من السلع والخدمات، وتتطلب هذه التنمية التغلب تدريجياً على المعوقات الاقتصادية وتوافر رؤوس الأموال والخبرة الفنية والتكنولوجيا)[٢]، لكن لا يُعدّ ذلك مسوغاً أن تكون غاية التنمية الاقتصادية ذلك النشاط الضيق ذا الأفق المحدود.

فالتعريف بالمنهج الإسلامي والقرآني للتنمية الاقتصادية أكثر شمولاً بحيث يُعدّ تنمية شاملة ومتوازنة غايتها الإنسان نفسه، فهي شاملة لأنها تتضمن توفير الحاجات البشرية كافة، ومتوازنة لأنها لا تستهدف الكفاية فحسب، مثل زيادة الإنتاج؛ بل تستهدف تحقيق العدالة وعدالة التوزيع[٣]، قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي**

---

(١) (بحث) المصباح ، التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع ، العدد٩، ١٨٠.

(٢) احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ١٢٣.

(٣) ظ: فؤاد شندي، التنمية الاقتصادية في الإسلام، ٦١-٦٣.

﴿جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُور﴾[1]، فالآية المباركة تشرع النشاط الاقتصادي على أساس الجعل الإلهي وتبين مقدمته، كالأرض التي جعلها (مطاوعة منقادة لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها وتمشوا فيها تأكلون من رزقه الذي قدره لكم بأنواع الطلب والتصرف فيه)[2]، أما قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا﴾ فمدلولها (الإباحة توجيهاً وحثاً للأمة على السعي والعمل الجاد والمشي في مناكب الأرض)[3] وفي الآية إشارة إلى تشريع النشاط الاقتصادي.

لم يكن القرآن الكريم عائقاً أو منكراً للجانب الاقتصادي في العملية التنموية، فهو أقر أهمية المجال الاقتصادي وآثره علم الاقتصاد الذي عده محوراً مهماً في تكامل المجتمع وإدامة الحياة، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (إذا أعسر أحدُكم فليضرب في الأرض يبتغي من فضل الله ولا يغم نفسه)[4]، وقد بين أهمية تطوير الإنتاج ورفع مستوى دخل الفرد بغية تأمين متطلباته، إلا إن الموقف انحسر في

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩، ٣٧٣.

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ٨، ١٢٣٨.

(٤) النوري، مستدرك والوسائل ومستنبط المسائل، ج١٣، ص١٧٢.

المذهب الاقتصادي الأيديولوجي [1] الذي يُعدّ الموجّه للفعاليات الأربع: الإنتاج، التوزيع، التبادل، الاستهلاك. بحيث ارتبطت حركة هذه الفعاليات بعملية التنمية الاقتصادية، أما في المنظور الإسلامي ترتبط نظرية الإنتاج بمتطلبات التوزيع العادل، أما على مستوى القيمة فإن الإسلام لا يربط الأمور الاقتصادية للإنسان بالحاجة والمنفعة؛ بل يربطها بالحق في حصول كل فرد على قوته وتحسين معيشته.

بينما نجد أن الهدف من الاستهلاك في التنمية الاقتصادية الإسلامية هو تحقيق المزيد من الإنتاج والنمو من خلال استثمار الجهد البشري، وهذا يُعدّ أفضل طريق نحو تحقيق النمو الاقتصادي وخلق فعل التوازن بين الاستهلاك والإنتاج[2].

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في شأن إدامة الحياة والاهتمام في العمل والمثابرة من أجله أنه قال: (لا تدع طلب الرزق من حلّه، فإنه عون لك على دينك، وأعقل راحلتك وتوكل)[3]، فالمنظور القرآني والإسلامي لم يرفض النمو الاقتصادي، إلا انه يرفض أن يكون معيار النمو الاجتماعي وتكامله على أساسه،

---

(١) هناك فرق بين علم الاقتصاد والمذهب الاقتصادي: (فعلم الاقتصاد هو مجموعة قوانين الفاعلية الاقتصادية، أما المذهب الاقتصادي:فهي الأطر الأيدلوجية الموجهة للفعاليات «الإنتاج، الاستهلاك، التوزيع، التبادل» العلم والمذهب مختلفان في طريقة البحث في الأهداف وليس الاختلاف في الموضوع والمجال) ظ:قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر، عبد الأمير كاظم زاهد،٣٤٦-٣٤٧ .

(٢) ظ: ناصر يوسف، دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركبة، ٧٥ – ٧٦.

(٣) المفيد: الأمالي، ١٧٢.

فمن الخطأ أن تكون التنمية البشرية لها وضع أن (يُجعل من الإنتاج مقياساً لها بحيث إذا توفر نمو وزيادة في الإنتاج كانت هناك تنمية، وإذا انتفى انتفت)[1]، فلا يصح إطلاقاً أن يكون المعيار التنموي مادياً بحتاً متمثلاً في الإنتاج والاستهلاك لما أنتج، بل تُعدّ التنمية الاقتصادية جزءاً من كل في منظومة التنمية البشرية عموماً.

لقد أهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً في ضرورة تفعيل وإنماء نشاطات الجانب الاقتصادي وعده ضرورة طبيعية كونه السبيل لتأمين حاجات الإنسان المختلفة والمبنية بمقتضى غريزة طبيعية نابعة من كينونته ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[2]، (فالآية المباركة تبين طبع الإنسان على نحو القضية الحقيقية، كما أنها ليست في مقام حصر الشهوات)[3] ذلك بأن الإنسان له حاجة ملحة لهذه الأمور في حياته لكن على أساس التنظيم والتشريع قطعاً.

وقد جاء في مورد آخر من القرآن الكريم: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

---

(١) المكتبة الإسلامية، مفهوم التنمية، موقع ألكتروني.
www.islamweb.net/newlibrary/ummah_Chapter.php?lang

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ٥، ١٣٥.

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]، فالآية المباركة توضح جلياً أن الاستفهام الاستنكاري باتخاذ الزينة ما يرفع به لعيب، وأن ابتناء حياة الإنسان السعيدة لا تتحقق إلا بما يلائم طباع قواه وأدواته التي جهز بها ويساعده على بقاء تركيبه الذي ركب به[2]، (وأن أباحة زينة الله والطيبات من الرزق مما لا ينبغي أن يرتاب فيها فهو من أمضاء الشرع لحكم العقل والقضاء الفطري)[3].

فإمضاء الآية المباركة للشهوات والزينة تُعدّ قرينة لأهمية الجانب الاقتصادي ومصداقاً لاهتمام القرآن الكريم في هذا الشأن، كما أنه أقر ذلك في موارد أخرى كقوله تعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**[4]، فالقرآن الكريم أكد ذات التنمية الاقتصادية لكنه في الوقت نفسه شرع ضوابطاً للمنهج الاقتصادي غايته أن تقيد الإنسان كونه حريصاً بحكم طبيعته البشرية، حيث يمكن أن يُسيء استخدام النعمة بالشكل المعقول والمعتدل[5] لذا جاء في قوله تعالى: **﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**.

فالمشكلة لا تكمن في المنظومة الاقتصادية أوفي تنمية هذا المجال المهم أو بتنعم

---

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٨، ٨١ – ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ٨٣.

(٤) الأعراف: ٣٢.

(٥) ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل، ٤، ٣٥١.

الإنسان أو تأمين حاجاته، إلا أن القيد الذي قيدتهُ الآية المباركة هو عدم الإسراف أي ضرورة وجود التوازن كخاصية ضرورية فرضها الله تعالى لا في المجال الاقتصادي فحسب بل في كل مفصل من مفاصل المنظومة الإسلامية، وهذا ما نستشفه من مدلول الآية المباركة حيث (حث الله سبحانه وتعالى على تناول الزينة عند كل مسجد، وندب إلى الأكل والشرب، ونهى عن الإسراف)[1]، أي أنها أجازت ما عُد من الحقوق الطبيعية والفطرية في الوقت الذي نهت عن الإسراف وعدم التوازن، وأكدت الاعتدال الذي عُد المعيار في العملية الاقتصادية على وفق المنظور القرآني، وهو المحور المهم والحد الفاصل بين بقية المدارس الاقتصادية.

لم تكن سمة الاعتدال والاتزان سمة خاصة بالجانب الاقتصادي بل أصبحت سمة تعم المنظومة الإسلامية بكامل مفرداتها، كذلك دعا الإسلام إلى اعتماد سياسته المالية في الاعتدال بالإنفاق والاستهلاك من دون الإسراف والتقتير[2]، ﴿الَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[3]، الآية تؤكد (سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات، ويتجه إليها في التربية والتشريع،

(١) الطبرسي، مجمع البيان،مج ٣، ٨، ١٦.

(٢) ظ: .إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي٧٠.

(٣) الفرقان: ٦٧.

يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال[1])[2] ولعل اهتمام الإسلام بعدالة التوزيع نابع من أن الموارد الطبيعية جميعها التي سخرها الله هي خدمة للإنسان (والإنسان هنا هو العام الذي يشمل الأفراد جميعاً)[3] في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾[4] لذا لا يجوز الاعتداء على الرصيد العام للمال بالإسراف حتى لو كان الإنسان حاكماً على ماله.

نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (ما جاع فقير إلا بما متع به غني)[5]، فالإمام علي عليه السلام يحدد سوء التوزيع على أنه علة التخلف الاقتصادي ويُعدّ الجوع مؤشراً واضحاً لقياس تخلف التوزيع، كما نفهم منه عليه السلام (أن التنمية ليس زيادة الإنتاج أو رفع مستوى الدخل القومي أو مضاعفة متوسط دخل الفرد، وإنما تتطلب إلى

---

(١) وضح سيد قطب أن الجانب الاقتصادي في مورد الآية يعني أن مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة كما هو الحال في النظام الرأسمالي، إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين والإسراف والتقتير، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، بحيث يجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ظ: سيد قطب، في ظلال القرآن،مج ٥، ١٩، ٢٥٧٩.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن،مج ٥، ١٩، ٢٥٧٨.

(٣) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٥٠٨.

(٤) البقرة: ٢٨.

(٥) حسن بن سليمان بن محمد الحلي، مختصر البصائر ص٣٨٥.

جانب ذلك عدالة توزيع الدخل ورفع مستوى الاستهلاك لجميع أفراد المجتمع)[1].

هكذا بقي قيد العدالة معياراً رئيساً يُعتد به في العملية التنموية الاقتصادية وبقية المجالات، لذا لم نجد القرآن الكريم قد اعترض على تباين دخل الأفراد، بل عده حقاً مشروعاً في المنظور الاقتصادي الإسلامي[2] كونه مبنياً على أساس التباين بين الجهد والخبرات والمهارات ﴿**وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾[3]، بل عد التباين في مستوى الدخل حافزاً للعمل مما يسبب زيادة الإنتاج ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون**﴾[4] لأن عموم الجزاء القرآني مبنيٌّ على أساس العمل، وكذا سيكون دخل الفرد بلا شك فكل بقدر عمله وجهده ﴿**مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه**﴾[5] لان العمل ماكينة النظام الاقتصادي بل هو سبيله للإنجاح، ينقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه

---

(١) إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ١٢٢.

(٢) يُنقل عن علي عليه السلام أنه خاطب أحد ولاته قائلًا: (واعلم إن الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض) المصدر: ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص١٣١.

(٣) النحل: ٧١.

(٤) الأحقاف: ١٩.

(٥) الزلزلة: ٧- ٨.

قال: (طوبى لمن ذلّ في نفسه وطاب كسبه)[1]، وهذا لا يعني أن الإسلام لم يجعل ضوابطاً لتفاوت دخل الأفراد (فهو لا يعني فقراً مدقعاً أو غنىً فاحشاً، فالإسلام مع اعترافه بهذا التفاوت من خلال القرآن إلا إنه يسعى من خلال آياته إزالة آثار الفقر والقضاء عليه من خلال الزكاة والصدقة)[2].

إن النشاط التنموي القرآني لم يعترض على تباين مستوى الدخل، كذا نجده غير معترض لتباين الملكية، إذ نجد أن النظام الاقتصادي الإسلامي ينظر إلى الملكية الخاصة نظرة مختلفة تماماً عمّا تعارف عليه في النظم الوضعية، فالإسلام تعامل مع الملكية الخاصة على أساس مفهوم الخلافة، تحولت الملكية في الإسلام إلى أداة لا غاية، وسيلة لتحقيق الهدف من الخلافة العامة وإشباع حاجاته الإنسانية[3] ﴿**أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾[4]، مما يقتضي على الخليفة أن يكون وكيلاً مستأمناً عمّا وكل عليه، وكذا فإن (طبيعة الخلافة تفرض على الإنسان أن يتلقى تعليماته بشأن الثروة المستخلف عليها ممن منحه تلك الخلافة)[5].

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة ، تحقيق صبحي الصالح، ٤٩٠.

(٢) (بحث) المصباح ، وسطية القرآن الكريم في دعم النظام الاقتصادي، أنور زهير نوري ، العدد ١٠ ، ١٥٤– ١٥٥.

(٣) ظ: محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٥١١.

(٤) الحديد: ٦.

(٥) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٥٠٧.

إن من مقتضيات هذه الخلافة الربانية أن يكون الخليفة -الإنسان- مسؤولاً بين يدي الله تعالى على ما استخلفه، خاضعاً لرقابته في كل تصرفاته وأعماله ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[1].

لم يقف الأمر عند جعل الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض بل تعدى ذلك ليصل الأمر أن سخر له ما فيها خدمة له ولتنمية ذاته وما يحيط به، وقد عدت الموارد الطبيعية جميعاً طريقاً موصلاً لسد حاجاته وتأمين متطلباته.

والدليل على أن الموارد الطبيعية التي تُعدّ أحد أهم عناصر العملية الاقتصادية وتكاملها هي مسخرة للإنسان بالمنظور القرآني، قال الله تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون**﴾[2].

والتسخير أي انه تعالى خلقها جميعاً لانتفاع الإنسان بها، فهي مسخرة له من حيث الانتفاع بها على الوجه الذي يريده[3]، ومعنى (أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده أنه تعالى مكونها وموجودها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه)[4].

---

(١) يونس: ٤١.

(٢) الجاثية: ١٢ – ١٣.

(٣) ظ: الطبرسي، مجمع البيان، مج٥، ٢٥، ١٢٩.

(٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج١٤، ٢٧، ٢٣٢.

فالتنمية البشرية ومجالها الاقتصادي في القرآن الكريم واسع ورحب وله صور متعددة، اعتمدت على استيعاب العملية الاقتصادية مادياً وروحياً لان التنمية بهذا النمط تصنع الحياة، وأن التنمية –التنمية الاقتصادية على سبيل المثال- تتجلى في العمل على ترسيخ القيم الإنسانية العليا، فإذا غلبت هذه القيم على الاهتمامات المادية سينقلب الركود الاجتماعي إلى حراك، والتدهور الاقتصادي إلى رفاه، والفوضى السياسية إلى استقرار، والعبث الثقافي إلى وعي والتزام[1]، وما الخلل الروحي والأخلاقي إلا أحد أهم العوامل لتقهقر وتراجع الإنسان ومنظومته الإدارية بصورة عامة والاقتصادية بصورة خاصة[2]، لأن التنمية البشرية التي تُعدّ متكاملة يجب أن تكون شاملة، وأن شموليتها بلا شك تقتضي أن تأخذ لون ونمط وحركة الإنسان الذي يُعدّ هو الموضوع فيها وهو الهدف والوسيلة، ورؤية الدكتور علي شريعتي تصب في ذات المصب حيث نفهم منه أن التنمية هي: (حصيلة تضافر عوامل مادية ومعنوية معقدة، فهو يرى أن العلاقة بين الاقتصاد والثقافة، أو بحسب المصطلح المعاصر التنمية الاقتصادية والتنمية الثقافية هي علاقة متبادلة

---

(١) ظ: ناصر يوسف، دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركبة، ٦٨.

(٢) يرى الآصفي إن قيام الدولة لها عدة أسس، منها الجانب الاقتصادي،وان نجاح هذا الجانب يتم من خلال سياسات يجب إتباعها أهمها: ١- مراقبة السوق ٢- التسامح في جباية الخراج ٣- عدم التأخير في توزيع أموال العامة ٤- التوزيع بالسوية . ظ:في رحاب القران،محمد مهدي الآصفي،١٥٩-١٦٣ .

وثنائية)[1] وذلك لقوله في هذا الخصوص (من غير الممكن أن يبلغ مجتمع من المجتمعات مرحلة الاستقلال الاقتصادي قبل مرحلة الاستقلال المعنوي، كما لا يمكن للأمة أن تنال الاستقلال المعنوي من دون الاستقلال الاقتصادي)[2].

فاقتصار (هذه الرؤية على البعد الاقتصادي للتنمية فقط أي على البعد المادي في حياة الإنسان، وغضت الطرف عن العبد المعنوي في المسألة، لا شك في أن هذه النظرة الأُحادية عن حياة الإنسان تنطوي على عواقب وخيمة، وتؤدي إلى شعور البشرية بالغربة والضياع، ليصبح الإنسان أداة للتنمية من دون أن يتمكن من تفجير طاقاته في هذه العملية) [3].

فالتنمية البشرية وجانبها الاقتصادي في المنظور القرآني لها مجالات وصور متعددة استطاعت احتواء مفاصل المسارات الاقتصادية كافة، مما ألزم وجود محددات لمنهجها تكون ضابطةً لتحقيق عملية الانسجام بين ضرورة تلبية الحاجات البشرية والحفاظ على القيم والمثل وفلسفة أصول وجود الإنسان،

---

(١) فيروز راد و أمير رضائي، تطور الثقافة، ١٨٩.

(٢) علي شريعتي، الأعمال الكاملة، ٢٠، ١٥٣-١٥٤.

(٣) فيروز راد وأمير رضائي، تطوير الثقافة،٤٣.

وبين أهدافه الدنيوية وغاياته الأخروية، لكي تكون تلك المحددات[1] منعطفاً لإنجاح الرؤية الاقتصادية المتوازنة مما يسبب تجانساً واضحاً بين الإنسان وعلاقته بزيادة الإنتاج وعدالة التوزيع كقضية صغروية من جهة، وبين الإنسان وعلاقته بالمنظومة القيّمية وآثارها من جهة أخرىٰ، لأن المشكلة الاقتصادية لا تكمن في عملية الإنتاج والتوزيع فحسب، بل تفتقر لفهم الإنسان إلىٰ ذات المفهوم، كما تفتقر لدافع الإنتاج ومحرك ديمومته الذي يشكل الهيكل التنظيمي للمشروع الاقتصادي وسياسته ولعناصر المناهج الاقتصادية، وهذا ما عُدَّ سبباً واقعياً في تباين المدارس الاقتصادية نظرياً وتطبيقياً.

فالاختلاف بين مناهج المذاهب الاقتصادية قد يتعدىٰ الجزئيات ليصل إلىٰ الكليات التي تغير أصل المسار الاقتصادي، وهذا ما لمسناه حين نُظر إلىٰ الإنسان علىٰ سبيل المثال علىٰ أنه أحد عناصر العملية الإنتاجية في حين نظرَ القرآنُ إليه علىٰ أنه الفاعل في عملية الإنتاج والمحرك والمستفيد والغاية، ولهذا يمكن رؤية قصور المذهب الاقتصادي الاشتراكي والرأسمالي لعدم شموليتهما لحركة التنمية المتكاملة ومفرداتها وعلىٰ رأسها فهمهما للإنسان، حيث (وقعتا في خطأ التعامل مع الإنسان،

---

(١) لقد عد الدكتور ناصر يوسف عدة محدادت في المنظار الإسلامي للحركة الاقتصادية أهمها: تقوىٰ الله، احترام الإنسان، إتقان العمل، مراعاة الملكية، ترشيد الإنفاق، الزكاة، تحريم الربا، حيازة التقنيات «التكنولوجيا» ظ : ناصر يوسف، دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركبة، ٧٠-٧٤.

فالاشتراكية أهملت حضوره البيولوجي، والرأسمالية رفضت أصله الاجتماعي)[1] ، وهكذا هي الحال في تثبيت المسار الرئيس في الحركة التنموية وأساسها الذي تباينت على ضوئه المدارس الاقتصادية، والمبني على محورية "الفرد أو الجماعة أو كلاهما"[2]، يتضح من خلال الدراسات (أن مفهوم التنمية في النظام الرأسمالي هو في الأساس مسؤولية الفرد أو القطاع الخاص، وهو في المذهب الاشتراكي مسؤولية الدولة أو القطاع العام، أما في الشريعة الإسلامية فهو مسؤولية الفرد والدولة معاً أي القطاعين العام والخاص، بحيث يكمل احدهما الآخر)[3]، وذهب بعضهم إلى أن من أساسيات الاختلاف بين التنمية البشرية وميدانها الاقتصادي في القرآن الكريم وغيرها هو رؤية كل منها إلى الإنسان والأخلاق أيضاً، فالأخلاق مسألة هامشية في التنمية الرأسمالية والاشتراكية، بينما الأخلاق في التنمية الاقتصادية في منظور القرآن الكريم هي مدعاة لكل نجاح إنمائي[4].

---

(١) ناصر يوسف،دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركبة، ٢٤.

(٢) يُعد هذا المحور المائز بين المدارس الاقتصادية لذا قيل إن (ما يميز الفكر اللبرالي في اعتماده على الملكية الفردية كأساس للنظام الاقتصادي، بينما نجد النظام الاشتراكي ينبذ الملكية الفردية ويضع الموارد تحت سيطرة الدولة أو المجتمع في ما يُعرف بالملكية العامة) ظ: الموسوعة العربية للمعرفة من أجل التنمية المستدامة، الأكاديمية العربية للعلوم، المجلد الرابع البعد الاقتصادي، عن الليبرالية، د. حازم البيلاوي، ٦٥.

(٣) إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي ، ٢٤٨.

(٤) ناصر يوسف، دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركبة، ٧٦.

ونتيجة لقصور المدارس الوضعية وتخبطها بدأ الإنسان يبحث عن نظم تنقذه من براثن الجهل ، حيث ولدت فلسفات جديدة تحاول مجاورة الحقيقة وفهم الإنسان بالشكل اللائق، مما أُسهمت سلسلة من المؤسسات والقيم والنظريات الاقتصادية في تشكيل اقتصاد جديد مرتكز على المعرفة يُعدّ رأس المال الفكري الأساس في خلق أفضلية تنافسية[1]، فإلباس الاقتصاد هذا الثوب الجديد (اقتصاد المعرفة) يعني (أن الاقتصاد مبني على التنمية البشرية، وتنمية معرفة الإنسان وقدرته على التفكير والفهم)[2]، فليس غريباً أن يدرك الإنسان أن سبب تقهقره مادياً وروحياً وعلى الأصعدة كافة هو مجافاته لرسالة القرآن الكريم التي رسمت خارطة النجاة للبشرية ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[3].

فالخلاصة: إن صلاح أمر الإنسان (هو السير بهدي القرآن العظيم، وحينما يرصد الكاشف عن أسرار القرآن: الحياة المادية المحضة ويتعرف الصراع الاقتصادي المرير، يدرك جيداً أن نفحة من الأثر الروحي قد تشق طريقها باطمئنان رتيب

---

(١) ظ: الموسوعة العربية للمعرفة من أجل التنمية المستدامة ، الاقتصاد الجديد، عاطف قبصي ،٤، ٣٠٧.

(٢) عباس آل حميد، الإستراتيجية الإسلامية، ١٦٦.

(٣) النحل: ٦٤.

إلى هذا الأفق الخانق لتنقذه من الانجراف، وتتداركه من الانحراف)[1]، فالقرآن الكريم حبذ إنماء الجانب الاقتصادي بِروحه، وكذا إنمائه متلازماً مع بقية المجالات الأخرى[2] لتحقيق الشمولية والتكامل الذي يسعى إليها القرآن الكريم كمصداق للتنمية البشرية.

(١) محمد حسين الصغير، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم، ٣٧.

(٢) لقد تبنى السيد محمد باقر الصدر قدس الله سره الشريف أن الرؤية الإسلامية الاقتصادية يجب أن تكون بمعية الجوانب الأخرى التي تكمل احدهما الآخر، حيث قال: (وإنما يجب أن نعي الاقتصاد الإسلامي ضمن الصيغة الإسلامية العامة، التي تنظم شتى نواحي الحياة في الجميع ... وهو بدوره جزء من صيغة عامة للحياة) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٢٦٩- ٢٧٠.

(٤) التنمية البشرية وميدانها الاجتماعي في القرآن الكريم.

إن للإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة رؤية تهتم بفلسفة المنظومة الاجتماعية ومكوناتها وعناصرها ومقوماتها وتنميتها، وإن منشأ هذا الاهتمام مرده أن المجتمع ميدان النظم القرآنية وساحتها الحقيقية لتطبيق نظرياتها وتصوراتها.

لقد وضع القرآن الكريم محددات للمجتمع الإسلامي وحاول أن يطور ويُنمي تلك المحددات والأسس التي ستنتهي طبيعياً إلى تنمية وتطور المجتمع، فالقرآن الكريم عد المجتمع (مجموعة أفراد تربطهم أنظمة وتقاليد وآداب وقوانين معينة)[١].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢]، فالآية المباركة جاءت بصيغة الحصر لتؤكد أن الإيمان الذي لا يرفع المنتمين إليه إلى حالة الأخوة، إيمان ضعيف وناقص، وهي إشارة إلى أن الصلة بين المنتمين للدين ليست مادية، وإنما هي مبدئية ناشئة من صلة كل واحد منا بدينه[٣].

وهذا يعني أن القرآن الكريم ينظر إلى المجتمع على أساس النظم الفكرية والعقائدية لا على أساس الأرض أو اللون أو البيئة أو الجنس أو اللغة، وسيكون

---

(١) مرتضى مطهري، المجتمع والتأريخ، القسم الأول، ٢١.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) ظ: محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٩، ٣٢٧ - ٣٢٩.

المجتمع عبارة عن (مجموعة أفراد يعيشون في إطار مجموعة من الاحتياجات، وتحت ظل سلسلة من الأفكار والمعتقدات والأهداف)[1]، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[2].

وبما أن معيار التنمية الاجتماعية مبنيٌّ علىٰ لبنة الرؤية الكونية وما توّلده من أفكار وعقائد وأخلاقيات وأدبيات، فلابد من أن يكون التوحيد هو من أولويات الرؤية الكونية القرآنية، لذا نجد أن عقيدة التوحيد هي التي تجمع أفراد المجتمع الإسلامي بعيداً عن كل الصور الأخرىٰ، فقد ذكر الشيخ الصدوق في مجلس درسه العبارة التالية المستوحاة من النصوص المعتبرة: (ومن شهد الشهادتين فقد حقن ماله ودمه إلا بحقهما وحسابه علىٰ الله عزّ وجل)[3].

وتأسيساً علىٰ ما تقدم يُستدل من مدلول الآية المباركة وما نُقل عن الرسول ﷺ أن الحاكم والفيصل في المجتمع الإسلامي هي الشريعة المقدسة وما تحمل من أحكام ومضامين، فمن (ضروريات المجتمع أن يُعدّ له نظام عتيد، يقرر فيه الحقوق، ويضبط منه الحدود، ويشد العلاقات ويقسم الواجبات)[4]، بحيث تصبح تلك

---

(١) مرتضىٰ مطهري، المجتمع والتأريخ، القسم الأول، ١٢.

(٢) الروم: ٢٢.

(٣) الصدوق ، الأمالي، المجلس الثالث والتسعون، ص٦٤٠.

(٤) محمد أمين زين الدين، الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته، ٩٠.

النظم والأحكام معيار المجتمع الإسلامي، وهي ذاتها -الأحكام ـ التي (توجه المجتمع نحو الوحدة والعقيدة الاجتماعية)[1]، أن الأحكام الشرعية المقدسة بما فيها الأوامر والنواهي مبنيةً على أساس قاعدة (جلب المصلحة ودرأ المفسدة) فبما أن غاية التشريع هي جلب المنفعة للإنسان ودرأ الضرر عنه، لذا فإن جميع الأوامر والنواهي باعثها العلة أعلاه، بهذا تصب جميع تلك الأحكام خدمة للمنظومة الاجتماعية ومجموعة أفرادها، وما ذلك إلا عين التنمية البشرية.

وبمقتضى ذلك يجب أن تكون مجموعة أحكام وسنن النظام الاجتماعي منبثقة أساساً من أفكار تلك الرؤية هدفها تحقيق الغايات المرجوة، لأن النظم الاجتماعية تعني مجموعة الأحكام المستنبطة من الرؤية الكونية، بحيث يتعامل معها الفرد والمجتمع على أنها مجموعة عقائد من قوانين وسنن تنظم سلوك المجتمع بأفراده ويرسم معالم تألقه وتنميته، كما تصبح النظم الاجتماعية عبارة عن (عمليات تغير اجتماعي للبناء ولوظائفه، وذلك من اجل إشباع الحاجات الاجتماعية للأفراد، والتغير الاجتماعي للبناء الاجتماعي يتناول كل تغير في التركيب السكاني للمجتمع، أو في بناء طبقات المجتمع أو نظمه الاجتماعية، أو أنماط العلاقات الاجتماعية فيه، أو في القيم والمعايير التي تأثر في سلوك الأفراد)[2]، وما مفاد الفكرة القرآنية في الجانب الاجتماعي ودور التنمية فيها إلا هو تحول (أفراد المجتمع إلى كيان تتوحد فيه الأفكار والمشاعر والممارسات العملية، لتنطلق من ذلك علاقات الترابط التي

---

(١) محسن عبد الحميد، التنمية الاجتماعية، ٧١.

(٢) جمال محمد احمد عبدة، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية،٩٤.

تنتهي إلى الوحدة الاجتماعية التي هي أساس القوة......ثم ملاحقة كل عوامل الانحراف وأشخاصه لمنعهم عن كل عمل يضر بهذه الوحدة في أي جانب)[1]، بحيث تُعدّ جميع تلك المقدمات مسعىً لتحقيق الغاية القرآنية التي خلق الإنسان لأجلها، وبمقتضى ذلك ستكون عموم النشاطات الاجتماعية سبيل لتحقيق الغاية الكبرى للرؤية القرآنية وفهمها للإنسان والحياة والكون.

ومن هنا نجد أن لغة القرآن الكريم في بيان هوية الإنسان وتحديدها كونها عنصراً أساسياً في النظام الاجتماعي لغة واضحة وصريحة، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[2]، فالآية المباركة تخاطب جميع البشر، حيث (نودوا بعنوان ﴿**النَّاسُ**﴾ دون المؤمنين للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صدر به الغرض من التذكر بإن أصلهم واحد، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل إلى أن التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى)[3]، أي إن القرآن فرض وألزم المساواة بين البشر قاطبة وجعل الفارق بين فرد أو مجتمع وأخر هو (التفاوت بالتقوى وتحمل الخير لا بمجد الآباء والأجداد ولا بالمال والمتاع، ولا بغير ذلك من زخارف الحياة، ثم جعل المساواة تشتمل

---

(١) محمد حسين فضل الله، الإسلام ومنطق القوة، ١٤١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) أبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج ١٠، ٢٦، ٢٥٨.

على جميع عوامل النهوض والارتقاء، وتحتوي على جميع وسائل التعاون والتآزر والتآلف)[1] الاجتماعي.

إن الرؤية القرآنية للمجتمع ونظامه هي رؤية شاملة متوازنة متكاملة، ولهذا فهو (ليس مجتمعاً مغلقاً بل هو مجتمع مفتوح، لا يُقّيم الإسلام فيه العلاقات الاجتماعية العامة على أساس التعصب العنصري أو الطائفي أو الديني المغلق، وينطلق المجتمع الإسلامي في ذلك من أناس كلهم عيال الله وإنهم سواء أمام الله، وانه لا فضل لأحد على احد إلا بالتقوى والعمل الصالح)[2].

فالمعيار الإسلامي للمفاضلة بين أفراد المجتمع هو ضابطة القرآن الكريم التي تنص على ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾، من حيث تكون هذه الضابطة بمثابة العنوان الكلي الذي يدخل تحته كَل إنسان بغض النظر عن أي مقياس آخر، كون التقوى هي الفضيلة في أرقى معانيها ودرجاتها، وما تأكيد التقوى كفضيلة إلا لأجل الفائدة من جعلها (مثلاً أعلى للحياة هو أن يكون مفهوم الطبقة الذي يستتبع حكماً تقويمياً لطائفة من الناس منبثقاً من التقوى، بدلاً من أن ينبثق هذا المفهوم من الاقتصاد أو الحرب، وبذلك تكون الطبقات ظاهرة اجتماعية تعود على المجتمع بالخير)[3]، مما يُعدّ ذلك حافزاً يندفع فيه الأفراد بقوة نحو المنظومة الاجتماعية

---

(١) باقر شريف القرشي، نظام الإسلام السياسي، ٢٠٨.

(٢) محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية،٧٣.

(٣) محمد مهدي شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة،٢٠٣.

ليرتبط ويوثق علاقته بها، كلهم سيدرك أن التفاضل والإكبار في المؤسسة القرآنية على قدر العطاء والتطور والتغير الإيجابي، فـ(لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى)[1]، لأنَّ الجميع سيدخل تحت عنوان اسمه ﴿**نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾، فقوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾[2] يحاكي ﴿**لنَّاسُ**﴾ عموما دون تخصيص (يا بني ادم ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ فرّعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم)[3] التي تحملونها جميعاً لذا فكلكم من ماهية واحدة وبهذا فأنتم مجتمع واحد بالمحصلة بحكم الماهية.

فالآية المباركة تصرح علانيةً أن الرؤية القرآنية مع الناس عموماً، فتشمل كل ما ينطبق على نوع الإنسان، كما (اشتملت على معظم أحكام الأحوال الشخصية والأحكام الاجتماعية الجارية على حقيقية العدل وناموس الفطرة)[4]، وتتضمن أيضاً على لزوم (الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأوامره ونواهيه)[5]، وأن الانقياد لأمره تعالى بالتقوى لقوله جلّ وعلا: ﴿**اتَّقُوا رَبَّكُمْ**﴾، فسبحانه تعالى (أَمَرَ بتحصيل ملكة التقوى التي هي القضية الأولى في القرآن الكريم والأصل

---

(١) متقي الهندي، كنز العمال، ٣، ٦٩٩، ح ٨٥٠٢.

(٢) النساء: ١.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ١، ٢١٢.

(٤) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن، ٧، ٢٢٤.

(٥) الرازي، التفسير الكبير، مج٥، ٩، ١٣٥.

الثابت الذي لا يقبل التغيير والتبديل وقد حكم عزّ وجل جميع أفراد البشر من لدن آدم عليه السلام إلى انقراض العالم)[1]، فدعوة جميع الناس إلى تقوى الله متلازمةً مع بيان علة انقيادهم له سبحانه وتعالى، بحيث تُعدّ التقوى بالرؤية القرآنية هي المعيار للارتباط بمنظومتها الاجتماعية بعيداً عن أي رابط آخر، حيث يُنقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله انه قال: (يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بابها، فالناس رجلان رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب)[2]، كما ينقل عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: (لا لابن بيضاء على ابن سوداء إلا الحق)[3].

ولهذا فإن التنافس والتحفيز لتنمية المجتمع القرآني مؤسس على أساس القرب والبعد عن الخط البياني للتقوى والانتماء لله تعالى، فكلما أدرك أفراد المجتمع أن الدافع وراء الارتقاء هو التقوى ليس إلا، كان ذلك دافعاً لتنمية المجتمع وتطويره، لأن المعيار القرآني هو أن الجميع ولدوا من جوهر النفس الواحدة وأنهم من ذكر وأنثى، وسيدرك غير المسلم أن نظم المجتمع الإسلامي لا تُخرج من محيط دائرتها من هو خارج الإسلام، لذا نجد أن النظم القرآنية قد وضَعت ضوابطاً حفظت

---

(١) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن، ٧، ٢٢٧.

(٢) القاضي محمد بن عبد الله الاشبيلي المالكي، أحكام القرآن، ج٤، ص١٥٨.

(٣) الكليني: الكافي، ٢، ٢٢٩ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٨، ٨٥.

حق غير المسلمين وحددت واجباتهم ومنحتهم حقوقهم ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1] فالقران الكريم دعا إلىٰ تكافؤ الفرص من حقوق وواجبات للناس جميعاً، كون العنوان فيه ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾و ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ أي إن المعيار هو القرب من الله والتقوىٰ والعمل الصالح والخير، الَذي يوّلد العطاء والإنماء والتطور.

فإن الضمان الاجتماعي (يعني التزام الدولة الإسلامية نحو كافة المقيمين فيها، أياً كانت جنسياتهم أو دياناتهم، وذلك بتقديم المساعدة للمحتاجين منهم في الحالات الموجبة)[2] لأن النظام الاجتماعي في الرؤية القرآنية تفهم الحياة علىٰ أنها (تواد وتعاون وتكافل محدد الأسس مقرر النظم، بين المسلمين علىٰ وجه خاص، وبين جميع أفراد الإنسانية علىٰ وجه عام)[3].

وهذا ما نلمسه جلياً في بنود حلف المهاجرين و الأنصار الذي أقره النبي محمد ﷺ علىٰ سبيل المثال حيث نص البند الثاني من هذه الوثيقة المهمة التي رسمت معالم التنمية البشرية وأثرها في بناء المجتمع، فهي نصت (علىٰ أن المؤمنين امة واحدة من دون الناس ويُفهم من ذلك تحديد هوية هذه الأمة حيث صهرت هذه الوثيقة جميع

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية،٥٠.

(٣) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ٢٩.

الأحلاف والروابط القديمة ضمن بوتقة الأمة الإسلامية)[1].

فالرؤية القرآنية ترىٰ أن اتساع رقعة المنظومة الاجتماعية الإسلامية لغير المسلمين مبتغاها تحقيق غايات كبرىٰ، منها بناء الإنسان عموماً والإنسان المسلم خصوصاً في ظل حضارة إسلامية، وما القاسم المشترك الذي اعتمدته بعض المدارس والنظريات لوجود المجتمع إلا سبلاً لبناء الهيكل التنظيمي، حيث بات من المُسلّم به ما من مجتمع بشري إلا ولزم (أن يستند إلىٰ تنظيمه وتسييره علىٰ نظرية حضارية أو قاعدة حضارية مستخلصة من تأريخ الأمة وتطورها، نابعة من حاجاتها متفقة مع أعراقها وخصائصها، مستفيدة من تجارب الإنسانية كلها، كي توحد بين أبنائها وتدفعهم إلىٰ التفاهم المشترك والتعاون في بناء الحياة والعمران)[2]، وبمقتضىٰ ذلك عُدت الرؤية القرآنية هي الكلي الذي ترد إليه جميع الجزئيات وهي القاعدة التي تبنىٰ عليه مشاريع التنمية البشرية في مجالات الحياة كافة، وهي اللبنة التي بني عليها الهيكل الاجتماعي الإسلامي ووحدته ووحدة مفرداته، فقد نظرت إلىٰ (وحدة الروح والجسد في الفرد، وإلىٰ وحدة المعنويات والماديات في الحياة، ووحدة الهدف بين الفرد والجماعة، ووحدة المصلحة بين الجماعات المختلفة في الأمة الواحدة، ووحدة الغاية بين الأمم الإنسانية، ووحدة الصلة بين الأجيال

---

(١) أسامة العاني، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية،٧٣.

(٢) محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ٧١.



المتعاقبة)[1].

قال الله تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ**﴾[2]، فالآية المباركة تُلزم المؤمنين بالسعي للعمل لتنمية وتكامل الآخر بعد تنمية وتكامل أنفسهم؛ لأن صيغة ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ**﴾، (صيغة وجوب لأنها أصرح من الأمر من صيغته أفعلوا؛ لأن أصلها، فإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير معلوم بينهم من قبل نزول هذه الآية، فالأمر لتفريع الوجوب، وإذا كان ذلك حاصلاً بينهم من قبل كما يدل عليه قوله ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ**﴾[3]، فالأمر لتأكيد ما كانوا يفعلونه ووجوبه، وفيه زيادة الأمر بالدعوة إلى الخير وقد كان الوجوب مقرراً من قبل بآيات أخرى مثل ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾،أو بأوامر نبوية، فالأمر لتأكيد الوجوب أيضاً للدلالة على الدوام والثبات عليه مثل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ**﴾)[4].

وقد نقل ابن عيّاش في تفسير هذه الآية المباركة بما نقل (عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال في قوله تعالى : ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ**

---

(١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ٣٥.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) آل عمران: ١١٠.

(٤) أبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج ٢، ٤، ٣٧.

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾قال: في هذه الآية تكفير أهل القبلة بالمعاصي، لأنه من لم يكن يدعو إلى الخيرات ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من المسلمين فليس من الأمة التي وصفها الله لأنكم تزعمون أن جميع المسلمين من أمة محمد، وقد بدت هذه الآية وقد وصفت أمة محمد بالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن لم يوجد فيه الصفة التي وصفت بها فكيف يكون من الأمة وهو على خلاف ما شرطه الله في الأمة ووصفها به)[1].

وبما أن الآية يُستدل من مدلول ظاهرها بوجوب أن تكون هناك أمة أفرادها يمثلون الأنموذج الحقيقي للمجتمع القرآني، كما يُستدل منها أيضاً بلزوم الارتقاء وتنمية هذا المجتمع الإسلامي لتحقيق الخير وكافة صوره ومصاديقه ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما الدعوة إلى الخير والترغيب إليه إلا دعوة لتنمية الأنموذج لأمة الإيمان وتنمية مصاديقه لأنَّ الخير هو (كل ما له دخل في الاعتصام بحبل الله سواء كان من المعارف الحقة أو الأعمال الصالحة أو مكارم الأخلاق، وما ذكره عزّ وجل في المقام ترغيباً إلى الخير الذي تدعو إليه فطرة العقول ويحبه كل إنسان ولا يمكن أن يجهله احد، ولبيان أن المجتمع الذي يكون الخير هو مطلبهم ومنهاجهم وعملهم هو المجتمع السعيد والأمة الراقية)[2].

فالآية تسعى إلى ضرورة تطوير المجتمع الإسلامي وتنميته بوصفه إنموذجاً،

---

(١) أبن عيّاش، تفسير العيّاشي، ١، ٢١٨.

(٢) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن،٦،٢١٦.

وعلى غيره لإشاعة الخير والمعروف من خلال الأمر به والنهي عن التخلف والمنكر[1]، الذي يُعدّ احد سبل تنمية المجتمع فهو يسعى لجلب المنفعة ودرأ السوء والضرر عنه، (فإن قوام المجتمع الإسلامي هو الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعرف يتضمن تحقيق التنمية الشاملة، والنهي عن المنكر يتطلب أساسا القضاء على أهم معوقاتها ألا وهو التخلف والفقر اللذان يؤديان إلى الذلة والمسكنة، والى كثير من المساوئ الاجتماعية والانحرافات الخلقية)[2].

فقد نقل عن الإمام الباقر عليه السلام انه قال: (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمل المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر)[3].

و نجد النبي محمد صلى الله عليه وآله يحذر من الابتعاد عن الخط البياني للتقوى والعدالة والخير وعن سبل الوصول إليها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد نقل عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: (لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا

(١) إن (عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على دعوة الخير هو من عطف الخاص على العام فيكون من قبيل عطف أفضل الأفراد على الكل) عبد الأعلى السبزواري،مواهب الرحمن،٦، ٢١٨.

(٢) إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي،٢٧٢.

(٣) الكليني، الكافي، ج٥، ص٥٥ الطوسي : تهذيب الأحكام، ٦، ١٨١ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ١٦: ١١٩.

على البر فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء)[1]، ونقل عنه ﷺ أيضاً أنه قال: (ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي الله أمركم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم)[2].

فكما جعل القرآن الكريم العقائد والأفكار والمساواة والخير طرقاً لبناء المجتمع، كذا جعل من العدالة مشروعا آخر لبنائه وديمومة تطوره، فإن استقامة النظام الاجتماعي وديمومته وتنميته لا يتم إلا من خلال إدامة العدالة، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[3]، وإن نزول الميزان غرضه (ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان والنسب بين الأشياء فقوام حياة الإنسان بالاجتماع، وقوام الاجتماع بالمعاملات)[4] العادلة، فقد أولت الرؤية القرآنية اهتمامها بالقسط والعدل كأحد أهم ركائز الهيكل البنائي الاجتماعي وكأحد الطرق الموصلة لتحقيق صورة التنمية المتكاملة لمجتمع متزن متكامل، لكي لا يظهر نظام طبقي (بحيث يعيش أناس حياة متفرقة بينما يوجد غيرهم يعانون من الفقر والحرمان، ويتعرضون لصنوف

---

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٦، ص١٨١ النوري: المستدرك، ١٦، ٢٥٨.

(٢) الكليني ، الكافي، ج٧، ص٥٢.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩، ١٧٨.

الظلم والاستغلال والهوان مما ينافي القاعدة العامة التي أرساها القرآن بموجب إقامة العدل الذي بنى الله عليه الكون)[1]، ﴿**إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[2] وقوله تعالى ﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[3]، ولهذا عُدّت العدالة في ضوء الرؤية القرآنية (ضرورة إنسانية تقود إلى انتظام العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وهي قوام أمر المجتمع ومنطلق نهضته وتقدمه)[4]، من هنا عدت سيادة العدل أحدى طرق استقامة الهيكل الاجتماعي وتماسكه، وكأن الآيات تسوق المتدبر إلى أن العدالة بكامل صورها من شؤون دين ودنيا هي طريق التقوى، والتقوى هي المائز بين أفراد المجتمع الواحد وهي ذاتها السبيل لإنجاح التنمية البشرية وتكاملها في عموم المنظومة الاجتماعية.

وما اهتمام القرآن بالمجتمع إلا على أساس اهتمامه بالإنسان، لأن المجتمع مجموعة أفراد وأن رعاية الأفراد يعني رعاية وبناء المجتمع بأسره، حيث عدت المنظومة القرآنية أن الطريق الموصل لتغير وإصلاح وتنمية المجتمع هو تغير وإصلاح الفرد لأنه رأسمال المنظومة القرآنية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَّ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ**

(١) (بحث) المصباح ، التنمية في القرآن، محمد جواد عباس شبع، العدد٩ ، ١٨٠ .

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) المائدة: ٨.

(٤) إبراهيم العسل، التنمية في الفكر الإسلامي، ٩١- ٩٢.

حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وبمعنى آخر فالواجب أن يكون تنظيم شتات الفرد من خلال انتظامه مع المجتمع، وانتظام المجتمع من خلال استكماله بأفراده، فلكل من الفرد والمجتمع تأثيره في الطرف الآخر[2] فأحدهما يكمل الآخر والخلل في أحدهما يصيب الآخر، لذا علينا العناية بهما جميعاً.

فعلى الرغم من ذلك فإن الإسلام نظر إلى أن المصلحة الاجتماعية تتقدم على المصلحة الفردية في حالة تعارض المصلحتين (وهذا ما نلمسه واضحاً في جملة من الأحكام والتشريعات الإسلامية كحرمة الاحتكار مثلاً.....والنتيجة في ضوء النظرية القرآنية هو تقديم المصلحة الإسلامية وجعلها المحور في التشريعات دون المصلحة الفردية)[3]، بل كان اهتمام الإسلام بالحفاظ على الهيكل الاجتماعي واضحاً من خلال ما نقل عن الرسول الأكرم ﷺ حين قال: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[4]، حيث نستفيد أن الحفاظ على هذا الهيكل يعتمد على عدة خطوات هرمية تصب في خدمة المجتمع، خطوات تهم الجميع من دون استثناء بما فيه الدولة وأفراد المجتمع فكل واحد من المسلمين وغيرهم يتحمل المسؤولية تبعاً للمساحة التي يشغلها والمسؤولية التي يعمل بها، لتنتهي النتيجة إلى (نظام ثابت

(١) الرعد: ١١.

(٢) ظ: ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، ٢، ٢٨٢.

(٣) كمال الحيدري، فلسفة الدين، ١٢٥-١٢٦.

(٤) محمد بن محمد الشعيري، جامع الأخبار، ١١٩.

مطرد، يقيم الاجتماع فيه على أساس العدل، ويركز على مبدأ المساواة، ويطهر من رجس الظلم ومن دنس الاستئثار)[1].

وقبال ذلك نتلمس عين التوازن في الرؤية القرآنية وهي تنظر بعين الإنصاف بين الفرد والمجتمع، (فكما أن للفرد كيانه الخاص الذي لابد للدين من ملاحظته والعناية به وتنظيم ما بين شتات أجزائه، كذلك للمجتمع كيانه الخاص أيضاً، ويجب أيضاً أن ينظم ما بين أفراده كافة، ويُمنهج مختلف علائقه ضمن كيانه الخاص، كما يحدد روابطه مع المجتمعات الأخرى)[2]، ومن هنا رفضت الرؤية القرآنية تأليه الفرد وكذا المجتمع وجعلت من الفرد عنصراً متوازناً في مجتمع منضبط، وبذلك ستنتهي المشكلة الاجتماعية وينتهي التزاحم بين الفرد والمجتمع، وذلك (عن طريق تجنيد الدوافع الذاتية لحساب المصلحة العامة)[3]، كما سيدرك الفرد أن خدمة القطاع الاجتماعي يعني خدمة نفسه، على عكس النظريات الوضعية كالاشتراكية التي ألهت وعظمت المجتمع وألغت الفرد، والنظرية الرأسمالية التي عظمت الفرد وبجلته على حساب الروابط الاجتماعية المجهضة (فانه لا تزال توجد فكرة تنادي بسلب حقوق الفرد بصورة تامة ودفع المجتمع إلى مستوى الإله المعبود......وتقابلها فكرة متطرفة تنادي بوجوب إعطاء الفرد

(١) محمد أمين زين الدين، الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته، ٩٠.

(٢) ضياء الدين زين الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، ٢، ٢٨٢.

(٣) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ٢٨٦.

كامل حريته وجعله إلهاً من دون المجتمع)[1] وكلا المنطلقين ليس على صواب، لأن الأصل العدالة والتوازن بين الفرد والمجتمع على حدٍ سواء.

وبعد أن سلمنا أن النظم الإسلامية وسّعتْ من رقعة مساحة أفراد المجتمع الإسلامي وذلك باحتضان المسلمين وغيرهم، إلا إن القرآن أراد أن يكون هناك نموذج حيّ للمجتمع القرآني يتحقق فيه الخير والصلاح والعدالة التي تسعى إليها كل الشعوب والأمم، يكون هذا النموذج "انتمائه لله تعالى" قبال النموذج الأرضي "الانتماء الاجتماعي" على حد تعبير أستاذنا البستاني الذي قال (إن الانتماء إلى الله لا يعني الانسلاخ من الدائرة الاجتماعية بل يعني الانسلاخ من الحماية التي يوفرها الانتماء إلى المجتمع)[2]، وهنا تساق الروابط الاجتماعية الثانوية غير الإيمانية على أنها وسائل لتلبية متطلبات مجتمع ما وسبل لتحقيق العناية الكبرى، فحقيقة الفرق أن الرؤية القرآنية لا تنفي وجود بعض الروابط التي تُعدّ قاسماً مشتركاً بين مجموعة من الأفراد، إلا أن القرآن الكريم عد الانتماء إلى السماء وشريعتها هو الرابط الحقيقي وهو الهدف الأكبر والأساس من وجود الإنسان، وكل ما هو خارج عن نطاق علاقة السماء فهو غير مقبول، فإذا كانت العلاقات والروابط الاجتماعية في طول العلاقة مع السماء فلا ضير منها بل هي المحثوث عليها وبخلاف ذلك يُعدّ خروجاً عن نطاق (الوسطية) أي العدالة والصلة بين الرابطين الاجتماعي والسماوي ذلك بأن الرابط الاجتماعي الصحيح هو الموصل إلى الرابط السماوي،

---

(١) محمد تقي المدرسي، الفكر الإسلامي مواجهة حضارية،٣٦٦.

(٢) محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، ١، ٢٠٢.

قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾(١)، وفي معرض الأمة الوسطى يفسر العياشي عما نقل (عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ**﴾، قال: يعني الأمة التي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام فهم الأمة التي بعث الله فيها ومنها وإليها، وهم الأمة الوسطى وهم خير أمة أخرجت للناس)(٢)، في حين عدت الأمة الوسطى- الاجتماعيات الموصلة لرضى الله وتوحيده-إحدى أهم أهداف التنمية البشرية في القرآن الكريم، كما وضح هذا المحور سلفاً(٣).

فالباحث يستخلص مما تقدم أن المجتمع الإيماني هو ذاته الأمة الوسطى وهي الداعية للخير والعدالة، وان جميع تلك المعاني والمضامين هي من فعاليات التنمية الاجتماعية التي تتآلف مع تنمية بقية المجالات مشكلة التنمية البشرية المتكاملة في ضوء القرآن الكريم.

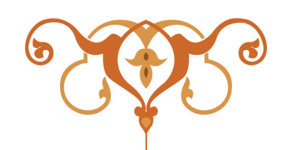
(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) أبن عيّاش، تفسير العيّاشي، ١، ٢١٩.

(٣) راجع ص٢٧٨ -٢٨٤ من الكتاب.



الفصل الثالث



ميادين التنمية البشرية في القرآن الكريم ومبادئها

ثانياً: نظرية الخلافة الإلهية في القرآن الكريم وعلاقتها بالتنمية البشرية.

١- مبدأ الاستخلاف.

٢- مبدأ التسخير والتمكين.

٣- مبدأ عمارة الأرض واصلاحها.



نظرية الخلافة الإلهية في القرآن الكريم وعلاقتها بالتنمية البشرية .

لم يكن تأكيد الباحث مفردات المفهوم أو مضامين الرؤية الكونية نابعاً عن فراغ، إنما مبناه نابع من اعتقاده بأن جميع المضامين التي تنبثق لبناء الهيكل المعرفي بكافة جزئياته وتفرعاته مبنيٌّ على أساسها فضلاً عن الجانب الفكري لأي فلسفة، ولهذا فان أي مفهوم أو مضمون لا بد من أن يكون له مرجعية من قيم ومعتقدات تُلائم مناخ الرؤيا الكونية له، من ثم تؤثر أثرها في فهم الإنسان ورؤيته للمحاور الرئيسة وهي الإنسان، الحياة، الكون، كون الرؤية الكونية كانت وما زالت وضيفتها فلسفة تلك المحاور محاولة الاجابة على استفهامات متطلباتها، وما هي إلا حركة استدلالية استقرائية واستنباطية من النشاط الذهني والمعرفي للإنسان، تحاول هذه الحركة أن تُفعّل خطوات حركتها الذهنية الاستدلالية صعوداً ونزولاً من البدأ بالجزئيات تارة لتنطلق للكليات، وتبدأ من الكليات لتصل إلى أدق التفرعات والتفاصيل تارة أخرى، لتكون كلتا الحركتين من الصعود والنزول طريقاً موصلاً للمعرفة وتطورها، حيث (عد التفتح الذهني عند الإنسان ذو علاقة بتطور المعارف)[1].

أن الحديث عن التنمية البشرية في القرآن الكريم يرد لبيان وجهة نظر الإسلام عموماً والقرآن خصوصاً في تفسير ظاهرة التطور والإنماء والتغير الايجابي على

(١) صباح عباس عنوز، نهج البلاغة صوت الحقيقة،٨٣.

وفق المنظور العام الذي تشكله العقيدة الإسلامية، أي الاطمئنان على أن هذه الظاهرة منسجمة مع العقيدة الإسلامية ولا تتعارض مع منظومتها القيّمية بل هي تعمل بطولها ولا تتقاطع مع متبينات الرؤية الكونية التي يُعدّ القرآن الكريم الركيزة الأساسية في بيان مضامينها وبيان علاقة ظاهرة التطور والتنمية البشرية بها.

وبهذا فإننا سَنَحصل على مفهوم معرفي أكده الإنسان استدلالياً وولج به إلى النص الإلهي القرآني، وبذلك يعني إننا سنصل إلى مفهوم متكامل مبني على أساس إدراك الإنسان إليه ومنضبط بضابط النص، وفي هذه الحالة ستتحقق لنا علاقة تفاعلية بين الله تعالى والإنسان، أو قل بين تشريعات الله تعالى وإدراك الإنسان.

وللوقوف على الانسجام الذي نسعى إليه بين حاكمية الله تعالى على الإنسان والكون وبين حاكمية الإنسان على الكون بفعل استخلافه للحاكم المطلق، فهذا الانسجام هو عين الانسجام بين المبدأ القرآني ونظرته لفلسفة الإنسان والكون والحياة وبين التنمية البشرية التي تُعدّ وسيلةً وهدفاً لتلك الفلسفة.

لذا كان هذا المبحث الذي سنحاول فيه بيان علاقة التنمية البشرية وضرورة انطلاقها من منطلقات إلهية قرآنية مؤيدة تماماً لهذا النشاط، فكما وجدنا أن التنمية البشرية منهج قرآني طرق شتى أبواب مجالات الحياة، لذا سنجده أيضاً في هذا المبحث وهو يطرق مجال الفكرة والفلسفة من خلال الوقوف عند المبدأ القرآني للإنسان وعمله وتمثيله كخليفة الله في الأرض، ومبدأ لزوم عمارة الأرض بإحياء عناصرها، وكذا مبدأ التغيير والإصلاح، وغيرها من المبادئ التي لو عرضناها جميعها لوجدنا أننا أمام عالم فسيح من الانسجام المتكامل بين مضامين مفهوم

التنمية البشرية والعقيدة الإسلامية، التي ستصب جميعها في مصب نظرية الخلافة الإلهية.

ولا يفوتنا أن نؤكد أن للقرآن الكريم مبادئ كثيرة لها ارتباط وثيق بالتنمية البشرية، إلا أن اختيار الباحث إلىٰ محور معين دون غيره، كان يقصد منه اختيار إنموذج واحد مع كافة تفرعاته دليلاً علىٰ ما يدعيه، وذلك من خلال تسليط الضوء عليه كمثال ليس إلا، وما مضمون نظرية الخلافة الإلهية إلا انموذج جوهري حيّ كأحد المضامين القرآنية التي عدت مصداقاً لذلك.

ولتكامل نظرية الخلافة الإلهية وبُعدها الفلسفي التي عدت أحد مصاديق التنمية البشرية علىٰ وفق الرؤية القرآنية ولتجسيدها علىٰ أرض الواقع اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن تُهيئ عدة مقدمات لتفعيلها وهي:

أولاً: الجانب الفكري للنظرية القرآنية الإلهية والذي نعني به مبدأ الاستخلاف كوننا بصدد عرضه علىٰ طاولة البحث، والذي سلطنا الضوء عليه في المطلب السابق.

ثانياً: تسخير وتهيئة أدوات الاستخلاف للإنسان ليتحقق توافر الداعي للأداء.

ثالثاً: تطويع تلك الأدوات لتمكين الخليفة منها لتسيير المهمة.

رابعاً: ترجمة مفردات المبدأ القرآني بعمارة الإنسان والأرض.

خامساً: إزالة معوقات ومصدات الإستخلاف وإصلاح ما فسد منها في حالة التخلف بغية العودة إلىٰ دائرة نظرية الخلافة الإلهية كلية، كون نجاح هذه الفكرة الجليلة وتمامها لن تكتمل من دون تمثيل للمُستَخلَف، فهي تفتقر يقيناً إلىٰ الحركة والجهد والعمل الجاد لتحقيق تلك النظرية الإلهية والسعي إلىٰ إزالة العوارض

والمصدات إليها بالتغيير والإصلاح .

وبما إن فكرة نظرية الخلافة الإلهية لن تتحقق من دون ما أشرنا إليه سلفاً اقتضى على الباحث أن يكمل مشواره في عرض تمام الفكرة بعد أن ذكر أسسها ومقدماتها في المطلب السابق، إذ وجد نفسه مضطراً أن يقف عند هذه المفردات ولو بالصورة الإجمالية.

وبتأملنا للخطوات أعلاه يتضح منها أننا دخلنا إلى التنمية البشرية من أوسع أبوابها، كون التنمية البشرية تقتضي وجود فكرة أو نظرية، ثم وجود أدوات وسبل لتحقيق تلك النظرية، ولزم وجود غاية تكون بمثابة الدافع والحافز، كما اقتضت الضرورة على ترجمة هذه الأفكار إلى خطوات إجرائية مبتغاها تحقيق رؤية تلك النظرية وفلسفتها، كان من أولوياتها الارتقاء بالإنسان من حال إلى أحسن حال .

(١) مبدأ الاستخلاف.

تكاد تكون نظرة الإسلام والقران الكريم إلى الإنسان نظرة تنفرد تماماً عن كافة الرؤى والفلسفات الوضعية والسماوية الأخرى، فالدين الإسلامي وضع مكانةً خاصةً للإنسان ارتقت به إلى درجة استخلاف علة العلل الموجد إليه، لأن الدين (هو العلاقة التفاعلية بين الله والإنسان، وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو العلة الفاعلة للدين، ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾[١] فإن العلة الغائية للدين إنما هي الإنسان) [٢] بالحتمية.

فالإنسان هو الغاية الرئيسة من دين الإسلام، وفي الوقت نفسه هو الغاية لمشروع التنمية البشرية القرآنية فـ(الإنسان يحضى بعناية خاصة من الخالق تجعله في موقع متميّز على سائر المخلوقات، وهذه العناية تبدأ من أصل تكوينه واستمرت معه إلى حين اختاره خليفة الله على هذه الأرض)[٣]، فاعتبار الإنسان غاية القرآن الكريم والتنمية البشرية مبنيٌّ على ضوء اعتباره خليفةَ اللهِ في الأرض على وفق الجعل الإلهي ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٤]، وبما إن هناك غايات صغرى

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) شفيق جرادي، مقاربات منهجية في فلسفة الدين، ٥٥.

(٣) صدر الدين القمنجي، الأسس الفلسفية للحداثة، ١٣٥.

(٤) البقرة: الآية، ٣٠.

عدت وسائل لتحقيق الغايات الكبرىٰ والتي نعني بها بناء الإنسان والارتقاء به إلىٰ درجة الاستخلاف لتحقيق نظرية الخلافة الإلهية، اقتضىٰ تلازم بناء الهيكل العلوي لهذا المشروع بركيزتين أولاهما البناء الداخلي للإنسان المتمثل بإصلاح صراعاته النفسية وترويضها خدمة للمشروع كي يؤهل إلىٰ الدرجة التي رسمها الله تعالىٰ له والركيزة الثانية هي البناء الخارجي للهيكل العلوي المتمثل بذات أدوات الاستخلاف المتمثلة بإقامة وترجمة حكم الله في الأرض لقوله تعالىٰ: ﴿**إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِّ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾[1].

وبالعودة لقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[2].

نستطيع أن نستشف من الآية المباركة أن الله تعالىٰ ينبئ الملائكة بإنشاء مجتمع علىٰ الأرض، أوجب وجوده ثلاثة عناصر هي الإنسان، والأرض أو الطبيعة، والعلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالطبيعة وبأخيه الإنسان، مع افتراض وجود طرف رابع يُعدّ مقوماً من المقومات الأساسية للعلاقة الاجتماعية، علىٰ الرغم من

---

(١) الأنعام: ٥٧.

(٢) البقرة،: ٣٠.

أنه خارج نطاق المجتمع، وهو العلاقة التي سميت قرآنياً بالإستخلاف[1]، كون اعتماد هذا المبدأ يفترض وجود مُستخلِفاً أيضاً، لابد من مستخلِفٍ ومستخلَفٍ عليه ومستخلَفٌ، إذ لا استخلاف من دون مستخلِفٍ وهو الله تعالى، والمستخلَف وهو الإنسان ، والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومَنْ عليها[2].

وبذلك لزم لمبدأ الاستخلاف وجود المستخلِف ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ**﴾ الذي اخبر الله تعالى الملائكة حين حدد المستخلَف عليه وهو ﴿**فِي الْأَرْضِ**﴾ ومَنْ عليها، وحدد وظيفة المستخلَف ﴿**خَلِيفَةً**﴾ وهو الإنسان، وكذا حين استمكنه في إدراك الحقائق والمعارف ليكون مؤهلاً وأنموذجاً حقيقياً للاستخلاف حين شاء الله بأمره ﴿**عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[3] فتعليم الله تعالى لآدم بعلم مباشر، يعني انه تعالى (ميزه عن سائر خلقه بهذا المقام الخطير بان علمه ما لم يعلم)[4] وهي أجلى أدوات

---

(١) ذهب الباحث إلى تسمية هذا المطلب بـ(نظرية الخلافة الإلهية) التي تنضوي تحتها عدة مبادئ وخطوات منها: مبدأ التسخير، مبدأ التمكين، مبدأ الاستخلاف، مبدأ عمارة الأرض، مبدأ الإصلاح، بحيث تعد جميع تلك المبادئ هي عناصر تتجانس فيما بينها لتشكل الصورة المتكاملة لنظرية الخلافة الإلهية، فهي أجزاء تشكل مجتمعة هيكل النظرية وفكرتها وأدوات تطبيقها، في حين ذهب غيره من الباحثين إلى تسمية الجزء بالكل، لا بداعي أهمية الجزء، بل لتبنيهم أن الخلافة الإلهية موقوفة على مبدأ الاستخلاف.

(٢) ظ: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ١٠٦-١٠٧.

(٣) البقرة، ٣٢.

(٤) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القران، ١، ١٨٠.

الإستخلاف.

ولعل استمكان الإنسان للأرض والسماوات وتسخير ذلك من الله تعالىٰ لها نابع علىٰ أساس عملية الاستخلاف، كون الإنسان خليفة الله تعالىٰ من جهة، وانصياع السموات والأرض وما بينهما لقيادة الإنسان كون الموجودات أبت حمل أمانة الله تعالىٰ وهي الخلافة، مع قبول الإنسان بحملها من جهة ثانية، فانضوت بقية الموجودات بما فيها السماوات والأرض تحت نطاق الخلافة ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾[1]، أي إن هذا العرض الإلهي للأمانة علىٰ الإنسان عرض تكويني لا عرض تشريعي، وأن هذه العطية الربانية كانت تفتيش عن الموضع المقابل لها في الطبيعة، الموضع المنسجم معها بطبيعته ليكون الإنسان هو الكائن الوحيد الذي كان بحكم تركيبته، بحكم بنيته ، بحكم فطرة الله، كان منسجماً مع هذه الأمانة، وتصبح خلافة، إذاً فالعرض هنا عرض تكويني والقبول من الإنسان إلىٰ ذلك العقد قبول تكويني أيضاً[2].

فالآيات السابقة قد حددت لنا معالم مبدأ استخلاف الإنسان لله تعالىٰ واستمكانه الأرض والطبيعة التي سخرها الله تعالىٰ إليه لغرض تفعيل وتأمين مبدأ الاستخلاف الذي هو مبدأ سماوي هدفه وغرضه ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ**﴾

(١) الأحزاب : ٧٢ .

(٢) ظ: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ١١١ .

أي (التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة)[1]، لقد تحدث القرآن الكريم عن عملية (تحمل الإنسان لأعباء هذه الخلافة بوصفها أمانة عظيمة ينوء الكون بحملها)[2]، وبمعنى آخر أن (الولاية الإلهية والاستكمال بحقائق الدين الحق علماً وعملاً وعرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء)[3].

أما قوله تعالى: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ**﴾ فالمراد منه أن الإنسان (اشتمل على صلاحيتها والتهيؤ للتلبس بها على ضعفه وصغر حجمه)[4]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾، فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (الإنسان نظر إلى جانب المكلف، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها، وإذا أودع لا يزكها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال﴿ :**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[5])[6]، وبغض النظر عن سلامة وصحة هذا الرأي من عدمه، إلا إنه يكاد يطابق ما نسعى إليه من نتيجة خاصة لو تأملنا بمدلول ظاهر الآية المباركة كدليل من جهة، وبحكم

---

(١) الرازي، التفسير الكبير مج ١٣، ٢٥، ٢٠٤

(٢) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ١٢٧.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القران، ١٦، ٣٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ١٦، ٣٧٥.

(٥) الفاتحة: ٥.

(٦) الرازي، التفسير الكبير، مج ١٣، ٢٥، ٢٠٥.

الدليل العقلي من جهة أخرى الذي يقر على أن اختيار الله تعالى للإنسان في حمله للأمانة واستخلافه إليه مبني على ما استعرضناه من مقدمات، منها الفطرة، العقل، المؤهلات، الإرادة والعزم، التركيبة، البنية.

وقد علق ابن عاشور على قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ مشيراً إلى أنها جملة استئناف بياني وليست جملة تعليلية[١]، وبهذا سيكون الإنسان (ظالماً لنفسه جاهلاً بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة والهلاك الدائم)[٢].

ومن خلال التدبر في الآيات المذكورة آنفاً يُستنتج إن الإنسان قد قبل تكوينياً تحمل الأمانة فأخذ موقع الاستخلاف، وبهذا سيكون الإنسان على وفق الرؤية القرآنية أمام مفترق طريق بين أن يكون مؤهلاً قادراً لتلبس هذا النمط من الوجوب بحيث يكون أهلاً لنظرية الخلافة الإلهية انسجاماً مع فطرته وإرادة عقله ومنهج التنمية البشرية، أو أن يكون ظالماً لنفسه فاسقاً فاجراً بمخالفة أمر الله تعالى، وهذا ما وضحه الأعم الأغلب من السياق القرآني، حيث خاطب الإنسان بلزوم امتثال أمر الله تعالى والانتهاء عن نهيه ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِّ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[٣].

فالأمر بقوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ**﴾ ما هو إلا أمر وجوبي أي (أقم

---

(١) ظ: أبن عاشور، تفسير التنوير والتحرير، مج٩، ٢٢، ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، مج٩، ٢٢، ١٣٠.

(٣) الروم: ٣٠.

قصدك للدين .....ودم على الاستقامة)[1]، بينما ذكر القرآن الكريم ﴿حَنِيفاً﴾ إشارةً إلى أن يكون عمل الإنسان ومسعاه لله (مائلاً إليه ثابتاً عليه مستقيماً فيه لا تراجع عنه إلى غيره)[2].

وبمقتضى ذلك نلحظ أن الإنسان يفتقر إلى الجهاد والترويض والسعي لتحقيق مبدأ الاستخلاف وهو منهج تنموي يلزم الإنسان بالارتقاء بنفسه للوصول إلى مبتغى الله سبحانه، فالآية تؤكد هذا المطلب وهي تشير مخاطبةً الإنسان إذا أردت أن تعبد الله حقاً عليك أن تنحرف عن كل الضغوط والقيام بمعنى الكمال، كما تعبر الآية عن ضرورة خلوص العمل بالدين من شوائب الشرك بـ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ لأن مجرد قبول الدين لا يكفي، بل ينبغي تطبيق التوجيهات السماوية[3]، وبخلاف ذلك يكون الإنسان خارج دائرة الاستخلاف وحمل الأمانة، وحينذاك يُعدّ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ظَلُوماً جَهُولاً﴾.

من هنا نجد أن القرآن الكريم قد سلط الضوء على أهم العناصر الأربعة في عملية الاستخلاف، وهو الإنسان بعد الله تعالى، لأنه هو القادر على التأثير والتأثر وهو العنصر الأساس لتحقيق مبدأ الاستخلاف بوصفه وسيلةً مهمةً، فضلاً عن أنه الغاية، وبالعودة لمنهج وحركة التنمية البشرية نجد أنها تتحرك مع هذا النشاط،

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ٢١، ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ٢١، ٢٥.

(٣) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٧، ٣٨.

لذا فإن الآيات المذكورة آنفاً حاولت أن تصور الإنسان على الرغم من أنه مأمور ومكلف فإننا نجده قادراً حراً مميزاً لتبني مبدأ الاستخلاف، لذا كرمه الله تعالى، **﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[1].

ولعل انصع أوجه تكريم الإنسان هو ما عرضه القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[2]، فالآية تحمل بين طياتها كماً هائلاً من الدلالات التي توحي إلى رفعة وجلالة هذا المخلوق من خلال أمر الملائكة بالسجود كرامة له كدلالة للعناية الإلهية بهذا المخلوق الذي رُسمت إليه السيادة والريادة منذ الوهلة الأولى لخلقه، لذا قال عزّ وجل فيه **﴿فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**، وبمقتضى(هذه الخلافة استحق أن تسجد له الملائكة، وتدين له بالطاعة كل قوى الكون المنظور وغير المنظور)[3] ولا بد من الإيضاح بأن السجود ههنا ليس سجوداً عبادياً لآدم لأن السجود كان لله تعالى اجلالاً لخلقه آدم لأنه أودع فيه مؤهلات الخلافة، واللام في ﴿**لَهُ**﴾ سببية أي اسجدوا لي بسبب خلق آدم.

فبحكم نظرية الخلافة الإلهية يكون الإنسان مأموراً في مبدأ استخلاف الله في

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) ص: ٧٢.

(٣) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ١٢٧.

الأرض من خلال إحيائه إليها وبناء الحضارة عليها، لذا مكنه الله تعالىٰ الأرض وما فيها من طبيعة، وأودع فيه كافة القوىٰ العقلية والبدنية والروحية والنفسية لامتلاك الأرض ومن عليها وتطويعها إليه وتنميتها بغية إشباع حاجاته وتحقيق طموحاته المشروعة، وبهذه المؤهلات نال شرف الخلافة من الله تعالىٰ من دون سائر المخلوقات ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ**﴾[1].

نخلص مما تقدم الى أن مبدأ الاستخلاف جزء من منظومة الخلافة الإلهية، وأن تكريم الإنسان بالاستخلاف مبني علىٰ الجعل التكويني منه سبحانه، والاستخلاف منوط بالأرض حصراً فهو مقيد بعالم الدنيا تنتهي بانتهائها أو بانتهاء قيام الإنسان عليها، وأنه منوط بالحياة لذا فهو استخلاف مؤقت ينتقل من إنسان لآخر، الاستخلاف مقيد بادراك والتزام الإنسان وعمله وحسن تدبره وتنمية قدراته.

فالاستخلاف مبدأ قرآني تنموي هدفه بناء الإنسان والارتقاء به إلىٰ مستوىٰ خلافة الله والتخلق بخلقه والتشبه به تعالىٰ، إذ روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تخلقوا بأخلاق الله)[2] ونقل عنه أيضاً أنه قال: (حسن الخلق خلق الله الأعظم)[3].

فبمقتضىٰ الاستخلاف لزم علىٰ الإنسان القيام بدوره في تنمية ذاته وما يحيط به كما أمره الله سبحانه وتعالىٰ من خلال تنمية مكوناته الإيمانية والعملية، وما

(١) يونس: ١٤.

(٢) محسن الكاشاني، المحجة البيضاء، مج٣، ٥، ٦٤، وانظر مصادره.

(٣) المصدر نفسه، مج٣، ٥، ٦٤.

ذلك إلا عين التنمية البشرية واساسها، وهذا ما نلمسه بوضوح ونحن نتطلع إلى الحضرة الإلهية وهي تخاطب داود عليه السلام محددةً له وجوب تمثيل مبدأ خلافة الله تعالى في الأرض من خلال "الحق" الذي يمثل الجانب الإيماني (الفكري والعقائدي)، وبالسلوك القويم الذي يُعدّ الركن الثاني لتنمية الإنسان والحياة والحضارة التي تسعى لمشروع التكامل من خلال نبذ السلوك الشاذ المقرون بالهوى، **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾**(١)، وبهذين المعيارين سيحدد خليفة الله تعالى من عدمه ، أي إن الإنسان سيكون خليفة الله على قدر قربه وبعده من الخط البياني لتمثيل الله تعالى بدرجة عالية من المناخ الإيماني والسلوكي، **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾**، نستفيد من مدلول الآية المباركة أن هناك تبايناً في مرتبة تمثيل الله تعالى للخلافة التي تُعدّ رفعتها وعلوها بقدر الارتقاء الذي يتناسب ومستوى ومقام مَنْ اُستخلِف(٢)، كما نستفيد من مدلولها أيضاً أن الخلافة

---

(١) ص: ٢٦.

(٢) لعل السبب من عصمة الأنبياء والأوصياء هو أنهم عليهم السلام يمثلون السفارة الإلهية النابعة من إرادة الله تعالى، وهم يمثلون عين خلافة الله في الأرض كونهم رسله إلى البشرية بما يحملون من كتب تحمل بين حناياها أحكام السماء، قال الله تعالى:﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الإلهية ليست مقتصرة على الأنبياء فحسب بل كل النوع البشري من دون تمييز[1] كون دعوة استخلاف الله في الأرض قائمة لغير الأنبياء والأوصياء من بقية البشر الذي قد يرقي بعض منهم بالاجتهاد والمثابرة والتنمية والتطور إلى درجة الخليفة، ليُخرّج حينئذ الكفرة والفسقة من بقية البشر عن دائرة الخلافة.

لتكون هذه الخلافة امتداداً طبيعياً لتمثيل الله تعالى في الأرض، ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ**﴾[2]، وبهذا سيكون المعيار في الحضرة الإلهية هو معيار الصلاح المتمثل في موردين اثنين هما الجانب النظري الفكري "الإيمان" والجانب الإجرائي السلوكي "العمل الصالح" ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[3] مما يقتضي حينئذ بناء مشروع تنموي جبار يطرق الجانب الفكري ومنظومتها كحجر أساس للتنمية البشرية وجانب سلوكي أدائي يطرق مجالات الحياة العملية المختلفة بحيث تكون التنمية البشرية في هذا المشروع بمثابة الوسيلة لتحقيق مبدأ الاستخلاف الذي هو جزء من نظرية الخلافة الإلهية عموماً.

---

(١) ظ: التحفيز الإيماني، ميثم السلمان، ٤٩.

(٢) الحج: ١٠٥.

(٣) العصر: ٢-٣.

(٢): مبدأ التسخير والتمكين.

إن مبدأ الاستخلاف هو ليس مشروعاً يفرض وجوده بعرض بنوده من دون إمكانية تمثيله على أرض الواقع ؛ بل هي مجموعة من الأفكار والرؤى تنسجم عملياً مع الواقع والساحة الحياتية من جهة، من خلال مزية واعتبار الإنسان ورفعة مكانته عن بقية المخلوقات من جهة أخرى ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[1].

ولكي نؤصل هذا المبدأ قرآنياً وواقعياً علينا أن ننظر إلى القرآن الكريم بما صرح به لمبدأ التسخير كمرحلة لاحقة تلي فكرة مبدأ الاستخلاف، كما علينا أن ننظر بعين الواقع إلى الطبيعة لتثبيت ذلك التأصيل القرآني لهذا المبدأ الذي اقتضت حكمة السماء أن تطوع وتسخر الأرض خدمة للإنسان بوصفه (المستأمن من قبل الله تعالى على مصادر الثروة في الكون ليدبر أمرها ويدير شأنها وفقاً للروح العامة لملكية الله تعالى)[2].

وكأن المراد من هذه الحلقة أن ترتبط بالحلقة التي سبقتها لتشكل صورة متكاملة عن فلسفة نظرية الخلافة الإلهية، التي تُعدّ تسخير الكون أحد أهم حلقاتها لتفعيل النظرية وتثبيت دعائمها، وتُعدّ جميع ما سخر للإنسان هي المادة التي استأمنها الله تعالى لديه وهي الوسيلة في الوقت نفسه لبلوغ مبدأ الاستخلاف، لأن التسخير

---

(١) التين: ٤.

(٢) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ٣٥.

يعني (قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده، كتسخير الكاتب القلم للكتابة، وكما يسخر المولى عبده والمخدوم في أن يفعل باختياره وإرادته ما يختاره ويريده المولى والمخدوم والأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيّتها الخاصة ما يريده الله من نظام يدبر به العالم الإنساني)[1].

ونستطيع أن نقول أنه كما سخر الله تعالى الأرض وما فيها وما عليها كوسيلة لتحقيق مبدأ الاستخلاف للإنسان، كونها خُلقت من اجله مسخرة لتأمين حاجاته المشروعة، كذا نستطيع أن ندعي أن هذه الوظيفة تأتي بمرتبة ومنزلة أحدى وظائف التنمية البشرية حين تُعدّ الأهداف الثانوية كوسيلة لتحقيق الأهداف والغايات الكبرى، وبما أن هدف التنمية البشرية هو الإنسان فإننا نجد أنفسنا أمام مضامين فلسفة نظرية الخلافة التي تجعل من أولوياتها الإنسان، فضلاً عن اعتبار أن البيئة التي تحيط بالإنسان هي من أهم موارد التنمية البشرية وعناصرها الأساسية، وهذا ما نلمسه جلياً في القرآن الكريم ونحن نرتل آيات التسخير، بحيث يدرك المتدبر في الآيات المباركة متانة الرابطة وقوة الانسجام بين الإنسان والطبيعة دون عناء سيراً في نطاق تحقيق منظومة التنمية البشرية الموصِلة لتحقيق الخلافة .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2]، الآية المباركة تؤكد مطلب تسخير

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١٦، ٢٣٤.

(٢) الجاثية: ١٢- ١٣.

عموم ما في الكون بدلالة استعمال الاسم الموصول﴿ مَا﴾ مع السماء ومع الأرض إذ تدل﴿ مَا﴾ على العموم الاستغراقي أي كل ما في السموات من إمكانية وما في الأرض كذلك هو في خدمة الإنسان، وكذا هو المدلول في قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ على الرغم من أن الآية التي سبقتها قد خصصت التسخير مصورةً إياه في ﴿**سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ**﴾ فهو(تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولاً ثم التعميم ثانياً)[1]، والمراد من معنى التسخير هو تذليل ما في السموات والأرض جميعاً، وقد أكد هذا المعنى الطبرسي حينما قال: (ومعنى تسخيرها لنا أنه تعالى خلقها جميعاً لانتفاعنا بها، فهي مسخرة لنا من حيث إنا ننتفع بها على الوجه الذي نريده)[2]، ومفاد الآية أن ما في الكون جميعاً خلق لأجل انتفاع الإنسان به، فسبحانه وتعالى (سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه)[3].

أما الطباطبائي فقد أشار إلى أن (معنى تسخيرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها وسفليها ولا يزال المجتمع البشري يتوسع في

---

(١) إبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ، مج ١٠، ٢٥، ٣٣٧.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان، مج ٥ ، ٢٥، ١٢٩.

(٣) الرازي، التفسير الكبير، مج ١٤، ٢٧، ٢٣٢.

الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها والتوسل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له)[1] فالطبطبائي يحاول أن يوضح قوة الرابطة بين الإنسان والكون وانسجام الحركة بينهما على أساس تسخير الكون للإنسان من جهة وضرورة رعاية الإنسان لتلك الموجودات المسخرة إليه وخدمة له، فهي محاولة علمية دقيقة لبيان معالم التنمية البشرية على وفق الرؤية القرآنية ومن مبدأ التسخير.

والنكتة المهمة التي نستشفها من مدلول الآية المباركة أيضاً أن التسخير ليس موقوفاً على أساس تجسيد الاستخلاف فقط، بل هو دليل على رفعة هذا المخلوق ومنزلته عند الله تعالى الذي كرمه في موارد كثيرة، حين ميزه بعقله وحسن خلقه من غيره من المخلوقات، وعند استخلافه على الأرض، وكرمه هنا أيضاً حين سخر له الكون، وما ذلك إلا دليل على انسجام وتكامل النظرية القرآنية وترابط فروعها بأصولها.

ان مفاد القول إن مرحلة الاستخلاف تقتضي التسخير، لأن الإنسان بحكم أنه مخلوق من قبل المُوجد لا يستطيع أن يقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض من دون أن يُسخر له سبحانه وتعالى إمكانات تُعدّ مقدمات وأدوات إلى تحقيق تلك الخطوة المهمة، التي هي إحدى حلقات نظرية الخلافة الإلهية، وقد يسر الله جلّ وعلا كافة المخلوقات والكائنات في الأرض للإنسان، حين قال سبحانه تعالى: **﴿لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ**

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٨، ١٦٥.

ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[1].

فالآية المباركة تتحدث عن عامة النعم بعد أنَّ خصصتها في آيات تلت هذه الآية، فهي تخاطب عموم البشر على الرغم من وجود شريحة مخاطبة بعينها – على أساس أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب- (أي سخر لأجلكم ما في السماوات.... وسخر ما في الأرض لأجل عباده)[2]، والحق ما ذهب إليه صاحب الميزان حين قال: (المراد بتسخير السماوات والأرض للإنسان و هم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عام يدبر أمر العالم عامة والإنسان خاصة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم المحسوس بما فيه من الشعور الإرادة فقد سخر الله الكون لأجله)[3].

والآية المباركة تنعطف زيادة على ذكر التسخير إلى مصداقه **﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾** فأعظم نعمه تعالى: **﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾**، وهو (ما لا يمكنكم جحده من خلقكم وأحياكم واقداركم)[4]،فظاهر الآية أن مرادها أن الله تعالى قد سَخر للإنسان جميع ما في الكون وأسبغ عليه النعم الظاهرة والباطنة، أي التي يدركها الإنسان ويتحسسها والتي لا يدركها

(١) لقمان: ٢٠.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، مج١٣، ٢٥، ١٣٢.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١٦، ٢٣٣.

(٤) الطبرسي، مجمع البيان، مج٥، ٢١، ٦٠.

وغير ذلك لتأمين حاجاته ومتطلباته الذاتية الفردية والموضوعية الاجتماعية، وكذا الذاتية الشخصية أو المؤسساتية الكلية، والتي تصب جميعها في تحقيق مشروع التنمية البشرية الذي هو جزء من نظرية الخلافة الإلهية، وما تسخير الكون للإنسان إلا لأنه أحد الطرق المؤدية لتحيق مشروع التنمية الحضارية، فإن (لتسخير الموجودات السماوية والأرضية للإنسان معنىً واسعاً يشمل الأمور التي في قبضته واختياره، ويستخدمها برغبته وإرادته في طريق تحصيل منافعه ككثير من الموجودات الأرضية، كما تشمل الأمور التي ليست تحت تصرفه واختياره، لكنّها تخدم الإنسان بأمر الله جلّ وعلا)[1].

فالقرآن الكريم قد عرض إلى عدد من الآيات التي صرحت تارة ولمحت تارة أخرى لمبدأ التسخير ونستشف من هذا العرض أن أهم ما في هذا المطلب ما نستفيده هو:

أولاً: إن الإنسان أكمل من جميع الموجودات بدليل أن سخر له كل ما في الكون.

ثانياً: إن المقصود من التسخير هو ليس أن تكون الكائنات جميعاً تحت إمرة الإنسان، بل هي تدخل ضمن منافعه وخدمته[2].

وإن ما ورد أعلاه نتلمسه واضحاً ونحن نقرأ قوله تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ**

---

(١) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،١٠، ٢٤٥- ٢٤٦.

(٢) ظ: المصدر نفسه،٦، ٣٩٣.

﴿يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[1]، فالآية المباركة تختزل مجموعة مضامين منها ما نسعى لإثباته في بيان معالم فلسفة التسخير وأثرها في المنظومة الكونية وعلاقتها كلياً بالحق سبحانه وتعالى. لأن مبدأ التسخير كما أكدنا يرتبط بالله تعالى وجعله التكويني الذي فرض حاكميته سبحانه على الوجود بأسره والإنسان، فمن الواجب أن يلتفت الإنسان إلى إعداد ذاته إعداداً يتناسب مع ما كلف به كخليفة الله في الأرض قد سخر له الكون كله، من خلال تنمية مهاراته وقدراته وتصوراته للتعامل مع ما سخر الله له حتى يستطيع أن يقوم بذلك على الوجه الذي أمر سبحانه وتعالى به والارتقاء إلى مرتبة نظرية الخلافة الإلهية، وبهذا (ويتكامل هذان الأصلان، كل منهما يكمّل الآخر.....حاكمية الله تعالى في حياة الإنسان، وخلافة الإنسان عن الله تعالى على الأرض)[2].

فلم يكن تأكيد مبدأ التسخير إلا لأنه أحد أهم العلاقات التي تشكل منظومة نظرية الخلافة الإلهية، فهو نابع من واقع ما يسره الجليل جلّ وعلا للإنسان، مما يقتضي هنا أن يدرك الإنسان ضرورة حسن التعامل مع المسخرات (الطبيعية)، بحيث يكون هذا الإحسان على وفق الرؤية السماوية وبنائها الشرعي الذي شرع الوجود على أساس التكامل والعدالة، وللحفاظ على ذات المنهج اقتضى التعامل مع المخلوقات والكائنات والطبيعة على وفق هذا الذوق، الذي يُعدّ نشاطاً يصب في ذات بناء الإنسان وتنميته، فاحترام السنة الكونية التي شرعها الله تعالى للبشر

---

(١) الرعد: ٢.

(٢) محمد مهدي الأصفي، في رحاب القرآن، ١٣٥.

يُعدّ إقراراً بالعبودية لله تعالى واحتراماً للإنسان وما يحيط به من سنن كونيه سخرت له، وخلقت لخدمته وتأمين حاجته وتنميته بالارتقاء به من حال إلى أحسن حال.

لذا يرى الباحث أن مخالفة الإنسان لتلك السنن ومنها الانحراف عن فلسفة التسخير ومهمتها هو خرق لالتزاماته الشرعية والعقلية والطبيعية، فسوء استخدام الإنسان للموارد الطبيعية، والعبث بتعامله مع الكائنات المختلفة، يُعدّ اختلالاً في النظم والموازين التي تربك حركة الإنسان ونشاطه التنموي وتربك ما يحيط به من موجودات في هذا الكون ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1].

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾[2].

فنستدل من ظاهر الآية المباركة أن الله تعالى ذلل الأرض بجعل تكويني للإنسان على أساس الآية التي كانت محور حديثنا ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[3]، فهي ذات الأرض التي ذللت وسخرت إليه ليقيم حدود الله سبحانه وتعالى، وبمعنى آخر كان لابد من وجود أدوات وآليات تسخر للإنسان كالأرض وبقية الكون لقيام أمره وتطبيق فصول نظرية الخلافة.

---

(١) الروم: ١٤.

(٢) الملك: ١٥ .

(٣) البقرة: الآية، ٣٠.

وعند تأملنا في ﴿ذَلُولاً﴾ من قوله جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً﴾ نستفيد أنه تعالى طوع الأرض وألانها وسهل ما فيها وما عليها للإنسان[1]، وما التذليل إلا التسخير الذي نسعى لتحديده كمرحلة من مراحل نظرية الخلافة الإلهية، والدليل على أنها مسخرة للإنسان قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾، هذا فضلاً عن مدلول ما عرضنا إليه في مدلول ﴿ذَلُولاً﴾ والتي تعني أن الأرض (مطيعة مسخرة لخدمة الإنسان في جميع المجالات والظروف)[2]، وهذا ما أكده صاحب الميزان حين قال: إن (تسمية الأرض ذلولاً وجعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع)[3].

وبعيداً عن أبعاد الآية المباركة ومدلولاتها الواسعة التي تكاد لا تعد ولا تحصى، فإننا نحرز يقيناً أنها تصب في مصب مطلب التسخير الذي نحاول إثباته كأحد أدوات نظرية الخلافة القرآنية من جهة وكأحد مصاديق التنمية البشرية وأدواتها على وفق الرؤية القرآنية، لأن (الله جعل الأرض ذلولاً بآلاف من الموافقات

---

(١) ﴿ذَلُولا﴾ الكلمة مشتقة من الذل وهو الهوان والانقياد.... فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيهاً بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة.ظ: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج١٢، ٢٩، ٣٣.

(٢) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤، ٣٢٢.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١٩، ٣٧٣.

الضرورية لقيام الحياة)[1]، والحياة كما أكدنا هي ساحة التنمية البشرية وميدانها من جهة أخرى.

ونكتة هذه الآية المباركة هي عملية التلازم بين التسخير كأحدى حلقات نظرية الخلافة الإلهية والحلقة أو المرحلة التي تليها وترتبط بها وهي مرحلة التمكين، فآية ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا**﴾ كناية عن كونها نهاية في الذلولية)[2]، فـ(بعد وصفه تعالى للأرض بأنها ذلول أمر لعباده بأن يسيروا في ﴿**مَنَاكِبِهَا**﴾)[3] وهذا يعني أنه تعالى قد مكن الأرض للإنسان كمرحلة متطورة ومتقدمة من مرحلة التسخير، فهي قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً**﴾[4]، فالأرض هي (كالبساط الواسع الجاهز المتوفر فيه جميع متطلباتكم المعيشية)[5].

أما ابن عاشور فقد أكد ما نسعى إثباته حين أشار إلى أن البساط: هو ما يفرش للجلوس عليه، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط لأن حجم الأرض كروي، وقد نبه على ذلك بالعلة الباعثة في قوله ﴿**لَكُمْ**﴾، والعلة الغائية في قوله ﴿**لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً**﴾ وحصل من مجموع العلتين الإشارة إلى جميع النعم التي

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مج٦، ٢٩، ٣٦٣٩.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، مج١٥، ٣٠، ٦٣.

(٣) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤، ٣٢٢.

(٤) نوح: ١٩ – ٢٠.

(٥) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤،٤٦٦.

تحصل للناس من تسوية سطح الأرض[1]، بحيث تُعدّ هذه السبل والطرق واسعةً مؤديةً إلى الهدف المقصود وهي الأمانة الإلهية الكبرى، (ومن أجل أن يستطيع الإنسان القيام بالأمانة الكبرى، سخر الله له الكون وقوانينه لكي يستثمرها وينتفع بها في إقامة الحياة المتحضرة، ويتحرك في ظل منهج علمي عقلي .... لإحداث التغيير المطلوب والمتجدد المستمر في الحياة الإنسانية والمجال الكوني)[2].

إلا أن مبدأ التسخير ليس هو المبدأ الوحيد في إتمام مفاصل نظرية الخلافة الإلهية، فالنظرية تفتقر إلى مبدأ التمكين الذي يُعدّ مرتبة متطورة من مبدأ التسخير كما أشرنا إليه، لأن مفهوم التمكين يعني أن يشرع الإنسان عملياً بتكاليف الاستخلاف من خلال بسط اليد على ما مكّنه الله تعالى من تسخير ما في الكون.

فالتمكين قد ورد في القرآن الكريم عدة مرات وبسياقات مختلفة، قال الراغب أن المكان عند أهل اللغة (الموضع الحاوي للشيء)[3]، وبما أن الاستخلاف يفتقر للموضع الذي يحوي على تطبيق المبدأ كان التمكين الذي هو: إقرار الشيء وتثبيته في مكان، وهو ذات ما ورد في القرآن الكريم حين نسب فعل تمكين الكون من الله عز وجل إلى الإنسان، قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ**﴾[4]،

(١) إبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج١٢، ٢٩، ٢٠٥.

(٢) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ١١٦.

(٣) الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ٧٧٢.

(٤) الاحقاف: ٢٦.

﴿نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1]، ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ﴾[2]، وكذا قوله جل وعلا: ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾[3]،فالمكان هو مقر الشيء في الأرض، الإمكان والتمكين الإقرار والتقرير في المحل، وربما يطلق المكان المكانة لمستقر الشيء من الأنوار المعنوية كالمكانة في العالم وعند الناس، ويقال: أمكنته من الشيء[4]، لذا أشار الطباطبائي في مورد آخر إلى أن التمكين بإنه (الإقدار يقال: مكنت له أي أقدرته فالتمكن في الأرض القدرة على التصرف فيه بالملك كيفما شاء وأراد)[5].

والناظر في موارد لفظة التمكين في القرآن الكريم، يميز بين صيغتين له: صيغة التمكين في الشيء، وصيغة تمكين الشيء. الأولى خاصة بالتمكين في الأرض، والثانية عامة تشمل تمكين الدين والقوة والسلطة والمال، وهذا يعني أن التمكين للإنسان يتم عبر مستويين:

الأول: حسي مادي، يتم فيه تمكين الإنسان من التصرف في الأرض، ولذلك جاء ذكر (المعايش) مع التمكين في الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا

(١) القصص: ٦.

(٢) القصص: ٥٧.

(٣) يسف: ٥٧.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١١، ١١٢.

(٥) الاحقاف: ٢٦.

لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾[١] أي بما يضمن استقرار الحياة ومستلزماتها وديمومتها، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾**[٢]، والثاني: معنوي، يتم فيه تمكين الدين والأمن للإنسان: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾**[٣]، وهذا مستوى من التمكين يحرز بموجبه الإنسان أهم الأسس الداعمة للحياة الكريمة.

وبوجود هذين المستويين من التمكين، يرتبط المادي بالروحي في تنمية الإنسان، ولا يصبح عمار الأرض وصلاحها إلا بهما، ولعل هذا ما يفسر قصور مفهوم (التنمية البشرية) المتداول عن الإيفاء بالشروط الحقيقية لنمو المجتمعات ورقيها وأمنها المادي والروحي[٤].

فقد عرض القرآن الكريم عدة شواهد لتصوير مبدأ التمكين ودوره في منظومة نظرية الخلافة الإلهية، ومنها ما قاله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز وهو يصف "ذو القرنين" عليه السلام : **﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ۞**

---

(١) الأعراف: ١٠.

(٢) الاحقاف: ٢٦.

(٣) النور: ٥٥.

(٤) ظ: ميثاق الرابطة، جريدة الكترونية أسبوعية ، د. فريدة زمرد، مفهوم التمكين في القرآن الكريم ، موقع ألكتروني www.almithaq.ma/contenu.aspx?C=3000

﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾[1]، أي (منحناه سبل القوة والقدرة والحكم)[2] في الأرض ليحكمها، لأن التمكين مدلوله في الآية المباركة هو (جعل الشيء ممكناً، أي راسخاً، وهو تمثيل لقوة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد.......فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرف)[3].

ولعل الدليل إلى ما ذهب إليه الباحث في كون مبدأ التمكين يُعدّ بمثابة الوسيلة والأداة لتطبيق فكرة نظرية الخلافة وكذا في كون التنمية البشرية هي وسيلة لتحقيق الأهداف العليا، هو ما ورد في الآيتين المباركتين من تتابع، فالمتأمل في الآية يدرك أن الله اقرن التمكين بمنته سبحانه حين قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾، والسبب (الوصلة والوسيلة فمعنى إيتائه سبباً من كل شيء أن يؤتى من كل شيء يتوصل به إلى المقاصد الهامة الحيوية ما يستعمله ويستفيد منه)[4]، وبتعبير آخر (أعطيناه من كل شيء من الأمور التي يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء)[5] وهذا ما توضحه الآية اللاحقة ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾، فـ(الإتباع اللحوق أي لحق سبباً واتخذ

---

(١) الكهف: ٨٤ – ٨٥.

(٢) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧، ٥٧٣.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ، مج٧، ١٦، ٢٣.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٣٥٥.

(٥) الرازي، التفسير الكبير، مج١١، ٢١، ١٥٠.

وصلة وسيلة يسير بها)[1].

فالإنسان الذي يسعىٰ لتمثيل الله في الأرض عليه أن تكون إحدىٰ أدواته أن يلتفت إلىٰ ما سخر إليه الله تعالىٰ ومكنه منه لينطلق به، لأنه الطريق والسبيل القصير لتحقيق مراده، كما يجب علىٰ الإنسان أن يلتفت إلىٰ مورد مهم في تطوير وتنمية ذاته، فكما يُعدّ استثمار الكون وعناصره مورداً لتأمين حاجات الإنسان ومتطلباته المشروعة، كذا يُعدّ التتابع والتواصل مع تلك الأسباب والسبل تواصلاً في تنمية الإنسان وتطويره.

أما قوله تعالىٰ في ما ورد عن قصة يوسف عليه السلام كمثال آخر: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ**﴾[2]، فـ(المراد من تمكين يوسف في الأرض إقراره فيه بما يقدر معه علىٰ التمتع من مزايا الحياة والتوسع فيها)[3]، وهذا من عناية الله تعالىٰ إليه كون شاهد الآية المباركة بعد خروجه من غيابة الجب، وكذا ورد تمكينه في مورد آخر بعد خروجه من سجن العزيز وتنصيبه خزائن أرض مصر حيث قال تعالىٰ: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ**

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٣٥٥- ٣٥٦.

(٢) يوسف: ٢١.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١١، ١١٢.

وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] والعناية في الموضعين واحدة[2].

نخلص مما تقدم أن مبدأ تسخير الطبيعة للإنسان وتمكينه منها هي الوسيلة لتحقيق نظرية الخلافة الإلهية، لأن التمكين يعني أن يعطى للإنسان (ما يستطيع بواسطته تنفيذ مآربه، وتهيئة أدوات العمل له، ورفع الموانع وإزالتها عن طريقه)[3]، فما وجود الطبيعة وعناصرها إلا خدمة للإنسان ولتنميته وتطويره بغية ارتقائه إلى مرتبة الاستخلاف، وبهذا اختار الله تعالى هذا المخلوق – الإنسان – ليقوم بأصعب وأخطر وأهم مهمة ألا وهي استخلاف الله في الأرض، حيث كلف الله تعالى الإنسان بهذا المشروع العظيم تكليفاً إلزامياً للقيام بدور الخلافة الإلهية في الأرض، كما هيأ له سبل القيام بهذه المهمة ومكّن له ما في الأرض بقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾**[4]، أي (جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم معايش)[5] أي (منحناكم الملكية والحاكمية وسلطناكم على الأرض.....وأعطيناكم وسائل العيش بجميع

---

(١) يوسف: ٥٦.

(٢) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١١، ١١٣.

(٣) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٤، ٣١١.

(٤) الأعراف: ١٠.

(٥) الرازي، التفسير الكبير، مج٧، ١٤، ٢٥.

أنواعها)[1].

والجدير بالذكر في كل ما تقدم أن أغلب الآيات القرآنية التي وردت فيها "التمكين" كانت تفيد إقرار التصرف وليونة الحركة بامتلاك زمام القرار في الخيار، وهذا هو أهم محور من محاور التنمية البشرية على مستوى الدراسات القرآنية وحتى الوضعية منها، لأن فلسفة التمكين في التنمية البشرية تعني توسيع قدرات الإنسان لتوسيع خياراتهم، بحيث يكون ذلك دافعاً لانفتاح آفاق حريته، لتصل العلاقة بينهما علاقة طردية، إذ بسعة خيارات الإنسان وتمكينه منها تتحقق التنمية البشرية وتتسع مساحتها، وبالعودة إلى تعريف الباحث للتنمية البشرية نجد أن مفهوم التمكين له الريادة في تحقق هدف التنمية البشرية، كون مسعاه الزيادة في سعة خيارات الإنسان وتأمين متطلباته وحاجاته المشروعة على وفق الرؤية الكونية التي ينتمي إليها[2].

وبهذا نعد مبدأ التسخير ومبدأ التمكين مكملاً لمبدأ الاستخلاف إذ يشكل كل عنصر منها تكاملاً لمنظومة النظرية القرآنية للخلافة الإلهية، التي هي من التنمية البشرية في القرآن الكريم.

---

(١) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٤، ٣١١.

(٢) راجع ص:٥٠ من الكتاب.

(٣) : مبدأ عمارة الأرض واصلاحها .

حاول الباحث أن يثّبت محوراً لمبحثه هذا يستند فيه إلى الرؤية القرآنية لينطلق به إلى عين موضوع التنمية البشرية في القرآن الكريم، حيث اعتمد على مبدأ الاستخلاف كأحد أركان نظرية الخلافة الإلهية، كما وجد نفسه مرغماً بعدم الزيغ والميل عن هذه المركزية التي فرضت وجودها على المتأمل في آيات الله المباركة فلم يجرأ أن يحيد عنها، فهو المبدأ الذي تزامن محوره مع الانطلاقة الأولى لخلق الإنسان، وكذا تزامن مع الإرادة التكوينية لله تعالى حين خاطب الملائكة بقوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[١].

وبما إننا قد فرغنا من المعنى الإجمالي لمبدأ الاستخلاف، التسخير، التمكين، والمقرونة جميعها بحمل الأمانة الإلهية من قبل الإنسان، لذا كان لزاماً على الإنسان أن يُدرك أن للأمانة ضوابط ومحددات تُلزمه الالتفات إلى عظيم ما وكل إليه وما يترتب بذلك من خطوات عملية لتمثيل لائق لمبدأ الاستخلاف وللاستفادة مما سُخر إليه ولتطويع الكون والتمكين منه، كل ذلك خدمة للشروع بأداء الأمانة الإلهية وتطبيق بنودها.

وبمقتضى ذلك نستطيع أن نقول إن الإنسان استحق شرف خلافة الله في الأرض (لأن الاستخلاف يعني الإحساس بالمسؤولية وشرف الأمانة، والإنسان

(١) البقرة: ٣١.

هو الكائن الأرضي المتميز بالإحساس بالمسؤولية)[1]، ولكي ينال الإنسان تمام هذا الشرف العظيم لزم عليه أن يدرك معنى حقيقة الخلافة ورفعتها من جهة، ويسعى لأقامتها من خلال اعمار الأرض وإصلاحها من جهة ثانية، بحيث يقوم على بناء وإحياء علاقة سوية مع ربه ونفسه وبقية جنسه، ويقوم بإحياء البيئة التي يعيشها وما يحيط به أيضاً، كل ذلك بمقتضى إقراره التكويني لقبول الخلافة والعبودية المتمثلة بطاعته وامتثاله لحكم الله تعالى، بحيث تُعدّ العبودية والطاعة والوقوف عند حدود الله تعالى هي مرآة عاكسة للخلافة الإلهية.

فالخلافة تعني أن يكون الخليفة ممثلاً حقيقاً لمن استخلِفّ، وهذا يعني أن الإنسان في مثل هكذا حالة (هو عامل، واع، مطيع لله، يقوم في الأرض بتحقيق سلطان الله تعالى وسيادته في حياة الإنسان وتنفيذ أمره ونهيه في اعمار الإنسان، والإنسان خليفة الله، والعناصر التي تكوّن هذه الخلافة هي الوعي والإرادة والطاعة، فإذا اكتملت هذه العناصر في الإنسان كان لله تعالى خليفة في الأرض)[2].

قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ**

---

(١) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ٦١.

(٢) محمد مهدي الأصفي، في رحاب القرآن، ١٣٥.

فِيهَا﴾[1]، أي (ابتدأ خلقكم من الأرض... بأن مكنكم من عمارتها)[2]، وهذا ما ذهب إليه الرازي أيضاً حين أشار إلى أن المراد هو جعلكم عمارها كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للإنسان، وأن الإنسان قادر على ذلك، لقدرته على التصرفات، وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع[3].

فآية ﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ تعني إن العمارة هي (تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقّبة ...والاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها)[4].

لم يكن الخطاب القرآني بغريب عن الإنسان وواقعه ومحيطه ليُدرك أنه خُلق من أديم الأرض التي استوطنها وترعرع بها ونما وتطور، كما يُدرك أن الله تعالى هو الذي أودع فيه (الطموح وأعطاه القدرة، وطوع له ما في الأرض، وتلك هي شروط عمارة الأرض)[5].

فمطلع الآية المباركة ابتدأت بصيغة ﴿**هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ**﴾ التي تُعدّ

---

(١) هود: ٦١.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٣، ١٢، ١٧٨.

(٣) ظ: الرازي، التفسير الكبير، مج٩، ١٨، ١٤.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٠، ٢٩٨.

(٥) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٤، ٥٦.

(في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهية غيره)[1] ثم اقترن هذا التعليل الأمر بالعبادة أن يكون اعمار الأرض وجهاً من أوجه العبادة، فإن الله تعالى ألزم الإنسان وأمره في عمارة الأرض بما يحتاج إليه[2]، كما يحرز المتدبر بوضوح (الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية، أي إن الدين لم يجعل عمارة الأرض من النوافل أو المندوبات، بل جعلها من الشعائر الواجبة، التي يثاب فاعلها، ويعاقب ويحكم بالفسق على ناكرها)[3]، لذا نجد أن مفهوم العمارة قد استعمله القرآن الكريم نظيراً لمفهوم الاستخلاف ومبدأه، بحيث نجد كلاهما يصبا في مصب نظرية الخلافة الإلهية التي تلزم الإنسان على إحياء نفسه والأرض التي يستوطنها بل عموم الكون، فاستعمار الإنسان للأرض يعني تفويضه لعمارتها وإحيائها بإنمائها وإصلاحها بحيث تُهيء لتصير قابلة للانتفاع بها، وبهذا يكون الإنسان هو المحور الرئيس والفاعل الأساس في عمارة الأرض وتأهيلها وتهيئتها كساحة للحياة بغية تجسيد مبدأ العمارة من خلال سعة رقعة خيارات الإنسان وتأمين حاجاته المشروعة التي تُعدّ من الأهداف الأساسية للتنمية البشرية.

فعملية إنابة الإنسان لله تعالى في الأرض وتفويضه في عماراتها واقتران عموم ذلك بالعبادة، ما هي إلا دلالة واضحة لعظيم هذا المبدأ ورفعته من بين مبادئ

---

(١) إبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج٥، ١٢، ١٠٦.

(٢) ظ: مجموعة باحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة، الإسلام والتنمية البشرية المستدامة- مقارنة في الأهداف والموارد، أسامة العاني، ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه، وانظر مصادره.

نظرية الخلافة الإلهية، لذا عد (إدراك حقيقية الاستخلاف الإلهي، ومعرفة دور الإنسان المسلم في تغيير الأوضاع وبناء الحضارة وصنع المستقبل من المنطلقات الأساسية للإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكاً)[1]، الذي بات شرطاً لازماً للتنمية الإنسانية الفاعلة.

والدليل على ما ذهبنا إليه في اقتران مبدأ عمارة الأرض مع بقية المبادئ الأخرى وارتباطها جميعاً بمنظومة نظرية الخلافة الإلهية هو قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[2]، فالقرآن الكريم يصرح معلناً أن الإرادة الإلهية تُلزم مَنْ استخلفه الله وأناب عنه أن يكون أهلاً للأمانة، وأن الإرادة الإلهية تترقب ﴿**لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾، لأن القرآن الكريم صرح عن رفضه لمبدأ العبثية والفوضى، فهو يرفض أن يحيد الإنسان عن الانضباط والدقة والقانون والناموس الإلهي وعن علة خلقه ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾[3].

فالنظرة القرآنية للإنسان والكون والحياة نظرة سامية رفيعة الشأن تكاد تختلف تماماً عن جميع الرؤى الوضعية، فالتصور القرآني مبني على أنه ليس للهو

(١) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ٧٦.

(٢) يونس: ١٤.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

وللعب وللعبث، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[1] فالآية المباركة تستوضح أن الإنسان لم يخلق سدىٰ، ولا الكون خلق عبثاً، فلابد من أن يستثمر الإنسان حياته لتنمية ما في الكون، وهي المتمثلة في عملية اعمار الأرض وإحيائها[2].

ومما لا شك فيه أن الإنسان بحكم ما تميز به من خصائص وبحكم مرتبة الاستخلاف يستطيع أن يقوم بما كلف به من وظائف لبناء هيكل صرح الحضارة السماوية في الأرض (الخلافة الإلهية)، فهو (يستطيع أن يقوم بهذا العمل الحضاري علىٰ الأرض، لأنه من اختصاص عقله وطاقته التي زود بها، ولكن في ضوء الوحي الإلهي الذي وضع الحقائق الكلية عن الوجود أمامه)[3].

ومصداق ذلك ما استشهدنا به من قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[4] والمتأمل في الآية المباركة يجد هناك مرحلة مهمة من مراحل نظرية الاستخلاف هي ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ والتي نعني بها مرحلة عمارة الأرض، ومراد الآية المباركة (أي استخلفناكم في الأرض

---

(١) الدخان: ٣٨.

(٢) ظ: المصباح: العدد التاسع، التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع.

(٣) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي،١١٦.

(٤) يونس: ١٤.

بعد القرون التي أهلكنا ﴿لِنَنْظُرَ﴾ أتعملون خيراً أم شراً)[1].

أما قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2]، فالجعل الإلهي من تمكين المستضعفين ورثةً للأرض بإحيائها هو دليل آخر على ارتباط وتعانق الأسباب بمسبباتها وتجانس المبادئ القرآنية فيما بينها لتشكل منظومة نظرية الخلافة، وما الآية المباركة التي تلي هذه الآية إلا لتوضح وتكمل مطلب النظرية القرآنية ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[3]، والتي تعني تفعيل مبدأ عمارة الأرض من خلال تمكينهم الأرض، بمعنى (أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعل أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد أن كانوا تابعين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾)[4] أي (نجعلهم يحكمون في الأرض وتكون السلطة والقدرة وغيرها لهم وتحت تصرفهم)[5].

لم تكن وراثة الأرض من قبل المستضعفين بالأمر اليسير ناهيك أن يكونوا بجعل من الله تعالى أئمة فيها، فالأمر يحتم إيماناً صادقاً وسلوكاً معبراً عنه، ينطق بالسعي والجهد والعزم ويوجب الإخلاص بالرغم من منة الله تعالى في تهيئة سبل

---

(١) الزمخشري، الكشاف،١، ٤٧٣.

(٢) القصص: ٥.

(٣) القصص: ٦.

(٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،١٦، ٩.

(٥) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٥، ٢٠، ٢٦٤.

الخلافة لقوله جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١]، أي يجب أن يرتقي الإنسان بنفسه وينمي قابليته ويطور مؤهلاته ليصل إلى الدرجة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين والمصلحين من خلال البناء الذاتي والموضوعي لمنهج التنمية البشرية على وفق الرؤية القرآنية التي تصل بالإنسان إلى مرتبة إمامة الأرض، التي تحتم على الإنسان أن ينطلق نحو الأرض وإحيائها من منطلق المسؤولية، كونه احتل منصب الإمامة وورث الأرض بما فيها، حيث يُعدّ الإحساس بالمسؤولية من الركائز والدعائم التي تقّوم عملية البناء على المستوى الشخصي في بناء الذات أو المؤسساتي في عمارة الأرض، لذا نجد أن التنمية البشرية اهتمت في هذا الشأن وعدت عملية الخطوات الإجرائية هي نابعة من إحساس الإنسان بالمسؤولية، حتى بات الباعث وراء تنمية الإنسان لنفسه وما يحيط به، مما تطلب منه أن يطور مهاراته لتهيئة سبل التنمية والتطوير والإبداع، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾[٢].

بينما نجد ما يلازم المسؤولية عزم الإنسان على العمل الصالح المطابق لواقع نظرية الخلافة الإلهية ومبادئها المتعددة، وبالعودة إلى آيات الله البينات يستوقفنا قوله تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ التي اقترنت بخلافة الأرض كما مر ذكرها، فالعمل هو المحور الذي تدور حوله عملية التنمية البشرية، إذ إن الإنسان الذي يؤدي العمل - ناهيك عن إمامة الأرض - يحتاج إلى رياضة عقلية ونفسية وبدنية

---

(١) يونس: ١٤.

(٢) النجم: ٣٩.

تورّث له كفاءة شخصية ومهنية تؤهله للقيام بدوره في المهام والوظائف العملية، فلم يكن اهتمام القرآن الكريم بالعمل إلا لأنه المصداق للإيمان، لذا نجد أن الأعم الأغلب من الآيات القرآنية ما إن ذكرت الإيمان إلا وتلازم معه العمل، فضلاً عن الآيات التي انفردت للحث عليه سواء كان عملاً تعبدياً أو مهنياً، قال جلّ وعلا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا**﴾[1] وقال تعالىٰ: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[2].

ولا شك في أن الإنسان الذي يراد له أن يؤدي وظيفته خليفةً لله تعالىٰ لابد له من أن يجتهد في عمله ويجاهد لإتقانه ويسعىٰ لتطويره متأملاً الارتقاء به إلىٰ المستوىٰ الذي يليق بمن أناب عنه، وما هذا إلا من صميم عمل التنمية البشرية.

وخلاصة القول إن عمارة الأرض أو استعمارها ﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ تعني طلب تعمير الأرض وإحيائها، وإن معنىٰ العمارة فيها يتضمن:

أولاً: أن لا تفسد الصالح، وهو الامتناع من الشر.

ثانياً: أن ترتقي بالصالح، وهو الإقبال علىٰ الخير.[3]

ثالثاً: أن نبتدع سبلاً جديدةً للصلاح.

---

(١) الكهف: ٣٠.

(٢) التوبة: ٢٠٥.

(٣) ظ: محمد متولي الشعراوي، قضايا معاصرة، ٢٣.

بينما نلاحظ أن الالتفاتة التي التفت إليها الدكتور جمال محمد أحمد عبدة في غاية الدقة، فهو يرىٰ – وهو الحق – أن ما أشار إليه الشعراوي خاص بالمصالح، فما العمل أذن إذا وجد الفاسد؟.

فقد ذهب إلىٰ ضرورة وجود نوعين آخرين من النشاطات والأعمال السلوكية خاصين بالفساد وهما:

(أولاً: أن تصلح الفاسد، وهو الإقبال علىٰ الخير.

ثانياً: أن لا ترتقي " أي أن لا تزيد الفاسد فساداً "، وهو الامتناع عن الشر.

وبذا فإن عمران الأرض يتطلب أمرين هما:

أولاً: الإقبال علىٰ الخير، بالارتقاء بالصالح، كماً ونوعاً، وبإصلاح الفاسد.

ثانياً: الامتناع من الشر، بأن لا تفسد الصالح، وبأن لا ترتقي بالفاسد، كماً أو نوعاً)[1].

ثالثاً: ابداع طرائق جديدة لفتح منافذ الخير للناس.

وعند تأملنا لقوله تعالىٰ:﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[2] نلحظ أن القرآن الكريم قد حدد خصائص التنمية البشرية في آياته ومنها الآية التي نحن بصددها، حيث نلحظ تكامل المنظومة الفكرية، العدالة، التوازن، الشمولية، الواقعية ، السماوية ... وغيرها من الخصائص، إلا إننا نجد

---

(١) جمال محمد أحمد عبدة، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ٢٤٨.

(٢) القصص: ٧٧.

أن خصصية لزوم أو وجوب الامتثال لأمر الله تعالىٰ المتمثل بأعمار الأرض وإصلاحها لزوماً متوازناً عادلاً متكاملاً شاملاً في الوقت نفسه، فالأمر الإلهي يحدد مسار خارطة الأرض للإنسان حين (كلفه بأمانة تعمير الأرض وإقامة المجتمع الفاضل عليها)[1]، وأن إحياء الإنسان والأرض لا يتحقق إلا من خلال وضع رؤية فلسفية تفرض أدوات البناء والإصلاح معاً.

ومن هنا سنجد أن هناك محوراً جديداً ومبدأً يَلحَقُ بركب المبادئ الأخرىٰ التي تشكل جميعها منظومة نظرية الخلافة الإلهية، فالآية المباركة توضح هذا المحور الجديد الذي عُد بالمنظور القرآني هو نصيب الإنسان الدنيوي المُشّرع والمشروع من قبل الله تعالىٰ، فبات هذا المحور المتمثل بالإصلاح ودرأ التخلف ﴿**وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ**﴾ متلازماً مع البناء والإصلاح الذي عبر عنه القرآن الكريم ﴿**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ**﴾.

فأمر السماء بالإحسان والنهي عن الفساد هو عين عمارة الأرض وإحيائها، فالشريعة الإسلامية حريصةً أن تنتقل برؤيتها الكونية ونواميسها الشرعية إلىٰ درجة اللزوم في التنمية، والحرمة عن التخلف، بحيث يُعدّ كل من الحكمين العامل المؤثر في بناء الحضارة الإنسانية علىٰ وفق الرؤية القرآنية، لذا نلحظ أن الآية ذكرت العاملين وميزت بينهما، فعطف ﴿**وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ**﴾ غرضه (التحذير من خلط الإنسان الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان، فالأمر بالإحسان

(١) محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ١٣١.

يقتضي النهي عن الفساد)[1].

فعلى ضوء أهمية مبدأ الإصلاح [2] في الرؤية القرآنية وفي نظرية الخلافة الإلهية كان اهتمام الباحث في تسليط الضوء على هذا الركن المهم والفعال في ترجمة النظرية والناطق عن رؤيتها، وقد عُد هذا المبدأ من أساسيات التنمية البشرية بكافة مجالاتها الفكرية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية وغيرها، لأن المشروع الإصلاحي لم تكن مساحته منحسرةً على ميدان دون ميدان آخر، إذ يقوم هذا المبدأ على السير قُدماً نحو أهم أولوياته في تبنيه لإصلاح الفرد الذي يُعدّ رأسمال النظرية

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج٨، ٢٠، ١٨٠.

(٢) تباين الفلاسفة والمنكرون في تحديد مبدأ الصلاح، حيث ذهبت المدرسة الأوربية عموماً ومنها المدرسة اليونانية خصوصاً، إلى أن الصلاح يتعلق بتغيير صورة الأشياء لا مادتها، بينما نجد أن الإصلاح في المرجعية الإسلامية لا يطرح فيها على هذا الشكل، لأنه لا يتعلق بالعلاقة بين الصورة والمادة، بل بحصول الفساد في الشيء، مادة وصورة، ومن ثم تؤول قضية الإصلاح فيه إلى الرجوع به إلى الحال التي كانت عليه.
فيلاحظ أن التباين انحسر في معنيين اثنين في الأعم الغالب وهما: ١- يرجع إلى شكله الأصلي.٢- يجعل منه شكلاً جديداً، لكن فكرة تغير شيء إلى الأفضل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة استرجاع حالة سابقة أقل فساداً.
والحق إن إزالة الفساد في المنظور الإسلامي لا يعني أبداً إرجاعه إلى السابق، لأنه قد يكون فاسداً أصلاً، فلا سابق صالح له، وقد لا يصح بإرجاعه إلى ما سبق، قال الله تعالى:
﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾التوبة: ١٠٢.
فالقرآن الكريم ذكر شواهد كأمثلة للفساد، القتل، سفك الدماء، الزنا، فلا يمكن العودة بالحالة السابقة كمصداق لإصلاح ما فسد لهذه الحالات.ظ: إحسان الأمين، نظرية الإصلاح من القرآن الكريم،٢٠ – ٢٣.

القرآنية، فيكون عنصراً جوهرياً ومؤثراً وعاملاً لخدمة المبادئ القيّمية السماوية والإنسانية له كفرد وللمنظومة الاجتماعية، لأن مبدأ الإصلاح قائم على أساس إصلاح الإنسان وتنميته والنهوض به، فهي غايته الكبرى وهدفه الأخير، إلا إن مفهوم الإصلاح في الرؤية القرآنية ذو نظرة شاملة على خلاف الرؤى الأخرى فهو يحاكي جانب الإيمان والأخلاق كقضية نظرية من جهة، والسلوك والمعاملات كتطبيق من جهة ثانية، بما فيها جانب المهارات والمعارف والإمكانات أيضاً، حتى بات مبدأ الصلاح كأحد أهم نظرية الخلافة الإلهية، فهو منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام وغايتهم جميعاً ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[1].

ومن خلال قراءتنا الدقيقة لهذا المبدأ القرآني الجبار نجد أن الإصلاح موقوفاً على القناعة به وذلك بإزالة التخلف ومظاهر الفساد وكذا إلى العزم بإرادة متينة تسعى إلى التغير لتحقيق الإصلاح وذلك بالانعطاف من السيئ إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن، كون التغير الإيجابي[2] من دعائم فكرة التنمية البشرية على وفق المنظور القرآني وكذا الوضعي.

فإن كانت التنمية البشرية تسعى لتغيير إمكانات الإنسان ومهاراته الكامنة في داخله نحو الأفضل باتجاه تهيئة حياة مستقرة تلبي طموحاته الدنيوية المشروعة،

---

(١) هود: ٨٨.

(٢) سبق أن تحدثنا عن التغير في كونه نمطين أحدهما تغيير إجدابي، والثاني تغيير سلبي. راجع ص ٤٣٩ من الكتاب.

فإنا نلحظ أن التغيير الإيجابي في الرؤية القرآنية المراد منه هو الذي يعود بالنفع والصلاح والعدل على الإنسان ومحيطه، أي سيكون أحد السبل لتحقيق مبدأ الإصلاح الذي ينظم مع بقية المبادئ الأخرى مشكلةً نظرية الخلافة الإلهية وبهذا يلتقي التغيير من منظور قرآني مع هدف التنمية البشرية.

نخلص أن التغيير ليس مطلوباً لذاته، وإنما هو مرجو لهدف إيجابي يعمل من أجله، لذا بين القرآن الكريم إلى أن إرادة التغيير للفرد أو للمجتمع منحسرةً بإرادة الإنسان ذاته، قال جلّ وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[1]، فالقرآن الكريم قد أولى الإنسان بالدرجة الأولى مسؤولية إصلاح الفرد والمجتمع بالرغم من علمنا بأن للفساد مظهرين(تارة يظهر في سلوك فردي وتارة يظهر في سلوك جماعي)[2]، حيث نلمس (في المقابل، على مستوى الإصلاح، نقرأ كل الصيغ: الفردية، الثنائية والجماعية، للإصلاح، لأنه مطلوب على كل المستويات، ولا يصلح المجتمع إلا بإصلاح أفرده ومؤسساته)[3].

وبمقتضى ذلك نفهم أن الخلافة الإلهية هي أن الله تعالى أناب الإنسان الحكم وقيادة الأمم وإعمار الأرض وإصلاح المجتمع وتطبيق العدالة، وهي ذاتها -

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) إحسان الأمين، نظرية الإصلاح من القرآن الكريم، ٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ٢١٠.

الخلافة – التي بها يتحقق ما يأتي[1]:

انتماء الكتل البشرية إلى مصدر واحد في الحكم وهو الله تعالى والإعراض عن الانتماءات الأخرى.

إقامة المجتمع الرباني وصياغة العلاقات على أساس العبودية الحقة لله وتحرير الإنسان من عبادة الطاغوت.

تفعيل المساواة والأخوة الإيمانية بين عموم البشر.

بعث الهمم وتأجيج الإرادات، وتحفيز المجتمع الرباني لخدمة المشروع الإلهي المقدس كمصداق لحمل الأمانة.

والجدير بالذكر أن التنمية البشرية في القرآن الكريم عبارة عن مجموعة أجزاء تتكامل لتشكل كلية تنضوي تحت المنظومة الفكرية القرآنية والرؤية الكونية الإسلامية، فالمنظومة الفكرية الإسلامية كما أكدنا ذلك سابقاً يجب أن يُنظر إليها كمنظومة متكاملة لا يجوز تجزئتها إلا لغرض التخصص أو الدراسة أو التحليل، فهي حال بقية الرؤى السماوية والوضعية الأخرى، فلا يجوز النظر إلى الجانب الاقتصادي منفرداً عن بقية الميادين ومجالات الحياة المختلفة، ومفاد ذلك أن مبدأ الإصلاح بقدر ما يُعدّ هدفاً أساسياً وركناً لمنظومة الخلافة الإلهية، يُعدّ في الوقت نفسه هدفاً للتنمية البشرية عموماً، وهذا ما أوردنا ذكره فيما سبق حين ذكرنا قوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**

(١) ظ: ميثم السلمان، التحفيز الإيماني،٥٣- ٥٤.

وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فالآية المباركة تأمر الإنسان كفرد والأمة كمجموعة أفراد على لزوم تحمل الأمانة والدعوة إلى الخير والصلاح المتمثل بالأمر بالمعروف، والإصلاح المتمثل بالنهي عن المنكر، فالآية تحكي واقع (أمر سبحانه وتعالى بتكميل الغير بعدما أمرهم بتكميل أنفسهم.... والدعوة إلى الخير هي من أهم الأسباب التي تكون دخيلة في رقي الأمة وتقدمها في كل المجالات)[2].

أقول مما تقدم: إن إي رؤية كونية مهما اجتهدت في بناء حضارتها لن تستقيم إلا من خلال ملأ الفراغ الفكري الناطق بتكريم الإنسان وتعزيز مكانته وكرامته التي تتناسب مع كونه القيمة العليا في الكون، حيث عَدت الرؤية القرآنية الإنسان تكوينياً خليفةً لله تعالى في الحضرة الإلهية في السماء وفي حضرته في الأرض متمثلاً به سبحانه وتعالى، فالقرآن الكريم نظر إلى الإنسان مشروعاً حضارياً نابعاً من التراكمات الإيجابية، لذا عد العنصر الأساس في صناعة التأريخ والحضارة.

وما نظرية الخلافة التي عرضنا إليها بصورة إجمالية ما هي إلا عملية تحكي واقع التنمية البشرية، لأن نظرية الخلافة الإلهية تلزم كل مكلف إلزاماً عينياً بتمثيل مضمون المبدأ، ويلزم النهوض بعمارة الأرض وإصلاحها، وإن هذا الإصلاح ملزم لكل مكلف بالتكليف العيني أن يسعى لديمومة اعمار الأرض وإصلاح ما فسد منها في حالة وجود ما يُعّوق أو يُربك ديمومتها، ناهيك عن وجوب إكرام الإنسان، وتنميته ومحافظته على البيئة وتطويره العلاقات الاجتماعية وإشاعة

(١) أل عمران: ١٠٤.

(٢) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ٦، ٢١٥.

الخير واستقباح الشر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك مما شرعه الله تعالى والذي مثل صورة الرسالة الإسلامية التي عدت منظومة فكرية متكاملة لا نستطيع فصل أجزاء بعضها عن بعضها الآخر.

فإذا ما اقترن التكليف بالخلافة مع لزوم النهوض بعمارة الأرض واستغلال ما سخر فيها، يمكن تحديد نظرة الإسلام عموماً والقرآن الكريم خصوصاً لنظرية الخلافة الإلهية - وما يتعلق بها من مبادئ- وعلاقتها بالتنمية البشرية، والتي تتجسد من خلال السماح للإنسان باستغلال الموارد (المسخرة له) كافة من أجل (عمارة الأرض) للقيام بواجب الخلافة التي تتضمن جميع الأحكام الشرعية وضوابطها[1].

وبهذا فإن الصلة والعلاقة بين المبادئ القرآنية والتنمية البشرية كعلاقة الرأس من الجسد، لأن الإنسان الذي عد خليفة الله في الأرض هو ذات موضوع القرآن الكريم وهو الغاية والوسيلة للتنمية البشرية على وفق الرؤية القرآنية.

---

(١) ظ: مجموعة باحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة، الإسلام والتنمية البشرية المستدامة- مقارنة في الأهداف والموارد، أسامة العاني، ١٥١.



الخاتمة
وخلاصة البحث

الخاتمة

بعد أن أتممت بتوفيق من الله سبحانه وتعالى فصول هذا البحث، لابد من أن نستخلص أهم ما توصلنا إليه من نتائج موزعة على تلك الفصول والمباحث، التي أعرضها بإيجاز على النحو الآتي:

- إن من أهم سمات مفهوم التنمية البشرية هي سمة الشمولية لأنها تضرب جذورها في جميع مجالات الحياة المختلفة على نقيض من مفهوم التنمية الذي تبنى الاقتصاد بوصفه هدفاً أوحد عن بقية مجالات الحياة وإن أثّر أثره في المجالات الأخرى، وبالرغم من محورية الجانب الاقتصادي، الذي يُعدّ أحد مصاديق التنمية البشرية الأساسية، إلا فإننا لا نستطيع أن ندعي أنه الوحيد، ولهذا تُعدّ النظرة إلى التنمية البشرية بعين الجانب المادي (الاقتصادي) نظرة احادية تورّث إرثاً فكرياً وأخلاقياً ضعيفاً هشاً.

- إن ولادة التنمية البشرية لم تأت من فراغ بل جاءت نتيجة طبيعية لتلاقح الأفكار ونضوج مجموعة من المفاهيم كالموارد البشرية، سبل العيش، الأمن الغذائي، حقوق الإنسان، الحاجات الأساسية، والتي توارثها العقل البشري فأصبحت طريقاً مؤدياً وموصلاً إلى التنمية البشرية ونضجها الاصطلاحي، لذا فهو مفهوم متحرك مرن بعيد الأفق والرؤية، ومتفتح يؤمن بالتطور على نفسه وعلى الصعيدين النظري والعملي، شريطة البقاء على الثوابت الرئيسة والمعطيات الضرورية والقيم الأخلاقية، ولهذا نجد أن ولادة التنمية نتيجة مخاض عسير عانته الدول المُستَعمَرة والتي فُرض عليها التخلف قصراً، أو لعدم جدية بعض الأمم والشعوب بترجمة مبادئها إلى واقع، أو لتبني - بعض آخر من تلك الشعوب

المتخلفة – سياسات ورؤى كونية منحرفة لا تتناسب مع فلسفة وجود الكون والإنسان وسد حاجاته ومتطلباته.

• إن الانطلاقة الأولى لمفهوم التنمية البشرية كانت مع الولادة الأولى للإنسان، لأنه مجبول على الارتقاء بنفسه ومجبول على أن يطرق مجالات الحياة كافة باحثاً عن ذاته، فهي مطردة على قدر نمو الانسان ونمو قابلياته ومؤهلاته ونضوجه العقلي والفكري، ولهذا فالتنمية البشرية لا تستطيع أن تفرض وجودها إلا من خلال عاملين أساسيين هما: رغبة الإنسان بتطور ذاته لتركيبته التكوينية من جهة، ولتعامله الإيجابي كرد فعل على درء أي خطر أو ضغط يحيط به ويزيل توازنه من جهة ثانية.

• إن تأصيل التنمية البشرية قد ورد في الكتاب والسنة المطهرة بشكل واضح وجلي ولا سيما على المستوى الفكري لا الفردي، لأن الباحث فرق بين التنمية على المستوى العملي الفردي والتنمية على المستوى الفكري، ويرى أيضاً أن ما من فلسفة سماوية كانت أو وضعية إلا ولها رؤية أو منهج تنموي، وعلى الإنسان أن يدرك أنه هو عنصر التغير والنمو، ويُعدّ عنصر التخلف في مراحل السبات.

• إن ولادة النهضة التنموية الأوربية ولدت كانقلاب وردة فعل على الذات والمحيط، إلا أن من المؤسف أن هذا الانقلاب الذي كان إيجابياً متوازناً في مجالات ما، كان سلبياً غير متوازن في مجالات أخرى، مما أربك توازن النظام الهيكلي البنائي الاجتماعي مشكلاً أزمة جديدة أَلتَفتَ إليها الغرب ومفكروهم مما دعاهم أن يتشاطروا مع غيرهم بالانعطاف نحو مفاهيم تنقذ واقعهم المظلم، وكان أحد تلك الخيارات هو مفهوم التنمية البشرية، الذي سدَّ جزءاً من متطلبات

حاجاتهم.

• إن التنمية البشرية المستدامة ما هي إلا ترف فكري أو لحن مفاهيمي، فمتبنياتها وموضوعها ونهجها وأهدافها وأسسها هي ذات متبنيات التنمية البشرية، فكل منهما راسخ في حق الثاني ومتبنياته.

• إن موضوع التنمية البشرية هو الإنسان، بل هو موضوع لمفهوم مركب، يكون فيه الإنسان هو الوسيلة والهدف في الوقت نفسه ، ويتجلى ذلك وضوحاً حين نجد أن غرض وغاية التنمية البشرية هي المحاولة الجادة لردم الهوة وتقليل الفارق بين ما هو كائن للإنسان وما ينبغي أن يكون، والتنمية البشرية لها أهدافها الخاصة بحيث تُعدّ كل الأهداف الصغرى وسيلة إليه، فكل هدف صغير هو وسيلة لهدف أكبر منه، وكل هدف كبير هو غاية لهدف أصغر منه وصولاً إلى الغاية الكبرى التي تنضوي تحتها كل الأهداف لتأمين الغاية الكبرى من وجود الإنسان أصلاً، والتي نعني بها علة خلقه ووجوده وهو الكمال النهائي حين يكون بالقرب من الذات الإلهية، وأن الأهداف الثانوية تتسع بمرور الزمن مع تطور الإنسان مع سعة حاجاته والمتعددة والمتجددة التي نعدها سبلاً لتأمين هدف التنمية البشرية الأسمى، والذي يلفت الانتباه أن الإنسان بإمكانه أن يهتدي إلى تلك الأهداف الصغرى، وذلك بحكم اقترانه بتلك الحاجات الذاتية، إلا إن المشكلة تكمن في معرفة الأهداف الكبرى للتنمية البشرية التي يفتقر إليها الإنسان، فالهداية إليها لا تتحقق إلا بفعل القائم عليها – الله تعالى– أو بوساطة منه، لأن الأهداف السامية والمتكاملة لا تُدرك بكائن ناقص يفتقر إليها أصلاً.

• إن مقاييس التنمية البشرية تتباين على قدر تباين مصاديق مفهومها وتباين

حاجات الإنسان، لذا سوف لا يكون هناك معيار ومقياس خاص لمؤشرات التنمية البشرية على طول الوقت، بل حتى على امتداد بقاع الأرض المتعددة، وعدم ثبوت مقاييس التنمية البشرية واستقرارها مرجعه هو سعة خيارات الفرد.

- إن اختلاف مفهوم التنمية البشرية القرآني عن المفهوم الدارج في الفلسفات الوضعية مرجعه ذات المزية التي تميزت بها مفاهيم الرؤية الإسلامية وسماتها من بقية الرؤى الأخرى، مما عدت العلة الحقيقية وراء هذا التباين في فهم الإنسان والحياة والكون، وأن التنمية البشرية في القرآن الكريم كان همها الإنسان وغايتها تطوير قدراته الفكرية والسلوكية على الصعيدين الذاتي والمهني، وإن القاعدة الأصولية التي تنص "جلب المصالح ودرء المفاسد" تعمل بطول التنمية البشرية، فهما يتبنيان منهج دفع الضرر عن الإنسان وجلب المنافع إليه وسد حاجاته وتحقيق طموحاته، لذا عد الإنسان في ميزان الإسلام والقرآن الكريم هو مركز الكون ومحوره لأنه خليفة الله في الأرض.

- إن من أهم الأخطاء الاستراتيجية التي وقعت بها النظريات الوضعية، هي النظرة الأحادية التي مبناها الدليل الحسي الذي يُغيّب الروح وآثرها في عملية البناء والتطوير، مما سبب اختلال المعادلة وإمالة الكفة بالاتجاه المغلوط ، حيث يقتضي هنا إعادة فاعلية الإنسان في تنمية الجانب الروحي، بغية العودة به وبمنظومته إلى مرتبة الاتزان والاعتدال، فالتلازم بين المادة والروح مرتبط على حد بعيد في تحقق الاستزادة والنماء للمجالات المادية والمعنوية.

- إن تأكيد خصائص التنمية البشرية في القرآن الكريم هو هدف مقصده بيان مزايا العملية التنموية ومواطن قوتها من خلال تسليط الضوء على تلك

الخصائص التي نرى تكاملها بتجانسها وتداخلها مع بعضها بعضاً لتظهر حقيقة الرؤية القرآنية للتنمية المتكاملة التي تستمد وجودها من المد الغيبي لكتاب الله تعالى الذي أصبغ الأمة ذوقاً وطباعاً وثقافةً انفردت بها عن باقي الأمم.

- إن الرؤية القرآنية عدت التنمية البشرية أمراً ملزماً أي أنها ارتقت بإجرائاتها إلى درجة الوجوب والإلزام، في حين وجد الباحث عدم الإلزام في مناهج أغلب الرؤى الأخرى، بل عد تركها أو مخالفتها على وفق مقتضى المفهوم أمراً مذموماً يصل إلى درجة الحرمة، وعّد التواصل والتتابع في التنمية البشرية القرآنية مقصده وعي الإنسان إلى عدم محدودية عالم الدنيا وحتمية تواصله بعالم الآخرة، على أساس التلازم بين الدارين، على عكس الدراسات الوضعية التي قيدت تنميتها وحددتها بعالم محدود ضيق.
- إن الرؤية الكونية القرآنية لمنهج التنمية البشرية وأهدافها تكمن في حاكمية الإنسان على بقية الموجودات بحكم مبدأ الاستكمال الذاتي ومبدأ الاستخلاف وبما تميز به من قوة عاقلة، وهو ذات السبب وراء تلك الإمكانات والامتيازات التي قادته إلى مراتب الكمال ولوضع أسس بناء منظومة الحياة التي تألقت تراتبياً بفعل التنمية العقلية والسلوكية والتجريبية، المبنية على أساس الجعل الإلهي لفكرة خلق الإنسان واستخلافه، مما ألزم الإنسان أن يدرك غاية وجوده، ثم وعيه لماهية العبادة التي تُعدّ إحدى الآليات والسبل لتحقيق الاستخلاف أيضاً، ولكي نضمن للاستخلاف والعبادة موقعهما الرفيعين بعين الله تعالى بوصفهما هدفين تنمويين أساسيين اقتضى أن يكون هناك هدف ثالث رئيس يحقق تكامل تلك المنظومة السماوية، تمثل الرؤية الكونية التي تجسد الاستخلاف والعبادة والتي عبر عنها

بالأمة الوسط بما تحمل من مضامين وتطبيقات تمثل نشاطات الإنسان لتحقيق أهداف ووسائل التنمية البشرية في المنظور القرآني من خلال عمارة الأرض، وهذا يعني أن استخلاف الإنسان في الأرض تعني العبادة إتيان الإنسان بكل تصوراته وحركاته وسكناته، ولهذا فإن جوهر حركة التنمية البشرية في القرآن الكريم هو إدراك الإنسان أهمية آثره في الوجود كخليفة في الأرض لله عز وجل، مما يقتضي ان يفجر قواه الكامنة في داخله جميعاً لتحقيق تطوير ذاته وتنميتها.

• لقد أهتم القرآن في مقاييس تقدم وتخلف أي فرد أو مجتمع، من خلال جعل مجموعة من المؤشرات تُعدّ بمثابة مقياس لمفردات التنمية من عدمها، كان أهمها وأولها هو القرب والبعد من ذات المفهوم، فضلاً عن ضرورة تزاوج المفهوم والمصداق، وانطباق احدهما على الآخر، ولهذا عد الباحث أن مصطلح "نوعية الحياة" هو أقرب مقياس لحركة الإنسان وتطوره، حيث يسعى إلى تأمين الحاجات الأساسية للإنسان وبين إحساسه بالمستويات العليا للرفاه، والنكتة المهمة في تحديد مقاييس التنمية البشرية قرآنياً، هي أن الآيات المباركة قد تعاملت مع كل ميدان أو نشاط أو سلوك حياتي بمنأى عن الميادين الأخرى، فالقرآن عندما يتحدث عن مقاييس نمو القائد غير ما يتحدث عن المدير ومقاييس تطوره، وكذا فالحديث عن مقاييس الأمة الفاسدة فكرياً هي غيرها التي تتحدث عن أمة فاسدة ومنحرفة سلوكياً.

• لقد كان الخطاب القرآني للإنسان بعدة أنماط وألوان، كان أهمها من وجهة رأي الباحث هو تأكيد التنمية النفسية - التنمية الاخلاقية - فهو النشاط التنموي الوحيد الذي يحتاج إلى جهد متميز لتعامله مع قوى النفس الإنسانية

وتعقيداتها، لذا يعتقد الباحث أنه كما عُد الإنسان هو محور النظرية القرآنية، كذا عُد الخُلق الحسن وتطويره وتنميته هو محور الإنسان وهي الحياة النابضة في جسده.

- يُعدّ التفكير أحد أهم القواعد المؤثرة في بناء شخصية الإنسان وتكاملها فإن اهتمام التنمية البشرية القرآنية بأهمية الجانب الفكري كونه جيراً بين الضلال والجهل من جهة وبين الهداية من جهة أخرى، أي بين أن يكون انحدارا للهاوية أو أن يكون أول سلم الإبداع والتطور على مستوى الفرد والمجتمع والمؤسسة، ولهذا عد تخلف التنمية البشرية بني على تخلف الجانب الفكري، ولهذا كانت النظرة القرآنية للتخلف هي نظرة فكرية أولاً ومن ثم اقتصادية أو سياسية أو غيرهما، ولهذا فالباحث يرى أن التخلف بحسب وجهة نظره على أنه عبارة عن تدنٍ بمستوى فرد أو مجموعة أفراد على صعيد الجانب الفكري أو على أحد أصعدة الحياة المختلفة أو بعض منها أو جميعها بمنظار الرؤية الكونية التي ينتمي إليها الفرد أو الأفراد، وهذا يعني أن على الفرد أن يقلص الهوة أو البون بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، كما تبنى وجود مائز للتفريق بين التخلف الذاتي والموضوعي، أي ما بين أن يكون السبب في التخلف بعامل الفرد نفسه أو بين أن يكون التخلف موضوعياً بسبب عامل الضغط العام كالظروف التي تحيط بالفرد أو المجتمع .
- يرى الباحث مُعتقِداً أن المنظومة الفكرية لأي أيديولوجية تقتضي النظر إليها ككتلة متداخلة متجانسة فيما بينها، فتجزئة أو تبويب أي منظومة اجتماعية يُعدّ خرقاً فكرياً في رأيه، نعم يجوز ذلك من اجل البحث العلمي التخصصي شريطة عدم الخروج عن الإطار العام.
- يحسب الباحث أن ما من آية من آيات القران الكريم إلا وبإمكاننا أن

نتلمس منها أبعاد التنمية البشرية من قريب أو بعيد.

- لقد اهتم الإسلام بصورة عامة والقرآن الكريم بصورة خاصة بدور الظروف التي تحيط بالإنسان وتأثره بها سلباً وإيجاباً، وحجم تأثيرها في عطائه وإنتاجه وسلوكه، مما وجب الاهتمام بكل هذه المجالات التي تنهض بدور أساسي في رؤية الإنسان إلى الحياة و بالعكس، إذ عرض القرآن الكريم إلى تلك المجالات جميعاً وبيّن دور تأثيرها على الإنسان وسلوكه، إذ اعتبرها مسارات واضحة لتكامل رؤية التنمية البشرية في القرآن الكريم.
- تُعدّ الرؤية القرآنية هي الكلي الذي ترد إليه جميع الجزئيات وهي القاعدة التي تبنى عليها مشاريع التنمية البشرية في مجالات الحياة كافة وإن للإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة رؤية تهتم بفلسفة المنظومة الاجتماعية ومكوناتها وعناصرها ومقوماتها وتنميتها، وإن منشأ هذا الاهتمام مرده إلى أن المجتمع ميدان النظم القرآنية وساحتها الحقيقية لتطبيق نظرياتها وتصوراتها، بحيث تكون مجموعة أحكام وسنن النظام الاجتماعي الإسلامي منبثقة أساساً من أفكار تلك الرؤية و هدفها تحقيق الغايات المرجوة، لأن النظم الاجتماعية تعني مجموعة الأحكام المستنبطة من الرؤية الكونية، بحيث يتعامل معها الفرد والمجتمع على أنها مجموعة عقائد من قوانين وسنن تنظم سلوك المجتمع بأفراده ويرسم معالم تألقه وتنميته، لذا يُعدّ التنافس والتحفيز لتنمية المجتمع القرآني مبنياً على أساس القرب والبعد عن الخط البياني للتقوى والانتماء إلى الله تعالى، فكلما أدرك أفراد المجتمع أن الدافع وراء الارتقاء هو التقوى كان ذلك دافعاً إلى تنمية المجتمع وتطويره، ولأهمية التنمية الاجتماعية نظر القرآن الكريم إلى المصلحة العامة في حالة تعارض

المصلحتين، وقبال ذلك نتلمس عين التوازن في الرؤية القرآنية وهي تنظر بعين الإنصاف بين الفرد والمجتمع.

- إن نظرية الخلافة الالهة تتضمن مبادئ، الإستخلاف، التسخير، التمكين، عمارة الأرض، الإصلاح والتغيير، إذ جميعها تشكل حقيقة النظرية وتظهر واقع التنمية البشرية .

وأخيراً فمهما يكن من أمر هذا البحث فهو جهد بشري مفتقر إلى الكمال لعلمنا المطلق أن الكمال لله سبحانه وتعالى وحده، غير أن الذي يجعلني اشعر بالطمأنينة والراحة أنني واصلت الليل بالنهار ودعوت الله عز وجل ورجوت عونه على تمام هذا الكتاب الذي اعتز بهه كوني قد رسمت أول حروفه تحت قبة سيدي وحبيبي الإمام الحسين عليه السلام وقد انطلقت من تحتها بعد أن خططت آخر حروفه قاصداً مدينة سيد الأوصياء مولاي الإمام علي عليه السلام لأضعه بين أسفار كليتي الغالية كلية الفقه – جامعة الكوفة.

فإذا كان لابد من وجود قصور أو تقصير في أي جهد بشري فإن ذلك لا يقدح بالطموح المشروع للفوز باجر المجتهد، والله الموفق للسداد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف



المصادر والمراجع

اولاً: خير ما نبتدأ به القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب.

- الآصفي: محمد مهدي، في رحاب القرآن، ط١ ، المشرق للثقافة والنشر، ٢٠٠٨م.
- لجنة تأليف: مفاهيم حضارية، مؤسسة البلاغ، ط٨ ، ٢٠٠٢م.
- آملي : جوادي ، نظرية المعرفة في القرآن، ط١، ترجمة دار الإسراء للتحقيق والنشر، دار الصفوة، بيروت – لبنان، ١٩٩٦م.
- الأمين: إحسان، نظرية الإصلاح من القرآن الكريم، ط١، معهد الأبحاث والتنمية الحضارية، العارف للمطبوعات، بيروت- لبنان، ٢٠١٠م.
- الأمين: محسن العاملي، أعيان الشيعة، ط١، دمشق، ١٩٣٦م.
- أيجازي : محمد علي مقاصد الأحكام الشرعية وغاياتها، دراسة في سبل اكتشاف الملاكات، ،تعريب علي عباس الوردي، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت،٢٠٠٩م.
- بانوري، طارق وأخرون، التنمية البشرية المستدامة من المفهوم النظري إلى التطبيق، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، طُبع في مطابع الاسكوا، ١٩٩٦م.
- باينده: أبو القاسم(١٤٠٤هـ)، نهج الفصاحة، ط٤، الناشر: دنيايدانش، طهران، ١٤٢٤هـ.
- البحراني: هاشم(.ت-١١٠٧هـ)،البرهان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط٢، بيروت لبنان، ٢٠٠٦م.

- بدوي: احمد زكي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ط٢، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٩م.
- البستاني: د. محمود، دراسات في علم النفس الإسلامي، ط٤، دار الباقر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.
- البغدادي: مكي قاسم، أهداف القرآن في أم الكتاب، ط١ دمشق، ٢٠٠٨م.
- البكاء: محمد كاظم، نظرية النص في تفسير القرآن الكريم / نحو ثقافة النص وكشف عن الإعجاز المنهجي/ سورة البقرة أنموذجا، إصدارات الهيأة الثقافية العليا لمكتب السيد الشهيد الصدر (قدس)، مركز الهدى الثقافي، ٢٠١٠م.
- بكار: د. عبد الكريم، تجديد الوعي، موسوعة الرحلة إلى الذات، دار القلم، دمشق، ٢٠١٠م.
  - مدخل إلى التنمية المتكاملة، ط٤، دار القلم، دمشق، ٢٠١١م.
- من أجل انطلاقة حضارية شاملة - أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع، ط٤، دار القلم، دمشق٢٠١١م.
- البهادلي: أحمد كاظم، مفتاح الوصول إلى علم الأصول، ط١، شركة حسام للطباعة الفنية المحدودة، بغداد، ١٩٩٤م.
- البهادلي: جواد أحمد، الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية، ط١، ٢٠٠٩م، مطبعة مجمع أهل البيت.
- البوطي: د. محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ط١٠، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط١٠، ٢٠٠٩م.

- الزركشي :بدر الدين محمد بن عبد الله (ت: ٧٩٤هـ) ، البرهان في علوم القرآن، ط٢، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- توفيق: محسن عبد الحميد وآخرون، التنمية المتواصلة والبيئة في الوطن العربي، المنظمة العربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٢م.
- جرادي: سفيق، مقاربات منهجية في فلسفة الدين، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، بيروت ٢٠١٠م.
- الجوهري: عبد الهادي، وآخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية، مدخل إسلامي، ط١، مكتبة النهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٢م.
- الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد(ت: ٣٩٣هـ) تاج الصحاح العربية، تحقيق إميل بديع يعقوب و محمد نيل طريفي، ط١، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤٢٠هـ – ١٩٩٠م.
- الحر: د. عبد العزيز محمد، التربية والتنمية والنهضة،ط١، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م.
- الحر العاملي: محمد بن الحسن(ت: ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة منشورات مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت ط: ١، ٢٠٠٧م – ١٤٢٧هـ.
- الحسون: علاء، تنمية الوعي، رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلامية العالمية، ط١، مؤسسة الثقلين، ٢٠٠٨م.
- الحكيم: جعفر، علم النفس الفلسفي، ط١، الأميرة للطابعة والنشر

والتوزيع، بيروت – لبنان، ٢٠١٣م.

- حلاوة: د. جمال والدكتور علي صالح، مدخل إلى علم التنمية، ، ط١، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م.
- الحلي: حسن بن سليمان بن محمد(ت: القرن الثامن الهجري)، مختصر البصائر، ط١، تحقيق مشتاق صالح المظفر مؤسسة النشر الإسلامي، إيران؛ قم ١٤٢١هـ.
- آلحميد: عباس، الإستراتيجية الإسلامية، كيف تساهم في النهوض بالأمة الإسلامية، ط٣، سلطنة عمان، ٢٠١١م.
- ابن حنبل: أحمد بن محمد،(ت: ٢٤١هـ)، المسند، شرح شاكر محمد شاكر، ط٢ ، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ١٩٤٩م.
- الحيدري: كمال، المذهب الذاتي في نظرية المعرفة، ط٢، دار القارئ، دار فراقد للطباعة والنشر، إيران- قم المقدسة، ٢٠٠٥م .
- الثابت والمتغير في المعرفة الدينية، بقلم: الدكتور على العلي، ط١، دار القارئ، دار فراقد للطباعة والنشر، إيران – قم، ١٤٢٩هـ.
- فلسفة الدين، مدخل لدراسة منشأ الحاجة إلى الدين وتكامل الشرائع، ط٧، بقلم الشيخ علي حمودي العبادي، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠م.
- في ظلال العقيدة والأخلاق، ط١، دار القارئ، دار فراقد للطباعة والنشر، ٢٠٠٤م.
- مناهج المعرفة عند الإسلاميين، دار القارئ، دار فراقد للطباعة والنشر،

١٤٢٦هـ.

- الخفاجي: حكمت عبيد، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وموضوعاته،ط١، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان ٢٠١٢م، مؤسسة دار الصادق الثقافية.
- الخميني، روح الله الموسوي: تنقيح الأصول، تأليف الشيخ حسين التقوي الأشتهاردي، ط٢، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني ١٣٨٥هـ (ت-١٣٨٥هـ).
- الخوئي: أبو القاسم الموسوي، مصابيح الأصول، السيد علاء الدين بحر العلوم، مؤسسة إحياء أثار الإمام الخوئي.
- البيان في تفسير القرآن، ط٣، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٩٧٤م.
- الخوئي: محمد تقي، قبس من تفسير القرآن، مؤسسة إحياء تراث الإمام الخوئي، ط٢، ايران- قم، ٢٠٠٣م.
- راد :فيروز وأمير رضائي، تطوير الثقافة، دراسة اجتماعية في مفهوم التنمية الثقافية عند علي شريعتي،تعريب أحمد الموسوي، ط١، سلسلة الدراسات الحضارية (٣١)، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ٢٠٠٩م.
- الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد بن الفضل، (ت: في حدود ٤٢٥هـ)،مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٦، الناشر: ذوي القربى، قم المقدسة ١٤٣١هـ.
- زاهد: د. عبد الأمير كاظم ، قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر ، دار

الضياء للطباعة والتصميم، النجف الاشرف.

- الزركشي :بدر الدين محمد بن عبد الله (ت: ٧٩٤هـ) ، البرهان في علوم القرآن، ط٢، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة.
- زكي: رمزي، المحنة الأسيوية: قصة صعود وهبوط دول المعجزات الأسيوية، ط١، دمشق، دار المدىٰ للثقافة والنشر، ٢٠٠٠م.
- الزلمي: الدكتور مصطفىٰ والأستاذ عبد الباقي البكري المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، المكتبة القانونية، شركة العاتك لصناعة الكتاب، ٢٠٠٦م.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر ، أساس البلاغة، ط: الثانية، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٥م (ت-٤٦٧هـ).
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مصححة علىٰ نسخة خطية د. عبد الرزاق المهدي،ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.
- زيدان: عبد الكريم، الوجيز في أصول الفقه ،ط٦،طهران، دار إحسان للنشر والتوزيع.
- زين الدين: ضياء الدين، مبادئ عامة في أصول التدبر القرآني، الحلقة الأولىٰ، القرآن كتاب الله، دار الضياء للطباعة والتصميم، العراق- النجف الأشرف.
- زين الدين: محمد أمين، الإسلام ينابيعه مناهجه غاياته، ط٢، مطبعة

الأدراب في النجف الأشرف، ١٩٧٨م.

- السالم: د. مؤيد سعيد، إدارة الموارد البشرية مدخل استراتيجي تكاملي، ط١ ، ٢٠٠٩م، مكتبة الجامعة الشارقة، إثراء للنشر والتوزيع الأردن.
- السبحاني: جعفر ، أضواء على عقائد الشيعة الأمامية، ط١ ، مطبعة مؤسسة الصادق ، ١٤٢١هـ، قم المقدسة.
- رسالة في التحسين والتقبيح، ط١ ، مؤسسة الإمام الصادق ، قم المقدسة
- السبزواري: عبد الاعلى الموسوي، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٨٦م(ت-١٤١٤هـ).
- السعد: د. غسان، حقوق الإنسان عند الإمام علي رؤية علمية، النجف الاشرف، عاصمة الثقافة الإسلامية، ٢٠١٢م، العتبة العلوية المقدسة- قسم الشؤون الفكرية والثقافية.
- سلمان: د. جمال داود، اقتصاد المعرفة ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع - عمان، ٢٠٠٩م.
- السلمان: ميثم، صناعة السعادة، دار الولاء، بيروت - لبنان .
- التفكير، ط٢، مؤسسة أحمد للمطبوعات، بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م .
- صناعة السعادة، ط١ ، دار الولاء، بيروت - لبنان، ٢٠٠٩م.
- سيد قطب:العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت - لبنان، ١٩٧٤م. (ت-١٩٦٦م).
- خصائص التصور الإسلامي ط١ ، القاهرة، ١٩٦٢م.
- في ظلال القرآن ، ط٣٧ ، دار الشروق، القاهرة ، ٢٠٠٨م.

- السيستاني: علي الحسيني، الرافد في علم الأصول، بقلم السيد منير عدنان القطيفي، الحلقة الأولى، مهر- قم، ١٤١٤هـ.
- سيملانسكي، جوناثان، إدارة الموارد البشرية، ترجمة هند رشدي، كنوز للنشر والتوزيع، مصر القاهرة.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت : ٩١١هـ)، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، ط٤ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م.
- الشربجي: علي، المدخل إلى دراسة الفقه الإسلامي، ط١، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٢م.
- شريعتي: علي، الأعمال الكاملة، دار أبن طاووس، ط٣، ٢٠١٠م.
- الشريف الرضي:محمد بن حسين(ت: ٤٠٦هـ(نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت – لبنان.
- ابن شعبة الحراني: الحسن بن علي(ت: القرن الرابع الهجري)، تحف العقول عن آل الرسول ، ط٢، قم المقدسة، ١٤٠٤هـ.
- الشعراوي: محمد متولي، قضايا معاصرة، إعداد عماد عبد الطيف، ط١، القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٨١م.
- شفيق: منير، أنظر الإسلام في معركة الحضارة، ط١، دار البراق للنشر – تونس، ١٩٩١م.
- شمس الدين: محمد مهدي دراسات في نهج البلاغة، ط٢، الدار الاسلامية، بيروت – لبنان ١٣٩٢هـ.

- شندي: فؤادي ، التنمية الاقتصادية في الإسلام، ط١، الأندلس للإعلام، القاهرة ١٩٨٧م.
- الشنقيطي : محمد الأمين محمد المختار بن عبد القادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، المتوفى١٣٩٣هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٩٩٥م.
- الشهيد الثاني: زين الدين بن علي العاملي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، تحقيق رضا مختاري.
- الشيباني: ابو عمرو اسحاق بن مرار،الجيم، تحقيق: إبراهيم الأبياري ومحمد أحمد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٤م.
- الشيرازي: ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ايران- قم، ١٤٢٦هـ.
- الصدر: محمد باقر، اقتصادنا، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، ١٩٧٧م. (ت-١٩٨٠م).
- الأسس المنطقية للاستقراء، موسوعة الإمام الشهيد محمد باقر الصدر ط١، شريعت- قم، ١٤٢٩هـ .
- المدرسة القرآنية، موسوعة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ط١،شؤيعت- قم، ١٤٢٩هـ.
- دروس في علم الأصول، الحلقة الأولى والثانية، موسوعة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ط١، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية

للشهيد الصدر، شريعت- قم، ١٤٢٩هـ.

- دروس في علم الأصول، الحلقة الأولى والثانية، موسوعة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر،ط١، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، شريعت- قم، ١٤٢٩هـ.
- الإسلام يقود الحياة، ط١ ،مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، شريعت – قم، ١٤٢٩هـ .
- فلسفتنا، ،موسوعة الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ط ٥، شريعت- قم، ١٤٢٩هـ .
- نظرة عامة في العبادات، ،دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٤.
- المدرسة القرآنية، ط١، مؤسسة الثقلين، ٢٠١١م.
- الصدر : محمد محمد صادق، منة المنان في الدفاع عن القرآن، هيئة تراث السيد الشهيد الصدر، النجف الأشرف،٢٠١٠م دار مكتبة البصائر، بيروت- لبنان(ت- ١٩٩٩م.).
- الصدوق: ابو جعفر، محمد بن علي(ت:٣٨١ هـ(، ط ٦، الأمالي، الناشر: كتابچى، طهران، ١٤١٨ هـ.
- من لا يحضره الفقيه،ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي، قم – غيران، ١٤١٣هـ.
- علل الشرائع، ط١ ، مطبعة الآفتاب، طهران، ١٣٧٦هـ(ت: ٣٨١هـ) ،.
- كتاب الخصال، صححه وعلق عليه: علي أكبر غفاري، الناشر: مكتبة الصدوق، طهران – إيران، ١٣٨٩هـ(ت: ٣٨١هـ.).

- الصغير: د. محمد حسين، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم، دراسة مقارنة، ط٢، مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣م.
- الصورة الفنية في القرآن الكريم، دراسة نقدية بلاغية، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م.
- الصفار: فاضل، إدارة المؤسسات من التأهيل إلى القيادة، ط١، دار العلوم، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م.
- الطباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن،ط١، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ١٩٧٧م (ت-١٤٠٢هـ).
- الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، (من أكابر علماء الإمامة في القرن السادس)، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان.
- الطبرسي: ابو نصر الحسن بن الفضل (من أعلام القرن السادس)، مكارم الأخلاق، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف، ١٩٧١م.
- الطبرسي: ابو الفضل علي بن الحسن، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار،(ت: ٤٠٠هـ)، ط٢، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ.
- الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن(ت: ٤٦٠هـ)، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، ط٢، مطبعة النعمان/ النجف، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- الطويل: د. هاني عبد الرحمن، الإدارة بالإيمان – أبدال في أدارة النظم

التربوية وقيادتها، الجامعة الأردنية ٢٠٠٦م.

- الطيطي: د. محمد وآخرون، ط٢، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠٠٩م عمان.
- ابن عاشور: محمد الطاهر(ت-١٣٩٣هـ)،تفسير التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- العاني: اسامة عبد المجيد، المنظور الإسلامي للتنمية البشرية ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، اتحاد كتاب وإحياء الامارات، ٢٠٠٣م .
- عبد الحسن: د. عبد العزيز، الإدارة المتميزة للموارد البشرية، تميز بلا حدود، ط١، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٩م.
- عبد الحميد: د. محسن، تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر، دار النصر للطباعة الإسلامية، مصر ١٩٨٥م.
- منهج التغيير في الإسلام، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨٣م.
- عبده: د. جمال محمد أحمد، دور النهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع/ الأردن، مؤسسة الرسالة / بيروت، ١٩٨٤م.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام الهروي البغدادي(ت: ٢٢٤هـ) ، غريب الحديث، ط١، تحقيق: محمد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٦٤م.
- العبيدي: د. عبد الجبار محمود، خرافة التنمية والتنمية البشرية المستدامة – دراسات في إشكالية الفكر الاقتصادي، ط١، دار الحامد للنشر والتوزيع،

٢٠١٢ عمان.

- عدس: محمد عبد الرحيم، من خصائص النفس الإنسانية في القرآن الكريم، ط١، مكتبة المنار ، الأردن – الزرقاء، ١٩٨٥م.
- عساف: د. محمد، أصول الإدارة، الكاتب، القاهرة ،١٩٧٩م.
- العسل: د. إبراهيم حسين، لتنمية في الفكر الإسلامي مفاهيم- عطاءات- معوقات- أساليب، ط١، مجد المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.
- عقيلي: عمر وصفي ، دارة القوىٰ العاملة، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان- الاردن، ١٩٩٦.
- عمارة: د. محمد، الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات لا حقوق، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩م.
- عنوز: صباح عباس، نهج البلاغة / صوت الحقيقة، ط١، دار المعمورة للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠١٣م.
- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد(ت: ٥٠٥هـ)،أحياء علوم الدين،دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
- الفارابي: أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين،(ت: ٣٥٠هـ)،معجم ديوان الأدب، تحقيق : أحمد عمر، ط١، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- ابن فارس : أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا القزويني، (ت: ٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، مطبعة دار الفكر، ١٩٧٩م.

- الفخر الرازي: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي، التفسير الكبيرٍ أو مفاتيح الغيب، ٥٤٤ - ٦٠٤هـ، تقديم وتحقيق هاني الحاج عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر، دار التوفيقية للطباعة.
- الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد(ت:١٧٥هـ) ، العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ط١، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٥٦م .
- فضل الله: محمد حسين، الإسلام ومنطق القوة ،ط١، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
- الفيض الكاشاني: محمد محسن (١٠٠٧ - ١٠٩١) الأصفى في تفسير القرآن، تقديم وتصحيح مهدي الأنصاري القمي، ط١، الناشر لوح المحفوظ، طهران.
  - تفسير الصافي، الناشر:مكتبة الصدر، طهران – إيران، ١٤١٥هـ.
- القبانجي : صدر الدين، الأسس الفلسفية للحداثة – دراسة مقارنة بين الحداثة والإسلام، أعداد عادل الفتلاوي،ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ٢٠١١م.
- القرنشاوي: حامد، تساؤلات حول اقتصاديات التعليم وقضايا التنمية في الوطن العربي، الكويت، ١٩٩٩م.
- القرشي: باقر شريف، الإسلام وحقوق الإنسان، دار الهدى، ٢٠٠٥م. (ت- ١٤٣٣هـ)، النظام التربوي في الإسلام - دراسة مقارنة،

ط٢،دار التربية، ١٩٧٨م.

- نظام الإسلام السياسي، ط٢، دار التعارف للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٩٧٨م.
- قسم الدراسات والبحوث للتنمية والتطوير، تنمية العقل البشري، سلسلة إصدارات مركز صدر العراق للتنمية الفقهية والتطوير الحوزوي، ط١، ٢٠١١م.
- القصيبي: غازي عبد الرحمن التنمية الأسئلة الكبرىٰ،، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ٢٠٠٤م، توزيع دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن.
- القصيفي: جورج، التنمية البشرية مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون، التنمية البشرية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان ١٩٩٥م.
- القطب: د. محمد، الإسلام وحقوق الإنسان، ط:٢ القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٨٤م.
- مناهج التنمية الإسلامية، ط٣. دار إحسان للنشر والتوزيع، طهران، ٢٠٠٣م.
- قفطان: محمد فاضل عزيز، التنمية الاقتصادية، مطبعة الحوادث بغداد، ١٩٨٤.
- كبير المدني: السيد علي خان بن أحمد(ت: ١١٢٠هـ(رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي،

إيران،١٤٠٩ هـ.

- الكليني: محمد بن يعقوب بن إسحاق(ت: ٣٢٩هـ)، أصول الكافي، ط٤، دار الكتب الإسلامية ، طهران، ١٤٠٧هـ.
- لجنة تأليف: مفاهيم حضارية، مؤسسة البلاغ، ط٨ ، ٢٠٠٢م.
- لوغال: جان مارك، إدارة الموارد البشرية، ترجمة العميد الركن د. نبيل جواد، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٨م.
- المجلسي: محمد باقر(ت: ١١١١هـ)، بحار الأنوار في مختارات الروايات والأخبار، تصحيح: محمد تقي اليزدي، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٦هـ.
- مجموعة من الباحثين: دراسات في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، أعمال الندوة المنعقدة في بيت الحكمة ٢٠٠٠م، البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة المطبعة العربية.
- الفيض الكاشاني: محمد محسن(المتوفى ١٠٩١هجري)، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت-لبنان، صححه وعلق عليه علي الأكبر الغفاري.
- محمد: حسين نجيب، جمال السالكين - العالم الرباني السيد عبد الأعلى السبزواري، ط١، دار التفسير، قم المقدسة، ١٤٢٧هـ.
- المدرسي: محمد تقي، من هدى القرآن، ط٢، دار الكتاب العربي، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

- المدني: د. خالد وآخرون، الرخصة الدولية في التدريب، أعداد المدربين، ، مركز التطوير المتكامل، اسطنبول ٢٠١٢م.
- مركز الثقافة والمعارف القرآنية، علوم القرآن عند المفسرين: ط ٢، مؤسسة بوستان كتاب(مركز الطباعة والنسر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٨هـ.).
- مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي ت٤٢١هـ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، قدم له حسن تميم القاضي الشرعي، تهذيب الأخلاق، حققه: قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية، منشورات العيد المئوي، ١٩٦٦م.
- مطهري: مرتضى، الإنسان في القرآن، ط٣، رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلامية العليا، مؤسسة الثقلين، ٢٠٠٨م .
- الرؤية الكونية التوحيدية، رابطة أهل البيت الإسلامية العالمية ، مؤسسة الثقلين.
- المجتمع والتأريخ، ط١، تعريب محمد على آذر شب، رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلامية العالمية، مؤسسة الثقلين.
- تحقيق نظرية نسبية الأخلاق، رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلامية العالمية.
- المظفر: محمد رضا، أصول الفقه، دار النعمان – النجف الاشرف، ١٩٧١م.
- المنطق، تحقيق: رحمة الله رحمتي، ط٣، مؤسسة دار النشر الإسلامي، قم المقدسة - إيران، ١٤٢٤هـ(ت: ١٣٨٣هـ.).

- معرفة: محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ط٣، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية – مشهد .
- شبهات وردود حول القرآن الكريم،ط٣، تحقيق مؤسسة التمهيد، قم المقدسة، ٢٠٠٦. (ت–١٩٧٩م).
- مغنية: محمد جواد، علم أصول الفقه في ثوبه الجديد، ط١، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان،١٩٧٥م.
- المفيد: محمد بن محمد (ت ٤١٣ هـ)، الأمالي، ط١، مؤتمر الشيخ المفيد، قم المقدسة، ١٤١٣ هـ.
- المقدم: مها سهيل، مقدمات التنمية الاجتماعية وتحدياتها، تطبيقات على الريف اللبناني، ط ١، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٧٨ م.
- ابن منظور: محمد بن كرم بن منظور الأفريقي المصري(ت : ٧١١ هـ)، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٥٦م.
- ميرزائي: نجف علي، فلسفة مرجعية القرآن المعرفية – في إنتاج المعرفة الدينية، ، ترجمة د. دلال عباس، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ٢٠٠٨م.
- النراقي: محمد مهدي، جامع السعادات،ط٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت– لبنان.
- نهج البلاغة للإمام علي ، شرح محمد عبدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان النوري: حسين بن محمد تقي(ت: ١٣٢٠هـ) ، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ط١، مؤسسة آل البيت عليهم السلام،

١٤٠٨هـ، قم المقدسة – إيران.

- النيسابوري: محمد بن أحمد الفتال(ت ٥٠٨هـ)، روضة الواعظين وبصيرة المتعضين، تحقيق: السيد محمد مهدي الخرسان، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٦م.
- نيكسون: ريتشارد، نصر بلا حدود، إعداد وتقديم محمد عبد الحليم أبو غزالة، ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٧م.
- همشي : د. عمر أحمد، مدخل إلى التربية، ، دار صفا للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٧م.
- الهندي : علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين(ت – ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الاقوال والافعال تحقيق الشيخ بكري حياي صفوت السقا ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ١٩٨٩م .
- الهيثمي : نور الدين علي بن أبي بكر(ت: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط٢، دار الكتاب، بيروت ، ١٩٦٧م.
- الواسطي الليثي : علي بن محمد الليثي(ت: القرن السادس الهجري)، عيون الحكم والمواعظ، ط١، دار الحديث، قم المقدسة، ١٤١٨هـ.
- ورام: ابن أبي فراس المالكي الأشتري (ت: ٦٠٥ هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، ط١، مكتبة الفقيه، قم المقدسة،١٤١٠ هـ.
- يوسف: د. ناصر، دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركبة – دراسة مقارنة في الجزائر وماليزيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

ثالثاً: اهم الدوريات والمجلات .

- أوقاف: مجلة نصف سنوية محكمة، تعنى بشؤون الوقف والعمل الخيري، العدد ٢١، السنة الحادية عشر- ذي الحجة ١٤٣٢هـ، نوفمبر ٢٠١١م، تصدرها الأمانة العامة للأوقاف - دولة الكويت، إدارة الدراسات والعلاقات الخارجية.
- المصباح، مجلة فكرية فصلية تخصصية، العتبة الحسينية المقدسة، العدد الثالث- خريف ٢٠١٠م.
  - العدد التاسع- ربيع ٢٠١٢م.
  - العدد العشر- صيف ٢٠١٢م.
- المعرفة ، الكويت ، العدد ١٠٣ ، تموز ١٩٨٦ م.
- الوعي الإسلامي، موقع الكتروني، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد٨، العدد٣، ١٩٩٣م.
- مجلة جامعة دمشق للهندسة، ديب، المهندسة ريده، رسالة، إشراف د. المهندس سليمان مهنا، التخطيط من أجل التنمية المستدامة، مجلد ٢٥، العدد الأول، ٢٠٠٩م.

رابعاً: المؤتمرات والندوات.

- ندوة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، النهضة العربية لحقوق الإنسان، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م.
- ندوة تحديات التنمية البشرية في الوطن العربي (الواقع والافاق)، مركز البحرين للدراسات والبحوث، مملكة البحرين، ٢٠٠٤م، بحث:البعد

العربي في التنمية البشرية القطرية، د. عبد الله محمد الصادق.

- مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع، كربلاء - العتبة الحسينية المقدسة، ١٦ربيع الأول ١٤٣٤هـ ، ٢٨ - ١ - ٢٠١٣م ،بحث: مدرسة الامام الصادق ودورها الإنساني - التنمية البشرية إنموذجاً ، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان.

خامساً : البحوث والدراسات.

- الساعدي: أشواق عبد الحسن، الثقافة والتنمية البشرية، دراسة نظرية لبعض المتغيرات الثقافية، ط١، معهد الأبحاث والتنمية الحضارية، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت - لبنان،(تموز ٢٠٠٨م رسالة ماجستير) .
- الغندور: سماح طه احمد، التنمية البشرية في السنة النبوية(دراسة موضوعية)، ٢٠١١م رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية - غزة، كلية أصول الدين.

سادساً: اهم المواقع الالكترونية.

- الأمم المتحدة ، موقع الكتروني،

"http://www.un.org/ar/esa/hdr/"www.un.org/ar/esa/hdr/ HYPERLINK

- تقارير الأمم المتحدة لعام ١٩٩٠م .
- رومانو، دوناتو، الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة، مواد تدريبية، بالتعاون مع مشروع GCV /SYR /OO /ITA ، المرحلة الثانية (وزارة الزراعة

والإصلاح الزراعي السورية)، التعاون الإيطالي، منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، الناشر المركز الوطني للسياسات الزراعية مشروع الفاو GCV /SYR /OO /ITA ، دمشق ٢٠٠٣م.

- تقرير الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠١٠م.
- تقرير الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠١١م.
- تقرير الأمم المتحدة الإنمائي،٢٠١١م الموقع الالكتروني الرسمي

www.un.org/ar/esa/hdr/hdr09.shtml

- تقرير التنمية البشرية العربية للعام ٢٠٠٤م.
- تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣م.
- قسم الدراسات والبحوث للتنمية والتطوير، تنمية العقل البشري، سلسلة إصدارات مركز صدر العراق للتنمية الفقهية والتطوير الحوزوي، ط١، ٢٠١١م.
- جامعة الرسالة موقع الكتروني،
- (http://www.universiterissala.maktoobblog.com/264267).
- مدونة زاوية مستقيمة، موقع الكتروني،

dralsuraikh.wordpress.com/2011/02

- مفهوم التنمية، المكتبة الإسلامية، موقع ألكتروني،

www.islamweb.net/newlibrary/ummah_Chapter.php?lang.

- المكتبة الشاملة، لمحات في المكتبة والبحث والمصادر،موقع الكتروني،

shamela.ws/index.php/book/11365.



- الموسوعة الحرة ويكيبيديا./ar.wikipedia.org
- موقع الالكتروني لجامعة بابل، كلية الاداب،

http://www.uobabylon.edu.iq/uobcoleges/lecture.aspx?fid=8&lcid=3153

- موقع الأنوار الخمسة، شبكة البتول، المكتبة الإسلامية ،
- موقع ألتكروني، مرصد، .www.almarsd.net/news.php?id=27
- الموقع الرسمي للأستاذ الدكتور ابراهيم بن عبد الله المحيسن ، منتدى الدراسات العليا والبحوث، موقع الكتروني ،
- www.mohyssin.com/forum/index.php
- موقع الكتروني . .ejabat.google.com
- موقع إلكتروني للمكتبة الإسلامية على شبكة إسلام ويب،
- .(http://www.islamweb.net/newlibrary/index.php)
- ضمير للتنمية البشرية" موقع الكتروني،
- مؤشرات التنمية البشرية العربية وتطورها، موقع ألكتروني ،

thiqaruni.org/gena/77/1%20(20).doc.

- alwaei.com/topics/current/article_new.php?sdd=2249&issue
- http://www.anwar5.net/albatoul/index.php?id=3961
- http://www.tafsir.net/vb/tafsir29663/#ixzz2B4DHB7eN
- https://sites.google.com/site/dhamirtunis/concepts.
- مسار التنمية البشرية، ٦

موقع ألكتروني، www.reefnet.gov.sy/boosproject/fikr/8/nathrat.pdf

ميثاق الرابطة، جريدة الكترونية أسبوعية ، د. فريدة زمرد، مفهوم التمكين في القرآن الكريم ، موقع ألكتروني،
www.almithaq.ma/contenu.aspx?C=3000


الحمد لله رب العالمين